شرح

نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثاني

دار الرسول الأكرم ص

دار المحجة البيضاء

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

شرح
نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثاني

دار المحجة البيضاء
دار الرسول الأكرم (ص)

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل lisanerab.com

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

دار الرسول الأكرم

طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع القسيس خلف البلدية . ص ب ٨٦٠١ / ١١

هاتف ٨١٤٢٩٤ / ٠٢ . فاكس ٨٢٣٥١٩ / ٠١ . ٠١٦٠١٠١٩

٨٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها صفات ثمانٍ من صفات الجلال

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: الأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ لَا غَايَةَ[١] لَهُ، لَا تَقَعُ ٱلأَوْهَامُ[٢] لَهُ عَلَىٰ صِفَةٍ، وَلَا تُعْقَدُ[٣] ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَىٰ كَيْفِيَّةٍ، وَلَا تَنَالُهُ[٤] التَّجْزِئَةُ[٥] وَالتَّبْعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ[٦] بِهِ ٱلأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ.

ومنها: فَاتَّعِظُوا عِبَادَ ٱللّٰهِ بِٱلعِبَرِ[٧] النَّوَافِعِ[٨]، وَٱعْتَبِرُوا بِٱلآيِ[٩] السَّوَاطِعِ[١٠]، وَٱزْدَجِرُوا[١١] بِالنُّذُرِ[١٢] ٱلْبَوَالِغِ[١٣]، وَٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَٱلْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ[١٤] مَخَالِبُ[١٥] ٱلْمَنِيَّةِ[١٦]، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلَائِقُ ٱلأُمْنِيَّةِ، وَدَهِمَتْكُمْ[١٧] مُفْظِعَاتُ ٱلأُمُورِ[١٨]، وَٱلسِّيَاقَةُ إِلَىٰ ٱلْوِرْدِ[١٩] ٱلْمَوْرُودِ، فَـ «كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»: سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَىٰ مَحْشَرِهَا؛ وَشاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا.

ومنها في صفة الجنة

دَرَجَاتٌ[٢٠] مُتَفَاضِلَاتٌ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا[٢١]، وَلَا يَهْرَمُ[٢٢] خَالِدُهَا، وَلَا يَبْأَسُ سَاكِنُهَا.

اللغة

١ ـ الغاية : النهاية.

٢ ـ الأوهام : جمع وهم وهي القوة المتخيلة.

٣ ـ تعقد	:	من عقد القلب إذا اعتقده ودان به .
٤ ـ ناله	:	أصابه .
٥ ـ التجزئة	:	التقسيم .
٦ ـ تحيط	:	تحدق به من جوانبه .
٧ ـ العبر	:	جمع عبرة ما يعتبر به أي يتعظ .
٨ ـ النوافع	:	جمع نافع وهو المفيد .
٩ ـ الآي	:	جمع آية وهي العلامة .
١٠ ـ السواطع	:	المشرقة المنيرة .
١١ ـ ازدجروا	:	امتنعوا وانتهوا .
١٢ ـ النذر	:	جمع نذير المخوّف .
١٣ ـ البوالغ	:	جمع البالغة الواصلة إلى نهاية الشيء وغايته .
١٤ ـ علقت	:	نشبت .
١٥ ـ مخالب	:	جمع مخلب وهو للحيوان بمثابة الظفر للإنسان .
١٦ ـ المنية	:	الموت .
١٧ ـ دهمتكم	:	غشيتكم .
١٨ ـ مفظعات الأمور	:	شدائدها الشنيعة .
١٩ ـ الورد	:	في الأصل مكان الشرب والمراد به هنا الموت أو المحشر .
٢٠ ـ درجات	:	جمع درجة وهي الطبقات والمراتب .
٢١ ـ لا يظعن مقيمها	:	لا يرحل مقيمها .
٢٢ ـ الهرم	:	من بلغ أقصى الكبر .
٢٣ ـ يبأس	:	مضارع بئس يصيبه البؤس وهو الشقاء .

الشرح

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) يذكر عليه السلام بعض مسائل التوحيد وذكر أولاً توحيد الله وأنه لا شريك له في الخلق بل كما قال سبحانه: **﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾** فهو واحد في ذاته واحد في صفاته لا شريك له في الخلق . . .

(الأول لا شيء قبله والآخر لا غاية له) فهو خالق الأشياء وموجودها وهي مفتقرة إليه في وجودها وفي بقائها . ، وهو الآخر الذي لا نهاية له ولا حد لوجوده يقف عنده . . .

(لا تقع الأوهام له على صفة) لأن القوة الواهمة لا تستطيع أن تتوهم شيئاً إلا مما وقع لها من الأمور المادية والله سبحانه منزه عن ذلك ثم إن كل متوهم لا بد وأن يخضع لتصور معين يشخّصه ويفرده وهذا بنفسه يحدده ويحجمه والله سبحانه ليس له حد أو حجم، فكل صفة له هي نتاج فكر الإنسان القاصر والله منزه عنها. . .

(ولا تعقد القلوب منه على كيفية) لأنه متى تكيف بكيف تصوّر وتشخّص وهذا ينافي التوحيد الصحيح. . .

(ولا تناله التجزئة والتبعيض) لأن من تجزأ وتبعض وأمكن ذلك في حقه فهو المركب المحتاج إلى أجزائه والله غني عن ذلك. . .

(ولا تحيط به الأبصار والقلوب) لأن كل من أمكن الإحاطة به وإدراكه فهو محدود محصور والله منزه عن ذلك. . .

(فاتعظوا عباد الله بالعبر النوافع) أنظروا في آثار الماضين وما حل بهم من النقمات وما لحقهم من العقوبات واعتبروا بذلك لئلا يلحقكم ما لحقهم إن خالفتم وعصيتم وامتثلوا أمر الله ولا تخالفوه أبداً. . .

(واعتبروا بالآي السواطع) خذوا العبرة والعظة من الآيات القرآنية التي تفصح وتظهر الأمور بجلاء ووضوح وهي تحث الإنسان على الالتزام وتحذره المعصية وتدعوه إلى إقامة الحق والعدل، وقد يراد بالآي عجائب مخلوقات الله ودلائل قدرته وآثار حكمته التي نحس بها في كل حركة ونراها في كل موقع نظر وحركة فكر. . .

(وازدجروا بالنذر البوالغ) فهناك مخوفات في غاية الشدة يجب أن ينظر فيها الإنسان ويرتدع. . ينظر إلى الأمم السابقة كيف جاءتهم النذر فعصوا وتمردوا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. . .

(وانتفعوا بالذكر والمواعظ) استفيدوا بما ورد في كتاب الله من أوامر وزواجر وقصص وأمثال وبما ورد عن النبي والأئمة من المواعظ والحكم التي ترقق قلب الإنسان وتحمله على الطاعة. . .

(فكأن قد علقتكم مخالب المنية) فما هي إلا أوقات قليلة وقد نزلت بكم أسباب الموت من مرض وهرم وعجز وإقعاد. . إنه الموت الذي يزرع أسبابه في بدن هذا الإنسان ويصيبه بآفاته. . .

(وانقطعت منكم علائق الأمنية) فتلك الآمال والأماني التي كانت تعيش في تصور

هذا الإنسان من كونه سيسعى ليصبح شخصية عظمى أو غنياً كبيراً أو مفكراً جليلاً هذه الأماني قد أيقظتها تلك النذر التي وفدت على هذا الإنسان ووردت عليه فالموت يقطع الآمال ويوقف الأماني ويحطم العزائم. . .

(ودهمتكم مفظعات الأمور) حلّت بكم شدائد الأمور عند الموت حيث الاحتضار وسكراته وعذابه وآلامه ثم ما بعده من عذاب القبر وأهوال يوم القيامة. . .

(والسياقة إلى الورد المورود فكل نفس معها سائقٌ وشهيد سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها) فبعد الموت يساق الإنسان سوقاً إلى مكان وروده ومحط ركابه ألا وهو المحشر حيث يجمع الله الخلق للحساب وتأتي كل نفس معها سائق من الملائكة أو هو نفس العمل ومعها أيضاً شهيد من الأنبياء الذين بلغوا الرسالة وأوصلوا الأمانة أو شهيد من أعمالها يشهد عليها إنها من أهل الجنة أو من أهل النار وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: **﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾**.

فأما إن كانت من أهل الإيمان فالسياق إلى الجنة كما قال تعالى: **﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾**.

وأما إن كانت من أهل التمرد والعصيان فإنها تساق إلى النار كما قال تعالى: **﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم. .﴾** . . .

(درجات متفاضلات ومنازل متفاوتات لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها) ثم إن الجنة درجات حسب اجتهاد الإنسان ونشاطه ومراتب مختلفة حسب عطاء الإنسان في الدنيا وجهاده، هناك منازل الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وهكذا تتنازل المراتب إلى أقلها وأصغرها وعلى كل حال فالنعيم لا ينقطع أو يزول كما هو حال نعيم الدنيا المعرّض للزوال والفناء، والمقيم في الجنة لا يتحول عنها أو يرحل بل إقامة دائمة. . .

(ولا يهرم خالدها ولا يبأس ساكنها) وهذه من خصوصيات الجنة وإن ساكنها والخالد فيها لا يهرم ولا يكبر بل يحتفظ بشبابه لا تصيبه شيخوخة أو ضعف.

كما إن ساكنها لا يصيبه الشقاء والحزن والألم عكس دار الدنيا حيث تختلط لذاتها بالألم وحلاوتها بالمرارة ونعيمها بالبؤس. .

٨٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها بيان صفات الحق جل جلاله، ثم عظة الناس بالتقوى والمشورة

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ[١]، وَخَبَرَ[٢] الضَّمَائِرَ، لَهُ ٱلْإِحَاطَةُ[٣] بِكُلِّ شَيْءٍ، وَٱلْغَلَبَةُ[٤] لِكُلِّ شَيْءٍ، وَٱلْقُوَّةُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

عظة الناس

فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ[٥]، قَبْلَ إِرْهَاقِ[٦] أَجَلِهِ[٧]، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ[٨] شُغُلِهِ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ[٩] قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ[١٠]، وَلْيُمَهِّدْ[١١] لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ[١٢] لِدَارِ إِقَامَتِهِ. فَاللّٰهَ ٱللّٰهَ أَيُّهَا النَّاسُ، فِيمَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَٱسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً[١٣]، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى[١٤]، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمىً، قَدْ سَمَّىٰ[١٥] آثَارَكُمْ[١٦]، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ[١٧]، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ «ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّىٰ أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ ـ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ ـ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْهَىٰ[١٨] إِلَيْكُمْ ـ عَلَىٰ لِسَانِهِ ـ مَحَابَّهُ[١٩] مِنَ ٱلْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ[٢٠]، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، وَأَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلْمَعْذِرَةَ، وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ[٢١]، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فَٱسْتَدْرِكُوا[٢٢] بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَٱصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ ٱلْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا ٱلْغَفْلَةُ، وَٱلتَّشَاغُلُ عَنِ ٱلْمَوْعِظَةِ؛ وَلاَ تُرَخِّصُوا[٢٣] لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ

ٱلظَّلَمَةِ(٢٤)، وَلاَ تُدَاهِنُوا(٢٥) فَيَهْجُمَ بِكُمُ ٱلْإِدْهَانُ عَلَىٰ ٱلْمَعْصِيَةِ. عِبَادَ ٱللَّهِ، إِنَّ أَنْصَحَ ٱلنَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَٱلْمَغبُونُ(٢٦) مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَٱلْمَغْبُوطُ(٢٧) مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، «وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ»، وَالشَّقِيُّ مَنِ ٱنْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ «يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ»، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ ٱلْهَوَى مَنْسَاةٌ(٢٨) لِلإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ(٢٩). جَانِبُوا(٣٠) ٱلْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَىٰ شَفَا(٣١) مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَٱلْكَاذِبُ عَلَىٰ شَرَفِ(٣٢) مَهْوَاةٍ(٣٣) وَمَهَانَةٍ(٣٤). وَلاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ ٱلْحَسَدَ(٣٥) يَأْكُلُ ٱلْإِيمَانَ «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»، «وَلاَ تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا ٱلْحَالِقَةُ(٣٦)»؛ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلأَمَلَ يُسْهِي(٣٧) ٱلْعَقْلَ، وَيُنْسِي ٱلذِّكْرَ. فَأَكْذِبُوا ٱلأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ.

اللغة

١ ـ **السرائر** : جمع سريرة وهو ما يكتم من السر.
٢ ـ **خبر** : بفتح الباء بمعنى امتحنها وابتلاها وبالكسر علم.
٣ ـ **الإحاطة** : الإحداق بالشيء من جميع جوانبه.
٤ ـ **الغلبة** : القهر.
٥ ـ **المهل** : المهلة والتؤدة.
٦ ـ **الإرهاق** : الإعجال.
٧ ـ **أجله** : موته، الوقت المضروب له.
٨ ـ **أوان** : وقت.
٩ ـ **متنفسه** : سعة وقته.
١٠ ـ **الكظم** : مخرج النفس.
١١ ـ **مهد** : بسط ووطأ ومهد الأمر ذللّه.
١٢ ـ **الظعن** : الرحيل.
١٣ ـ **العبث** : هو العمل الذي لا فائدة فيه.
١٤ ـ **السدى** : المهمل.

١٥ ـ سمّى	: بيّن.
١٦ ـ آثاركم	: أعمالكم.
١٧ ـ آجالكم	: أوقات موتكم أو مدة حياتكم.
١٨ ـ أنهى	: أعلم وعرّف.
١٩ ـ محابه	: جمع محبة، ما يحبه ويرغب فيه من الأعمال.
٢٠ ـ مكارهه	: جمع مكرهة وهو ما يكره.
٢١ ـ الوعيد	: هو الوعد ولكن خص استعماله بالشر.
٢٢ ـ استدركوا	: الشيء بالشيء حاول إدراكه به وأدرك الشيء لحقه.
٢٣ ـ ترخصوا	: من الرخصة ومعناه التسهيل والتخفيف.
٢٤ ـ الظلمة	: جمع ظالم وهو الجائر.
٢٥ ـ تداهنوا	: المداهنة المصانعة والنفاق.
٢٦ ـ المغبون	: المخدوع.
٢٧ ـ المغبوط	: من الغبطة وهي أن تتمنى إدراك مثل ما عند الغير دون زواله عنه.
٢٨ ـ منساة	: أي داعية للنسيان.
٢٩ ـ محضرة للشيطان	: محل حضوره.
٣٠ ـ جانبوا	: باعدوا، تركوه جانباً.
٣١ ـ شفا	: الشيء: حرفه وجانبه.
٣٢ ـ الشرف	: المكان العالي.
٣٣ ـ المهواة	: موضع السقوط.
٣٤ ـ المهانة	: المذلة والحقارة.
٣٥ ـ الحسد	: تمني زوال النعمة عن الغير.
٣٦ ـ الحالقة	: الماحية.
٣٧ ـ يُسهى	: يُغفل.

الشرح

(قد علم السرائر وخبر الضمائر) هذه بعض أوصاف الحق ابتدأ بها ليدخل منها إلى مقصوده من الموعظة.

والله سبحانه هو الذي يعلم أسرار عباده وما ينوي كل واحد في نفسه وهذا من مختصاته... إنه يعلم كليات الأمور وجزئياتها قال تعالى: **﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾**....

(**له الإحاطة بكل شيء**) وإحاطته بالأشياء علمه بها قبل وجودها وبعد وجودها من المجرة إلى الذرة وفي التنزيل قوله: ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾. . . .

(**والغلبة لكل شيء**) فهو المسيطر على الأشياء كلها وهي طوع إرادته، وبإرادته التكوينية تكون وبعد وجودها هو المسيطر عليها والموجه لها والذي يضعها مواضعها لا تخرج عن إرادته ولا تتمرد على مشيئته. . . .

(**والقوة على كل شيء**) له القوة على كل شيء يستطيع إفناؤه كما يستطيع إبقاؤه وقدرته بالنسبة إلى الأمرين على حد سواء فلا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض. . .

(**فليعمل العامل منكم في أيام مهله قبل إرهاق أجله**) هذا هو بيت القصيد وإليه سيقت المقدمة وقد أمر بالعمل للقادر منا في أيام الحياة ومدة البقاء فإن الإنسان في سعة قد أخر الله له الأجل وتركه في أيام عمره الطويلة ليؤدي ما عليه أما إذا حل الأجل وسقط الموت عليه انقطع عندها العمل ولم يعد للسعي محل. . . فالعمل في دار الدنيا فإذا حضر الموت ارتفع التكليف وبطل العمل. . .

(**وفي فراغه قبل أوان شغله**) ويمكن للإنسان أن يعمل ويجد ويجتهد في حال الحياة التي هي حالة الفراغ فلا يشغله احتضار ولا تمنعه آلامه ومصائبه أما وإنه إذا حلّ الموت فإنه يمنع الإنسان عن العمل ويشغله بما يصيبه من ألم وعذاب. . .

(**وفي متنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه**) قبل أن يأتيه الموت بضيقه المانع من تنفسه فليأخذ في وقت راحته وفرصته قبل تلك الساعة الصعبة الحرجة الضيقة. . .

(**وليمهد لنفسه وقدمه**) يعمل عملاً ترتاح إليه نفسه فيما بعد كما قال تعالى: ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾ بأن يعمل الصالحات ويجتنب المحرمات ويستعد للقاء الله وحكمه. . .

(**وليتزود من دار ظعنه لدار إقامته**) يعمل كل واحد وهو في هذه الدار الراحل عنها وهي الدنيا إلى الدار الخالد فيها وهي الآخرة. . .

(**فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه واستودعكم من حقوقه**) أغراهم بتقوى الله الذي وكلهم في حفظ كتابه وحفظه إنما يكون بالعمل به وتنفيذ حكمه كما أوصاهم بالقيام بما أئتمنهم عليه من أحكامه وهي واجباته ومحرماته. . .

(**فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى**) لم يخلق الله هذا الإنسان

بدون غاية بل خلقه من أجل أن يتكامل ويتسامى ويترقى حتى يبلغ القمة في الكمال كما وإنه لم يتركنا بدون تنظيم وترتيب وإنما نظمنا ورتب أمورنا، إنه وضع برنامجاً حياتياً لهذا الإنسان منذ تكوينه وإلى أن تنقضي حياته. . .

(ولم يدعكم في جهالة ولا عمى) لم يتركنا في ضلال وحيرة دون رؤية نافذة ونظرة ثاقبة وحجة ظاهرة وإنما زودنا بالعقل كما أرسل لنا الأنبياء هداة مبشرين ومنذرين قد أوضحوا لنا الطريق وبينوا لنا سبل العدل والحق. . .

(قد سمى آثاركم وعلم أعمالكم وكتب آجالكم) قد بين لكم أعمالكم خيرها وشرها فرغبكم في الأولى ونهاكم عن الثانية وعلم ما تعملون من خير وشر وكتب أعماركم ومدتها من جهة طولها وقصرها وما فيها من سعادة أو شقاء. . .

(وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء) فالله أنزل القرآن فيه عناوين الأشياء وقواعدها العامة التي عنها تتفرع الأحكام ومنها تؤخذ، . في القرآن أوضحت الأمور ولم يبق شيء مغلق أو غير ظاهر. . .

(وعمر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه) يذكّر هذا الإنسان بمنة الله عليه إنه سبحانه كتب لنبيه المصطفى عمراً عاش فيه بين أظهر المسلمين حتى اكتمل نزول القرآن عليه وبذلك اكتمل الدين وتمت النعمة كما قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**. . .

(وأنهى إليكم ـ على لسانه ـ محابه من الأعمال ومكارهه ونواهيه وأوامره) وهذه مهمة النبي ودوره من حيث أنه المبين لمراد الله والشارح لكتابه فإنه صلوات الله عليه جعل الله كلامه حجة فقال: **(ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. . .)** وبهذا جعل قول الرسول وفعله وتقريره على مستوى القرآن في الحجية والقبول، لا يرفضه مسلم ولا يرد عليه مؤمن ومن صدر منه شيء من ذلك فليراجع قواعده ويصحح إيمانه والرسول قد أوضح ما يحب الله وما يكره فأمر بالخيرات ونهى عن السيئات كما أوضح نواهي الله وأوامره فقد نهى عن الزنا والسرقة والتمرد وأمر بالعفة والأمانة والطاعة. . .

(وألقى إليكم المعذرة واتخذ عليكم الحجة) أبلغكم معذرته فيما إذا عاقبكم لأنه لا يكون منه عقاب إلا بعد البيان وإيصاله إلى المكلفين كما إنه سبحانه جعل لنفسه الحجة عليهم فيما أتاهم وبلغهم من حيث حكمته وإرساله لهم الأنبياء والرسل. . .

(وقدم إليكم بالوعيد وأنذركم بين يدي عذاب شديد) قبل العقاب والأخذ بالعذاب هدّد المكلفين وخوفهم عصيانه ثم أنذرهم بأن أمامهم عذاب شديد إن تمردوا وعصوا وخالفوا أمره . . .

(فاستدركوا بقية أيامكم واصبروا لها أنفسكم فإنها قليل في كثير الأيام التي تكون منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة) انظروا إلى ما بقي من أعماركم وتداركوا ما فاتكم من الخيرات في أيامكم الماضية فإذا كان الإنسان قد قصّر فيما مضى من عمره فيجب أن يتدارك ذلك ويجبره فيما بقي منه وليأخذ الصبر مطيته على ما سيقوم به ويعمله فإن أيام اليقظة والعمل قليلة بالنسبة إلى أيام الغفلة ونسيان الأعمال وارتكاب المعاصي إما لأن أيام الغفلة والمعصية أكبر على وجه الحقيقة وإما لأنها مفسدة للنفس ولفسادها كانت أكبر . . .

(ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة) لا تجعلوا لأنفسكم رخصة في ارتكاب بعض الأمور المكروهة أو الصغائر فإنها تجركم إلى الانحراف وتدخلون مع الظالمين في انحرافهم ومعصيتهم فإن النفس وما تعودت وإذا اعتادت اجترأت وانحرفت . . .

(ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية) لا تنافقوا على أنفسكم وتظهروا خلاف ما تضمرون فإن ذلك يصبح عادة ويجر على المعصية لأنه يصبح قاعدة عامة عندها ينحرف بها عن الاستقامة والنزاهة . . .

(عباد الله إن أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه) وهذه نصائح ومواعظ بها يتحرك الإنسان نحو منافعه ومصالحه ويجتنب عن مضاره ومفاسده وقد بيّن أن أنصح الناس لنفسه هو ذلك الذي يلتزم أوامر الله وطاعته لأن هذه الطاعة تدخله الجنة وهي أقصى ما ينشده الإنسان من السعادة . .

وفي مقابلها يكون أغش الناس لنفسه من أدخلها النار بمعصيته لله وتمرده على حكمه . . .

(والمغبون من غبن نفسه) لما كان الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة فمن باع نفسه بغير ذلك فهو الخاسر ويكون هو المخدوع والمغبون وهل هناك أخسر صفقة من إنسان يبيع نفسه ببعض ملذات الدنيا الفانية ولا يبيعها بملذات الآخرة الباقية . . .

(والمغبوط من سلم له دينه) الذي ترغبه الناس وتحبه وتريد أن تكون مثله هو الذي

سلم له دينه فلم يرتكب معصية ولم يسلك سبيلاً منحرفاً. . .

(والسعيد من وعظ بغيره) من اعتبر بحال غيره من الأشقياء والتعساء والذين أصيبوا بالنكبات هو السعيد لأنه اجتنب ما حل بغيره واعتبر بهم، اللهم اجعلني اعتبر بغيري ولا تجعلني عبرة لغيري. . .

(والشقي من انخدع لهواه وغروره) فإن من أطاع هواه فإلى جهنم أرداه ومن استسلم لغروره فإلى النار حضوره وهل هناك أشقى من إنسان مصيره إلى النار ومن هنا يجب أن يجتنب كل واحد هواه وغروره. . .

(واعلموا أن يسير الرياء شرك) الرياء هو العمل لغير الله فهو يصلي ليراه الناس ويحسن عباداته ليمدحه الناس وهكذا دواليك وهذا مهما كان حقيراً أو صغيراً فهو إشراك بالله لكن ليس شركاً في الذات وإنما إشراك في العبادة وهو حرام ومبطل للعمل. . .

(ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ومحضرة للشيطان) وأهل الهوى هم الذين استسلموا لشهواتهم ورغباتهم فراحوا يلهون ويلعبون بل أصحاب الباطل والفساد هؤلاء يعيشون الانحراف في مجالسهم من غيبة ونميمة وفجور وفسوق ومن جالسهم نسي إيمانه ومتطلباته كما إنه يطيع الشيطان في هذه المجالس حيث يتأثر بهم ويتخلق بأخلاقهم وقد توجه النهي إلينا عن معاشرتهم ومجالستهم في كثير من الأحاديث لئلا نتأثر بهم وتنتقل إلينا عدوى الانحراف منهم. . .

(جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان، الصادق على شفا منجاة وكرامة والكاذب على شرف مهواة ومهانة) ابتعدوا عن الكذب ولا تقتربوا منه أو تمارسوه لأنه مخالف للإيمان ومناقض له فلا يجتمع الإيمان والكذب في قلب إنسان. . .

ثم بيّن آثار الكذب وآثار الصدق فقال إن الصادق على جانب النجاة والكرامة أما في الدنيا فهو الثقة المأمون وألسنة الناس تحمده وتشكره وتثني عليه وأما في الآخرة فإنه من أصحاب الجنة وأهلها لأن من صدق في أقواله صدق في أفعاله ومن اعتقد في جوانحه مارس الصدق في جوارحه ومن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله أخذ تشريعه عن الله بواسطة رسول الله وصدّق القول بالعمل بمضمون هذه الشهادة. . .

وأما الكاذب فهو على عكس ذلك فهو مشرف على الهلاك مقارب له تلحقه ذلة ومهانة أما في الدنيا فيكفي أن تلحقه صفة كاذب لتحمل معها كل توابعها من عدم الثقة به أو الأمانة له وعدم الاطمئنان لكل عمل يقوم به وأما في الآخرة فإنه لحرمة هذا الفعل

شرعاً يكون مصيره إلى النار حيث العذاب والهوان. . .

(ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب) نهى عليه السلام أن يحسد بعضهم بعضاً والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير دون أن تعود إلى الحاسد نفسه والحسد مرض في القلب يؤذيه أن يرى الناس بخير وعافية فيتمنى زوالها عنهم وهذا أفظع الأمراض وأشدها فتكاً وقد نهى الله عنه ونهى رسوله وقد ذكر الإمام هذا القول الكريم بأن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب فإن الحسد يضاد إرادة الله ونوع احتجاج عليه بعطائه للخلق وهو مناف للتسليم بحكمته وما يصدر عنه. . .

(ولا تباغضوا فإنها الحالقة) نهى عليه السلام عن التباغض لأنه يؤدي إلى المهاترة وعدم التعاون ومتى بغض الإنسان أخاه قطعه وإذا قطعه وانفصل عنه أدى ذلك إلى ضعفه وانحلاله وهكذا يقضي على عامل القوة والرقي وبذلك يأتي على نفسه وعلى أخيه فيكون الانحلال ويكون موت الأمم والشعب. . .

(واعلموا أن الأمل يسهي العقل وينسي الذكر فأكذبوا الأمل فإنه غرور وصاحبه مغرور) وهذا نهي عن الأمل الذي يجر إلى سهو العقل عما يفيد وينفع في الدنيا وفي الآخرة فإن من يعيش الآمال يسهى عن التفكر فيما ينفع وينسى صاحبه ذكر الله.

ثم أمر أن نكذب الأمل وذلك بعدم الانجرار وراءه فإنه خداع ومكر وصاحبه مخدوع ومغرور. . .

٨٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي في بيان صفات المتقين وصفات الفساق والتنبيه إلى مكان العترة الطيبة والظن الخاطىء لبعض الناس

عِبَادَ ٱللّهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ ٱللّهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ ٱللّهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ ٱلْحُزْنَ(١)، وَتَجَلْبَبَ ٱلْخَوْفَ(٢)؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ ٱلْهُدَىٰ(٣) فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ(٤) ٱلْقِرَىٰ(٥) لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ(٦). نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَٱسْتَكْثَرَ، وَٱرْتَوَىٰ(٧) مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ سُهِّلَتْ(٨) لَهُ مَوَارِدُهُ(٩)، فَشَرِبَ نَهَلاً(١٠)، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً(١١). قَدْ خَلَعَ(١٢) سَرَابِيلَ(١٣) الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّىٰ(١٤) مِنَ ٱلْهُمُومِ(١٥)، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً ٱنْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَىٰ، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَىٰ(١٦)، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ ٱلْهُدَىٰ، وَمَغَالِيقِ(١٧) أَبْوَابِ الرَّدَىٰ. قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ(١٨)، وَعَرَفَ مَنَارَهُ(١٩)، وَقَطَعَ غِمَارَهُ(٢٠)، وَٱسْتَمْسَكَ مِنَ ٱلْعُرَىٰ(٢١) بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ ٱلْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا، فَهُوَ مِنَ ٱلْيَقِينِ عَلَىٰ مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ(٢٢) لِلّهِ ـ سبحانه ـ فِي أَرْفَعِ ٱلأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ(٢٣) كُلِّ وَارِدٍ(٢٤) عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَىٰ أَصْلِهِ. مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ(٢٥)، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ(٢٦)، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ(٢٧)، دَلِيلُ(٢٨) فَلَوَاتٍ(٢٩)، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ. قَدْ أَخْلَصَ(٣٠) لِلّهِ فَٱسْتَخْلَصَهُ(٣١)، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ(٣٢) أَرْضِهِ. قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ ٱلْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ ٱلْهَوَىٰ عَنْ

نَفْسِهِ، يَصِفُ ٱلْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ. لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا[٣٣]، وَلَا مَظِنَّةً[٣٤] إِلَّا قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ[٣٥] ٱلْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ[٣٦]، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ[٣٧]، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

صفات الفساق

وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّىٰ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَٱقْتَبَسَ[٣٨] جَهَائِلَ[٣٩] مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ[٤٠] مِنْ ضُلَّالٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً[٤١] مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ، وَقَوْلِ زُورٍ[٤٢]؛ قَدْ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ عَلَىٰ آرَائِهِ؛ وَعَطَفَ[٤٣] ٱلْحَقَّ عَلَىٰ أَهْوَائِهِ، يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ ٱلْعَظَائِمِ[٤٤]، وَيُهَوِّنُ[٤٥] كَبِيرَ ٱلْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ؛ وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ[٤٦] ٱلْبِدَعَ[٤٧]، وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ[٤٨]؛ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَٱلْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لَا يَعْرِفُ بَابَ ٱلْهُدَىٰ فَيَتَّبِعَهُ، وَلَا بَابَ ٱلْعَمَىٰ فَيَصُدَّ عَنْهُ[٤٩]. وَذٰلِكَ مَيِّتُ ٱلْأَحْيَاءِ!.

عترة النبي

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ»؟ وَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[٥٠]»! وَٱلْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ، وَٱلْآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَٱلْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ[٥١]! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ[٥٢] وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ[٥٣] نَبِيِّكُمْ! وَهُمْ أَزِمَّةُ[٥٤] ٱلْحَقِّ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ ٱلْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ ٱلْهِيمِ[٥٦] ٱلْعِطَاشِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَىٰ[٥٧] مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ» فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ ٱلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَٱعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ ـ وَهُوَ أَنَا ـ، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ ٱلْأَكْبَرِ[٥٨]! وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ

ٱلْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ(٥٩) فِيكُمْ رَايَةَ(٦٠) ٱلْإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَىٰ حُدُودِ ٱلْحَلالِ وَٱلْحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُمْ ٱلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ(٦١) ٱلمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ ٱلْأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ(٦٢) ٱلْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ(٦٣) إِلَيْهِ ٱلْفِكَرُ.

ظن خاطىء

ومنها: حَتَّىٰ يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ(٦٤) عَلَىٰ بَنِي أُمَيَّةَ؛ تَمْنَحُهُمْ(٦٥) دَرَّهَا(٦٦)، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلاَ سَيْفُهَا، وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذٰلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ(٦٧) مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا(٦٨) بُرْهَةً(٦٩)، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا(٧٠) جُمْلَةً!.

اللغة

١ ـ **استشعر الحزن** : أي جعله كالشعار وهو ما يلي البدن من الثياب.
٢ ـ **تجلبب الخوف** : أي جعله جلبابَ أي ثوباً.
٣ ـ **زهر مصباح الهدى** : أضاء.
٤ ـ **أعد** : هيأ.
٥ ـ **القِرى** : الضيافة ما يعد الرجل لأضيافه.
٦ ـ **هوّن الشديد** : سهلّه وخفَّفه.
٧ ـ **ارتوى** : شرب وشبع.
٨ ـ **سهّلت** : يسرّت.
٩ ـ **الموارد** : جمع مورد موضع الورود، الطريق إلى الماء.
١٠ ـ **النهل** : أول الشرب.
١١ ـ **الجدد** : بالتحريك الأرض الصلبة المستوية.
١٢ ـ **خلع** : نزع.
١٣ ـ **السرابيل** : القمصان.
١٤ ـ **تخلى** : تبرأ، وترك.

١٥ ـ الهموم : الحزن، القلق الذي يصيب المرء من جراء أمر يفكر فيه .

١٦ ـ الهوى : ما تستلذه النفس وترغب فيه .

١٧ ـ المغاليق : جمع مغلاق ما يغلق به الباب .

١٨ ـ السبيل : الطريق .

١٩ ـ المنار : الاعلام .

٢٠ ـ الغمار : جمع غمرة وهي الزحمة من كثرة الناس والماء ونحوه .

٢١ ـ العرى : جمع عروة .

٢٢ ـ نصب نفسه : أقامها .

٢٣ ـ الصادر : الخارج .

٢٤ ـ الوارد : ورد الماء صار إليه، الداخل .

٢٥ ـ العشوات : جمع عشوة الأمر الملتبس .

٢٦ ـ المبهمات : الأمور المغلقة غير الواضحة .

٢٧ ـ المعضلات : جمع معضلة وهي الشدائد والأمور التي لا يهتدى لوجهها .

٢٨ ـ الدليل : المرشد .

٢٩ ـ الفلوات : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

٣٠ ـ أخلص : في الطاعة ترك الرياء فيها والخالص الصافي .

٣١ ـ استخلص : الشيء اختاره .

٣٢ ـ الأوتاد : جمع الوتد ما رز في الحائط أو الأرض من خشب ونحوه .

٣٣ ـ أمّها : قصدها .

٣٤ ـ المظنة : للشيء حيث يظن وجوده .

٣٥ ـ أمكن : أقدر .

٣٦ ـ الزمام : المقود .

٣٧ ـ الثقل : متاع المسافر وحشمه .

٣٨ ـ اقتبس : من قبس من النار إذا أخذ منها شعلة واقتبس منه العلم إذا أخذه منه .

٣٩ ـ الجهائل : جمع جهالة .

٤٠ ـ الأضاليل : الضلال جمع لا واحد له من لفظه .

٤١ ـ الأشراك : جمع الشرك محركة ما يصطاد به .

٤٢ ـ قول الزور : قول الكذب .

٤٣ ـ عطف : أمال وعطف الحق على رغباته حمله عليها .

٤٤ ـ العظائم : جمع العظيمة، النازلة الشديدة، ما عظمه الله من الأعمال .

٤٥ ـ هون الشيء : سهّله وخفّفه .

٤٦ ـ اعتزل : الشيء تنحى عنه جانباً والأعزل المنفرد .

٤٧ ـ البدع	:	جمع بدعة وهو الشيء المستحدث وشرعاً إدخال ما ليس من الدين على أنه منه.
٤٨ ـ اضطجع	:	التقى على الأرض على جانبه.
٤٩ ـ صد عنه	:	منع عنه.
٥٠ ـ تؤفكون	:	تصرفون.
٥١ ـ التيه	:	الضلال والحيرة.
٥٢ ـ تعمهون	:	تتحيرون.
٥٣ ـ العترة	:	للرجل أهله الأدنون ونسله.
٥٤ ـ الأزمة	:	جمع زمام ما يقاد به البعير وشبهه من حبل وشبهه.
٥٥ ـ الأعلام	:	جمع علم الراية والمنارة تنصب في الفلاة ليهتدى بها.
٥٦ ـ الهيم	:	الإبل.
٥٧ ـ يبلى	:	من بلى الثوب إذا رث.
٥٨ ـ الثقل الأكبر	:	كتاب الله وإن كان الثقل في الأصل متاع المسافر وحشمه.
٥٩ ـ ركزت	:	الرمح إذا أثبته.
٦٠ ـ الراية	:	علم الجيش، العلامة المنصوبة لكي يراها الناس وهي أكبر من اللواء.
٦١ ـ فرشتكم	:	بسطت لكم.
٦٢ ـ القعر	:	العمق من كل شيء، نهاية أسفله.
٦٣ ـ تغلغل	:	دخل وتخلل بينها.
٦٤ ـ معقولة	:	محبوسة.
٦٥ ـ تمنحهم	:	تعطيهم.
٦٦ ـ الدرّ	:	في الأصل اللبن واستعمل لكل خير ونفع.
٦٧ ـ المجة	:	من مج الشراب إذا قذفه من فيه.
٦٨ ـ يتطعمونها	:	يذوقونها.
٦٩ ـ برهة	:	مدة من الزمان طويلة.
٧٠ ـ يلفظونها	:	يرمونها.

الشرح

(عباد الله إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف) في هذه الخطبة يشرح حال المتقين ويذكر لهم أربعين وصفاً كما قال

بعضهم وهي لم تتحقق إلا في الأئمة من أهل البيت عليهم السلام كما قال بعض آخر وعلى كل حال فعلينا جميعاً أن نحاول قدر الإمكان في الاتصاف بهذه الصفات والأقرب إلى الله هو ذلك الذي يجمع منها في نفسه أكثر من غيره. . .

وإن أحب عباد الله إلى الله هو ذلك الإنسان الذي يمده الله بالمعرفة ويقويه بالملكات النفسية الصالحة فينتصر على نفسه ولا يدعها ترتكب محرماً أو تقترف إثماً أو تخالف أمراً فإن النفس أمارة بالسوء تجر الإنسان إلى ارتكاب الحرام فمن أمده الله بمعونته وسدده في طريق الحق انتصر عليها ولم يسمح لها بالتعدي على حدود الله أو الخروج عن إرادته. . .

ومن انتصر على نفسه وردعها عن ارتكاب الحرام اتخذ الحزن شعاراً له أي ملازماً له لا يفارقه حزناً على ما فرط في جنب الله من حيث أنه اكتسب جرماً أو امتنع عن قرب. . .

وكذلك تجلبب الخوف أي لبسه كالثوب ويعني بالخوف هو الخوف من الله ومن عذابه وناره ومن خاف النار هرب منها ولا يكون ذلك إلا بالبعد عن المعصية والقيام بالطاعة وكما في الحديث يأبى الله أن يجمع للمؤمن خوفين في قلبه، خوف الدنيا وخوف الآخرة فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة. . .

(فزهر مصباح الهدى في قلبه) من أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف كانت النتيجة لهذا أن انفتح قلبه على الله فأخذ يعيش الحقائق الإلهية ويتذوق طعم التشريع ويؤمن بحكمة الخالق المشرع فيقبل على امتثال الأوامر ويبتعد عما نهى الله عنه. . .

(وأعد القرى ليومه النازل به) لا بد وأن يزورنا الموت فهو ضيف سيحل بساحتنا وينيخ بركابه بيننا ولا بد لكل ضيف من قرى ـ ضيافة تعد له وتهيأ ـ وكل منا يبذل قدرته وما يطيق من أجل أن يخرج ضيفه من عنده وهو في فرح وسرور وكله لسان مدح له وثناء. . .

والموت ضيفنا النازلَ بنا وضيافته الأعمال الصالحة منا والاستعداد له بالطاعات والقيام بالواجبات، فإذا التزمنا بذلك نكون قد قريناه أجل قرى وأعظمه وأشرق وجهنا فرحاً وسروراً. . .

(فقرّب على نفسه البعيد وهوّن الشديد) قالوا إن المقصود بالبعيد عنا الموت وقالوا إنه رحمة الله وقالوا إنه الأمل الذي يأمله الإنسان وأقول ربما كان المقصود به لقاء الله

ومن قرب لقاءه مع الله استعد لهذا اللقاء ولا يكون ذلك إلا بالتقوى وإصلاح النفس والطاعة لله. وأما تهوين الشديد فهو تسهيل الأوامر التي لا تتوافق مع أهواء النفس وميولها فييسرها الإنسان ويخفّفها على نفسه فيقوم بها ويمتثلها. . .

(نظر فأبصر) نظر بعين البصيرة والعقل إلى الكون وما فيه فأدرك حكمة الله وغايته وما هو المطلوب منه كإنسان اختاره الله على جميع مخلوقاته قال تعالى: **﴿إن في خلق السماوات[1] والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار. . ﴾** . . .

(وذكر فاستكثر) ذكر الله فأكثر من ذكره حتى أصبح الذكر ملكة له يمارسه في كل لحظات حياته وليس الذكر هو سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله بل هو الأعم والأشمل من ذلك هو التوقف عن معصية الله والعمل بطاعته. . .

(وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده) أخذ من العلوم الإلهية الصحيحة عن الطرق السليمة الموصلة إلى الحقيقة، . . . أخذ من أحكام الله وتعاليمه ما جاءت به الرسل وذلك عن طرق الأئمة الهداة الذين اختارهم الله لأداء هذا الدور وقد قام أئمة أهل البيت بنقل ما جاء عن جدهم الرسول الأعظم ولا نجد طريقاً إليه أشرف وأنظف وأطهر وأصدق من هذا الطريق. . .

(فشرب نهلاً وسلك سبيلاً جدداً) أخذ العلوم كاملة ودفعة واحدة فعرف العقائد والأحكام والحلال والحرام وسار في طريق الله الواضح البيّن الذي لا ينحرف عنه يمنياً أو شمالاً إنها الطريق الوسطى التي لا إفراط فيها ولا تفريط. . .

(قد خلع سرابيل الشهوات) أي تخلى عما يصده عن الحق ويحول بينه وبين لقاء الله فكل ما ترغب فيه النفس من مجالس الهوى وحب الغيبة والنميمة وغيرها قد هجره وفارقه ولم يلتفت إليه. . .

(وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به) لم تشغل باله هموم الدنيا وما فيها لأنه يراها لا تستحق الهم لحقارة ما فيها وصغره، نعم هناك هم واحد استولى على قلبه وانفرد به إنه رضا الله من أجله أصيب بالهم ومن أجله لم يستقر، إنه يبحث عن مواقع رضا الله باستمرار وأين ما كان وفي أي زمان كان. . .

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(**فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى**) انكشفت الأمور أمامه واتضحت معالمها عنده فرأى الحقيقة واضحة جلية وخرج من بين أهل الهوى ولم يبق معهم في ضلالهم وسوء رأيهم وانحرافهم. . .

(**وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى**) صار داعية إلى الله يهدي الناس إلى الخير ويرشدهم إلى الحق ويأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

وكذلك أضحى يرد الشبهات عن الناس ويحل المعضلات ويزيل من طريقهم كل ما يشككهم بدينهم أو يزلزل عقيدتهم ويحرفهم عن العدل والاستقامة. . .

(**قد أبصر طريقه وسلك سبيله**) رأى السبيل الذي يجب أن يكون عليه، رآه واضحاً ظاهراً إنه منه كضوء الشمس عرفه صحيحاً سليماً لم يتردد فيه أو يشك في صحته وأيضاً لم يكتف برؤية الطريق بل سلك السبيل الذي يجب عليه أن يسلكه والذي يتعين عليه أن يطرقه فقرن النظرية بالتطبيق والإيمان بالعمل. . .

(**وعرف مناره وقطع غماره**) فهناك هدف أعلى متوجه إليه يهديه إلى الحق إنه النبي والأئمة الذين يشكلون منارات على الهدف فيهدون التائهين ويردون الضالين كما إنه قد تجاوز ما يلهي ابناء الدنيا ويشغلهم عن الله ويغمرهم من ملاذها ومشتهياتها. . .

(**واستمسك من العرى بأوثقها**) فمن تمسك بالعروة القوية المتينة نجا كذلك من استمسك بالإيمان بالله والعمل بما أمر فقد استمسك بأشد العرى وأمتنها وأقواها وأعظمها قال تعالى: ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. . .**﴾ . . .

(**ومن الحبال بأمتنها**) ومن كان له حبل قوي متين اعتمد عليه في نزوله إلى مكان منخفض أو صعوده إلى مكان عالٍ كان في مأمن من الخطر لا يصيبه خوف ولا فزع وكذلك من التزم بالإسلام واعتمد على القرآن ونفذ أوامر الله فهو في راحة واطمئنان. . .

(**فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس**) فكما يرى الشمس واضحة ظاهرة فاليقين في نفسه كذلك فهو ثابت مستقر آمن بالله بدون شك وعمل بما أمر بدون تردد. . .

(**قد نصب نفسه لله ـ سبحانه ـ في أرفع الأمور من إصدار كل وارد عليه وتصيير كل فرع إلى أصله**) بعد أن كملت نفسه واستطاع أن يحملها على الحق جلس في أرفع المجالس وأعظمها وهي الفتوى التي يرّد بها على أسئلة الناس وحاجاتهم وكان لمعرفته بالأحكام وطرق الاجتهاد يُرجع الفروع إلى الأصول على طريقة أهل الاجتهاد.

وهذا المجلس هو للأنبياء ولأوصيائهم من بعدهم ثم بعد غياب الإمام صاحب الزمان الذي له الحكم وإدارة أمور الناس يرجع الأمر إلى الفقهاء العدول الذين بلغوا درجة الاجتهاد وقد تولى سدة هذا الأمر في زماننا آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي الذي يتعرض للاضطهاد من قبل حكام العراق البعثيين ولا نملك حولاً ولا قوة لرفع ذلك عنه نعم لا نملك إلا الدعاء أكتب هذه الكلمات صبيحة يوم الأحد بتاريخ الحادي والعشرين من شهر شوال سنة إحدى عشر بعد الأربعماية والألف للهجرة في بيروت عاصمة لبنان وقد انقطعت الأخبار عن المرجع الأعلى وعن الحوزة العلمية في النجف الأشرف. . .

(مصباح ظلمات) إنه بعلمه يكشف ظلمات الجهل وعدم المعرفة كما يكشف المصباح ظلمات الليل وسواده. . .

(كشاف عشوات) يكشف بعلمه وبيانه ما التبس على الناس من الأحكام والآراء والأمور والقضايا. . .

(مفتاح مبهمات) على يديه تُحلّ مستعصيات المسائل ومعضلاتها، فما توقف الناس في فهمه واستيعابه استطاع أن يحله ويفتح وعيهم على حقيقته. . .

(دفاع معضلات) فما استغلق من القضايا الصعبة ولم يعرف وجه الحل فيها كان هو الذي يحلها ويفك رموزها ويفصل وجه الحق فيها. . .

(دليل فلوات) ففي حين لا يخرج من قلب الصحراء إلا من كان عارفاً بها وبعلامات النجاة فيها كذلك لا ينجو من التشويش والاضطراب في الدين إلا من كان له قائد ومرجع خبير بالفقه والدين وهذا العبد الصالح الذي أعانه الله على نفسه واستجمع باقي الصفات فهو دليل على الحق يرشد الضال ويهدي التائه ويرد من انحرف أو مال. . .

(يقول فيفهم) إذا قال فهو يمتلك ناصية الكلام لوضوح المعنى وجلاءه عنده فيفهم غيره ببيانه وبحقه الذي عنده. . .

(ويسكت فيسلم) يسكت عندما يقتضي الأمر السكوت كأن يكون أمام ظالم متجبر تفقد الكلمة أثرها أمامه ولا يعود لها دور فيسلم من أذاه، أو يسكت أمام من لا يقبل قوله من الجهال فيسلم من جهلهم وغبائهم. . .

(قد أخلص لله فاستخلصه) لم ير مع الله أحداً في عمله، بل كل عمل قام به فهو

خالص لوجه الله لم يشرك معه أحد من خلقه فعندها اصطفاه الله واختاره فأفاض عليه من الكمالات ما جعله في طليعة البشر من الأنبياء والأوصياء والأئمة والعباد الصالحين. . .

(فهو من معادن دينه) فكما أن الذهب والفضة يخرجان من المعدن فإن الدين يخرج من هذا الإنسان الصالح الخالص لله في العبودية الذي استجمع ما تبقى من الصفات. . .

(وأوتاد أرضه) بهذا الرجل وبأمثاله تثبت الأرض وتستقر كما وردت الأخبار بأن الأرض لساخت بأهلها لولا الإمام المعصوم هذا إذا كان الأمر على وجه الحقيقة أما إذا أريد به المجاز فربما كان المقصود أن هذا الرجل الموصوف بهذه الأوصاف والذي ينطبق على الأئمة من أهل البيت تستقر الأرض أي لا يكون هناك فوضى واضطراب في الأحكام لأن الإمام هو الذي يتولى بيانها وتوضيحها ويرفع الاختلاف من بين الناس. . .

(قد ألزم نفسه العدل فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه) وهذه صفة من صفات هذا العبد الصالح إنه جعل العدل لازماً له لا ينفك عنه أو يتخلى عن العمل به، ألزم نفسه العدل فهو عادل مع نفسه وعادل مع الآخرين وأول عدله وبدايته كان في نفي الهوى عن نفسه حيث لم يطع شهوات بدنه ولم يأخذه هواه إلى ما يريد بل وقف من هوى النفس موقف الرافض له والمتنكر لحكمه. . . وما يريد. . وعندما ينتفي الهوى عند الإنسان ويقطع علاقته به يحصل على أرفع درجات العدالة لأنه يكون قد قضى على جذور الانحراف في نفسه. . .

(يصف الحق ويعمل به) يقرن القول بالعمل فعندما يقول إن العدل مرغوب فيه يكون عادلاً بفعله وقوله وموقفه وعندما يقول الخير محبوب ومطلوب يبادر إلى عمل الخير فيحسن إلى الناس ويعينهم ويقضي حاجاتهم ويسد عوزهم وهكذا دواليك. . .

(لا يدع للخير غاية إلا أمها ولا مظنة إلا قصدها) فهو يبحث عن الخير إلى نهاية الخير، فلا يكتفي منه بما يقع تحت نظره ويده بل يبحث عن جذور الخير وأعلى مراتبه.

كما أنه يبحث عنه فيما يظن أنه يكون فيه فلو ظن أنه في مجالس الزهاد والعباد أو العلماء وأهل العرفان لقصدها وتوجه إليها وكان عندها. . .

(قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحل حيث حل ثقله وينزل حيث كان منزله) سلّم أمره إلى كتاب الله واستسلم لحكمه فهو قائده إلى حيث أراد وإمامه حيث كان فحيثما حلل أمراً أو حرم أمراً كان هو عند تحليله وتحريمه لا يخرج عن ذلك أو

ينحرف عنه، إنه يحتكم إلى القرآن في كل قضاياه ويقبل بحكمه في كل شيء وهكذا تكون أوصاف العالم بالله العارف به. . .

(**وآخر قد تسمى عالماً وليس به**) بعد أن ذكر أوصاف العارف بالله الذي كان من أحب عباده إليه ذكر هنا بعض أوصاف من انحرف عن الله وخصّ بالذكر من تسمى بالعالم لخطره وقبح أثره.

فهذا رجل تسمى بالعالم، أطلقوا عليه هذه الصفة وهو عار عن حقيقتها، ليس له منها إلا الثوب، . . تسمى بالعالم أما من سماه؟ ومن أطلق عليه الإسم؟ وهل يستحق ذلك فكل ذلك مجهول لم يعرف له في دنيا العلماء أثر لا في المنطق ولا في السلوك ولا في العلم. . .

وقد كثرت عندنا المسميات في هذه الأيام وانتشرت هذه الألقاب وقد كثر من تسمى بالعلماء ولكن بمقدار كثرتهم قلّت قيمتهم وسقط احترامهم فلقد هاجرنا إلى طلب العلم سنة ١٩٦٤ ميلادية ولم يكن من منطقة البقاع كلها إلا نفر لا يتجاوزون العشرة وقد كان سفرنا خالصاً لوجه الله حيث لا زعامة للعمامة ولا وجاهة للعلماء، بل سفرنا كان لله خالصاً من أجل أن نطلب العلم ونهدي الناس ونوجههم.

والآن ونحن في سنة ١٩٩١ بعد أن أصبحت العمامة ذات احترام وتقدير وعن طريقها تكون الزعامة والإثراء والوجاهة، أقول بعد أن أصبحت العمامة هي أقصر طريق إلى المجد أضحى عندنا ما يقارب المائة عمامة وبعضهم قد عرفنا توجهه هذا من يومه الأول الذي اعتمر فيه العمامة. . .

(**اقتبس جهائل من جهال وأضاليل من ضلال**) أخذ من أصحاب الجهل بعض جهله كما أخذ من الضلال ضلاله وانحرافه وجمع بين الجهل والضلال لأن من علّمه جاهل وضال فكيف يكون حاله وإلى أين مآله. . .

(**ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور**) فهو صاحب خدع فجعل ما يخدع الناس به كالشرك يصطاد به قلوبهم ويستميلها إليه، فهو يملك المظهر الذي يغري به الناس ويجذبهم إليه كما يملك كلمات العلماء ظاهراً، يظهر التنسك والوقار وفي قلبه حقد ونار. . .

(**قد حمل الكتاب على آرائه**) ففي حين كان العالم العرفاني يخضع لحكم الكتاب ويتخذه إماماً وبيده الزمام فهذا الفاسق يعكس الأمر إنه يطوع الآيات لصالحه، إذا أراد أمراً التمس له من الكتاب عذراً ولو لم يكن ظاهراً فيه أو يدل عليه بل يحاول وبأي طريق

كان أن يحمل الكتاب على مقصوده وإنه يدل عليه وهذا ما نجده في كثير من المذاهب حيث احتالوا على النصوص وأخرجوها عن مداليلها من أجل أن توافق مذاهبهم وتنسجم مع فتاوى رؤسائهم. . .

(وعطف الحق على أهوائه) جعل الحق تابعاً لهواه فكل ما يشتهيه أو يراه حسناً فهو حق عنده وحسن. . .

(يؤمن الناس من العظائم ويهون كبير الجرائم) يقول للناس المذنبين المسيئين الذين يرتكبون المعاصي الكبيرة إن الله رحمن رحيم لا يعذبهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم بعد إيمانهم، إنه يؤمنهم عقابه لرحمته وإنه أجل من أن يؤاخذ هذا الإنسان الضعيف.

وكذلك يهوّن كبائر الذنوب ويصغرها يقول إنها تمحى ولا تبقى، سوف يأتي عليها عفو الله وتشمل أصحابها شفاعة الرسول والأئمة. . .

(يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع) وهذه غريبة من غرائب أطواره وواحدة من جهالاته إنه يقول للناس إنه الورع التقي ولورعه وتقاه لا يرتكب ما يشتبه به ولكن لجهله بمواقع الشبهات يرتكبها بدون أن يدري. . .

(ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع) وهذه دعوة من جملة دعاويه التي يقولها ويخالفها إنه يقول أنه يعتزل البدع فما كان بدعة يدعي اجتنابه ولكن ي الحقيقة يمارسه بعمله ويقوم به في سلوكه كمن يقول ذلك من علماء العامة حيث يتبرأ من البدع ويستنكر على فاعلها ولكنه في نفس الوقت يمارس ما ابتدعه عمر وأدخله في الدين والدين بريء منه كصلاة التراويح التي ابتدعها عمر وأقر بذلك هو نفسه واعترف ببدعته كل من اتبعه ولكنه لم يستنكرها ولم يقدر على التخلي عنها. . .

(فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان) فهو يمتلك هيكلاً بشرياً ضخماً كاملاً يملك الصورة البشرية، من الرأس والعين والأذن والفم واليدين والرجلين ولكن هل بهذه الصورة فحسب امتاز الإنسان عن الحيوان كلا ثم كلا بل يمتاز الإنسان بعقله وفكره وتحليله للأمور. . ، يمتاز بعمله بالحق وبعده عن الباطل وانتصاره للعدل وثورته على الظلم، . . يمتاز بإيمانه واستقامته وعدالته. . ، ولذا يتحول الإنسان الفاقد لهذه المعاني إلى حيوان في صورة إنسان كما قال تعالى: ﴿**إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا**. . ﴾[1]. .

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى فيصد عنه وذلك ميت الأحياء) إنه لجهله وعماه لم يعرف باب الهدى فيطرقه ويدخل منه إلا الهدى.. لم يهتد الطريق السليم الذي شرّعه الله وسنه فهو يخبط ويضل كما إنه لا يعرف باب الضلال والردى ليجتنبه ويبتعد عنه فهو لجهله أعمى عن طريق الحق حتى يسلكه كما هو أعمى عن طريق الباطل ليجتنبه.. فهو قد انحرف عن باب الهدى لأنه لم يضع يده على مفتاح الهدى وهم آل محمد ثقل النبي وعترته كما إنه يعيش الباطل ولا يدري بذلك لأنه لا يعرف أن أئمته أئمة السوء هم الذين أضلوه وانحرفوا به إلى غير الحق.. فهو والحالة هذه ميت بين الأحياء لأنه لا يميز الحق من الباطل ولا يعرف باب كل منها ليدخل منه إلى الحق ويخرج من الباطل...

(فأين تذهبون؟ وأنى تؤفكون) لما بيّن طريق العارفين وطريق الفاسقين ومواصفات كل منهما أراد أن يبيّن أعلام الحق والهدى فاستفهم على سبيل الإنكار لما هم عليه ولما ذهبوا إليه بأنهم أي طريق باطل تذهبون فيه ومتى تصرفون عن باطلكم الذي أنتم فيه إلى العدل والحق...

(والأعلام قائمة) راية الحق المنصوبة بين الخلق الذين هم الأئمة الهداة الذين اختارهم الله خلفاء بعد نبيه...

(والآيات واضحة) العلامات الدالة على الحق ظاهرة بينة أمام أعين الناس فإن النبي قد بيّنها وأظهرها وأوضحها...

(والمنار منصوبة) ما يهتدى به قائم مرفوع واضح لكل عين بصيرة...

(فأين يتاه بكم وكيف تعمهون) تأكيد لما تقدم واستنكار أن يجرهم الهوى إلى غير الحق وأن يعموا عن المنهج السديد والطريق الرشيد وهذا تمهيد لما سيبينه ويوضحه من الطريق المستقيم...

(وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق) بعد أن استنكر على الناس ذهابهم في غير طريق الحق وانصرافهم عن الهوى وقال إن هناك الأعلام قائمة والمنارات منصوبة بيّن تلك الأعلام والمنارات.. إنهم عترة النبي وآله الذين هم أزمة الحق فكيف داروا يدور معهم الحق وكيف اتجهوا أُتجه فهم الزمام للدين والحق والعدل كما إنهم أعلام الدين وراياته التي تدل عليه وتهدي إليه لا يتيه من أمهم وقصد جنابهم كما إنهم المتكلمون بالصدق عنه المفصحون عن مضمونه وكنهه المؤدون له إلى الناس على حقيقته...

عترة النبي:

عترة النبي هم أهله الأدنون ونسله وهم ينحصرون في فاطمة الزهراء وبعلها وابنيها وهذا ما دلت عليه الروايات وسنّة الرسول العملية فقد أفصح صلوات الله عليه ببيان ذلك بحيث منع نساءه أن تشملهم لفظة الآل كما روى ذلك أحمد بن حنبل في مسنده ج ٦ ص ٣٢٣ فقد روى بسنده عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله قال لفاطمة عليها السلام: ائتني[١] بزوجك وابنيك فجاءت بهم فألقى عليهم كساء فدكياً (قال)، ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد.

قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال: إنك على خير.

وفي مستدرك الصحيحين بإسناد[٢] صحيح روى بسنده عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال: لما نظر رسول الله (ص) إلى الرحمة هابطة قال: ادعوا لي، ادعوا لي فقالت صفية: من يا رسول الله: قال: أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين فجيىء بهم فألقى عليهم النبي (ص) كساء ثم رفع يديه ثم قال: اللهم هؤلاء آلي فصل على محمد وعلى آل محمد وأنزل الله عز وجل، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً قال صاحب مستدرك الصحيحين: هذا حديث صحيح الإسناد.

وأيضاً بهذا الوضوح والجلاء حديث الثقلين عن النبي قال: تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض..

الحب لا يكفي:

وحب آل محمد لا يكفي دون عمل بل لا بد لمن أراد النجاة والفوز في الآخرة من متابعتهم فيما يقولون وفيما يذهبون إليه وقد أوضحت مدرستهم الإمامية نهجهم في العقائد كما أوضحته في الشرائع وكل من ادعى حبهم ولم يعمل بعملهم فهو ممن يخادع أو إنه في ضلال وانحراف دون أن يعرف...

وقد سمعت من المخالفين ومن علمائهم هذه الدعوة وإنهم ممن يحبون أهل البيت

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج ٧ ص ١٠٣. وذكره السيوطي في ذيل تفسير آية التطهير.

(٢) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٠٨.

ويذهبون إلى أن حبهم من صلب الإيمان ويكتفون بذلك دون أن يدخلوا فيما دخل فيه أهل البيت ويعملوا كما عملوا وهذا الحب العاري عن متابعتهم لا ينفعهم في الآخرة إذا لم يذهبوا إلى متابعتهم واقتفاء أثرهم بالإيمان بإمامتهم وقيادتهم ووجوب التلقي عنهم لأحكام الدين وشريعة سيد المرسلين دون غيرهم من الأئمة الآخرين. . .

(فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش) قال ابن أبي الحديد في شرح قول الإمام «فأنزلوهم منازل القرآن» تحته سر عظيم وذلك إنه أمر المكلفين بأن يجروا العترة في إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن.

ثم قال: فإن قلت: فهذا القول منه يُشعر بأن العترة معصومة.

قلت: نص أبو محمد بن متويه رحمه الله تعالى في كتاب «الكفاية» على أن علياً عليه السلام معصوم وإن لم يكن واجب العصمة ولا العصمة شرط في الإمامة لكن أدلة النصوص قد دلت على عصمته والقطع على باطنه ومغيبه وإن ذلك أمرٌ اختص هو به دون غيره من الصحابة والفرق ظاهر بين قولنا «زيد معصوم» وبين قولنا «زيد واجب العصمة» لأنه إمام ومن شرط الإمام أن يكون معصوماً فالاعتبار الأول مذهبنا والاعتبار الثاني مذهب الإمامية. . انتهى كلامه. . .

أقول: مما لا شك فيه أن النتيجة التي توصل إليها ابن أبي الحديد من عصمة الإمام علي عليه السلام هي ما قاله الإمامية والفرق أن الإمامية على مسلكهم من وجوب نصب الإمام وإنه للدين والدنيا أوجبوا كونه معصوماً ليؤمن خطؤه وزلله وهو القدوة والإسوة ويجب على الناس متابعته فإن أمكن انحرافه ولنفرض ذلك في حقه فأما أن يتابع في خطئه وهذا يتنافى والحكم الشرعي وفيه تضييع للحق وأما أن ينكر عليه وبذلك يسقط اعتباره وتنزل مرتبته وتضيع فائدة نصبه ولهذا وغيره وجب أن يكون الإمام معصوماً، وليست هذه بأولى هفوات هذا الرجل مع علو فكره وعمق تحليله ولكنه محكوم لمذهبه يُخضع النصوص لها وإن كانت بعيدة الانطباق عليها وليست من مصاديقها ولكن مخالفة العقيدة وما عليه الأسلاف من أشق الأمور وأصعبها على النفس.

ثم إنه عليه السلام أمر الناس بالإسراع إلى أهل البيت ليأخذوا من تعاليمهم وينهلوا من عذبهم ويرتوا من علومهم ويحرصوا على ذلك حرص الإبل إذا وردت الماء وهي في حالة العطش الشديد فإنها تسرع إليه ولا تتركه حتى ترتوي وهكذا الخلق مع آل رسول الله يجب أن يسرعوا إليهم ويأخذوا من علومهم ويقتدوا بهم. . .

(أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم «إنه يموت من مات

منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببالٍ) ثم ذكر عليه السلام هذه الخصوصية التي ينفرد بها النبي والأئمة دون الخلق وهي:

«إنه يموت من مات منهم وليس بميت» وقد قيل في تفسيرها وجوه.

الأول: إنه يريد مفاد الآية الكريمة **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾**.

الثاني: إن أهل البيت أحياء بآثارهم وبما تدين به الملايين من البشر بما جاء عنهم...

الثالث: إنهم أحياء بأجسادهم المثالية وإليه ذهب جمع واختاره بعض المحققين من المتأخرين كالمجلسي.

الرابع: إنهم أحياء بأجسادهم الدنيوية التي كانوا عليها وهناك روايات تدل على ذلك اعتمدها واختار مفادها بعض شراح النهج (الخوئي في منهاج البراعة..)...

وأما قوله: ويبلى من بلي منا وليس ببال فهنا المعركة التي لا حد لها ولا استقرار.

فذهب بعضهم إلى أن الأرض لا تأكل أبدان الأنبياء والأئمة واعتمد في ذلك على بعض الأخبار كما في الرواية الواردة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتى ترفع روحه وعظمه إلى السماء وإنما يؤتى مواضع آثارهم ويبلغونهم من بعيد السلام ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب. وحمل قوله عليه السلام ويبلى منا على أن البلى المذكور إنما هو مجاراة لما يرى الخلق في أمثالهم من طرو البلى عليهم وإلا فلا يشمل ذلك النبي والأئمة وبعضهم حمل البلى على بلى الأكفان.

وبعضهم حمل البلى على الأبدان وعدم البلى على الأرواح.

وقال بعضهم: إن هذا نص على أن أجساد الأولياء لا تبلى.

(فلا تقولوا بما لا تعرفون فإن أكثر الحق فيما تنكرون) ثم بعد أن ذكر هذه القضية التي لا يراها الحاضرون يومها كما لم نرها نحن اليوم أراد إيقافهم أمام حقيقة علمية وهي أنه نهاهم عن القول فيما لا يعرفون فإذا لم تعرف أمراً فلا تبادر إلى إنكاره وإبطاله ورده إذ ربما وجد له وجه لم تهتد إليه ولم يصل فكرك إلى عمقه قال تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا..﴾** فالقول بغير علم ومعرفة جريمة أخلاقية وجناية علمية...

ثم علل ذلك بقوله فإن أكثر الحق فيما تنكرون إنكم تنكرون الكثير ولكن أكثر الحق فيما تنكرون.. تنكرون الحقائق من وجوب إمامته وعصمته وما كان يخبرهم به من أمور الغيب المدونة في محالها...

(واعذروا من لا حجة لكم عليه ـ وهو أنا) لا حجة لأحد من الناس على الإمام فإنه قد أنذر وحذر وبين لهم ما يقربهم من الله وأمرهم به وبيّن لهم ما يبعدهم عن الله وحذرهم منه وقد قطع حججهم وأسقطها ولم يبق لهم عليه حجة بل له الحجة وعنده العذر ثم بين بعض تلك الصغريات من الحجج...

(ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر وأترك فيكم الثقل الأصغر) استفهم على وجه التقرير قائلاً لهم لقد عملت فيكم بالثقلين كما أمر رسول الله وكما أحب وهما كتاب الله وعترة رسول الله كما جاء ذلك في الحديث المتواتر عن النبي قائلاً للأمة: تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...

وقد عمل الإمام بالثقل الأكبر وهو القرآن الكريم فبين لهم حلاله وحرامه وحذرهم وبشرهم وشرح لهم مجملاته وفصّل لهم أحواله ولم يترك منه أمراً يحتاجونه إلا بينّه لهم...

وسمى القرآن الكريم بالثقل الأكبر لأنه حجة على الناس قاطبة وبه كانت معجزة النبي وإثبات نبوته.

وأما الثقل الأصغر فهم ذرية رسول الله الحسن والحسين فقد حفظهما الإمام وتركهما بعده في الأمة يديران شؤونها ويدبران أمرها...

(قد ركزت فيكم راية الإيمان) جعلت الإيمان ظاهراً وثابتاً من حيث علمتكم بأقوالي وأفعالي كيف يكون الإنسان الرسالي الذي لا يتنازل عن عقيدته ولو اجتمعت الدنيا عليه وتحولت كلها ضده...

(ووقفتكم على حدود الحلال والحرام) بيّنت لكم الأمور المحللة كما بيّنت الأمور المحرمة وقد أوضحتها لكم وعلمتكم إياها فلا حجة لكم في ارتكاب حرام ولا عذر في ترك واجب...

(وألبستكم العافية من عدلي) جعلت عدلي كاللباس لكم بحيث تتم به العافية من الظلم وترتفع به أعلام الجور...

(وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي) أحسنت إليكم بجميع وجوه الإحسان وشتى أصنافه حتى أضحى لكم كالفراش تستريحون إليه وتأنسون به . . .

(وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي) جعلتكم ترون كريم أخلاقي من حيث عفوت عن مسيئكم وتجاوزت عن قبائحكم وأحسنت إلى محسنكم وقد تجاوز عليه السلام بأخلاقه كل مدى وبلغ الذرى ومن يبلغ في الصفح ما بلغه وقد عفى عمن حاربوه بعد انتصاره عليهم بل أكرم أم المؤمنين عائشة وجهزها وأرسل معها من أوصلها إلى المدينة كما إنه صفح عن عمرو بن العاص تكرماً منه لما أبدى عورته وترك مروان بن الحكم عدوه وهكذا دواليك . . .

(فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره البصر، ولا تتغلغل إليه الفكر) . . .

الرأي في الدين :

نهى عليه السلام أن يقولوا بغير علم فمن حصل له العلم بأمر جاز له فيه القول والافتاء وأما إذا لم يحصل له ذلك فيجب ان يتوقف ولا يستعمل الرأي، والتعبير بالرأي له معنى دقيق وهو أنه رأي شخصي استنبطه من نفسه واستحسنه أو قاسه على أمر آخر يرى قربه منه كما كان شائعاً عند بعض المذاهب حيث استعملوا القياس واستنبطوا العلل وأجروا الحكم على الفرع الفاقد العلة على الأصل المنصوص العلة . .

وقد نهى أهل البيت عن استعمال الرأي وإجراء القياس وحرموه وسفهوا من استعمله وحملوا عليه أشد حملة لأنه ينسب إلى الله ما لم يقله ويحمله ما لم يُرده فإن الله سبحانه قد نص على حرمة بعض الأشياء بأعيانها فلا يجوز أن تحكم بحرمة شيء إلحاقاً لها بهذه الأمور ظناً منك أنك قد أدركت العلة في تحريم الأولى فتسري العلة إلى الثانية . . .

وقد شاع هذا الأمر ـ العمل بالقياس ـ عن أبي حنيفة بل كان من أئمة هذا الفن وفاتق علمه ولذا نهى الأئمة عنه وحملوا على أبي حنيفة وبينوا خطأه وانحراف منهجه . . .

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

إن المؤمن لم يأخذ دينه[1] عن رأيه ولكن أتاه عن ربه فأخذ به . .

---

(١) هذه الأحاديث من وسائل الشيعة أبواب صفات القاضي باب ٦ .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«لا رأي في الدين».

وسئل الصادق عليه السلام عن الحكومة فقال:

من حكم برأيه بين اثنين فقد كفر ومن فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر.

وعن ابن شبرمة قال: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد عليه السلام فقال لأبي حنيفة: «اتقِ الله ولا تقس في الدين برأيك فإن أول من قاس إبليس - إلى أن قال - ويحك أيهما أعظم؟ -.

قتل النفس أو الزنا؟

قال: قتل النفس.

قال: فإن الله عز وجل قد قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة.

ثم أيهما أعظم: الصلاة أم الصوم؟.

قال: الصلاة.

قال: فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟ فكيف يقوم بذلك القياس فاتقِ الله ولا تقس.

وفي حديث آخر يقول الصادق لأبي حنيفة:

يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس؟.

قال: نعم، أنا أقيس.

قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين وهناك أحاديث كثيرة تنهى عن استعمال الرأي والقياس وهذا أمر تسالمت الطائفة على حرمته...

(حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني أمية تمنحهم درها وتوردهم صفوها) وهذه الفقرة الأخيرة من الخطبة محذوف قبلها كثير من الكلام كما أشار إليه الرضي ولذا نراها بدون رابط مع ما تقدم وعلى كل حال فإنه عليه السلام يقرأ ما يدور في رؤوس بعض الناس وما يفكرون فيه.. إنهم يظنون أن الدنيا بكل ما فيها من فوائد وخيرات ومنافع محصورة ببني أمية تمنحهم خيراتها وعطاياها ولهم دوام العيش وصفاؤه وليس من يعكر عليهم هدوءهم وحكمهم وسلطانهم...

(ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها) وهذا أيضاً بعض ما يدور في أذهان الناس أنهم لما رأوا جور الأمويين وظلمهم وكيف يطاردون الأحرار والشرفاء وكيف يستعملون البطش والقوة ظن كثير من الناس أن ظلم الأمويين لا ينتهي ولا يتوقف وإن نظرة سريعة إلى جرائم الأمويين وتاريخهم الأسود يكشف بوضوح عن مبررات ما يذهب إليه بعض الناس يوماً من أن الأمويين لن تزول دولتهم ولن يرفع ظلمهم عن الأمة. ولكن الإمام بنظره الثاقب وحكمته وعلمه الذي يخترق حدود الإمكان البشري كان يرى ما لم يره الناس ويبصر ما لم يبصروا فيقول:

(وكذب الظان لذلك بل هي مجة من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة) كذّب الإمام ظن من ذهب إلى أن الدنيا قد أعطت بني أمية خيرها ومنحتهم صفاءها وإنهم لن يرفعوا سوطهم وسيفهم عن هذه الأمة كذّب ذلك الظن بأن مدة إمارتهم سوف تكون قليلة تصفى لهم وتروق وقد تطول قليلاً ثم تخرج عن أيديهم بالكلية فلا يقام لهم دولة بل يطاردون ويشردون ويصبحون لعنة على ألسنة اللاعنين. . .

وقد كانت فترة خلافتهم قليلة بالنسبة إلى غيرها من حكم الدول وقد علم النبي بحكمهم وعرف مدته وأجله. . .

٨٨ ـ ومن خطبه له عليه السلام

وفيها بيان للأسباب التي تهلك الناس

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْصِمْ(١) جَبَّارِي(٢) دَهْرٍ(٣) قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ(٤) وَرَخَاءٍ(٥)؛ وَلَمْ يَجْبُرْ(٦) عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ(٧) وَبَلاَءٍ(٨)؛ وَفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ(٩) وَمَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ(١٠) مُعْتَبَرٌ! وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ(١١)، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ. فَيَا عَجَباً! وَمَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هذِهِ الفِرَقِ عَلَى اخْتِلاَفِ حُجَجِهَا(١٢) فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ(١٣) أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَ يَقْتَدُونَ(١٤) بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلاَ يَعِفُّونَ(١٥) عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ. المَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، والمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ(١٦) فِي المُعْضِلاَتِ(١٧) إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ(١٨) فِي المُهِمَّاتِ(١٩) عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى(٢٠) ثِقَاتٍ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ(٢١).

اللغة

١ ـ يقصم : يكسر.
٢ ـ جباري : جمع جبار وهو العاتي.
٣ ـ الدهر : الزمان.
٤ ـ التمهيل : التأخير.

٥ ـ الرخاء	:	سعة العيش.
٦ ـ يجبر	:	من جبرت العظم إذا أصلحته.
٧ ـ الأزل	:	الضيق.
٨ ـ البلاء	:	الاختبار، الغمّ.
٩ ـ العتب	:	بالسكون الموجدة وبالفتح معناه الشدة.
١٠ ـ الخطب	:	الأمر العظيم.
١١ ـ اللبيب	:	جمعه الباء، وهو العاقل.
١٢ ـ الحجج	:	جمع الحُجة، البراهين والأدلة.
١٣ ـ اقتصى أثره	:	اقتفى.
١٤ ـ اقتدى به	:	إئتم به وفعل فعله، تأسى به.
١٥ ـ يعفون	:	أما من العفو بمعنى الصفح أو من العفة.
١٦ ـ مفزعهم	:	ملجؤهم.
١٧ ـ المعضلات	:	الشدائد.
١٨ ـ عول عليه	:	اعتمد عليه، استند إليه.
١٩ ـ المهمات	:	الأمور المهمة ذات الشأن، وأما المبهم فهو الذي لم يتضح معناه.
٢٠ ـ العرى	:	جمع عروة وهو ما يستمسك به الشيء ومنه عروة الكوز.
٢١ ـ المحكمات	:	جمع محكم وهو المتقن.

الشرح

(أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاء). ذم عليه السلام أهل الأهواء والبدع ومن اكتفى برأيه عن مراجعة أهل الحق من الأنبياء والأئمة وما رسموه من طرق شرعية، وصدّرها بهذه المقدمة تخويفاً لهم وتحذيراً من التمرد والعصيان...

إن الله سبحانه لم يهلك الجبابرة العتاة الذين تكبروا على الله ورفضوا أوامره وتمردوا على حكمه لم يهلكهم بمجرد تمردهم بل أعطاهم السلطة والملك وأغدق عليهم من زينة الحياة الدنيا الأموال والأولاد والأمجاد والشهرة وأخرهم إلى أجل مسمّى فلما تمادوا أخذهم أخذ عزيز مقتدر فقضى عليهم وأنزلهم عن عروشهم أذلة صاغرين يطلبون مكاناً يلجؤون إليه فلا يجدون، حتى أسيادهم ومن ولّاهم وجاء بهم إلى السلطة

تنكر لهم ورفض استقبالهم وهذا إذلال لهم في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأكبر وقد مرّ في التاريخ نماذج كثيرة من هذا النوع وهؤلاء هم أصحاب التيجان والأمراء والحكام الذين تمردوا على الله نسمع بأخبارهم ونقرأ عنهم هذا فرعون والنمرود وقارون وغيرهم. . .

وفي مقابل هذا الكسر لم يجبر عظم أحد من الأمم ويجعلها أمة عزيزة بعد ذل وقوية بعد ضعف وفي مقدمة البشرية بعد أن كانت في الذيل لم يجعلها أمة تتسلم مقاليد الأمور ومصيرها ومصير غيرها إلا بعد شدة وضيق مرت بها فحاربت أعداءها وتألمت ومستها البأساء والضراء حتى انتصرت ومن أقوى الشواهد على هذا حال المسلمين زمن رسول الله كيف كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفوا من أرضهم ولكن ببركة رسول الله واجتماع المسلمين تحت قيادته وإطاعة أمره استطاعوا أن يكونوا أقوى الأمم وأعزها.

(وفي دون ما استقبلتم من عتب وما استدبرتم من خطب معتبر). ذكرهم بما لاقوه من المتخلفين عنه من أهل الجمل وأصحابهم الذين نقموا منه العدل والإنصاف وبما مر عليهم قديماً زمن رسول الله وما لاقوه من الشدائد والمحن من الأعداء ذكرهم بما مرّ عليهم وما استقبلهم وأمرهم أن يتعظوا به ويعتبروا. . . يفكروا في الوحدة وفوائدها وفي الفرقة ومضارها. . ينظروا إلى آثار الالتزام فيبادروا إليه وينظروا إلى سيئات التمرد فيقلعوا عنه. . .

(وما كل ذي قلب بلبيب ولا كل ذي سمع بسميع ولا كل ناظر ببصير). أراد أن يحثهم على التفكير وعلى الاعتبار والاتعاظ وأن لا يكونوا ممن يملكون القلب شكلاً ويعطلون حركته وفاعليته ويمنعونه من ممارسة دوره واقعاً ومضموناً فإن أصحاب القلوب ليسوا كلهم يفكرون ويحللون الأمور ويصلون إلى الحقيقة كما أن من يملك السمع والبصر ليس كل واحد منهم يملك الاعتبار والعظة من خلال ما يرى ويسمع.

(فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها). تعجب واستغرب ثم أجاب عما منه تعجب، إنه أجاب عن تعجبه بشكل إجمالي عام، وهو أن هذه الفرق على تعددها واختلافها تشترك في الخطأ، فإنها كلها تدعي أنها تمتلك أدلة وحججاً على ما تذهب إليه كما أن كل واحدة تدّعي لنفسها الحق فيما تذهب إليه بل تحصره فيها وتخطىء غيرها وتنعي عليه حاله ومآله وترميه بالخطأ والشطط ثم أراد أن يفصل الجواب وكيف أن جميع الفرق مخطئة منحرفة.

(لا يقتصون أثر نبي). فهذا أول انحراف من هذه الفرق وأول خطأ منها إنها لم

تقتف أثر الأنبياء ولم تمش خلفهم ولم تتبع طريقتهم، فالأنبياء بمسيرتهم قدوة يسعد من يمشي خلفهم ويقتدي بهم وهؤلاء لم يقوموا بذلك. . .

فإن قلت: كيف لم يتبعوهم وهذه آثارهم بين أيديهم فإنا نجد هذه الفرقة تقول: قال رسول الله، وفعل رسول الله، وقرّر رسول الله نقول: إن وسائط النقل عن النبي ومن عليهم الاعتماد من هؤلاء جاء الخطر وعلى أيديهم كان الإنحراف. . . وعودة سريعة إلى رواة الأحاديث تجد الشواهد الصادقة على ما أقول. . إن من يعتمد على نقل أبي هريرة لأحاديث النبي وسنته لم يقتف أثر النبي أو يتبعه وكيف يتبعه وهذا الراوي من أكذب الرواة وأشدهم اختلاقاً للحديث وتزويراً له وانحرافاً به. . .

من يعتمد على سلسلة فاسقة فاجرة كسمرة بن جندب وكعب الأحبار وعمران بن حطان وغيرهم كيف يهتدي إلى اقتفاء آثار الأنبياء ومتابعتهم. . .

(ولا يقتدون بعمل وصي). الوصي تصرفاته نافذة وتستمد شرعيتها من الموصي وهو النبي. . . وسلوكه وتصرفاته لا تتعرض لخطأ وهؤلاء الناس عندما ابتعدوا عن وصي رسول الله وهو الإمام علي ولم يقتدوا به بعمله كان هذا الإنحراف وهذا التفرق حيث اتخذوا أشخاصاً غيره أضلوهم السبيل وابتعدوا بهم عن الهدف الصحيح. . .

(ولا يؤمنون بغيب). والإيمان بالغيب من ضروريات الدين وأسس بنائه وعليه تقوم دعائمه وهو من صفات المؤمنين.

(ولا يعفون عن عيب). إذا كان يعفون من العفة فمعناه أنهم لا يستحون من العيب الذي هم فيه ولا يكفون أنفسهم عنه إذ من كان عفيفاً صائناً لنفسه عن العيب بحث عن الحق وسعى نحوه وبذل وسعه في سبيل الوصول إلى رفع العيب عنه، وأما إذا كان يعفون من العفو فهذا طعن فيهم بأنهم لم يلتزموا أخلاق الشرع وآدابه الذي يدعو إلى العفو والصفح. . .

(يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات). لضعف دينهم وخفة يقينهم لا يتورعون عما يشتبهون بحليته وحرمته فيرتكبونه ويعملون به عكس الأتقياء الذين همّهم الاجتناب عن المحرم وكذلك إهم يمارسون الشهوات التي يرغبون فيها ولو كانت محرمة أو غير مشروعة إنحرافاً منهم عن جادة الإيمان وسيراً وراء الحرام. . .

(المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا). للمعروف ميزان شرعي وعرفي يعرف به وللمنكر كذلك ميزان شرعي وعرفي يعرف به فما أمر به الشرع سواء كان

على نحو الإلزام أو الاستحباب كان معروفاً شرعياً وما نهى عنه الشرع على نحو الحرمة أو الكراهة فهو منكر شرعاً وعلى هذا الميزان تعرض الأمور والأعمال ويدخل تحت كل صنف ما يناسبه ولكن هؤلاء القوم خالفوا الميزان فأضحى المعروف عندهم ما رأوه بنظرهم وما ذهبوا إليه بحسب مصالحهم ومنافعهم وليس ما عليه الشرع والدين وكذلك المنكر ما رأوه منكراً بحسب قياسهم أو استحسانهم حكموا عليه بالمنكر وإن خالف الشرع والعرف وهذا النموذج من الناس نجد له كثرة كثيرة في مجتمعنا اليوم فالسفور في نظر الشرع منكر نرى النساء يحكمن بحسن ذلك ونرى الرجال يذهبون أيضاً إلى هذا ويدعون النساء إلى السفور والمجتمع يقوم على الربا فترى المعاملات الربوية منتشرة في كل مكان ومع أن هذا منكر شرعاً يذهب كثير من أصحاب الألقاب الفخمة إلى استحسان ذلك وتبريره اقتصادياً وهكذا دواليك. . .

(مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم). فكل أمر شديد صعب يعسر حله يعودون في حله وفك سره إلى أنفسهم وكأنهم من الأنبياء الذين يتنزل عليهم الوحي وتأتيهم أخبار السماء بالحقيقة الصافية وهذا طريق الضلال والإنحراف والغرور والكبرياء حيث يظنون بأنفسهم القدرة على حل كل مشكلة مع أن العقلاء يرجعون في الشدائد إلى أربابها وأهلها ممن أعطاهم الله القدرة والحكمة وهم الأنبياء والأئمة الهداة. . .

(وتعويلهم في المهمات على آرائهم كأن كل امرىء منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات وأسباب محكمات). وكذلك من سفههم وشطط الفكر عندهم أنهم يعتمدون على آرائهم وما عندهم من قليل الرأي وضئيل الفكر ثم علل ما ذهبوا إليه واعتمدوا عليه استهزاء بهم واحتقاراً لهم وبياناً لفشل ما استندوا عليه. . . إن كل رجل منهم كأنه إمام نفسه ليس له إمام يرجع إليه أو يقتدي به ويسمع قوله وقد أخذ من نفسه بأوثق الأسباب الناجية وبالطرق الصحيحة الصائبة التي لا تحتمل الخطأ أو الغلط.

وبعبارة أخرى إنهم لجهلهم غرتهم أنفسهم فظنوا أنها كاملة صافية تقودهم فيما يرتؤون إلى النجاة والفوز، وهذا منهم خطأ وغرور. . .

٨٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وبلاغ الإمام عنه

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ[١] مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ[٢] مِنَ الأُمَمِ[٣]، واعْتِزَامٍ[٤] مِنَ الفِتَنِ[٥]. وانْتِشَارٍ مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظٍّ[٦] مِنَ الحُرُوبِ، والدُّنْيَا كَاسِفَةُ[٧] النُّورِ، ظَاهِرَةُ الغُرُورِ[٨]، عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِها، وَإِيَاسٍ[٩] مِنْ ثَمَرِها، وَاغْوِرَارٍ[١٠] مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ[١١] مَنَارُ الهُدَى، وظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى[١٢]، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ[١٣] لأَهْلِها، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا. ثَمَرُها الفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الجِيفَةُ[١٤]، وَشِعَارُهَا[١٥] الخَوْفُ، وَدِثَارُهَا[١٦] السَّيْفُ. فاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ، وَاذْكُرُوا تِيكَ التي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ[١٧]، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ[١٨] بِكُمْ وَلاَ بِهِمُ العُهُودُ، وَلاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الأَحْقَابُ[١٩] والقُرُونُ[٢٠]، وَمَا أَنْتُمُ اليَوْمَ مِنْ يَوْمَ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ[٢١] بِبَعِيدٍ. واللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ اليَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ الأَبْصَارُ، وَلاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الأَفْئِدَةُ[٢٢] في ذلِكَ الزَّمَانِ، إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هذا الزَّمَانِ. وَوَاللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلاَ أُصْفِيتُمْ[٢٣] بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ البَلِيَّةُ[٢٤] جَائِلاً[٢٥] خِطَامُهَا[٢٦]، رِخْواً بِطَانُهَا[٢٧]، فَلا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ، إِلى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

اللغة

١ ـ الفترة	:	ما بين الرسولين.
٢ ـ الهجعة	:	النومة ليلاً.
٣ ـ الأمم	:	جمع أمة وهي الجماعة، الجيل من الناس، وتطلق على القوم الذين تحكمهم اللغة والعادات.
٤ ـ اعتزام	:	أراد من العزم وهي الإرادة.
٥ ـ الفتن	:	جمع الفتنة، المحنة، الإبتلاء.
٦ ـ التلظي	:	التلهب.
٧ ـ كاسفة	:	من كسفت الشمس إذا ذهب نورها.
٨ ـ الغرور	:	الأباطيل.
٩ ـ الإياس	:	القنوط وهو اليأس.
١٠ ـ الإغورار	:	للماء ذهابه.
١١ ـ درست	:	انطمست وانمحت.
١٢ ـ الردى	:	الهلاك.
١٣ ـ متجهمة	:	من تجهمه إذا استقبله بوجه كريه.
١٤ ـ الجيفة	:	الميتة.
١٥ ـ الشعار	:	ما يلي البدن من الثياب أي الثياب الملاصقة للبدن.
١٦ ـ الدثار	:	فوق الشعار.
١٧ ـ مرتهنون	:	محبوسون.
١٨ ـ تقادمت	:	بمعنى قدمت أي مضى على وجودها زمن طويل.
١٩ ـ الأحقاب	:	جمع حقب بضم وبضمتين قيل ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل الدهر.
٢٠ ـ القرون	:	جمع قرن وهو مئة سنة ويطلق على المدد الطويلة.
٢١ ـ الأصلاب	:	جمع صلب وهو فقرات الظهر.
٢٢ ـ الأفئدة	:	جمع فؤاد القلب.
٢٣ ـ أصفيتم	:	خصصتم.
٢٤ ـ البلية	:	المصيبة.
٢٥ ـ جائلاً	:	متحركاً.
٢٦ ـ الخطام	:	ما جعل في أنف البعير ليقاد به.
٢٧ ـ بطان البعير	:	الحزام الذي يجعل تحت بطنه.

الشرح

(أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم). في هذه الخطبة المباركة تذكير بمنافع البعثة المحمدية وكيف كانت سبب سعادة الإنسانية في الدنيا ونجاتها من النار في الآخرة وقدّم مقدمة في بيان ما كانوا عليه من الشقاء والتعاسة وكيف إذا حصلت منهم المخالفة الآن كانت الإنتكاسة والإرتداد إلى ما كانوا عليه. . .

ابتدأ عليه السلام بذكر رسول الله وإن الله سبحانه أرسله بعد انقطاع الرسل وتوقف بعثتهم إذ ليس بعد عيسى من نبي يحمل لواء الحق ويرفع أعلام الدين حتى منّ الله على البشرية ببعثة رسول الله رحمة للعالمين أرسله الله بعد انقطاع الرسل وبعد نوم الأمم عن مصالحها ومنافعها وما يقربها من الله وكيف تهتدي إلى منافعها وليس من مرشد يهديها أو نبي يقودها إلى الخير ويبيِّن لها منافعها وما يصلحها. . .

(واعتزام من الفتن وانتشار من الأمور وتلظ من الحروب). إذا كانت اعترام أي مع كثرة الفتن وشدتها إذ فشت الفتن بين الناس وأخذ القوي يقضم الضعيف والكبير يأكل الصغير.

وإذا كانت اعتزام فيكون المعنى أن الفتن لشدتها كأنها هي المريدة لما يقع بين الناس وهي الموجهة لهم نحو الشر والرذيلة. . .

وأما انتشار الأمور فهي الفوضى وعدم الضوابط بين الناس، انعدمت القوانين وسادت شريعة الغاب وقانون الناب.

وأما اشتداد الحروب واستعارها فقد كانت تندلع لأتفه الأسباب وأحقرها وتأتي على الحرث والنسل وما يذكره التاريخ نماذج لهذه الحروب التافهة كحرب البسوس التي اندلعت من أجل ناقة أو حرب داحس والغبراء وقد امتدت كل واحدة منهما عمراً طويلاً من حياة العرب وهكذا عند غيرهم من الأمم والشعوب. . .

(والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور). والدنيا مظلمة فلا هادي يأخذ بيدها إلى الهدى وينقذها من الردى، إنها تعيش الجهل والانحراف والضلال، فلا رسل ولا أنبياء ولا هداة ولا مبشرين ولا كتب ولا صحف. . ومع هذه الحالة السيئة فإنها تخدع أبناءها وتمنيهم ويعيشون على وعودها وآمالها فنرى الناس تنصرف إلى غير مرضاة الله. . .

(على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها واغورار من مائها). وهذا بيان

لحال الدنيا التافهة التي اغتر بها الإنسان وكيف كانت عند بعثة رسول الله فقد شبهها بشجرة اصفر ورقها وامتنعت من حمل الثمار حتى يئس الناس منها وجفّت مياه الحياة فيها حتى كادت أن تيبس فهي شجرة انقطع منها الأمل فلا منظر يبهج النظر ولا فائدة تنفع البشر، فالدنيا كانت على العرب صعبة شديدة ليس لهم منها الضروريات فضلاً عن الكماليات فلا استقرار ولا عدل فكيف يأتي غير ذلك من الرفاهية والرقي والتقدم. . .

(قد درست منار الهدى وظهرت أعلام الردى). وهذه بعض مآسي تلك الفترة التي سبقت بعثة رسول الله لقد فُقدت الأنبياء والرسل والمبشرون الذين كانوا يحملون الشرائع ويكشفون عن عيون الناس الغشاوة وينبهونهم إلى ما فيه خيرهم، وعلى العكس من ذلك فقد ارتفعت أصوات المبطلين والمضللين من عرافّين ومنجمين استولوا على عقول الناس وافئدتهم وراحوا يوجهونهم بالظنون وبكل أمر باطل لا ينفع ولا يفيد.

(فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طالبها). لا تصفو لطالبها ولا يأنس بها عاشقها من حيث أن صفوها مشوب بالكدر وحلاوتها ممزوجة بالمرارة فلا تريح أهلها ولا تأنسهم بل تزعجهم وتقلقهم. . .

(ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة وشعارها الخوف ودثارها السيف). هكذا كانت الدنيا قبل بعثة رسول الله، صورة مأساوية تشمئز منها النفس فلا تثمر إلا الضلال والإنحراف عن خط الأنبياء ففي حين يدعو الرسل إلى الإيمان بالله وتوحيده وإقامة حكمه فإن الجاهلية تقضي على ذلك وتنحرف عنه بالكفر به أو الإشراك به أو التنكر لأحكامه رما يريده ويحبه. . .

وأما طعام أبنائها فالخبائث مما كانت تجنيه سيوفهم من خلال الغزو والنهب والاعتداء على الآمنين. . .

وأما شعارها الملتصق بها الذي تعيشه في كل لحظة من لحظات حياتها ولا يكاد يفارقها فهو الخوف إنه حليفها في حلها وترحالها في ليلها ونهارها لأن كل فرد مهدد في وجوده ممن حوله من الأعراب الأقوياء الذين يتسلطون على الضعفاء فينتزعون منهم كرامتهم ومتاعهم وما عندهم من مواشي وحيوانات. . .

ودثارها السيف أي بعد الخوف الذي يعيش في قلوب الأعراب يأتي السيف من ورائها لتدفع عن أنفسها الغزو وتستعمل قوتها في وجه من يريد القضاء عليها ولذا قد تستمر الحروب وتدوم لفترة طويلة كما وقع بين بعض العرب مع بعضهم. . .

(فاعتبروا عباد الله). انظروا إلى هذه الحياة السابقة والفترة الماضية قبل بعثة

رسول الله، انظروا نظرة المتفعين في الرؤية المتعظين بها.

(واذكروا تيك التي آباؤكم وأخوانكم بها مرتهنون وعليها محاسبون). اذكروا تلك الحالة القبيحة السيئة التي عاشها آباؤكم وأخوانكم الذين تحبونهم وتتعصبون لهم فإنهم محبوسون بها يعيشون ضيقها وألمها وهم محاسبون عليها مجازون بها ومصيرهم من خلالها إلى العذاب والعقاب. . .

(ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود). حلف لهم أن ما جرى على حال أهلهم لم يكن غائراً في عمق الزمن القديم بحيث يُنسى وكذلك بالنسبة إليكم فأنتم على قرب مع ما جرى لهم وما كانت أحوالهم فأنتم لستم بعيدين عنهم وعما حدث لهم.

(ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون). لم يفصلكم عنهم أزمنة كثيرة أو قرون متطاولة مديدة بل العهد بهم متصل والمكان قريب ومن خاطبهم الإمام قد يكونون أبناء من وصفهم سابقاً وقد يكون بعضهم عاش مخضرماً بين الماضي الجاهلي والحاضر الإسلامي. . .

(وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد). فبالأمس كنتم في أصلاب آبائكم يتوجه النداء إليهم بالأصالة واليوم وقد أصبحتم رجالاً يوجّه إليكم النداء ولا يفصلكم في الحالين إلا مدة قليلة لا تذكر في عمر الزمن. . .

(والله ما أسمعهم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا مسمعكموه). لقد بلّغ الرسول إلى الآباء أصول الدين وأحكامه أسسه وتشريعاته وحذرهم وأنذرهم وخوفهم وبشرهم ولم يترك سبيلاً يقربهم من الله إلا وهداهم إليه ولم يترك أمراً يبعدهم عنه إلا وقد نهاهم عنه.

وقد قام الإمام بعد النبي بجميع مهامه في حق الأبناء لم ينقصهم شيئاً فقد تعلم هو من الرسول وكان تلميذه المتفوق فقام مقامه وأدى رسالته وبلّغ مهمته، فالرسول بلّغ الآباء والإمام يبلغ الأبناء بدون تفاوت أو نقصان. . .

(وما أسماعكم اليوم بدون أسماعهم بالأمس). إنكم تملكون من الأسماع كما ملك آباؤكم أسماعاً لم تنقص أسماعكم شيئاً حتى تعتذروا بعدم مجاراتهم أو عدم إدراكهم واللحاق بهم فما سمعتموه فحللوه وادرسوه وفكروا فيه جيداً. . .

(ولا شقت لهم الأبصار ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الزمان إلا وقد أعطيتم مثلها في هذا الزمان). فالله الذي فتح أبصارهم لينظروا ويعتبروا وجعل لهم قلوباً يفكرون بها ويحللون الأشياء ويدركون أسرارها هو سبحانه الذي جعل لكم في زمانكم

ما جعل لهم ووضع فيكم ما وضع فيهم والأبناء هم أنفسهم الآباء لا يفصلهم إلا الزمن. . .

(ووالله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ولا اصفيتم به وحرموه). فكل أمر ألقي إليكم قد ألقي إليهم فلم تعلموا أمراً وهم لم يعرفوه ولم تُخصصوا بأمر وهم قد حرموا منه بل ما نالكم نالهم ومعرفتكم كمعرفتهم فيجب أن تكونوا مثلهم، هم قد استجابوا للنبي واهتدوا بهداه فيجب أن تستجيبوا لي وتهتدوا إلى الله لأن القضية تحكمكم كما حكمتهم ويجب أن تشملكم كما شملتهم. . .

(ولقد نزلت بكم البلية جائلاً خطامها رخواً بطانها). لقد حلت بكم هذه المصيبة العظمى التي هي فتنة معاوية وخلافه وتمرده وعناده ولعله إشارة منه إلى ملك الأمويين وما ستلاقي الأمة من ملوكهم وأمرائهم، وإنها مصيبة شديدة قاسية صعبة خطرة شبّه من يركن إليها ويعتمد عليها بالناقة التي لم يستحكم زمامها منها ومن كان بيده لا يقدر على ضبطها والسيطرة عليها وهو راكب عليها وحزامها رخو أيضاً مضطرب في معرض السقوط والوقوع عن ظهرها فيهلك. . .

(فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود). وفي نهاية الخطبة حذرهم الدنيا وزينتها ونهاهم أن يُخدعوا فيها كما خدع من غرتهم بزينتها فسلبتهم الإيمان وقد شبهها بالظل من حيث أنها لا تبقى ولا تدوم بل هي في معرض الزوال والأفول على الدوام والاستمرار ومن أول يوم يسقط الإنسان فيه على الأرض يبتدأ بالرحلة نحو الآخرة ويدبر عن الدنيا. . .

٩٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على قدم الخالق وعظم مخلوقاته، ويختمها بالوعظ

الحَمْدُ للهِ المَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ[١]، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً؛ إِذْ لاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ[٢]، وَلاَ حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ[٣]، وَلاَ لَيْلٌ دَاجٍ[٤]، وَلاَ بَحْرٌ سَاجٍ[٥]، وَلاَ جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ[٦]، وَلاَ فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ[٧]، وَلاَ أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ[٨]، وَلاَ خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ[٩]: ذٰلِكَ مُبْتَدِعُ[١٠] الخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلٰهُ الخَلْقِ وَرَازِقُهُ، والشَّمْسُ وَالقَمَرُ دَائِبَانِ[١١] فِي مَرْضَاتِهِ: يُبْلِيَانِ[١٢] كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ.

قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى[١٣] آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ[١٤]، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الأَرْحَامِ[١٥] وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الغَايَاتُ.

هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ[١٦] عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ[١٧]، وَمُدَمِّرُ[١٨] مَنْ شَاقَّهُ[١٩]، وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ[٢٠]، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ. مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ.

عِبَادَ اللهِ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ[٢١] السِّيَاقِ،

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ وَلاَ وَاعِظٌ.

اللغة

١ ـ الرّوية : الفكر.
٢ ـ الأبراج : الأركان.
٣ ـ الإرتاج : الإغلاق من ارتج الباب إذا أغلقه.
٤ ـ الداجي : المظلم.
٥ ـ الساجي : الساكن.
٦ ـ الفجاج : جمع فج الطريق الواسع بين جبلين.
٧ ـ الإعوجاج : عدم الإستقامة.
٨ ـ المهاد : الفراش.
٩ ـ ذو اعتماد : ذو بطش وتصرف / أو ما يعتمد عليه من رجلين وما يقوم مقامهما.
١٠ ـ المبتدع : المنشىء للشيء من العدم.
١١ ـ دائبان : تثنية دائب وهو المجد المجتهد.
١٢ ـ يبليان : يفنيان.
١٣ ـ الإحصاء : أحصى الشيء حسبه وعدّه.
١٤ ـ خائنة الأعين : ما تسترقه الأعين مما لا يجوز لها.
١٥ ـ الأرحام : مكان نمو الجنين.
١٦ ـ النقمة : الغضب.
١٧ ـ عازه : غالبه.
١٨ ـ مدّمر : مهلك.
١٩ ـ شاقّه : عاداه ونازعه.
٢٠ ـ ناواه : عاداه.
٢١ ـ العنف : ضد الرفق واللين.

الشرح

(الحمد لله المعروف من غير رؤية). ابتدأ عليه السلام بحمد لله وذكر بعض أوصافه الجلالية والجمالية وأولها أنه معروف من غير رؤية بالأدلة والبراهين وبما زود الله

عباده به فطرة وعرفاناً، فإن النظام العام يحكم بوجود منظم وإن لم نكن نراه كمن يدخل إلى قرية منظمة كأبدع ما يكون ومجهزة بأدق ما تحتاج ولكنه لم يجد المهندس فهو ببساطة متناهية يحكم بوجوده وإن لم يره وهذا المعنى الفطري البسيط أقرب إلى فهم البشر من جميع الأدلة والبراهين وهذا ما عبّرت عنه أحاديث أهل البيت.

جاء رجل إلى الإمام أمير المؤمنين فقال له: خبّرني عن الله أرأيته حين عبدته؟.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لم أك[1] بالذي أعبد من لم أره.

فقال له: كيف رأيته يا أمير المؤمنين؟.

فقال له: يا ويلك لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقايق الإيمان، معروف بالدلالات، منعوت بالعلامات، لا يقاس بالناس ولا يدرك بالحواس.

فانصرف الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وهذا رجل يأتي[2] إلى الإمام الصادق فيقول له: أرأيت الله حين عبدته؟.

قال الصادق: ما كنت أعبد شيئاً لم أره.

قال: كيف؟.

قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقايق الإيمان لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس معروف بغير تشبيه.

(والخالق من غير رويّة). البشر الذين يحكمهم القصور والإمكان ويحتاجون في صنع شيء بسيط إلى وقت وإلى تصميم وإجالة فكرهم بما عندهم من معلومات للحصول على هذا الشيء فهو سبحانه منزه عن ذلك كل شيء حاضر عنده إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون. . .

(الذي لم يزل قائماً دائماً). فهو ثابت الوجود دائم البقاء لا يطرأ عليه تغيير أو تبديل أو تحوير أو تحويل لأنه واجب الوجود الأبدي الأزلي السرمدي.

(إذ لا سماء ذات أبراج ولا حجب ذات ارتاج). كان الله ولم يكن سماء ذات أبراج وهي منازل الشمس وحركتها وكذلك كان موجوداً ولا حجاب بينه وبين غيره إذ لا شيء غيره فهو المتفرد. . .

---

(١) احتجاج الطبرسي ج ١ ص ٢٠٩.

(٢) احتجاج الطبرسي ج ٢ ص ٣٣٦ طبعة مؤسسة الأعلمي.

(ولا ليل داج ولا بحر ساج). وكذلك كان ولم يكن ليل مظلم داكن ولا بحر ساكن هادىء فإن هذه كلها حدثت من فيض جوده وكرمه وبقوله كن فكانت. . .

(ولا جبل ذو فجاج ولا فج ذو اعوجاج). وكان سبحانه ولم يكن جبل ذو طرق واسعة تشقه ولا طرق معوجّة ملتوية بمعنى أنه كان سبحانه ولم يكن طرق تشق الجبل ولا طرق ملتوية.

(ولا أرض ذات مهاد ولا خلق ذو اعتماد). ولم يكن هناك أرض مبسوطة قابلة للحياة والراحة ولم يكن بشر ذو بطش وقوة وبعبارة أخرى يريد عليه السلام أن الله كان موجوداً قبل حدوث هذه الأشياء التي وجدت بعد العدم بقدرته تعالى وكرمه وفيض وجوده تدليلاً على عظمة الله وصغر هذه المخلوقات في جانبه. . .

(ذلك مبتدع الخلق ووارثه). مَنْ وصفناه بهذه الأوصاف هو الله خالق الخلق من العدم ومن اللاشيء وبقوله كن فكانت.

ثم إنه الباقي بعد فناء الأشياء ولا يبقى غيره، كل شيء هالك إلا وجهه. . .

(وإله الخلق ورازقه). فهو الخالق للخلق ورازقهم تنبيه لهم إلى وجوب الإيمان به والاعتماد عليه في الرزق والعطاء.

(والشمس والقمر دائبان في مرضاته يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد). نبّه عليه السلام على هاتين الآيتين حيث تمران على الناس في كل يوم ولكثرة تكرارهما فقد الإنسان الإحساس بهما ومالهما من أدوار وما يتركا من آثار.

فهما آيتان من آيات الله الدالتان على قدرته. . إنهما يسيران كما هو مرسوم لهما بإرادة الله التكوينية لا يختلفان ولا يتخلفان. . .

وهما يفنيان كل جديد لأن حركتهما تأتي على عمر هذا الموجود الذي لم يكتب له الدوام والبقاء طيلة الحياة وكذلك يقربان كل بعيد في نظر هذا الإنسان فربما كان يشير بذلك إلى يوم القيامة حيث يراه بعض الناس بعيداً فإن حركة الشمس والقمر تقربانه من هذا الإنسان وهذا كله تحريك لهذا الإنسان لكي يفكر في الحياة وما فيها وإنه لا شيء فيها يدوم وإنه لا بد من يوم يجزى فيه المرء بعمله. . .

(قسم أرزاقهم). فهو الذي وزّع الأرزاق حسب المصالح ولحكمة يعلمها قال تعالى: ﴿**نحن قسمنا معيشتكم في الحياة الدنيا. .**﴾ وإذا كان الله هو الذي قسم أرزاق العباد فلا يجب على العبد إلا أن يطرق الأبواب كما أراد الله ويجب عليه أن يسعى كما

أمر وبذلك يحقق أرادة الله . . .

(وأحصى آثارهم وأعمالهم وعدد أنفسهم). فهو العالم بما يجري في العالم قال تعالى: **﴿لا يعزب عنه مثقال [1] ذرة في السماوات والأرض . .﴾** وقال تعالى: **﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾** فهو سبحانه الذي عنده كل ما تركوا وما عملوا وعددهم فرداً فرداً . . .

(وخائنة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير). قال تعالى: **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾** وخائنة الأعين هي مسارقة النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه . . .

وفي هذا تنبيه لهذا الإنسان أن يصحّح سلوكه ويصلح داخله . . .

(ومستقرهم ومستودعهم من الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات). وهو سبحانه يعلم استقرارهم في أصلاب الآباء وتنقلهم من ظهر إلى ظهر كما يعلم استقرارهم في الأرحام وهم نطف لا تعقل يعلم وجود هذا الإنسان وهو نطفة متنقلة إلى أن تستقر في الأرحام ثم بعدها يعلم تنقلاته وأطواره وما يمر عليه إلى أن ينتهي إلى الغاية القصوى من الخير أو الشر من الجنة أو النار . . .

(هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته). فمع كونه أرحم الراحمين فإن عذابه شديد على الكافرين المعاندين والمخالفين وقيل إنه لا يشغله عذابه عن رحمته فهو في نفس الوقت الذي يرحم المطيعين يعذب العاصين . . .

(واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نقمته). فهو مع كونه شديد العقاب فإن رحمته وسعت كل شيء . . .

وقيل إنه مع كونه يرحم المطيعين يعذب العاصين . . .

(قاهر من عازه). من أراد مشاركة الله في عزته ويدعيها لنفسه كما هي لله فإن الله لن يمهله بل يأخذه كما أخذ الطغاة والجبابرة والعزة لله جميعاً . . .

(ومدمّر من شاقه). أي مهلك من خالف أمره ونهيه واتخذ طريقاً يخالفه.

(ومذل من ناواه). ومن خالف الله أذله لأنه خرج عن الحدود الطبيعية التي يجب أن يأخذ منها العزة فكان أن عومل بضدها . . .

---

(١) سورة سبأ آية/ ٣٤.

(وغالب من عاداه). من عادى الله وحاربه فالله هو المنتصر عليه الغالب له وما قيمة محاربة العبد الصغير للرب الجليل. . .

(من توكل عليه كفاه). والتوكل على الله هو الاعتماد عليه في انجاح المطلوب ومن أراد التوكل على الله فعليه أن يأتمر بأمره وهو سبحانه قد أمر بالأخذ بالأسباب التي وضعها للأمور فمن أخذ بها وانقطع إلى الله في انجاحها فإنه أخذ على نفسه إنجاحها ولا بد من ذلك وإلا لكان خلق الأسباب للمسببات عبثياً تعالى الله عن ذلك.

(ومن سأله أعطاه). وإذا كان كرام البشر يستحون من رد السائل ولا يليق بشأنهم ذلك فكيف بأكرم الأكرمين الذي منح الكرم للكرام، إنه سبحانه ليس في ساحته بخل أو شح يعطي تكرماً بدون مسألة فكيف لا يعطي من سأله.

(ومن أقرضه قضاه). من أقرض الله وفاه أضعافاً مضاعفة كما قال تعالى: **﴿من[1] ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾**. قال الطبرسي في مجمع البيان: سمى تعالى الإنفاق قرضاً تلطفاً للدعاء إلى فعله وتأكيداً للجزاء عليه فإن القرض يوجب الجزاء. . .

(ومن شكره جزاه). من شكر الله على نعمه وقام له بحقها كان حقاً على الله أن يجازيه ويثيبه عليه بل يزيده كما قال تعالى: **﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾**.

(عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا). وهذه الحكمة العلوية يستعذبها اللسان وتستأنس بها الآذان، نشيد يردده الخطباء والوعاظ وأصحاب المنابر والدعاة إلى الله. . . كلمة ندية تسري إلى الروح فتحرك ما تحجر منها وقسى وتفجر فيها منابع العودة إلى الله والرجوع إليه. . .

عباد الله. . . أنتم أيها البشر، المربوبون الصغار الذين تكبرون بنسبتكم إلى الله. . . عباد الله كلمة عز إذا خاطبت بها الناس. . . عباد الله زنوا أنفسكم انظروا إلى أعمالكم وسلوككم هل على طبق ما أمر الله فإذا كانت مستقيمة عادلة فأكملوا الطريق وإلا فاعدلوا عنه إلى المستقيم منه فإن في المستقبل ـ يوم القيامة ـ يوزنها الله ولا تستطيعون تعديلها أو تصحيح ما مال منها.

وحاسبوها في الدنيا واضبطوا تصرفاتها وأوقفوها على حسناتها كي تستزيد منها

---

(١) سورة البقرة آية/ ٢٤٥.

وعلى سيئاتها كي تجتنب عنها. . . حاسبوها أنتم ولا تهملوها إلى يوم القيامة فإنها إذا وزنت هناك خسرت وإذا خسرت فلا تستطيع بعد ذلك ربحاً أو تعويضاً. . .

(وتنفسوا قبل ضيق الخناق وانقادوا قبل عنف السياق). انتهزوا الفرصة واعملوا واستغلوا أوقاتكم واجمعوا الحسنات قبل أن يأتيكم الموت وشدائده وما فيه من غم فيقطع ذلك كله، وانقادوا لما أمر الله وأطيعوه قبل أن تأتي ملائكة الموت فيجذبون الأرواح ويسوقونكم قهراً عنكم بقوة وقسوة. . .

(واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها لا زاجر ولا واعظ). إذا لم يُعنْ هذا الإنسان على نفسه الشريرة من داخل نفسه سقطت عندها كل الزواجر والمواعظ الخارجية. . . والمواعظ الداخلية هي الرشد العقلي والتفكر والانتباه وحكم العقل بزوال هذه الدنيا وفنائها وبقاء الآخرة ودوامها. . . هي حكم العقل بحسن الطاعة لله وقبح المعصية وحمل هذه النفس على الأولى وزجرها عن الثانية وكم من فرد هداه الله بلفتة صغيرة إلى نفسه أنقذته من الجحيم وأدخلته جنات النعيم. . .

٩١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

تعرف بخطبة الأشباح، وهي من جلائل خطبه عليه السلام

روى مسعدة بن صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة على منبر الكوفة، وذلك أن رجلاً أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عياناً لنزداد له حباً وبه معرفة، فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال: .

وصف الله تعالى

الحَمْدُ للهِ الَّذي لاَ يَفِرُهُ(١) المَنْع(٢) والجُمُودُ(٣)، وَلاَ يُكْدِيه(٤) الإِعْطَاءُ وَالجُودُ، إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ، وَهُوَ المَنَّانُ(٥) بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ(٦) المَزِيدِ وَالقِسَمِ؛ عِيَالُهُ(٧) الخَلاَئِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ(٨)، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ(٩)، وَنَهَجَ(١٠) سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ. الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، وَالرَّادِعُ أَنَاسِيَّ(١١) الأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الحَالُ، وَلاَ كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانْتِقَالُ. وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ(١٢) البِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ(١٣) اللُّجَيْنِ(١٤) وَالعِقْيَانِ(١٥)، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ(١٦) وَحَصِيدِ المَرْجَانِ(١٧)، مَا أَثَّرَ ذلِكَ فِي جُودِهِ، وَلاَ أَنْفَدَ(١٨) سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ(١٩) الأَنْعَامِ مَا لاَ تُنْفِدُهُ

مَطَالِبُ الأَنَامِ، لأَنَّهُ الجَوَادُ الَّذِي لاَ يَغِيضُهُ[٢٠] سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلاَ يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ[٢١] الْمُلِحِّينَ.

اللغة

١ ـ يفره : من وفر وفوراً إذا تم وكمل ويفره يزيد ماله وفوراً ويتممه.
٢ ـ المنع : منعه الشيء ومنه وعنه حرمه إياه والمانع الضنين الممسك.
٣ ـ الجمود : البخل.
٤ ـ يكديه : يفقره وينفد خزائنه.
٥ ـ المنان : من المنّ وهو إظهار الاصطناع واعتداد الضايع كأن تقول: ألم أعطك ألم أعنك ألم...
٦ ـ العوائد : جمع العائدة وهو المعروف والصلة.
٧ ـ العيال : للرجل هم أهل بيته الذين تجب نفقتهم عليه.
٨ ـ ضمن أرزاقهم : تكفّل والتزم بأرزاقهم.
٩ ـ الأقوات : جمع قوت ما يأكله الإنسان ويقتات به.
١٠ ـ نهج : الأمر أبانه وأوضحه.
١١ ـ أناسي : جمع أنسان وانسان البصر هو ما يرى وسط الحدقة ممتازاً عنها في لونها.
١٢ ـ الأصداف : غشاء الدّر.
١٣ ـ الفلز : بكسر الفاء واللام وتشديد الزاء الجوهر النفيس.
١٤ ـ اللجين : الفضة الخالصة.
١٥ ـ العقيان : الذهب الخالص.
١٦ ـ نثارة الدر : ما تناثر منه، والدر هو اللؤلؤ.
١٧ ـ المرجان : جمع مرجانة صغار اللؤلؤ.
١٨ ـ أنفد : من نفد الشيء إذا فني.
١٩ ـ الذخائر : جمع ذخيرة ما يخبؤه الإنسان لوقت الحاجة.
٢٠ ـ يغيضه : ينقصه.
٢١ ـ الإلحاح : مصدر ألحّ على الأمر أي أقام عليه دائماً فهو يطلبه مستمراً.

الشرح

(الحمد لله الذي لا يفره المنع والجمود ولا يكديه الإعطاء والجود إذ كل معط منتقص سواه وكل مانع مذموم ما خلاه). ابتدأ عليه السلام بحمد الله ووصفه بأوصاف الجلال والكمال تنزيهاً له عما لا يليق به وعما ذهب إليه هذا السائل أو توهمه.

الحمد لله الذي لا يزيد في ملكه منعه عن العطاء كما أنه لا ينقص من ملكه شيء إذا منح وأعطى فملكه ثابت لا يتعرض للزيادة بالمنع كما لا يتعرض للنقصان بالعطاء.

وقد بيّن ميزة الله عن البشر وإن كل معط من الناس ينقص رصيده إذا أعطى وكل من يمنع عن العطاء وهو قادر عليه يذم ويعاب وأما الله فهو سبحانه الذي لا ينقص من ملكه شيء إذا أعطى ولا يذم إذا منع لأن ما يملكه الإنسان محدود معدود وبالعطاء يقل أو ينقص أما هو سبحانه فإنه يملك الكون وما فيه وعطاؤه يبقى تحت يده وسلطانه دون نقصان.

ومن لم يعط من الناس يوصف بالبخل والشح ويذم على بخله ومنعه وأما الله فإنه سبحانه يمنع من العطاء لحكمة راجعة لصالح هذا الإنسان فالمنع منه صفة كريمة كالعطاء سواء بسواء.

ثم إن المنع إنما يكون مذموماً إذا كان فاعله مانعاً لذي حق حقه وسبحانه ليس كذلك إذ ليس لأحد على الله حق حتى يكون منعه مذموماً.

وسئل الرضا عليه السلام عن الجواد؟.

فقال: إن لكلامك وجهين فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إذا أعطى وهو الجواد إذا منع لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك وإن منعك منعك ما ليس لك.

وأخيراً الذي يطرأ عليه النقص ويوصف بالبخل هو الممكن وليس واجب الوجود المستغني عن كل موجود...

(وهو المنان بفوائد النعم). وهذه صفة كريمة لله يمتدح نفسه بها وهو إنه الذي يستحق أن يمنّ على عباده بما أعطاهم ومنحهم من النعم تذكيراً لهم بوجوب القيام بشكرها وإداء ما عليهم من حقها...

(وعوائد المزيد والقسم). وكذلك له المنة بعطاياه الكثيرة وما قسمه لعباده سواء

كان القسم أمراً مادياً أم معنوياً. . .

(عياله الخلائق ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم). عيال الرجل من يعولهم ويتكفل بهم وعليه مؤنتهم وباعتبار أن الله هو القائم بشؤون الخلق والرازق لهم والمعطي فهم عياله وقد تكفل لهم بصلاح دنياهم وآخرتهم أما في الدنيا فقد أخذ على نفسه أن يرزقهم ما يكملون به شوط الحياة من الأرزاق وأعطى لكل نفس نصيبها مما تحتاج من القوت فهو سبحانه الذي رزق النطفة في رحم الأم ورباها هو سبحانه الذي حول ذلك الرزق إلى ثديها فأعطته لبناً سائغاً ثم رزقه بعد الفطام وكذلك بعد أن أصبح رجلاً إلى أن تنتهي حياته من هذه الأرض. . .

(ونهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه). وهو سبحانه قد سنّ للراغبين إليه وإلى المتقربين منه وللطالبين ما عنده من نعيم وخير سن لهم الشريعة التي تؤهلهم لبلوغ مرامهم والوصول بهم إلى مرادهم فإن من عمل بأحكام الله واتبع ما أنزل استطاع الوصول إلى الله وإدراك ما عنده من النعيم. . .

(وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل). هذا تنزيه لله عن صفات المخلوقين من البشر الذين يتأثرون بالسؤال فيعطون إذا سئلوا وقد يمنعون بدونه والله منزه عن ذلك يعطي على كل حال حسب قابلية الموضوع وأهليته وقد أعطى بدون سؤال لكل نفس ما تعيش فيه وتحفظ وجودها منذ كونها نطفة وإلى آخر العمر. . .

(الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده). هو الأول بحسب كونه علة للوجود ولكل موجود لأنه خالقها وصانعها ولكن أوليته ليس لها حد لأنها متى تحددت بزمان كان هناك شيء قبله ولا أقل من الزمان والله سبحانه كان ولم يكن زمان ولا مكان وكذلك آخريته باعتبار أنه الباقي بعد فناء الأشياء وليس معناه أن له نهاية يتوقف عندها وإلا لم يكن واجب الوجود لأنه متى حدد له أمد كان هناك بعده شيء ولا أقل من الزمان نفسه والله سبحانه منزه عن ذلك. . .

(والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه). وهذا من مواقع عظمة الله جل جلاله أنه يمنع حدقات العيون أن تطاله أو تدركه لأنها لا تدرك إلا المحدود المنظور والله منزه عن الجهة التي تحده وعن الجسمية وعوارضها التي تقع تحت النظر قال تعالى: **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. . .﴾**.

(ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال). الله هو الذي خلق الزمان فلا يأتي عليه الزمان أو يقع تحت دورته حتى يؤثر فيه ويعرّضه لما تتعرض إليه الأشياء من نقص أو

تلف أو غيرها من الأمور التي يأتي عليها الزمن فيغيرها. . .

(ولا كان في مكان فيجوز عليه الإنتقال). الله سبحانه فوق الزمان والمكان، كان سبحانه ولم يكونا ويبقى ويفنى كل شيء، فلم يكن مكان حتى يقال: إنه كان في هذا المكان وتحول منه إلى غيره من الأمكنة.

(ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فلز اللجين والعقيان ونثارة الدر وحصيد المرجان ما أثر ذلك في جوده ولا أنفد سعة ما عنده). وهذا بعض من الكرم الإلهي والرصيد الرباني ذكره لرغبة الناس فيه وتنافسهم في اقتنائه وإن عطاءه لا ينفد ولا يتوقف ولا يؤثر عليه شيء، فلو وهب كل غالٍ ونفيس بما في البر والبحر ما نقص ملكه ولا شح عطاؤه، لو وهب ما أخرجت الجبال من الفضة والذهب والبحار من الدر والمرجان ما نفد ما عنده ولا تأثر به لأن العطاء يؤثر في البشر من حيث نقصان رصيدهم مهما كان كبيراً وتصغيره مهما كان عظيماً أما من يملك الموجود ويبتدع كل ما يريد بكلمة كن فلن يتأثر بذلك بوجه من الوجوه. . .

(ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفد مطالب الأنام لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين ولا يبخله إلحاح الملحين). فالله سبحانه لا تنفد خزائنه مهما كانت مطالب البشر وحاجياتهم كثيرة لأنه الجواد المطلق الذي لا ينقصه سؤال السائلين مهما كانت كثيرة لأنها أقل من أن تؤثر عليه لأنه الغني بالذات موجد الأشياء من العدم، كما أنه لا يقع عليه ما يقع على البشر من البخل إذا أكد الإنسان عليهما لطلب وداوم وكرر ذلك، لأن ما عندهم ينفد ويقل فيصدر عنهم البخل والشح حفظاً لما لهم وإبقاء له، وأما الله فهو مصدر العطاء وليس في ساحته بخل أو شح. . .

صفاته تعالى في القرآن

فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ: فَمَا دَلَّكَ[١] الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ[٢] وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ[٣]، وَلاَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ[٤]

عِلْمَهُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذلِكَ مُنْتَهى حَقِّ اللهِ عَلَيْكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ[٥] فِي العِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ[٦] السُّدَدِ[٧] المَضْرُوبَةِ دُونَ الغُيُوبِ، الإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الغَيْبِ المَحْجُوبِ، فَمَدَحَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ اعْتِرَافَهُمْ بِالعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ[٨] فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ البَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَاقْتَصِرْ عَلَى ذلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ. هُوَ القَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ[٩] الأَوْهَامُ[١٠] لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ[١١] قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الفِكْرُ المُبَرَّأُ[١٢] مِنْ خَطَرَاتِ[١٣] الوَسَاوِسِ[١٤] أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ[١٥] القُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ[١٦] مَدَاخِلُ العُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا[١٧] وَهِيَ تَجُوبُ[١٨] مَهَاوِيَ[١٩] سُدَفِ[٢٠] الغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ[٢١] مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ[٢٢] الاعْتِسَافِ[٢٣] كُنْهُ[٢٤] مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ[٢٥] خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ. الَّذِي ابْتَدَعَ[٢٦] الخَلْقَ عَلَى غَيْرِمِثَالٍ[٢٧] امْتَثَلَهُ[٢٨]، وَلاَ مِقْدَارٍ احْتَذَى عَلَيْهِ[٢٩]، مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَاعْتِرَافِ الحَاجَةِ مِنَ الخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ[٣٠] قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ الحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتِ البَدَائِعُ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً[٣١]، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى المُبْدِعِ قَائِمَةٌ[٣٢]. فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَتَلاَحُمِ[٣٣] حِقَاقِ[٣٤] مَفَاصِلِهِمُ المُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعْقِدْ[٣٥] غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ

يُبَاشِرْ(٣٦) قَلْبَهُ اليَقِينُ بِأَنَّهُ لاَ نِدَّ(٣٧) لَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ(٣٨) التَّابِعِينَ مِنَ المَتْبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: «تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ»! كَذَبَ العَادِلُونَ بِكَ(٣٩)، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ، وَنَحَلُوكَ(٤٠) حِلْيَةَ(٤١) المَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ المُجَسَّمَاتِ(٤٢) بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ(٤٣) عَلَى الخِلْقَةِ(٤٤) المُخْتَلِفَةِ القُوَى، بِقَرَائِح(٤٥) عُقُولِهِمْ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ(٤٦) آيَاتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ(٤٧) حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ(٤٨) فِي العُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً(٤٩)، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ(٥٠) خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً(٥١).

اللغة

١ ـ دلك	:	أرشدك، وهداك.
٢ ـ أتم به	:	جعله إماماً واقتدى به.
٣ ـ الفرض	:	الواجب.
٤ ـ فكلّ علمه	:	فوض علمه.
٥ ـ رسخ	:	ثبت.
٦ ـ الاقتحام	:	الدخول في الأمر بشدة دفعة.
٧ ـ السُّدد	:	جمع سدة الباب، أو الرتاج.
٨ ـ التعمق	:	في الأمر المبالغة لطلب أقصى غايته.
٩ ـ أرتمت	:	ترامت، تقاذفت وتضاربت.
١٠ ـ الأوهام	:	جمع الوهم ما يقع في القلب من الخاطر.
١١ ـ منقطع	:	الشيء ما إليه ينتهي.
١٢ ـ المبرّأ	:	المجرد، المنزه.
١٣ ـ خطر	:	الشيء إذا عرض له.
١٤ ـ الوساوس	:	ما يخطر في القلب من شر أو ما لا خير فيه.

١٥ ـ تولهت	:	من الوله وهو شدة العشق، والتحير.
١٦ ـ غمضت	:	من غمض الحق إذا خفي مأخذه.
١٧ ـ ردعها	:	منعها، وكفّها.
١٨ ـ تجوب	:	من جاب البلاد إذا قطعها.
١٩ ـ المهاوي	:	المهالك.
٢٠ ـ السدف	:	جمع السدفة وهي الظلمة.
٢١ ـ جبهه	:	رده.
٢٢ ـ الجور	:	الظلم.
٢٣ ـ الاعتساف	:	هو المشي على غير جادة معلومة.
٢٤ ـ كنه	:	الشيء، أصله وحقيقته.
٢٥ ـ الرويّات	:	جمع رويّة وهي الفكر.
٢٦ ـ الابتداع	:	هو إيجاد الشيء من العدم المحض على غير مثال سابق.
٢٧ ـ المثال	:	المقدار والصفة.
٢٨ ـ امتثله	:	حاذاه وحاكاه.
٢٩ ـ احتذى عليه	:	سلك مسلكه.
٣٠ ـ المساك	:	بكسر الميم ما يمسك الشيء.
٣١ ـ الصامت	:	كل ما ليس بناطق فيشمل كل ما عدا الإنسان.
٣٢ ـ قائمة	:	شاهدة.
٣٣ ـ التلاحم	:	تلاصق الشيء وتلاؤمه.
٣٤ ـ الحقاق	:	جمع حق وهو رأس العظم عند المفصل.
٣٥ ـ يعقد	:	من عقد الحبل نقيض حلّه وعقد البيع أحكمه.
٣٦ ـ يباشر	:	من باشر الأمر إذا تولاه بنفسه.
٣٧ ـ الند	:	المثل والنظير.
٣٨ ـ تبرأ	:	من هذا الفعل.
٣٩ ـ العادلون بك	:	الذين جعلوا لك عديلاً ونظيراً.
٤٠ ـ نحلوك	:	أعطوك.
٤١ ـ الحلية	:	الصفة.
٤٢ ـ المجسمات	:	جمع مجسّم وهو كل جسم له طول وعرض وعمق.
٤٣ ـ قدروك	:	قاسوك.
٤٤ ـ الخلقة	:	بكسر الخاء الفطرة.
٤٥ ـ القرائح	:	جمع قريحة وهي قوة الفكر.

٤٦ ـ المحكمات : جمع محكم وهو المتقن، الذي ليس له إلا معنى واحد واضح.
٤٧ ـ الشواهد : جمع شاهد وهو الذي يخبر بما شهده ورآه.
٤٨ ـ تناه الشيء : بلغ الغاية.
٤٩ ـ المكيف : ذو الكيفية المخصوصة.
٥٠ ـ رويات : جمع روية وهي الفكر.
٥١ ـ مصرفاً : من تصريف الرياح وهو تحويلها من وجه إلى وجه ومن حال إلى حال.

الشرح

(فانظر أيها السائل فما دلك القرآن عليه من صفته فائتم به واستضيء بنور هدايته). وهذا إرشاد وبيان وإن كان يخاطب به السائل ولكن يراد به العموم ـ يبين فيه الإمام كيف يكون الثناء على الله وأوصافه التي هي له...

أرشده إلى القرآن الذي هو خطاب الله لهذا الإنسان وبه كل الحقائق الصادقة فما وصف الله به نفسه فكن أنت ـ وجميع الخلق مقتدون به سائرون على نهجه؛ وصف نفسه بالرحمان الرحيم العليم الخبير السميع البصير إلى غيرها من الصفات فالمؤمن يصف الله بكل ما جاء له من صفة ويأخذ الحقيقة صافية نقية طاهرة من هذا الكتاب الكريم...

(وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك). لما أمره باتباع ما ورد في القرآن من صفات الله نهاه أن يتبع ما يكلفه الشيطان علمه مما ليس موجوداً في الكتاب الكريم وسنة النبي والأئمة وذلك أن الشيطان بوساوسه يأخذ في تفكير الإنسان ويشده إلى البحث وراء ما ورد في الكتاب والسنة ويحثه إلى التعمق في الأمور حتى يشط به التفكر وينحرف فيأخذ في وصف الله بما لا يليق به ولا يناسب ذاته الشريفة.

أما إذا وقف عند الصفات المذكورة في الكتاب والسنة وترك الأمر في غير ذلك إلى الله بأن يؤمن على وجه الإجمال بكل صفة هي لله كمال كفاه ذلك ولا يحتاج إلى الزيادة ويكون قد بلغ النهاية في أداء حق الله المتوجب عليه...

(واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون

الغيوب الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب). وهذا ترغيب لهذا الشخص ولنا بذكر الراسخين في العلم أصحاب العلم الثابت الذين يعرفون حقائق العلم وبحور المعرفة فهؤلاء من خلال موقفهم يمكن أن يكونوا قدوة لنا وأسوة، هؤلاء استغنوا عن طرق هذه الأبواب المسدودة والأسوار المضروبة دون هذا الغيب المجهول بالاعتراف على وجه الإجمال بكل ما جهلوا تفسيره ومعرفته من هذا الغيب المحجوب. فما كان مستوراً لم يعرفوا معناه أوكلوا معرفته إلى الله واكتفوا بذلك. . .

(فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً). قال تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾**. فهؤلاء الراسخون في العلم المتعمقون فيه إذا وصلوا إلى الأبواب الموصدة ولم يقدروا على فتحها بمعرفتهم لم يذهبوا بعيداً بل عادوا بها إلى الله وآمنوا بها على إجمالها وأوكلوا معرفتها لله فمدحهم الله بأنهم الراسخون في العلم.

(فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين). أمره أن يقتصر على ما ورد في الكتاب والسنة عن النبي وأئمة الهدى لأن في ذلك كفاية لبيان المطلوب وما زاد عن ذلك فيكل علمه إلى الله ونهاه بعد ذلك عن أن يقدر عظمة الله وسلطانه وما له بحسب عقله القاصر فيهلك لأن العقل البشري لقصوره عن إدراك عظمة الله يصوّر العظمة بحسب ما يتوهمه من الأمور التي رآها فيقع في تكوين صورة العظمة الإلهية على غير حقيقتها ويعتقد صحتها وبذلك يخرج عن الحقيقة ويهلك نفسه لانحرافه ونسبته إلى الله من الأمور ما لا يليق بشأنه.

(هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته). ذكر أن الله هو القادر بقول مطلق الذي لا يعجزه شيء. . .

وذكر عليه السلام بعض المحاولات التي يمكن أن يقوم بها الإنسان ثم رد الإمام باستحالة الوصول إلى الغاية وبفشل جميع المحاولات. . .

وأولها فشل الأوهام التي إذا جالت وصالت واسترسلت بكل قدرتها مجدة في الوصول إلى غاية ومنتهى قدرة الله عجزت وكلت. . .

وثانيها ما يمكن أن يحاوله الفكر الصافي الطاهر الموضوعي النزيه الذي لا تشوبه شائبة الوسوسة والانحراف أو شيء من الاضطراب ليصل إلى مغيبات علمه كذلك عجز وكلّ ورجع خاسئاً . . .

(وتولّهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته وغمضت مدخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ردعها). وهذه ثالثة المحاولات الفاشلة التي لم يكتب لها الفوز والنجاح إن القلوب مهما اشتد عشقها إليه فإنها تعجز عن ادراك صفاته ومعرفتها على حقيقتها لأن الصفات عين الذات وهذا الإنسان اعجز من أن يصل إلى ذلك.

ورابع المحاولات الفاشلة أن العقول إذا استطاعت أن تنفذ إلى دقائق العلوم النظرية وعمقها بحيث بلغت حد العجز في وصفها لدقتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته عجزت عن ذلك وردها ومنعها عن ادراك ما أملت وهذا المنع والعجز لقصور في هذه الوسائل والآلات ولعظمة الله وجلاله الذي لا يُحدّ ولا يُعدّ ولا يقع تحت شيء من وسائل البشر.

(وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب متخلصة إليه ـ سبحانه فرجعت إذا جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ولا تخطر ببال اولي الرويّات خاطرة من تقدير جلال عزته). إن تلك المحاولات ردها الله ومنعها وهي تقطع ظلمات الغيوب لادراك ذات الله أو صفاته أنه سبحانه منعها عن ذلك فاعترفت بعد هذا التجوال الطويل أنه سبحانه لا يدرك ولا يعرف بهذا الاسلوب ولا يمكن الوصول إليه بهذا الطريق غير السليم لأن بينه وبين خلقه منازل غير متناهية لا يمكن ادراكها أو الوقوف عليها واجتيازها.

وكذلك اعترفت العقول الحصيفة بأنها لا تقدر على أن تتصور جلال الله وقوته وعزته على حقيقتها وكما هي في الواقع . . .

(الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله ولا مقدار احتذى عليه من خالق معبود كان قبله). وهذه إحدى صفات الله الكريمة وبها ينزه عن مشاركة البشر، إنه سبحانه خلق الخلق من العدم وأنشأه من اللا وجود بدون أن يتصوره أولاً ثم يخلقه كما يتصوره كما أنه لم يكن ايجاده له على نحو قد تقدم عليه ووجود سابق من إله معبود غيره ثم هو قلده في ذلك واتبعه في خلق هذا العالم، حاشا لله أن يكون كذلك وهو الأول الذي تنتهي إليه الموجودات وهو الآخر الذي لا آخر له . . .

(وأرانا من ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف الحاجة من

الخلق إلى أن يقيمها بمساك قوته). هذا بيان لا مكان معرفته بآثاره وما خلقه من هذا العالم فإنه سبحانه أرانا من ملكه العظيم الذي خلقه بقدرته ما يدل على معرفته.

كما أن عجائب افعاله وأعماله وما افصحت عنه من الاتقان والحكمة والسداد والصواب يدل على أن هناك خالقاً مبدعاً لها وقائماً عليها.

وكذلك المخلوقات كلها تحكي فقرها وحاجتها إليه ليبقى وجودها ويحفظها من التفتت والانهيار..

(ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته). أرانا جميع ما تقدم ـ من ملكوت القدرة وعجائب آثاره واعتراف الحاجة من الخلق ـ أرانا كل هذا ليدلنا من خلالها بالبداهة والفطرة وبالنظرة البسيطة إلى وجود الأدلة والبراهين على وجوده فإن من تفكر في هذه الأمور اكتشف من خلالها بكل بساطة وجود الله وأهم صفاته كالقدرة والعلم وغيرها...

(فظهرت البدائع التي احدثتها آثار صنعته وأعلام حكمته فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة ودلالته على المبدع قائمة). ما ابدعه الله من خلقه في حسن صورة وتناسق ودقة وحكمة سواء كان في العالم الكبير الذي هو الكون أو العالم الصغير الذي هو الإنسان كل ذلك حجة له على خلقه بأنه الله الواحد الأحد ودليلاً يدل عليه فصار كل ما خلق يحكي عن وجوده وحجة له على خلقه ودليلاً عليه حتى الصامت كالجمادات تحكي وجود الله وتدلل عليه بلسان الحال الذي يحكمها وهو الامكان والفقر واحتياجها إلى موجد يوجدها ويخرجها من زاوية العدم فإن كل ذلك يحكي عنه ويبرهن على وجوده...

(فاشهد أن من شبهك بتباين اعضاء خلقك وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبه لتدبير حكمتك لم يعقد غيب ضميره على معرفتك ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ندلك). أراد عليه السلام أن ينزه الله عن مشابهته لمخلوقاته فشهد أن من شبه الله بخلقه الذين خلقهم وخلق لهم اعضاء متباينة وجعلها متلاحمة مكسوة باللحم لتحفظ من الفساد منْ شبّه الله بمثل هذا المخلوق ذو التركيب لم يعرف الله ولم يهتد إليه ولم يحصل له اليقين بأنه لا نظير له ولا شبيه.

(وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾). هذا شاهد له ودليل على ما قال من أن من شبه الله بخلقه لم يعرفه فقد حكت الآية الكريمة قول المشبهة فقال تعالى: **﴿فكبكبوا فيها هم**

والغاوون وجنود ابليس أجمعون﴾ وقالوا وهم فيها يختصمون ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾. فقد انتبهوا لضلالهم وكفرهم حينما سووا الله بخلقه وشبهوه بهم فقد حكى الله عنهم منكراً تصرفهم وما ذهبوا إليه من تسويتهم لله بهم...

(كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم). أراد زيادة التأكيد على ضلال المشبهة فقال إن من ساواك بغيرك فقد كذب ولم يصدق ولم يعرف الحقيقة، أرادوا تشبيهك بأصنامهم الجامدة فقالوا: إنك مثلها صورة وهيئة ولذا وضعوها في أماكن عبادتهم ليضلوا العباد.

وكذلك كذب الذين اعطوك صفة المخلوقين من خلقك بشراً أم ملائكة فإن أوهامهم القاصرة صورت لهم أنهم قد وصلوا إلى الحقيقة وأدركوا الواقع ولكنهم لم يحصلوا إلا على الانحراف والضلال.

(وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم). وكذب الذين جعلوك مركباً وجزأوك كما تتجزأ المجسمات التي لها طول وعرض وارتفاع وكذلك كذب الذين قدروك على صورة بشر تحكمك هذه العناصر المختلفة التي يتكون منها الجسد فإن هذا منتهى ما وصلت إليه عقولهم وهي قاصرة عن ادراك الحقيقة والوصول إليها...

(وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك). وهذه شهادة ثانية على كفر من شبه الله بخلقه لأن من شبه الله بخلقه فقد ساواه بغيره ومن ساواه بغيره جعل له شريكاً وهو كفر صريح وإلحاد فصيح بحكم الآيات الواضحة في الكتاب العزيز حيث يقول: **﴿وجعلوا لله انداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾** وكذلك العقول السليمة تصل إلى ما نطقت به الآية وشهد به الإمام.

(وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفاً ولا في رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً). وهذه شهادة ثالثة تنزهه عن كل نقص، إنك أنت الله الذي لم تستطع العقول أن تحدد منتهاك وتدرك حقيقة صفاتك فإنها لو استطاعت ذلك بفكرها لجعلتك على كيفية معينة من هيئة أو لون أو تركيب أو غيرها مما يحددك ويحصرك.

كما أن الخواطر البشرية والأفكار التي يمكن أن تمر في ذهن الإنسان لا تستطيع أن تهتدي إلى حقيقة صفاته والوصول إلى نهايتها بعد تقليب صفاته وتحويلها منه وعنه وإليه

فإن ذلك يجعله متغيراً من حال إلى حال ومتقلب من هيئة إلى هيئة ومتغير يخضع إلى تقلبات الفكر وتحولاته ولما كان هذا غير سليم لم يمكن ذلك في حق العقول . .

ومنها: قَدَّرَ(١) مَا خلقَ فَأحْكَمَ تَقْدِيرَهُ(٢)، ودَبَّرَهُ فأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ(٣)، وَوَجَّهَهُ(٤) لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتعَدَّ(٥) حدُودَ منْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُون الِانتهَاءِ إِلى غَايَتِهِ، ولَمْ يَسْتَصْعِبْ(٦) إِذْ أُمِرَ بالمُضِيِّ عَلَى إرادَتِهِ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ؟ المُنْشِيءُ أصْنَافَ الأشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةٍ(٧) فكْرٍ آلَ(٨) إلَيْهَا، ولاَ قَرِيحَةِ(٩) غَرِيزَةٍ(١٠) أضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا(١١) مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَلاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وأَذْعَنَ(١٢) لِطَاعَتِهِ، وأجَابَ إلى دَعْوَتِهِ، لَم يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ(١٣) الْمُبْطِيءِ(١٤)، وَلاَ أَنَاةُ(١٥) الْمُتَلَكِّيءِ(١٥)، فَأَقَامَ مِنَ الأَشْيَاءِ أَوَدَهَا(١٧)، ونَهَجَ(١٨) حُدُودَهَا، وَلاَءَمَ(١٩) بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا(٢٠)، وفَرَّقَهَا أَجْنَاساً مُخْتَلِفَاتٍ في الحُدُودِ والأَقْدَارِ، والغَرَائِزِ(٢١) والهَيْئَاتِ، بَدَايَا(٢٢) خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وابْتَدَعَهَا! .

اللغة

١ ـ قدّر	:	الشيء بالشيء قاسه به وجعله على مقداره .
٢ ـ أحكم التقدير	:	أتقنه .
٣ ـ التدبير	:	للأمور النظر إلى ما يؤل إليه عاقبتها .
٤ ـ وجهه	:	الشيء جهته التي يتوجه إليها .
٥ ـ تعدى	:	تجاوز .

٦ ـ يستصعب	:	من استصعب المركوب إذا لم ينقد في السير لراكبه.
٧ ـ الرويّة	:	الفكر.
٨ ـ آل	:	رجع.
٩ ـ قريحة	:	القريحة أول ما يستنبط من ماء البئر وفلان جيد القريحة إذا كان يستنبط العلم بجودة الطبع.
١٠ ـ الغريزة	:	الطبيعة.
١١ ـ إفادها	:	استفادها وانتفع بها.
١٢ ـ أذعن	:	خضع وذل.
١٣ ـ الريث	:	البطؤ.
١٤ ـ المبطىء	:	ضد المسرع، المتأخر.
١٥ ـ الإناة	:	البطؤ، الحلم، الوقار، التثبت.
١٦ ـ المتلكىء	:	التباطؤ عن الأمر والتوقف فيه.
١٧ ـ الأود	:	الاعوجاج.
١٨ ـ نهج	:	سنّ وشرع.
١٩ ـ لاءم	:	بين كذا وكذا إذا جمع بينهما.
٢٠ ـ قرائنها	:	جمع القرينة وهي الأنفس.
٢١ ـ الغرائز	:	جمع الغريزة وهي الطبيعة.
٢٢ ـ بدايا	:	جمع بدية الخلقة العجيبة.

الشرح

(قدّر ما خلق فأحكم تقديره). ما خلقه من مخلوقاته مقدر بدقة متناهية بحيث لو زاد أو نقص أو تقدم أو تأخر أو تغيّر عما هو عليه لم يأت كاملاً تاماً فالشمس لو كانت في غير موقعها لتجمدت الأشياء إن بعدت ولأحترقت إن قربت وهكذا كل شيء تأخذه تجده في موضعه بدون خلل ولو تغيّر موقعه لوقع الخلل...

(ودبره فألطف تدبيره). جعل كل شيء وفق المصلحة والحكمة وضمن النظام العام.

(ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته ولم يقصر دون الانتهاء إلى غايته ولم يستصعب إذ أمر بالمضي على إرادته). فلكل مخلوق وظيفة في الحياة يجب أن يقوم بها

ولكل واحد دور يجب أن يؤديه فالنحلة مخلوقة لإنتاج العسل والعين للرؤية وهكذا كل واحدة لا تتجاوز عما رسم لها وحدد فلم تخرج النحلة عن وظيفتها لغيرها من الأمور فلا تقدر على أن تحل محل النور أو السيف كما أنها لا تقدر على الكف عما من أجله كانت ووجدت فلا تقدر على عدم انتاج العسل. . .

كما أن كل مخلوق إذا أُمر بمقتضى الأمر التكويني لا يقدر على التمرد والعصيان وعدم تنفيذ الأمر.

(فكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته؟ . علل نفي الاستصعاب بأن الأمور كلها كانت بإرادته ومشيئته وإذا كانت بأصل وجودها بيده فكيف يمتنع عليه منها ما يتفرع عنها ويخرج منها ويتوقف عليها فإذا كان الأصل محكوماً بإرادة الله فتوابعه تتبعه. . .

(المنشيء أصناف الأشياء بلا روية فكر آل إليها). أراد عليه السلام أن ينزه الله عن صفات المخلوقين فهو سبحانه خلق أصناف الأشياء بدون إجالة فكر وعودة إلى ما عنده من معلومات على حدّ ما تعارف عليه البشر.

(ولا قريحة غريزة أضمر عليها). وكذلك لا يحتاج إلى استعمال قوة الفكر وجودته يجيلها ليستخرج منها الخلق.

(ولا تجربة أفادها من حوادث الدهور). والله منزه عن أن يستفيد مما مرّ في الحياة من الحوادث ليأخذ منها الدروس والعبر ويخلق الخلق كما مر فيما مضى على مستوى ما يعيشه البشر فيصنع هذا جهازاً لألتقاط الأصوات مثل ما صنع غيره من قبل.

(ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور). فهذه الأمور العجيبة والمخلوقات الغريبة من سماء وأرض وإنسان وحيوان وصامت وناطق وجامد ومتحرك كلها بيده لم يعاونه شريك ولم يحتج إلى معين. . .

(فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته وأجاب إلى دعوته). كملت مخلوقاته كما أراد بأمره وإرادته وانقاد لطاعته كل ما خلق ولم يقدر بلسان الحال على التمرد وأجاب دعوته التي أطلقها في خلقه فكان بكلمة كن التكوينية كل شيء موجود في محله وفي وقته وكما أراد. . .

(لم يعترض دونه ريث المبطيء ولا أناة المتلكيء). نزه الله أن يعترض سبيل أمره وتنفيذ مراده ما يعترض البشر إذا أرادوا أمراً فإنه يعترض مرادهم بطؤ أو تأخر أو تريث وانتظار والله منزه عن ذلك لأنه بهبة الوجود توجد الأشياء ولا يحتاج إلى كلمة كن إلا

ليعبر بها عن سرعة إرادته وطاعة الأشياء له. . .

وقد يكون مراده أن الأشياء نفسها لا تتأخر عن أمره أو تبطىء عن إجابته أو تتلكأ عن ذلك.

(فأقام من الأشياء أودها ونهج حدودها). رفع اعوجاج الأشياء بأن أكمل صنعها وأتمه وسيّرها لما خلقت له كما أنه بيّن لكل شيء هدفه وطريقه الذي يسعى فيه.

(ولاءم بقدرته بين متضادها ووصل أسباب قرائنها). وهذه قدرة الله العظيمة أنه جمع في هذا المخلوق ما هو متضاد وما لا يمكن جمعه حيث جمع فيه العناصر الأربعة الهواء والماء والنار والتراب أو أنه جمع فيه ما لا يمكن جمعه كالحب والبغض والرضا والسخط وهكذا دواليك.

ووصل هذه النفوس وهي من عالم النور بهذه الأجسام وهي من عالم الظلمة.

أو المراد أنه ألهمه إلى ما هو أولى بها في معاشها ومعادها وما ينفعها ويضرها.

(وفرّقها أجناساً مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات بدايا خلائق أحكم صنعها وفطرها على ما أراد وابتدعها). وزّعها وقسمها إلى أقسام مختلفة فكل واحدة لها حدودها التي تتميز بها وتختلف عن غيرها فهذا طويل وذلك قصير هذا أسود وذاك أبيض هذا جميل وذاك قبيح وجعل لكل واحد غريزة توجهه وتتحكم بمسار حياته فهذا شجاع وذاك جبان وهذا كريم وذاك بخيل وهذا شريف وذاك وضيع وكذلك جعل لكل واحد هيئة معينة فبعضهم حسن والآخر قبيح فلكل واحد حدود يتميز بها وقدر وغريزة وهيئة. . .

خلقها سبحانه بهذه الصورة العجيبة الفريدة التي لم تكن على مثال تقدم عليها فكانت هي على مثاله بل صنعها صنعاً محكماً كما أراد وخلقها كما أحب وابتدعها من اللاشيء بقدرته وحكمته.

ومنها في صفة السماء

وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ[١] فُرَجِهَا[٢]، وَلاَحَمَ[٣] صُدُوعَ[٤] انفِرَاجِهَا، وَوَشَّجَ[٥] بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا[٦]، وَذَلَّلَ[٧] لِلْهَابِطِينَ[٨] بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ، حُزُونَةَ[٩] مِعْرَاجِهَا[١٠]، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ[١١] عُرَى[١٢] أَشْرَاجِهَا[١٣]، وَفَتَقَ[١٤] بَعْدَ الارْتِتَاقِ[١٥] صَوَامِتَ[١٦] أَبْوَابِهَا، وَأَقَامَ رَصَداً[١٧] مِنَ الشُّهُبِ[١٨] الثَّوَاقِبِ[١٩] عَلَى نِقَابِهَا[٢٠]، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ[٢١] فِي خَرْقِ[٢٢] الْهَوَاءِ بِأَيْدِهِ[٢٣]، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لأَمْرِهِ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً[٢٤] مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرِهَا آيَةً مَمْحُوَّةً[٢٥] مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُمَا[٢٦] فِي مَنَاقِلِ[٢٧] مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ[٢٨] سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ[٢٩] دَرَجِهِمَا، لِيُمَيِّزَ[٣٠] بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَالحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ[٣١] فِي جَوِّهَا[٣٢] فَلَكَهَا[٣٣]، وَنَاطَ[٣٤] بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا[٣٥] وَمَصَابِيحِ[٣٦] كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ[٣٧] بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلاَلِ[٣٨] تَسْخِيرِهَا[٣٩] مِنْ ثَبَاتِ[٤٠] ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا[٤١] وَسُعُودِهَا.

اللغة

١ ـ الرهوات : جمع رهوة المكان المرتفع ويقال للمنخفض فهو من الأضداد.
٢ ـ الفرج : جمع فرجة بضم فسكون وهي المكان الخالي.
٣ ـ لاحم : ألصق.
٤ ـ الصدوع : جمع صدع وهو الشق.
٥ ـ ووشج : بالتشديد شبّك.

٦ ـ أزواجها	:	أقرانها وأشباهها.
٧ ـ الذلول	:	ضد الصعب، اللّين.
٨ ـ هبط	:	نزل.
٩ ـ الحزونة	:	الصعوبة، ضد السهولة.
١٠ ـ المعراج	:	السلم والمصعد.
١١ ـ إلتحمت	:	إلتصقت.
١٢ ـ العرى	:	جمع عروة وهي من الدلو والكوز المقبض.
١٣ ـ الأشراج	:	جمع شرج بالتحريك وهي العروة.
١٤ ـ الفتق	:	الشق.
١٥ ـ الرتق	:	ضد الفتق.
١٦ ـ صوامت	:	لا فراغ فيها، وأصل الصامت هو الذي لا ينطق.
١٧ ـ الرصد	:	جمع راصد وهو المراقب.
١٨ ـ الشهب	:	جمع شهاب وهو نور يمتد من السماء كالنار.
١٩ ـ الثواقب	:	من النجوم هي المضيئة.
٢٠ ـ النقاب	:	جمع نقب وهو الخرق، والثقب.
٢١ ـ تمور	:	تموج وتضطرب.
٢٢ ـ الخرق	:	الثقب، والشق، التقطيع والتمزق.
٢٣ ـ الأيد	:	القوة.
٢٤ ـ آية	:	علامة ودلالة.
٢٥ ـ ممحوة	:	من المحو وهو إذهاب الأثر.
٢٦ ـ أجراه	:	حرّكه وسيره.
٢٧ ـ مناقل مجراها	:	الأوضاع التي ينقلان فيها من مداريها.
٢٨ ـ قدّر الشيء بالشيء		قاسه به وجعله على مقداره، قدر الله كذا: قضى وحكم به عليه.
٢٩ ـ مدارج	:	جمع مدرج وهو المسلك.
٣٠ ـ ليميّز	:	ليفصل وميز الشيء فرزه عن غيره وفصله عنه.
٣١ ـ علق الشيء	:	ربطه وشده وعلق الشوك بالثوب إذا نشب فيه واستمسك.
٣٢ ـ الجو	:	الهواء.
٣٣ ـ الفلك	:	مدار النجوم.
٣٤ ـ ناط بها	:	علق بها وأحاط.
٣٥ ـ الدراري	:	الكواكب المضيئة والدري بتثليث الدال نسبت إلى الدر لبياضها.
٣٦ ـ المصابيح	:	جمع المصباح السراج ومصابيح النجوم أعلام الكواكب.

٣٧ ـ استرق السمع : استمع مستخفياً.
٣٨ ـ إذلال : على وزن إقفال جمع ذل بالكسر وهو محجة الطريق.
٣٩ ـ التسخير : الإذلال والقهر.
٤٠ ـ ثبات : استقرار.
٤١ ـ النحوس : الشؤوم.

الشرح

(ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ولاحم صدوع انفراجها ووشج بينها وبين أزواجها). في هذا الفصل بيان لعظمة الله وقدرته من خلال خلق السماوات التي كانت أول ما خلقت غير منتظمة الأجزاء بل بعضها أعلى من بعض وبعضها أخفض من بعض فجعلها وحدة كاملة لا يظهر عليها أثر الوصل والتنظيم بخلاف ما عليه البشر عندما يقومون بوصل الأشياء وربطها وخياطتها تظهر أماكن وصلها ومواضع ربطها، وألصق تلك الفروج والشقوق فجعلها جسماً متصلاً وسطحاً أملس لا نتوءات فيه ولا فرج ولا صدوع بل شبّك بينها وجعل كل جزء ملتصقاً بمثله.

(وذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونه معراجها). إشارة إلى الملائكة الموكلة بالعباد التي تنزل إلى الأرض حاملة معها أمر الله وما يريده منهم وما يكلفهم به وكذلك للملائكة التي تنقل إليه أعمال الخلق وما يفعلون لقد ذلل لهؤلاء الملائكة صعوبة النزول فيها والصعود منها...

(وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها). لم يكن هناك نداء على وجه الحقيقة وإنما هو لبيان سرعة الفعل من الله وعدم الكلفة وهي على حد قوله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين**...﴾. فقد كانت السماء دخاناً منتشراً موزعاً فبأمره كان اتصالها وتشابكها والتحامها.

(وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها). فقد كانت السماء سطحاً واحداً لا فرجة فيها ولا فتحة ففتقها الله وفتح فيها أبواباً لنزول الملائكة وصعودها...

(وأقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها). جعل الله بعض الكواكب على هذه الأبواب المفتوحة رقيباً ينظر من يقترب منها ليدخلها بدون إذن أو ليدخلها وهو ممنوع

منها فيتبعه شهاب منها فيحرقه وهذا مصداق قوله تعالى: **﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾**.

(وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره). بقدرته منعها من الاضطراب والحركة وأمسكها في مكانها وبقدرته جعلها تقف مذعنة لحكمه كما أراد فهي طوع إرادته.

(وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها وأجراهما في مناقل مجراهما وقدر سيرهما في مدارج درجهما ليميز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما). والشمس والقمر من مخلوقات الله العظيمة وبهما تظهر قدرة الله وحكمته وكيف يكون النظام ودقته وقد ذكر الإمام خواصهما تبعاً للقرآن الكريم.

قال تعالى: **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾**.

أ ـ فهما آيتان تدلان على الله وتحكيان عن وجوده وحكمته.

ب ـ جعل الشمس آية مبصرة للنهار.

وفي معنى الإبصار قالوا: إن أبصار آية النهار هو بقاء الشمس بحالها وتمام ضيائها في كل حال.

وقالوا: إن إبصارها كونها مضيئة نيرة.

وقالوا: لأبصار أهلها وقت خروجها سموها مبصرة.

وأما محو آية الليل قالوا: إن محوه هو ما يظهر من الزيادة والنقصان في نور القمر.

وقالوا: إن نوره كان كنور الشمس فطمس. . .

ثم ذكر المناقل والمدارج لهما أي منازلهما.

قال تعالى: **﴿والسماء ذات البروج﴾** والبروج قسمها أهل الخبرة من الفلكيين إلى اثني عشر برجاً هي: .

الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب،

القوس، الجدي، الدلو، الحوت. والشمس تسير كل برج في شهر فتقطعها جميعاً في سنة واحدة.

وللقمر منازل وهي ثمانية وعشرون وأسماؤها هي: الشرطين، البطين، الثريا، الديران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرفة، الجبهة، الدبرة، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعايم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا وهو بطن الحوت.

وإلى هذه المنازل أشار تعالى: **﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾** وهذه المنازل يقطعها القمر في ثمانية وعشرون يوماً.

وميز الله بين النهار والليل بهاتين الآيتين ولولاهما لأنطمست الحياة ولم يعرف الليل من النهار.

أجرى الله الشمس والقمر في منازلهما ليحصل العلم بعدد السنين والحساب وما يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياهم من حضور موسم الحج أو الصلاة والصوم أو حلول أجل الدين أو انقضاء عدة المطلقة وهكذا.

(ثم علّق في جوها فلكها). قالوا: إن الله سبحانه وضع كل كوكب في مكانه اللائق به وبحركاته ليؤدي الغرض المسخر له.

(وناط بها زينتها من خفيات دراريها ومصابيح كواكبها ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها). علق في السماء ما يزينها من الكواكب الخفية المضيئة والكواكب التي هي كالمصابيح والقناديل تضيء وتؤنس قال تعالى: **﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾** كما أنه سبحانه رمى من أراد أن يسترق السمع من السماء بما فيها من الشهب النارية التي تحرقه أو تبعده وهو من قوله تعالى: **﴿إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين﴾** وقوله تعالى: **﴿إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب﴾**.

(وأجراها على أذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونحوسها وسعودها). أجراها الله كما أراد وجعلها مسخرة لأمره كما قال تعالى: **﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾**. سخرها كما أراد بحيث جعل بعضها ثابت في مكانه لا يتحرك وسخر بعضها بالجريان والحركة كالكواكب السيارة السبعة وهي القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشتري، زحل.

كما أنه من تسخيرها أن جعل بعضها قريباً وبعضها بعيداً.

أو أن يكون المقصود هو أن بعضها شريفاً والآخر غير ذلك.

أو يكون بعضها متوجهاً في الهبوط والنزول نحو الأرض وبعضها عكس ذلك.

وأما النحوس والسعود فيها فلأن دورة الفلك تؤثر تأثيراً تكوينياً في الأرزاق والأعمار وغيرها من حيث أنها تبعث الغيث أو القحط أو المجاعة أو الفيضانات أو غيرها مع الأخذ بعين الإعتبار أن ذلك لا يحدث باختيارها وإرادتها لأنها مسلوبة الاختيار وإنما بحسب قدرة الله الذي رتبها في مقامها ووضعها ضمن النظام العام فاثرت بقدرته هذا الأثر.

ومنها في صفة الملائكة

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لإِسْكَانِ سَموَاتِهِ، وَعِمَارَةِ[١] الصَّفِيحِ[٢] الأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ[٣]، خَلْقاً بَدِيعاً[٤] مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، وَمَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا[٥]، وَحَشَابِهِمْ[٦] فُتُوقَ[٧] أَجْوَائِهَا[٨]، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ[٩] تِلْكَ الفُرُوجِ زَجَلُ[١٠] المُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ[١١] القُدُسِ[١٢]، وَسُتُرَاتِ[١٣] الحُجُبِ، وَسُرَادِقَاتِ[١٤] المَجْدِ[١٥]، وَوَرَاءِ ذلِكَ الرَّجِيجِ[١٦] الَّذِي تَسْتَكُّ[١٧] مِنْهُ الأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ[١٨] نُورٍ تَرْدَعُ[١٩] الأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا[٢٠]، فَتَقِفُ خَاسِئَةً[٢١] عَلَى حُدُودِهَا. وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ[٢٢] مُتَفَاوِتَاتٍ، «أُولِي أَجْنِحَةٍ» تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ[٢٣] مَا ظَهَرَ فِي الخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا انْفَرَدَ بِهِ، «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى المُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنَ

رَيْبِ(٢٤) الشُّبُهَاتِ(٢٥)، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ(٢٦) عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ. وَأَمَدَّهُمْ(٢٧) بِفَوَائِدِ(٢٨) المَعُونَةِ(٢٩)، وَأَشْعَرَ(٣٠) قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ(٣١) السَّكِينَةِ(٣٢)، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً(٣٣) إِلى تَمَاجِيدِهِ(٣٤)، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً(٣٥) وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ(٣٦) تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُوصِرَاتُ(٣٧) الآثَامِ(٣٨)، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ(٣٩) عُقَبُ(٤٠) اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا(٤١) عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ(٤٢) الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ(٤٣) يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَتْ(٤٤) قَادِحَةُ الإِحَنِ(٤٥) فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلاَ سَلَبَتْهُمُ الحَيْرَةُ مَا لاَقَ(٤٦) مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ(٤٧) بِرَيْنِهَا(٤٨) عَلَى فِكْرِهِمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الغَمَامِ(٤٩) الدُّلَّحِ(٥٠)، وَفِي عِظَمِ الجِبَالِ الشُّمَّخِ(٥١)، وَفِي قَتْرَةِ(٥٢) الظَّلَامِ الأَيْهَمِ(٥٣)، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ(٥٤) أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ(٥٥) الأَرْضِ السُّفْلَى، فَهِيَ كَرَايَاتٍ(٥٦) بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ(٥٧) الهَوَاءِ، وَتَحْتَهَا رِيحٌ هَفَّافَةٌ(٥٨) تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الحُدُودِ المُتَنَاهِيَةِ، قَدِ اسْتَفْرَغَتْهُمْ(٥٩) أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ، وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الإِيقَانُ بِهِ إِلَى الوَلَهِ(٦٠) إِلَيْهِ، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغَبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ. قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِٱلْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ(٦١) مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ(٦٢) قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ(٦٣) خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا(٦٤) بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ(٦٥) طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ(٦٦) رِبَقَ(٦٧) خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ(٦٨) الإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ(٦٩) مِنْهُمْ، وَلاَ تَرَكَتْ لَهُمُ اسْتِكَانَةُ(٧٠) الإِجْلاَلِ نَصِيباً(٧١) فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَمْ تَجْرِ الفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ(٧٢)، وَلَمْ

تَغِضْ(٧٣) رَغَبَاتُهُمْ(٧٤) فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ(٧٥) لِطُولِ المُنَاجَاةِ أَسَلاَتُ(٧٦) أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ الأَشْغَالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ(٧٧) الجُؤَارِ(٧٨) إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقَاوِمِ(٧٩) الطَّاعَةِ مَنَاكِبُهُمْ(٨٠)، وَلَمْ يَثْنُوا(٨١) إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابَهُمْ، وَلاَ تَعْدُو(٨٢) عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ(٨٣) بَلاَدَةُ(٨٤) الغَفَلاَتِ(٨٥)، وَلاَ تَنْتَضِلُ(٨٦) فِي هِمَمِهِمْ(٨٧) خَدَائِعُ(٨٨) الشَّهَوَاتِ. قَدِ اتَّخَذُوا ذَا العَرْشِ ذَخِيرَةً(٨٩) لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ(٩٠)، وَيَمَّمُوهُ(٩١) عِنْدَ انْقِطَاعِ الخَلْقِ إِلى المَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمُ الاسْتِهْتَارُ(٩٢) بِلُزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ(٩٣) مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَمَخَافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ(٩٤) مِنْهُمْ، فَيَنُوا(٩٥) فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ(٩٦) الأَطْمَاعُ(٩٧) فَيُؤْثِرُوا(٩٨) وَشِيكَ السَّعْيِ(٩٩) عَلَى اجْتِهَادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ(١٠٠) الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ(١٠١) وَجَلِهِمْ(١٠٢)، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ(١٠٣) الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ(١٠٤)، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ(١٠٥) غِلُّ(١٠٦) التَّحَاسُدِ، وَلاَ تَشَعَّبَتْهُمْ(١٠٧) مَصَارِفُ الرِّيَبِ(١٠٨)، وَلاَ اقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيَافُ(١٠٩) الهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمَانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ(١١٠) وَلاَ عُدُولٌ وَلاَ وَنًى(١١١) وَلاَ فُتُورٌ(١١٢)، وَلَيْسَ فِي أَطْبَاقِ(١١٣) السَّمَاءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ(١١٤) إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ سَاعٍ حَافِدٌ(١١٥)، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً(١١٦).

اللغة

١ ـ عمارة : البلاد أو المنزل نشيدها.
٢ ـ الصفيح : كل شيء عريض يقال له: صفيح والصفيح هنا هو السماء.
٣ ـ الملكوت : الملك العظيم.
٤ ـ البديع : الذي لا مثيل له.
٥ ـ الفجاج : بكسر الفاء جمع فج بفتحها الطريق الواسع بين جبلين.
٦ ـ حشا : ملأ.
٧ ـ الفتوق : الشقوق، انفتق انشق.
٨ ـ الأجواء : جمع جو وهو المكان المتسع.
٩ ـ الفجوات : جمع فجوة وهي الفرجة والموضع المتسع بين جبلين.
١٠ ـ الزجل : محركة رفع الصوت.
١١ ـ الحظائر : جمع حظيرة وهي الموضع يحاط عليه لتأوي إليه الإبل والغنم توقياً من البرد والريح.
١٢ ـ القدس : الطهر.
١٣ ـ السترات : جمع سترة وهي ما يستتر به.
١٤ ـ السرادقات : جمع سرادق وهو ما يمد على صحن البيت فيغطيه.
١٥ ـ المجد : الشرف والعظمة.
١٦ ـ الرجيج : الزلزلة والاضطراب.
١٧ ـ استكت : المسامع صُمت ولم تعد تسمع.
١٨ ـ السبحات : بضمتين النور والبهاء والعظمة وسبحات الوجه محاسنه.
١٩ ـ تردع : تمنع وتكف.
٢٠ ـ البلوغ : الوصول.
٢١ ـ خاسئة : مدفوعة، مطرودة عن الترامي إليها.
٢٢ ـ أقدار : جمع قدر، الطاقة والقوة، كون الشيء مساوياً لغيره.
٢٣ ـ لا ينتحلون : لا يدعون وانتحل الشيء إذا ادعاه لنفسه وهو لغيره.
٢٤ ـ الريب : الشك.
٢٥ ـ الشبهات : جمع شبهة الإلتباس ما يلتبس فيه الحق بالباطل.
٢٦ ـ الزائغ : العادل عن الطريق.
٢٧ ـ أمدهم : أعانهم وأغاثهم.
٢٨ ـ الفوائد : جمع الفائدة الزيادة، ما يستفيده الإنسان.

٢٩ ـ المعونة : المساعدة والعون.
٣٠ ـ أشعر : قلوبهم أعلمها أو من الشعار وهو الثوب الملاصق للبدن.
٣١ ـ الإخبات : التذلل والإستكانة.
٣٢ ـ السكينة : الوقار، والطمأنينة والمهابة.
٣٣ ـ الذلل : جمع الذلول خلاف الصعب وهو السهل.
٣٤ ـ تماجيده : مجده تمجيداً عظمّه وأثنى عليه.
٣٥ ـ مناراً : جمع منارة وهي المسرجة التي يوضع فيها المصباح.
٣٦ ـ الأعلام : جمع علم بالتحريك وهو ما يقام للإهتداء على أفواه الطرق والمرتفعات.
٣٧ ـ الموصرات : المثقلات والأصر هو الثقل.
٣٨ ـ الآثام : الذنوب والخطايا.
٣٩ ـ ارتحلت : البعير ركبته.
٤٠ ـ عُقب : جمع عقبة وهي النوبة والمدة من التعاقب.
٤١ ـ النوازع : جمع نازعة، القوس، النجم، الشهوات المفسدة.
٤٢ ـ تعترك : تزدحم.
٤٣ ـ معاقد : جمع معقد محل العقد بمعنى الاعتقاد.
٤٤ ـ قدح : رام الإيراء به وهو استخراج النار.
٤٥ ـ الأحن : جمع أحنة وهي الحقد والضغينة.
٤٦ ـ لاق : لصق.
٤٧ ـ تقترع : من الاقتراع بمعنى ضرب القرعة.
٤٨ ـ الرين : الدنس
٤٩ ـ الغمام : جمع غمامة وهي السحابة.
٥٠ ـ الدلج : جمع دالج وهو الثقيل بالماء من السحاب.
٥١ ـ الشمخ : جمع الشامخ وهو المرتفع العالي.
٥٢ ـ القترة : الخفاء والبطون ومنها قالوا: أخذه على قترة أي من حيث لا يدري.
٥٣ ـ الأيهم : الذي لا يهتدى فيه.
٥٤ ـ خرقت : ثقبت ونفذت.
٥٥ ـ تخوم : الأرض حدودها ومنتهاها.
٥٦ ـ الرايات : جمع راية علم الجيش، العلامة المنصوبة لكي يراها الناس.
٥٧ ـ مخارق : جمع مخرق أي موضع الخرق.
٥٨ ـ ريح هفافة : طيبة ساكنة.

٥٩ ـ استفرغتهم : جعلتهم فارغين من الاشتغال بغيرها.
٦٠ ـ الوله : شدة الشوق.
٦١ ـ الروية : التي تروي وتطفىء الظمأ.
٦٢ ـ سويداء القلب : حبته.
٦٣ ـ الوشيجة : في الأصل عرق الشجر.
٦٤ ـ الإنحناء : الإعوجاج حنيت ضلعي عوّجته.
٦٥ ـ لم ينفد : لم يغن.
٦٦ ـ الزلفة : القربة والمنزلة.
٦٧ ـ الربق : جمع ربقة بالكسر والفتح وهي العروة والحلقة من الحبل.
٦٨ ـ تولاهم : استولى عليهم، وسيطر.
٦٩ ـ ما سلف : ما تقدم ومضى.
٧٠ ـ الإستكانة : الخشوع وأصل الميل للسكون من شدة الخوف.
٧١ ـ النصيب : الحصة من الشيء، الحظ.
٧٢ ـ الدؤوب : الجد والاجتهاد والمداومة على الشيء.
٧٣ ـ غاض : الماء قلّ ونقص.
٧٤ ـ الرغبات : ما تحبه النفس وترغبه.
٧٥ ـ جفّ : يبس ونشف.
٧٦ ـ الأسلات : جمع أسلة طرف اللسان ومستدقه.
٧٧ ـ الهمس : الصوت الخفي.
٧٨ ـ الجؤار : رفع الصوت بالتضرع والدعاء.
٧٩ ـ المقاوم : جمع مقام.
٨٠ ـ المناكب : جمع منكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد.
٨١ ـ ثنا : الشيء رد بعضه على بعض وثنيته صرفته إلى مراده.
٨٢ ـ لا تعدو : لا تسطو ولا تثب.
٨٣ ـ الجد : بكسر الجيم الاجتهاد.
٨٤ ـ البلادة : قلة الذكاء وعدم الفطنة.
٨٥ ـ الغفلات : جمع غفلة عدم الانتباه.
٨٦ ـ الإنتضال : الرمي بالسهم.
٨٧ ـ الهمم : جمع الهمة العزم الشديد.
٨٨ ـ الخدائع : جمع خديعة، ما يخدع به، المكر والحيلة.
٨٩ ـ الذخيرة : ما يجمع ويدخر لوقت الحاجة.
٩٠ ـ الفاقة : الحاجة.

٩١ ـ يمموه : قصدوه.
٩٢ ـ الاستهتار : الولوع بالشيء وملازمته.
٩٣ ـ مواد : جمع مادة أصلها من مدّ البحر إذا زاده وكل ما أعنت به غيرك فهو مادة.
٩٤ ـ الشفقة : الخوف.
٩٥ ـ ينوا : يضعفوا من ونى يني.
٩٦ ـ تأسرهم : تحبسهم وتستبد بهم.
٩٧ ـ الأطماع : من طمع به إذا حرص عليه.
٩٨ ـ فيؤثروا : من الأثرة وهي الاختيار، اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره.
٩٩ ـ وشيك السعي : مقاربه وهينه.
١٠٠ ـ النسخ : الإزالة.
١٠١ ـ الشفقات : تارات الخوف وأطواره.
١٠٢ ـ الوجل : الخوف.
١٠٣ ـ الإستحواذ : على الشيء الإحاطة والغلبة عليه.
١٠٤ ـ التقاطع : التعادى وترك البر والإحسان.
١٠٥ ـ توليت الأمر : قمت به.
١٠٦ ـ الغل : الحقد.
١٠٧ ـ تشعبتهم : تقسمتهم وفرّقتهم.
١٠٨ ـ الريب : جمع ريبة الشك.
١٠٩ ـ أخياف الهمم : الهمم المختلفة وأصله من الخيف بالتحريك وهو كحل إحدى العينين دون الأخرى فيختلفان ويقال: الناس أخياف أي مختلفون ومنه قيل لأخوة الأم: أخياف لاختلافهم في الأب.
١١٠ ـ الزيغ : الميل عن الحق.
١١١ ـ الوني : مصدر ونى أي تأنى.
١١٢ ـ الفتور : الضعف.
١١٣ ـ الإطباق : جمع طبق الغطاء.
١١٤ ـ الإهاب : الجلد.
١١٥ ـ حافد : خفيف سريع.
١١٦ ـ العظم : وزن عنب خلاف الصغر.

الشرح

(ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته). كلمة ابن أبي الحديد: .

هناك كلمة لابن أبي الحديد في شرحه عند استعراضه لحديث الإمام عن الملائكة في هذا الفصل يقول بلفظه: .

هذا موضع المثل «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل» إذا جاء هذا الكلام الرباني واللفظ القدسي بطلت فصاحة العرب وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النضار الخالص، ولو فرضنا أن العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه اللألفاظ من أين لهم المادة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائية ليتهيأ لها التعبير عنها! أما الجاهلية فإنهم إنما كانت فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلوات ونحو ذلك، وأما الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة أما في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذم الدنيا أو ما يتعلق بحرب وقتال من ترغيب أو ترهيب أما الكلام في الملائكة وصفاتها وصورها وعباداتها وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبها له وولهها إليه وما جرى مجرى ذلك مما تضمنه هذا الفصل على طوله فإنه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل، نعم ربما علموه جملة غير مقسمة هذا التقسيم ولا مرتبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم، وأما من عنده علم من هذه المادة كعبد الله بن سلام وأمية بن أبي الصلت وغيرهم فلم تكن لهم هذه العبارة ولا قدروا على هذه الفصاحة فثبت أن هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلا لعلي وحده. وأقسم أن هذا الكلام إذا تأمله اللبيب إقشعر جلده ورجف قلبه واستشعر عظمة الله العظيم في روعه وخلده وهام نحوه وغلب الوجد عليه وكاد أن يخرج من مسكه شوقاً وأن يفارق هيكله صبابة ووجداً.

أقول: هذه شهادة أحد أهل الخبرة ممن تذوق الكلام العلوي ووقف على سر ما تحته من المعاني ولا غرابة في ذلك فعلي في التاريخ واحد يجب أن يكون كلامه واحد متميز. . .

وفي هذا الفصل يتناول الإمام في كلامه الملائكة وصفاتهم وعباداتهم وخشوعهم

وخضوعهم وذكرهم من أجل أن نقتدي بهم ونقتفي أثرهم.

فبعد أن خلق الله السماوات خلق الملائكة لإقامتهم فيها أراد أن يعمر تلك السماوات العلى من ملكه فخلق هذا الخلق البديع الذي لم يكن له مثيل من قبل.

(وملأ بهم فروج فجاجها وحشا بهم فتوق أجوائها). ملأ بالملائكة تلك الأماكن المتسعة فيها وعبأها في تلك الشقوق الخالية في الأجواء المتسعة...

(وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس وسترات الحجب وسرادقات المجد). وهذا بيان لعبادتهم وتوجههم لله أنهم من تلك الشقوق ترتفع أصواتهم الملائكية بذكر الله والتوجه إليه في أماكنهم المطهرة التي لا يشوبها دنس وهي حظائر القدس وكذلك أماكنهم التي يحتجبون فيها ويستترون والسرادقات العظيمة التي يقيمون فيها... فقد ذكر عليه السلام هذه الأماكن الثلاثة التي فيها يتوطنون وبها يعبدون الله وفي بعض الأخبار إشارات إلى ذلك...

(ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها فتقف خاسئة على حدودها). خلف ذلك الاضطراب الذي يصم الآذان ويفقدها السمع متسعات من النور أي أنوار قوية شديدة تمنع العيون أن تصل إليها فترتدع مدفوعة وترجع كليلة لا تقوى على مواجهتها أو النظر إليها...

(وأنشأهم على صور مختلفات وأقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبح جلال عزته لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه ولا يدعون أنهم يخلقون شيئاً معه مما انفرد به ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون). وهذا بيان لأشكالهم وصورهم وبيان لمقاماتهم وأدوارهم إذ ليس كلهم على شكل واحد وصورة واحدة كما أنهم ليسوا جميعاً في منزلة واحدة ومرتبة واحدة.

إنهم أولي أجنحة كما ذكر ذلك في القرآن العظيم قال تعالى: **﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾** تسبّح الله وتذكره وتقف أمام جلاله وعزته وقفة فيها الخشوع والخضوع...

وما وجد من صنع الله وتحقق ظهوره بأمره لا يدعونه لأنفسهم أو ينسبونه لهم بحيث يتحولون به إلى أرباب كما لا يدعون أنهم شركاء له في الخلق فالنفي متوجه إلى استقلاليتهم في الخلق كما هو متوجه إلى مشاركتهم لله فيه.

ثم أثبت لهم الطاعة لله والالتزام بما أمر اقتباساً من الآية الكريمة: **﴿وقالوا: اتخذ**

الرحمن ولداً بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. .﴾. فقد رد الله على الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله بهذه الآية التي ترفع من شأن الملائكة فتجعلهم مشمولين لكرامة الله ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به فكل أقوالهم طاعة وهم بأمره يعملون لا يخالفونه ولا يعصونه.

وبعبارة أخرى: إنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله وعملهم فرع عن أمره. . .

(جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه وحملهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه). نعم جعلهم الله مستحقين لحمل الأمانة التي هي وحيه بحيث لا يجري في حقهم خيانة أو سهو وقد جعلهم الله وسائط ينقلون إلى المرسلين من الأنبياء ما أراد الله إيداعه عندهم من أمر أو نهي، فهم الوسطاء في حمل الوحي إلى الأنبياء وتبليغهم مراد الله سواء كان أمراً أم نهياً وهذه المرتبة كانت لهم لخصوصية فيهم جعلها الله وهي أنهم ينقلون الأمانة بصدق وأمانة كما هي بدون زيادة أو نقصان. . .

(وعصمهم من ريب الشبهات فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته). فكل الملائكة معصومون من الشك والشبهة والإنحراف عن سبيل الله وذلك لأن هذه الأمور إنما تحصل من النفس الأمارة بالسوء التي تقود صاحبها إلى ذلك والملائكة ليس فيها إلا العقل ودواعي الخير فهي بطبيعتها لا تقبل الإنحراف عن سبيل الله وطاعته.

(وأمدهم بفوائد المعونة وأشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة). وهذه من عنايات الله بالملائكة أنه سبحانه أمدهم بما فيه الإعانة على الطاعة والتزام أمر الله من حيث خلق لهم طبائع لا تقبل غير التقرب منه.

كما أنه جعل قلوبهم ملازمة للخشوع والتواضع التي هي نتيجة الخوف منه أو يكون المراد أنه أعلمهم ذلك. . .

(وفتح لهم أبواباً ذللاً إلى تماجيده). والأبواب السهلة التي فتحها الله للملائكة كي يمجدونه بأنواع التعظيم والثناء هي ما خلق فيهم من دواعي الطاعة بحيث أن أنفسهم مجبولة على مرضات الله ولا تقبل غير ذلك. . .

(ونصب لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده). وضع لهم أدلة وبراهين جلية واضحة على أنه الله الواحد الأحد، وذلك بما أودعه فيهم من العقل الكامل الذي يهتدي به الإنسان إلى الله وتوحيده فضلاً عن الملائكة التي لم يعكر صفو أفكارها ميل أو هوى. . .

(لم تثقلهم موصرات الآثام ولم ترتحلهم عقب الليالي والأيام). لم تقعد بهم الذنوب والمعاصي عن بلوغ الكمال لأنهم منزهون عنها طاهرون منها وهي التي تقف دون بلوغ كرامة الله.

كما أن الليالي والأيام لا تؤثر عليهم ولا تشل حركتهم أو ترهقهم كما هو حال البشر معها...

(ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم). للملائكة إيمان قوي ثابت لا تخامره الشكوك التي تمر على الإنسان فإن الإنسان لقصور ذاته قد تدفعه بعض وساوس الشيطان إلى الإنحراف في التفكير فلا يستطيع أن يتصور عظمة الله وقدرته وسلطانه فيدفعه هذا إلى الشك في بعض صوره وقد يهتز إيمان المرء أمام بعض الظنون التي يثيرها أعداء الله المتخصصون في زعزعة إيمان الناس من خلال ما قدمه الإنسان وما وصل إليه من العلم والمعرفة وهذا الأمر لا يمكن أن يجري في حق الملائكة التي لا تملك وسائل الوسوسة وليس في ساحتها شياطين تضلها وتزرع الشك في نفوسها بل تبقى عقيدتها بالله ثابتة كما هي لا يهزها شك ولا يحركها ظن فاسد...

(ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم). لم تتحرك فيما بينهم الأحقاد والأضغان كما هو الحال عند الناس الذين يثيرون دفائن الحقد عندهم فيتنازعون على حطام الدنيا الزائل وما فيها من تراث تافه فإن الملائكة عناصر مطهرة صافية من الأحقاد منزهة من الشرور...

(ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم). معرفة الملائكة بالله قوية، إنها معرفة دخلت في قلوبهم وعاشت فيها فلا يقعون في حيرة وقلق وشك منها كي تتعرض تلك المعرفة للإهتزاز والشكوك...

كما أن عظمة الله وكبرياؤه في قلوبهم لا تتعرض للنقصان أو الإرتجاج لعدم الشك والحيرة عندهم.

وأما فكرهم فهو طاهر صاف شفاف لا تعكره الوساوس الشيطانية والوسائل الإنحرافية...

وبعبارة أخرى هناك يقين صادق في قلوبهم بالله وله عظمة عظيمة في نفوسهم كما أنهم يملكون الفكر الصافي المنزه عن الشوائب نحو الله بحيث لا يخامرهم شك أو ريب فهم في عقيدتهم وأفكارهم في أعلى مراتب اليقين والنزاهة الفكرية...

(ومنهم من هو في خلق الغمام الدلح، وفي عظم الجبال الشمخ، وفي قترة الظلام الأيهم). بعد أن ذكر بعض أوصاف الملائكة الذين يسكنون السماء أخذ في ذكر أصناف الملائكة فذكر جملة: .

فمنهم: هذا صنف من الملائكة يمتلك صورة الغيوم المثقلة بالماء والغيوم الممطرة لها شكل معروف كغيوم الشتاء عكس سحابة الصيف الناشفة التي ليس فيها ماء.

ومنهم: من يملك صورة الجبال العظيمة الشامخة التي ترتفع في عنان السماء فيهول منظرها لعلوها وضخامتها.

ومنهم: صنف ثالث أسود شديد الظلام يرعب الناظر إليه.

(ومنهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية). وهذا صنف من الملائكة يصورهم الإمام في هذه الضخامة العجيبة بحيث وهم في السماء تخرق أقدامهم الأرض السفلى فتصبح كالرايات البيضاء لا يصدها إلا ريح ساكنة تقف أمامها وتمنعها من التمدد والإنبساط.

(قد استفرغتهم أشغال عبادته). أخذت عبادة الله منهم كل وقتهم فليس عندهم وقت لغيرها. . .

(ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته). فإن الإيمان بوجود الله استدعى منهم الوصول إلى معرفته الكاملة الصحيحة بصفاته وأفعاله. . .

(وقطعهم الإيقان به إلى الوله إليه). علمهم بوجوده ويقينهم به جعلهم منصرفين إليه عاشقين له متيمين بحبه لا ينظرون إلى غيره بل نظرهم إليه وعشقهم له. . .

(ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره). فرغبة الملائكة انحصرت بما عند الله من الثواب والأجر ولم ينظروا أبداً إلى ما عند غيره من البشر بل ممن هم أقرب منهم إليه من الملائكة.

(قد ذاقوا حلاوة معرفته وشربوا بالكأس الروية من محتبه وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته). معرفة الله قد وقف عليها الملائكة فلم يجدوا أطيب منها وأحسن. لقد فاقت لذتها جميع اللذاذات الأخرى وهذه المعرفة استدعت منهم أن يعيشوا حبه وهواه فيعشقوا كل ما يرغب فيه ويحبه فأخذوا يعشيون حبه. . .

كما أن هذه المعرفة التي استدعت الحب له ولما أراد استدعت أيضاً الخوف منه

بحيث عاش الخوف منه في حبات قلوبهم وفي صميمها وعلى قدر المعرفة يكون الحب والخوف والملائكة قد عرفت الله فأحبته وهابته . . .

(فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم). لطول طاعتهم لله وخضوعهم له حنوا له ظهورهم إجلالاً واحتراماً أو أنهم لهذه المدة وطولها قد عرض لهم الإنحناء . . .

(ولم ينفد طول الرغبة إليه مادة تضرعهم). فهم يرغبون الله ويحبونه ويرغبون ما عنده من الأجر والثواب ولرغبتهم هذه لم ينقطع تضرعهم إليه ودعاؤهم له لأن ما يرغبون فيه عظيم والمرغوب إليه ليس في ساحته بخل أو شح وهم قوم يمتلكون القدرة على متابعة التضرع والخضوع وإكمال الشوط في الدعاء إلى وقت الاستْجابة . . . وهذا تعليم لنا وتنبيه أن لا يدب اليأس إلى قلوبنا فنتوقف عن التضرع والدعاء مهما تأخرت أوقات الاستجابة . . .

(ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم). إنهم في خشوع لله عظيم وإجلال له كبير وهذا الإجلال والتعظيم لا يخف أو يضعف بقربهم منه ودنوهم من رحمته كما هو حال ملوك الدنيا حيث تسقط هيبتهم عند المقربين منهم لمعرفتهم بهم وانكشافهم لهم وأما الله فإنه كلما قرب العبد منهم ووصل إلى مرتبة من العلم به أيقن بقصوره وعجزه وعظمة الله وجلاله وأخذ في البحث عن المراتب الأخرى . . .

(ولم يتولهم الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم). لم يستولِ عليهم الإعجاب الذي يعني الاكتفاء بما عمل العامل وإنه أدى المطلوب منه فهو يستحق عليه الجزاء وهذا يؤدي إلى أن ينظر إلى عمله وأنه شيء كبير وكثير وأنه الرجل الذي قام بهذا الأمر الجليل فهو على جانب قريب من الله والملائكة تنزه عن ذلك فإنها ترى عملها صغيراً وكلما عملت ازدادت عملاً وتقرباً منه تعالى . . .

(ولا تركت لهم استكانة الإجلال نصيباً في تعظيم حسناتهم). استولى عليهم تعظيم الله والخضوع له عن الالتفات إلى تعظيم حسناتهم واستكثارها فإن من هاب الله في نفسه شغله ذلك عن ذكر حسناته وتعداد أعماله . . .

(ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم). استمرارهم على الجد في العبادة والمداومة عليها لم يعرضهم للملل والضجر والفتور وهذا ما أشار إليه القرآن حيث قال: **﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾** .

(ولم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم). رغبات الملائكة وتطلعاتهم نحو

ثواب الله وعطائه لا تنقص أو تقل فلذا لا يعدلون عن رجاء ثوابه وأجره إلى اليأس والقنوط. . .

(ولم تجف لطول المناجاة أسلات ألسنتهم). من تحدّث طويلاً أو اشتغل في مناجاة كثيراً يجف حلقه ولسانه ويتوقف عن الحديث لتعبه وكلله وعدم إمكان استمراريته في الحديث هذا ما يحدث بيننا أما الملائكة فإنهم لا يجري عليهم ذلك ولا يتعرضون لمثله بل لا يكلّون ولا يملّون ولا يتعبون. . .

(ولا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم). ليس لهم أشغال غير العبادة تشغلهم عن ارتفاع أصواتهم العالية المرتفعة بالدعاء والذكر، فأصواتهم المرتفعة بالدعاء لا يخففها شغل يشغلهم عنه.

(ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم). هم في طاعة الله في صفوف منتظمة لا يتقدم بعضهم على بعض ولا يعلو بعضهم على بعض.

(ولم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم). لم تتعبهم العبادات والطاعات حتى يستريحوا بتركها أو الإقلال منها فيقصروا في أمر الله، ومن تعب من أمر لوى رقبته تعباً وقصر في المطلوب منه لعروض التعب عليه والملائكة لا يجري في حقهم ذلك ولا ينالهم شيء منه. . .

(ولا تعدوا على عزيمة جدهم بلادة الغفلات). قوتهم في طاعة الله واجتهادهم في طلب رضاه لا يأتي عليها غفلة من غفلات البشر فتنسيهم شيئاً منها أو يعترضهم كسل عن القيام بها بل هم دائما في اجتهاد وقوة ونشاط. . .

(ولا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات). لا شهوات لهم تتجاذبهم وتقتل هممهم العالية في الطاعة والعبادة وبلوغ رضا الله وهذا نفي لما عليه البشر حيث إن هذا الإنسان إذا توجه إلى الطاعة وانصرفت همته إلى ذلك ورغبته إليه تجاذبته الشهوات والغرائز فتارة شهوة المال وأخرى شهوة الشهرة وثالثة شهوة الراحة ورابعة شهوة البطن والفرج وهكذا كل شهوة ترمي بسهمها فتصرف هذا الإنسان عما كان عازماً عليه من الطاعة والعبادة والهمة العالية التي يرتفع بها إلى مقام الطاعة لله والإخلاص له. . .

(قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم ويمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم). عدتهم التي يرجعون إليها يوم حاجتهم وفقرهم هو الله في ذلك اليوم الذي يبحث فيه عن كريم حليم يسد العوز ويرفع المسكنة فهم ليس لهم إلا الله ذخراً ومرجعاً. . .

كما وأنهم إليه وحده كان قصدهم وإن كان من عادة المخلوق أنه يرجع إلى مخلوق مثله ممكن الوجود محتاج فقير فهم إلى الله توجهوا في طلب حوائجهم وإن عاد الخلق بعضهم لبعض عن جهل وتقصير. . .

(لا يقطعون أمد غاية عبادته). لا يصلون إلى الغاية القصوى في عبادة الله مهما عبدوا وأطاعوا لعجز كل مخلوق عن إدراك العبادة في أعلى درجاتها لأن ذلك يتوقف على القدرة للمخلوق وهي محدودة مؤطرة بإطار الإمكان وكيف يقدر الممكن أن يدرك واجب الوجود على حقيقته.

(ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلا إلى مواد من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته). إنهم ملازمون لطاعة الله وامتثال أمره وهذا الأمر منهم ما هو إلا لطبيعتهم التي جُبلوا عليها وتكونت طينتهم منها بحيث لا تجف ولا تنقطع إنها ناشئة من رجائهم بالله وخوفهم منه الداعيان باستمرار إلى لزوم الطاعة وعدم التمرد والانحراف.

فهذه الملازمة لطاعة الله نابعة من صميم تكوينهم على الرجاء والخوف. رجاء ثواب الله وأجره وخوف عذابه وعقابه وهذا أمر لا ينقطع من نفوسهم ولا تجف منابعه من قلوبهم. . .

(لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدهم). إن أسباب الخوف عند الملائكة موجود متحقق وهو عذاب الله وحرمانه وهو لا ينقطع من نفوسهم ولا يتوقف لديهم فهم لذا لا يكسلون في نشاطهم ولا يتوانون في طاعتهم، وبعبارة أخرى: طالما أن أسباب الخوف في نفوسهم دائمة فاجتهادهم في العبادة دائم قائم. . .

(ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيك السعي على اجتهادهم). نفى عليه السلام أن يكون الملائكة كالبشر الذين إذا كانوا في عبادة طالبين الآخرة فيها فمرّت أمامهم بعض ملذات الدنيا وكمالاتها فتشدهم وتأسرهم أطماعهم إلى هذه المعاني القريبة مهملين الآخرة وما كانوا يسعون إليه فيها. . .

وبعبارة أوجز: لا يتركون ما يجتهدون إليه في الآخرة من الثواب من أجل بعض مكاسب الدنيا وطيباتها. . .

(لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم). فما مضى من أعمالهم التي قاموا بها لم يروها عظيمة وكبيرة وعلل عدم استعظامهم لها بأنهم لو استعظموها لرجوا منها أجراً كبيراً وثواباً جزيلاً وهذا يستدعي

بدوره أن يسقط من نفوسهم الخوف من الله والفزع من عقابه وهذا بخلاف ما يجب أن يكون عليه العامل لله من الخوف والإشفاق. . .

وقد شبهوا ذلك بالإنسان الذي إذا عمل لبعض الملوك عملاً يستعظمه فإنه يرى في نفسه استحقاق أجزل جزاء له ويجد التطاول به فيهون ذلك ما يجده من خوفه وكلما ازداد استعظامه لخدمته ازداد اعتقاده في قربه من الملك قوة وبمقدار ذلك ينقص خوفه وتقل هيبته في نظره فنفى عليه السلام أن يكون الملائكة كذلك بل هم دائماً خائفون من الله ووجلون من عذابه. . .

(ولم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم). لم يغلبهم الشيطان بوسوسته لهم فيختلفوا في الله أو في صفاته كما هي حال البشر حيث استولى عليهم الشيطان فبعضهم أنكر وجوده وبعضهم أشرك معه غيره وبعضهم نفى عنه بعض صفاته وهكذا. . .

(ولم يفرقهم سوء التقاطع). التقاطع الذي يعني أن كل واحد يقطع الآخر ولا يوصله ولا يتعارف معه المؤدي إلى الفرقة وأن يعيش كل واحد منفرداً عن الآخر وبعيداً عنه لم يجتمعوا نحو غاية ولم يمشوا نحو هدف هذا الأمر لم يعشه الملائكة ولم يعرفوه لأن هدفهم الله وهم في طاعته وحدة متكاملة. . .

(ولا تولاهم غل التحاسد). لم يستولِ عليهم حقد المتحاسدين الذين ينظرون إلى بعضهم بمنظار العداوة والحقد ويتمنى كل واحد منهم أن تزول النعمة عن غيره حقداً وحنقاً عليه. . .

(ولا تشعبتهم مصارف الريب). لم تفرقهم أو تقسمهم الشكوك ببعضهم، فلم يجر في حق أحدهم شك في شبيهه أو نظيره لأنه لا مصالح أو منافع تحكمهم وتجعلهم أسراء الظنون والشكوك. . .

(ولا اقتسمتهم أخياف الهمم). لم تجعلهم الهمم المختلفة عندهم أصنافاً منقسمة وأجزاء موزعة بل هم جبهة واحدة موحدة متوجهة نحو الله تعالى.

(فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ ولا عدول ولا ونى ولا فتور). إنهم يعيشون في ظل الإيمان بالله قد استحكمت العقيدة من نفوسهم بحيث لا يمكن أن يطرأ عليهم شيء من العوارض التي تمر على البشر فيخرجهم عن إيمانهم، فلا يحرفهم جور ولا عدول عن الحق ولا ضعف ولا ملل كما هي حالة البشر وطبيعتهم حيث تخرجهم هذه عن حظيرة الإيمان إلى التمرد والعصيان. . .

(وليس في أطباق السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو ساع حافد يزدادون على طول الطاعة بربهم علماً وتزداد عزة ربهم في قلوبهم عظماً). يذكر عليه السلام كثرة الملائكة وأنهم لكثرتهم في السماوات ليس هناك مساحة جلد حيوان وهو صغير بالنسبة إلى السماوات ليس هناك مقدار هذه المساحة إلا وعليها ملك ساجد لله أو ملك متحرك بسرعة نحو طاعة الله ومن خصوصياتهم أنهم كلما ازدادوا عبادة لله ازدادوا علماً به فالعبادة تكشف لهم عن بعض جوانب صفات الباري وهذا بدوره يزيد عزته وعظمته في قلوبهم. . .

ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء

كَبَسَ[١] الأَرْضَ عَلَى مَوْرِ[٢] أَمْوَاجٍ[٣] مُسْتَفْحِلَةٍ[٤]، وَلُجَجِ[٥] بِحَارٍ زَاخِرَةٍ[٦]، تَلْتَطِمُ[٧] أَوَاذِيُّ[٨] أَمْوَاجِهَا، وَتَصْطَفِقُ[٩] مُتَقَاذِفَاتُ[١٠] أَثْبَاجِهَا[١١]، وَتَرْغُو[١٢] زَبَداً[١٣] كَالفُحُولِ[١٤] عِنْدَ هِيَاجِهَا[١٥]، فَخَضَعَ[١٦] جِمَاحُ[١٧] المَاءِ المُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا، وَسَكَنَ هَيْجُ[١٨] ارْتِمَائِهِ[١٩] إِذْ وَطِئَتْهُ[٢٠] بِكَلْكَلِهَا[٢١]، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً[٢٢]، إِذْ تَمَعَّكَتْ[٢٣] عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا[٢٤]، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ[٢٥] أَمْوَاجِهِ، سَاجِياً[٢٦] مَقْهُوراً[٢٧]، وَفِي حَكَمَةِ[٢٨] الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً[٢٩] فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ[٣٠]، وَرَدَّتْ[٣١] مِنْ نَخْوَةِ[٣٢] بَأْوِهِ[٣٣] وَاعْتِلَائِهِ[٣٤]، وَشُمُوخِ[٣٥] أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوَائِهِ[٣٦]، وَكَعَمَتْهُ[٣٧] عَلَى كِظَّةِ[٣٨] جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ[٣٩] بَعْدَ نَزَقَاتِهِ[٤٠]، وَلَبَدَ[٤١] بَعْدَ زَيَفَانِ[٤٢] وَثَبَاتِهِ[٤٣]. فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ المَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا[٤٤]، وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ[٤٥] الشُّمَّخِ البُذَّخِ[٤٦] عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ[٤٧] العُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ[٤٨] أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ[٤٩]

بِيدِهَا[٥٠] وَأَخَادِيدِهَا[٥١]، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ[٥٢] مِنْ جَلَامِيدِهَا[٥٣]، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ[٥٤] الشُّمِّ[٥٥] مِنْ صَيَاخِيدِهَا[٥٦]، فَسَكَنَتْ مِنَ المَيَدَانِ[٥٧] لِرُسُوبِ الجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا[٥٨]، وَتَغَلْغُلِهَا[٥٩] مُتَسَرِّبَةً[٦٠] فِي جَوْبَاتِ[٦١] خَيَاشِيمِهَا[٦٢]، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا[٦٣]، وَفَسَحَ[٦٤] بَيْنَ الجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ الهَوَاءَ مُتَنَسَّماً[٦٥] لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا[٦٦]، ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ[٦٧] الأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ العُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا[٦٨]، وَلاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ[٦٩] الأَنْهَارِ ذَرِيعَةً[٧٠] إِلى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ[٧١] تُحْيِي مَوَاتَهَا[٧٢]، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا. أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ[٧٣]، وَتَبَايُنِ[٧٤] قَزَعِهِ[٧٥]، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ[٧٦] لُجَّةُ المُزْنِ فِيهِ[٧٧]، وَالتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ[٧٨]، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ[٧٩] فِي كَنَهْوَرِ[٨٠] رَبَابِهِ[٨١]، وَمُتَرَاكِمِ[٨٢] سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً[٨٣] مُتَدَارِكاً[٨٤]، قَدْ أَسَفَّ[٨٥] هَيْدَبُهُ[٨٦]، تَمْرِيهِ[٨٧] الجَنُوبُ دِرَرَ[٨٨] أَهَاضِيبِهِ[٨٩] وَدُفَعَ[٩٠] شَآبِيبِهِ[٩١]. فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ[٩٢] بِوَانَيْهَا[٩٣]، وَبَعَاعَ[٩٤] مَا اسْتَقَلَّتْ[٩٥] بِهِ مِنَ العِبْءِ[٩٦] المَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ[٩٧] الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ[٩٨] الجِبَالِ الأَعْشَابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ[٩٩] بِزِينَةِ رِيَاضِهَا[١٠٠]، وَتَزْدَهِي[١٠١] بِمَا أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ[١٠٢] أَزَاهِيرِهَا[١٠٣]، وَحِلْيَةِ[١٠٤] مَا سُمِطَتْ[١٠٥] بِهِ مِنْ نَاضِرِ[١٠٦] أَنْوَارِهَا[١٠٧]، وَجَعَلَ ذلِكَ بَلاَغاً[١٠٨] لِلأَنَامِ، وَرِزْقاً لِلأَنْعَامِ، وَخَرَقَ[١٠٩] الفِجَاجَ[١١٠] فِي آفَاقِهَا، وَأَقَامَ المَنَارَ[١١١] لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ[١١٢] طُرُقِهَا. فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ[١١٣]، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، اخْتَارَ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، خِيرَةً[١١٤] مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ[١١٥]، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ[١١٦] فِيهَا أُكُلَهُ[١١٧]، وَأَوْعَزَ[١١٨] إِلَيْهِ

فِيمَا نَهاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الإِقْدَامِ عَلَيْهِ[١١٩] التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ[١٢٠]، وَالمُخَاطَرَةَ[١٢١] بِمَنْزِلَتِهِ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهاهُ عَنْهُ ـ مُوَافَاةً[١٢٢] لِسَابِقه عِلْمِهِ ـ فَأَهَبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ[١٢٣]، وَلِيُقِيمَ الحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ[١٢٤] بِالحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ[١٢٥] رِسَالاَتِهِ، قَرْناً[١٢٦] فَقَرْناً، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ المَقْطَعَ[١٢٧] عُذْرُهُ[١٢٨] وَنُذُرُهُ[١٢٩]. وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ[١٣٠] فِيهَا لِيَبْتَلِيَ[١٣١] مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا[١٣٢] وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ[١٣٣] فَاقَتِهَا[١٣٤]، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ[١٣٥] آفَاتِهَا[١٣٦]، وَبِفُرَجِ[١٣٧] أَفْرَاحِهَا غُصَصَ[١٣٨] أَتْرَاحِهَا[١٣٩]. وَخَلَقَ الآجَالَ[١٤٠] فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً[١٤١] لأَشْطَانِهَا[١٤٢]، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ[١٤٣] أَقْرَانِهَا[١٤٤]. عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ المُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى[١٤٥] المُتَخَافِتِينَ[١٤٦]، وَخَوَاطِرِ[١٤٧] رَجْمِ الظُّنُونِ[١٤٨]، وَعُقَدِ[١٤٩] عَزِيمَاتِ[١٥٠] اليَقِينِ، وَمَسَارِقِ[١٥١] إِيمَاضِ[١٥٢] الجُفُونِ وَمَا ضَمِنَتْهُ[١٥٣] أَكْنَانُ[١٥٤] القُلُوبِ وَغَيَابَاتُ الغُيُوبِ[١٥٥]، وَمَا أَصْغَتْ[١٥٦] لاسْتِرَاقِهِ[١٥٧] مَصَائِخُ[١٥٨] الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ[١٥٩] الذَّرِّ[١٦٠]، وَمَشَاتِي[١٦١] الهَوَامِّ[١٦٢]، وَرَجْعِ الحَنِينِ[١٦٣] مِنَ المُولَهَاتِ[١٦٤]، وَهَمْسِ[١٦٥] الأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ[١٦٦] الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ[١٦٧] غُلُفِ[١٦٨] الأَكْمَامِ[١٦٩]، وَمُنْقَمَعِ[١٧٠] الوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ[١٧١] الجِبَالِ وَأَوْدِيَتِهَا، وَمُخْتَبَإِ[١٧٢] البَعُوضِ[١٧٣] بَيْنَ سُوقِ[١٧٤] الأَشْجَارِ

وَأَلْحِيَتِهَا(١٧٥)، وَمَغْرِزِ الأَوْرَاقِ(١٧٦) مِنَ الأَفْنَانِ(١٧٧)، وَمَحَطِّ الأَمْشَاجِ(١٧٨) مِنْ مَسَارِبِ الأَصْلاَبِ(١٧٩)، وَنَاشِئَةِ الغُيُومِ(١٨٠) وَمُتَلاَحِمِهَا(١٨١)، وَدُرُورِ(١٨٢) قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِهَا(١٨٣)، وَمَا تَسْفِي(١٨٤) الأَعَاصِيرُ(١٨٥) بِذُيُولِهَا، وَتَعْفُو(١٨٦) الأَمْطَارُ بِسُيُولِهَا، وَعَوْمَ(١٨٧) بَنَاتِ الأَرْضِ فِي كُثْبَانِ(١٨٨) الرِّمَالِ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ الأَجْنِحَةِ بِذُرَا(١٩٠) شَنَاخِيبِ(١٩١) الجِبَالِ، وَتَغْرِيدَ(١٩٢) ذَوَاتِ المَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ(١٩٣) الأَوْكَارِ(١٩٤)، وَمَا أَوْعَبَتْهُ(١٩٥) الأَصْدَافُ(١٩٦)، وَحَضَنَتْ(١٩٧) عَلَيْهِ أَمْوَاجُ البِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ(١٩٨)، أَوْ ذَرَّ(١٩٩) عَلَيْهِ شَارِقُ(٢٠٠) نَهَارٍ، وَمَا اعْتَقَبَتْ(٢٠١) عَلَيْهِ أَطْبَاقُ(٢٠٢) الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ(٢٠٣)؛ وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ(٢٠٤)، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ(٢٠٥) كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ(٢٠٦)، وَمِثْقَالِ(٢٠٧) كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ(٢٠٨) كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ(٢٠٩)، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ؛ أَوْ قَرَارَةِ(٢١٠) نُطْفَةٍ(٢١١)، أَوْ نُقَاعَةِ(٢١٢) دَمٍ وَمُضْغَةٍ(٢١٣)، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ(٢١٤)؛ لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذٰلِكَ كُلْفَةٌ(٢١٥)، وَلاَ اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ(٢١٦)، وَلاَ اعْتَوَرَتْهُ(٢١٧) فِي تَنْفِيذِ الأُمُورِ وَتَدَابِيرِ المَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ(٢١٨)، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

اللغة

١ ـ كبس : الأرض أي أدخلها في الماء.

٢ ـ المور : مصدر مار أي ذهب وجاء.

٣ـ الأمواج : جمع الموج والواحدة موجة جمع موجات ما ارتفع من الماء على سطحه.
٤ـ المستفحلة : الهائجة هيجان الفحول فيصعب التغلب عليها.
٥ـ اللجج : جمع اللجة وهي معظم الماء وأعمقه.
٦ـ زاخرة : ممتلئة.
٧ـ لطمه : ضربه بكفه وتلاطم الأمواج ضرب بعضها بعضاً.
٨ـ الأواذي : جمع آذي وهو أعلى الموج أو الموج العالي.
٩ـ تصطفق : يضرب بعضها بعضاً من الصفق وهو الضرب يسمع له صوت.
١٠ـ متقاذفات : من قذف الشيء إذا رمى به أو رماه.
١١ـ الأثباج : جمع ثبج وهو في الأصل ما بين الكاهل والظهر استعاره هنا لأعالي الأمواج.
١٢ـ ترغو : أما من الرغاء وهو صوت ذات الخف أو من الرغوة وهي الزبد الذي يعلو الشيء عند غليانه.
١٣ـ الزبد : ما يظهر فوق السيل.
١٤ـ الفحول : جمع فحل وهو الذكر من كل حيوان.
١٥ـ الهيجان : من هاج هيجاً وهيجاناً أي ثار.
١٦ـ خضع : ذل.
١٧ـ جمح : الفرس إذا غلب فارسه ولم يملكه.
١٨ـ هيج الماء : ثورانه وفورته.
١٩ـ الإرتماء : التقذاف والترامي.
٢٠ـ الوطي : الدوس بالقدم.
٢١ـ الكلكل : الصدر.
٢٢ـ المستخذي : الخاضع.
٢٣ـ تمعكت : الدابة إذا تمرّغت بالتراب.
٢٤ـ الكواهل : جمع كاهل، وهو ما بين الكتفين.
٢٥ـ الإصطخاب : من الصخب وهو ارتفاع الصوت والصياح والجلبة.
٢٦ـ الساجي : الساكن.
٢٧ـ المقهور : المغلوب.
٢٨ـ الحكمة : محركة ما أحاط من اللجام بحنك الدابة.
٢٩ـ مدحوة : مبسوطة.
٣٠ـ التيار : أعظم الموج.
٣١ـ ردت : منعت وكفت.

٣٢ ـ النخوة : الفخر، المرؤة، والحماسة.
٣٣ ـ البأو : الكبر والفخر.
٣٤ ـ الإعتلاء : التيه والتكبر.
٣٥ ـ الشموخ : العلو وشمخ بأنفه أي تكبّر.
٣٦ ـ الغلواء : بضم الغين وفتح اللام النشاط وتجاوز الحد.
٣٧ ـ كعمت : البعير شددت فاه بالكعام شيء يجعل في فيه إذا هاج لئلا يعضّ أو يأكل.
٣٨ ـ الكظة : بالكسر الجهد والثقل الذي يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام.
٣٩ ـ همد : سكن وخمد.
٤٠ ـ النزق : الخفة والطيش.
٤١ ـ لبد : الشيء بالأرض إذا لصق بها ساكناً.
٤٢ ـ الزيفان : التبختر.
٤٣ ـ الوثبة : الطفرة.
٤٤ ـ الأكناف : الجوانب والنواحي.
٤٥ ـ شواهق الجبال : عواليها.
٤٦ ـ البذخ : جمع الباذخ وهو العالي.
٤٧ ـ الينابيع : جمع ينبوع وهو ما انفجر من الأرض عن الماء.
٤٨ ـ عرانين : جمع عرنين بالكسر أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين.
٤٩ ـ السهوب : جمع سهب وهو الفلاة.
٥٠ ـ البيد : جمع بيداء وهي أيضاً الفلاة.
٥١ ـ الأخاديد : جمع أخدود، وهو الشق في الأرض.
٥٢ ـ الراسيات : الثقال.
٥٣ ـ الجلاميد : جمع جلمود وهو الحجر الصلد.
٥٤ ـ الشناخيب : رؤوس الجبال.
٥٥ ـ الشم : العالية، المرتفعة.
٥٦ ـ الصياخيد : جمع صيخود: الصخرة الصلبة.
٥٧ ـ الميدان : بالتحريك الإضطراب.
٥٨ ـ أديم الأرض : سطحها.
٥٩ ـ التغلغل : المبالغة في الدخول.
٦٠ ـ متسربة : داخلة.
٦١ ـ الجوبات : جمع جوبة الفرجة في جبل أو غيره.
٦٢ ـ الخياشيم : جمع خيشوم وهو أقصى الأنف.

٦٣ ـ الجرائيم : جمع جرثومة أصل الشيء.
٦٤ ـ فسح : أوسع.
٦٥ ـ متنسماً : موضع النسيم وهو الهواء.
٦٦ ـ مرافق البيت : ما يستعان به فيه وما يحتاج إليه في التعيش.
٦٧ ـ الجرز : بضمتين الأرض التي لا نبات بها ولا ماء.
٦٨ ـ الروابي : المرتفعات.
٦٩ ـ الجداول : جمع جدول النهر الصغير.
٧٠ ـ ذريعة : وسيلة.
٧١ ـ ناشية السحاب : أول ما ينشأ منه أي يبتدأ ظهوره.
٧٢ ـ الموات : بفتح الميم القفر من الأرض الذي لا يزرع.
٧٣ ـ اللمع : جمع لمعة قطعة من النبت إذا أخذت في اليبس كأنها تلمع وتضيء.
٧٤ ـ التباين : الافتراق.
٧٥ ـ القزع : جمع قزعة محركة وهي القطعة من الغيم.
٧٦ ـ تمخضت : تحركت بقوة من المخض وهو تحريك السقاء الذي فيه اللبن لاستخراج زبده.
٧٧ ـ المزن : بضم الميم جمع مزنة وهي السحابة.
٧٨ ـ الكفف : جمع كفة الحاشية والطرق لكل شيء.
٧٩ ـ الوميض : الضياء واللمعان.
٨٠ ـ الكهنور : العظيم من السحاب.
٨١ ـ الرباب : السحاب الأبيض.
٨٢ ـ المتراكم : المجتمع بعضه فوق بعض.
٨٣ ـ السح : الصب والسيلان من علو.
٨٤ ـ تدارك : القوم إذا لحق آخرهم أولهم.
٨٥ ـ أسف : دنا من الأرض.
٨٦ ـ هيدبه : ما تهدب منه أي تدلى.
٨٧ ـ تمريه : من مري الناقة يمريها إذا مسح ضرعها فأمرت أي در لبنها.
٨٨ ـ الدرر : جمع درة بالكسر وهي اللبن.
٨٩ ـ الأهاضيب : جمع أهضاب وهو جمع هضبة، المطرة.
٩٠ ـ دفع : جمع دفعة بضم الدال وهي المرة.
٩١ ـ الشآبيب : جمع شؤبوب وهو ما ينزل من المطر بشدة وقوة.
٩٢ ـ البرك : الصدر.
٩٣ ـ بوانيها : تثنية بوان وهو عمود الخيمة والجمع بُون بالضم.

٩٤ ـ بعاع السحاب : ما كان مثقل بالمطر .
٩٥ ـ استقلت : ارتفعت ونهضت .
٩٦ ـ العبء : الثقل .
٩٧ ـ الهوامد : من الأرض ما لا نبات بها .
٩٨ ـ زعر : بالضم جمع أزعر من الجبال قلة العشب .
٩٩ ـ بهج : سر وفرح .
١٠٠ ـ الرياض : جمع روضة الأرض المخضرة بأنواع النبات .
١٠١ ـ تزدهي : تعجب .
١٠٢ ـ ريط : جمع ريطة وهي كل ثوب رقيق ليّن .
١٠٣ ـ أزاهير : جمع أزهار جمع زهرة النبات أو نورها .
١٠٤ ـ الحلية : الزينة .
١٠٥ ـ السمط : الخيط تنظم فيه القلادة .
١٠٦ ـ النضارة : الحسن والطراوة .
١٠٧ ـ الأنوار : جمع نور بفتح النون الزهر .
١٠٨ ـ البلاغ : ما يتبلّغ به من القوت .
١٠٩ ـ خرق : من الخرق وهو الثقب والفرجة .
١١٠ ـ الفجاج : جمع فج الطريق الواسع بين جبلين .
١١١ ـ المنار : الأعلام .
١١٢ ـ الجواد : جمع جادة وسط الطريق .
١١٣ ـ مهد الأرض : سواها وأصلها من المهاد وهو الفراش .
١١٤ ـ الخيرة : المختار .
١١٥ ـ الجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلقة والطبيعة .
١١٦ ـ الرغد : من العيش ما طاب واتسع .
١١٧ ـ الأكل : بضمتين الرزق والحظ .
١١٨ ـ أوعزت : إليه بكذا تقدمت إليه به وأمرت .
١١٩ ـ أقدم عليه : تناوله .
١٢٠ ـ تعرّض للمعصية : أبدى جانبه إليها وأرادها .
١٢١ ـ خاطر : بنفسه وماله أشفاهما على خطر وألقاهما في المهلكة .
١٢٢ ـ الموافاة : أدرك الشيء .
١٢٣ ـ النسل : الذرية .
١٢٤ ـ تعاهدهم : جدد العهد بهم، والتعهّد التحفظ بالشيء .
١٢٥ ـ الودائع : جمع وديعة وهو الشيء يوضع عند إنسان ليحفظه لصاحبه .

١٢٦ ـ القرن	:	أهل كل زمان ويعادل مئة سنة.
١٢٧ ـ المقطع	:	النهاية ومقطع الشيء نهايته.
١٢٨ ـ العذر	:	ما به يعتذر.
١٢٩ ـ النذر	:	ما خوف به.
١٣٠ ـ عدّل	:	بالتشديد هو التقويم وعدل بالتخفيف هو نقيض الظلم.
١٣١ ـ الإبتلاء	:	الاختبار والفتنة.
١٣٢ ـ الميسور	:	اليس والمعسور، العسر.
١٣٣ ـ العقابيل	:	الشدائد وفي الأصل قروح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض.
١٣٤ ـ الفاقة	:	الفقر.
١٣٥ ـ الطوارق	:	جمع طارق ما يأتي ليلاً.
١٣٦ ـ الآفات	:	المصائب.
١٣٧ ـ الفرج	:	جمع فرجة وهي التفصي من الهم والخلاص من الشدة.
١٣٨ ـ الغصص	:	جمع غصة ما اعترض في الحلق.
١٣٩ ـ الأتراح	:	الأحزان.
١٤٠ ـ الآجال	:	جمع الأجل محركة مدة الشيء، زمان حلول الموت.
١٤١ ـ خالجاً	:	جاذباً.
١٤٢ ـ الأشطان	:	جمع الشطن بالتحريك الحبل أو الطويل منه.
١٤٣ ـ المرائر	:	جمع مريرة وهو ما لطف وطال منها واشتد فتله.
١٤٤ ـ الأقران	:	جمع قرن بالتحريك وهو حبل يجمع به البعيران.
١٤٥ ـ النجوى	:	المسارة.
١٤٦ ـ التخافت	:	الإخفات ضد الجهر.
١٤٧ ـ الخاطر	:	ما يخطر في القلب من تدبير أمر ونحوه.
١٤٨ ـ رجم الظنون	:	القول بالظن.
١٤٩ ـ العقد	:	جمع عقدة وهو ما يرتبط القلب بتصديقه لا يصدق نقيضه ولا يتوهمه.
١٥٠ ـ العزيمات	:	جمع عزيمة التي يعقد القلب عليها وتطمئن النفس إليها.
١٥١ ـ المسارق	:	جمع مسرق مكان مسارقة النظر أو زمانه وفلان يسارق فلاناً النظر أي ينتظر منه غفلة فينظر إليه.
١٥٢ ـ الإيماض	:	اللمعان.
١٥٣ ـ ضمنته	:	ضمته.
١٥٤ ـ الأكنان	:	جمع كن بالكسر الستر.
١٥٥ ـ غيابات الغيوب	:	أعماقها.
١٥٦ ـ أصغت	:	تسمّعت.

١٥٧ ـ استراق الكلام : استماعه خفية.
١٥٨ ـ مصائخ الأسماع : خروقها التي يتسمع بها.
١٥٩ ـ المصائف : محل الإقامة في الصيف.
١٦٠ ـ الذر : جمع ذرة وهي أصغر النمل.
١٦١ ـ المشاتي : محل الإقامة في الشتاء.
١٦٢ ـ الهوّام : جمع هامة ولا يقع هذا الاسم إلا على المخوف من الأحناش.
١٦٣ ـ رجع الحنين : ترجيعه وترديده.
١٦٤ ـ المولهات : الحزينات، النوق والنساء اللواتي حيل بينهن وبين أولادهن.
١٦٥ ـ همس الأقدام : صوت وطئها حينما يكون خفياً جداً.
١٦٦ ـ منفسح الثمرة : مكان نمائها.
١٦٧ ـ الولائج : جمع وليجة البطانة الداخلية.
١٦٨ ـ الغلف : جمع غلاف.
١٦٩ ـ الأكمام : جمع كم بالكسر وهو غطاء النوار ووعاء الطلع.
١٧٠ ـ منقمع : الوحوش موضع انقماعها أي اختفائها واستتارها.
١٧١ ـ الغيران : جمع غار وهو كالكهف في الجبل.
١٧٢ ـ مختبأ البعوض : موضع اختبائها واستتارها.
١٧٣ ـ البعوض : البرغش، حشرات مضرة من ذوات الجناحين.
١٧٤ ـ سوق : جمع ساق أسفل الشجرة التي تقوم عليه فروعها.
١٧٥ ـ الألحية : جمع لحاء وهو قشر الشجرة.
١٧٦ ـ مغرز الأوراق : موضع غرزها فيها.
١٧٧ ـ الأفنان : جمع فنن وهو الغصن.
١٧٨ ـ الأمشاج : النطف سميت أمشاجاً لاختلاطها بمني المرأة ودمها.
١٧٩ ـ مسارب الأصلاب : جمع مسرب وهو ما يتسرب المني فيها عند نزوله أو تكوّنه.
١٨٠ ـ ناشئة الغيوم : أول ما ينشأ منها.
١٨١ ـ متلاحمها : المتلاصق منها بعضه ببعض.
١٨٢ ـ درور : من درّ يدرّ أي سال وناقة درور أي كثيرة اللبن.
١٨٣ ـ المتراكم : المجتمع المتكاثف منها.
١٨٤ ـ سفت الريح التراب: ذرته وحملته.
١٨٥ ـ الأعاصير : جمع إعصار الريح التي تهب فتثير غباراً فيرتفع في السماء.
١٨٦ ـ تعفو : تمحو وعفت الريح المنزل درسته.

١٨٧ ـ العوم : السباحة، الطفو على السطح.
١٨٨ ـ الكثبان : جمع كثيب التل من الرمال المجتمعة.
١٨٩ ـ نبات الأرض : الهوام والحشرات التي تكون في الرمال.
١٩٠ ـ الذرا : جمع ذروة وهي أعلى الشيء.
١٩١ ـ الشناخيب : رؤوس الجبال.
١٩٢ ـ غرّد الطائر : رفع صوته وطرب به.
١٩٣ ـ الدياجير : جمع ديجور وهو الظلمة.
١٩٤ ـ الأوكار : جمع وكر وهو عش الطائر.
١٩٥ ـ أوعبته : جمعته.
١٩٦ ـ الأصداف : غلاف اللؤلؤ.
١٩٧ ـ حضنت عليه : ربته فتولد في حضنها.
١٩٨ ـ سدفة : الليل ظلمته.
١٩٩ ـ ذرّ : طلع.
٢٠٠ ـ شرقت الشمس : طلعت.
٢٠١ ـ اعتقبت : تعاقبت وتوالت.
٢٠٢ ـ الأطباق : الأغطية.
٢٠٣ ـ سبحات النور : درجاته وأطواره.
٢٠٤ ـ الخطوة : بضم الخاء ما بين القدمين.
٢٠٥ ـ رجع : كل كلمة جوابها. أو ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردده.
٢٠٦ ـ النسمة : الإنسان.
٢٠٧ ـ مثقال : وزن.
٢٠٨ ـ الهماهم : جمع همهمة ترديد الصوت في الصدر.
٢٠٩ ـ الهامة : ذات الهمة التي تعزم على الأمر.
٢١٠ ـ قرارتها : مقرها.
٢١١ ـ النطفة : الماء الصافي، المني.
٢١٢ ـ النقاعة : نقرة يجتمع فيها الدم.
٢١٣ ـ المضغة : قطعة اللحم.
٢١٤ ـ السلالة : في الأصل ما استل من الشيء وسميت النطفة سلالة لأنها استلت منه وكذلك الولد.
٢١٥ ـ الكلفة : المشقة.
٢١٦ ـ العارضة : ما يعترض العامل فيمنعه من العمل.

٢١٧ ـ اعتورته : تداولته وتناولته.
٢١٨ ـ الفترة : الضعف.

الشرح

(كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة). في هذا الفصل المبارك من كلامه عليه السلام بيان عظمة الله وقدرته في خلق الأرض وبعض ما عليها وما فيها وبيان بعض الفوايد والمنافع . . .

ابتدأ في هذا الفصل بذكر كيفية خلق الأرض فذكر أن الكون مملوء بالماء المضطرب المتموج المستفحل الذي يرعد ويزبد فهو مملوء بالبحار الممتلئة بالماء فخلق الله الأرض ودفعها على تلك المياه بحالتها الموصوفة وأدخلها فيها بقوة وشدة.

(تلتطم أواذي أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغو زبداً كالفحول عند هياجها). لا يزال الحديث عن حال المياه وأوصافها عندما كبس الله الأرض فيها . . . إنها صورة مرعبة لمن يشاهدها إنها صورة الأمواج التي يضرب بعضها بعضاً لشدتها وأمواجها العالية العظيمة ترد فيتكسر بعضها على بعض ويرتفع منها أصوات مخيفة ولشدتها يتولد منها رغوة تطفو على وجه الماء حاكية عن شدتها مفصحة عن قوتها ناطقة بعظيم قدرتها فهي عاصية متمردة لا تقبل التطويع ولا يقدر أحد على ضبطها والسيطرة عليها وقد شبهها بالفحول عند هيجانها . . .

(فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكها وذل مستخذياً إذ تمعكت عليه بكواهلها). بعد أن القى الله الأرض في الماء المستفحل المتلاطم الذي يزبد ويرغي لقوته وعنفه ذل اضطراب الماء وسكن ضرب بعضها ببعض لوزنها الضخم الكبير فشكلت ميزان الهدوء ومانعاً من الحركة وهدأ تدافعه عندما وضعت منها واستمكنت عليه؛ شبّه الأرض في الماء كالناقة التي وضعت صدرها على أحد واستحكمت منه ومنعته من الحركة فأصبح ذليلاً أو هي مثل الناقة التي عركت بكاهلها من تحتها فإنه ينكسر ويذل . . .

(فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً). فبعد تلك الحركة والاضطراب في الأمواج أصبح كل ذلك ساكناً مغلوباً لا يتحرك وفي ذمام الذل والخزي منقاداً محبوساً كما أراد الله وأحب وقد شبّه اضطراب الأمواج وحركتها

لقوتها وشدتها بحيوان صايل كالفرس وأنه استطاع قائده أن يحكمه بحديدة اللجام ويوجهه بها كيف يشاء.

ونتيجة كلامه عليه السلام سكون الماء وهدؤه بعد وضع الأرض فيه...

(وسكنت الأرض مدحوة في لجة تياره وردّت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسمو غلوائه). استقرت الأرض مبسوطة في أعمق نقاط الماء وأشدها غوراً فهدأ الماء واستقر وقد شبّه الماء برجل متجبر متكبر عال تياه فيأتيه من يذله ويخزيه ويرده عن غيه وكبريائه...

(وكعمته على كظه جريته فهمد بعد نزقانه ولبد بعد زيفان وثباته). قد سدت عليه ما كان من جريانه وتحركه الثقيل البطيء الذي ينم عن قوة وجبروت أو أوقفت شدة جريانه وطول ملازمته له فسكن وهمد وأقام بعد تلك الحركات والطفرات...

(فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها وحمل شواهق الجبال الشمّخ البذّخ على أكتافها). وعندما هدأ ثوران الماء من تحت جوانبها واستقر حمل الجبال العالية العظيمة الضخمة عليها وفي أصلب مواضعها فجر الله الماء من أعالي جبالها...

(فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها). أخرج الماء من أعالي الجبال تنبيهاً على كمال قدرته وقوته وحكمته ووزّعها حسب المصلحة فأخذت الصحاري والفلوات منها نصيبها كما شكّلت أنهاراً تجري لينتفع بها الناس.

وقد شبه الأرض برجل وشبه الجبال بأنفه وقد خرجت العيون من أعلاها...

(وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيدها). فهذه الجبال الثابتة في الأرض الغائرة في أعماقها والأخرى الصلبة الشامخة برؤوسها في أعلى الفضاء قد جعلت حركات الأرض متزنة ضمن نظام معتدل بحيث يكون التوازن والاعتدال وعدم الخلل والاضطراب...

(فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها). هدأت الأرض واستقرت ولم تعد تضطرب في فوضى وعدم اتزان بسبب وضع هذه الجبال التي تُثبتها وتمنعها عن الاضطراب فإن هذه الجبال لم تكن عشوائية الوقوع في أمكانها وإنما كانت لحكمة رفع اضطراب الأرض وهذا يستدعي أن تكون غائرة في عمق الأرض داخلة في رفق ولين إلى الأماكن المفتوحة منها معتلية فوق سهول الأرض وأصولها التي هي أعماقها.

(وفسح بين الجو وبينها وأعد الهواء متنسماً لساكنها وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها). وجعل بين السماء وبين هذه الجبال التي بها هدأت الأرض جعل فسحة واسعة نراها بأعيننا.

ووفّر الهواء يتنفسه ساكن هذه الأرض حتى يستطيع الحياة عليها وإكمال الشوط.

وبعد أن كملت كل أسباب الراحة ولاستقرار لهذا الإنسان على ظهرها أخرجه الله إليها وأسكنه فيه ليعمرها ويبني الحياة على ظهرها...

(ثم لم يدع جزر الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها). بعد أن خلق الله الأرض وفجر فيها العيون وأجرى الجداول لم يترك من هذه الأرض ما لا يمكن أن تصل إليه مياه العيون أو الجداول كالروابي العالية لم يتركها قفراء نفراء بل إن منعت من ماء الأرض فإن ماء السماء قد أعدته يد العليم الخبير ولذا أرسل لها الغمام ليسقيها ويحييها...

(حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحي مواتها وتستخرج نباتها). فالله سبحانه أراد أن يحي من الأرض ما كان معطلاً غير صالح للزرع ويستخرج منها النبات فلذا خلق لها الغيوم المملؤة بالماء التي ترويها وتسقيها وتعيد إليها الحياة ثم بين كيف يتكون الغمام وكيف يجتمع.

(ألّف غمامها بعد افتراق لمعه وتباين قزعه حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه والتمع برقه في كففه ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ومتراكم سحابه أرسله سحاً متداركاً). جمع هذه الغيوم فجعلها كتلة واحدة بعد أن كانت متفرقة الأجزاء موزعة فهذه غيمة مجزأة تراها تلمع كالعشب اليابس وأخرى متباعدة الأجزاء فجمعها الله بقدرته وصيّرها كتلة واحدة وعندما تحرك الماء العظيم في داخلها واستعد للنزول أضاء البرق والتمع في جوانب هذا الغيم ولم ينقطع في الغيم الأبيض المجتمع الذي تراكم فوق بعضه، عندما تمت كل هذه العملية الإلهية أنزله الله وأرسله يصب الماء صباً متلاحقاً متواصلاً...

(قد أسفّ هيدبه تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه). وصف لحال الغيوم المثقلة بالمطر وكيف أن أطراف الغيوم عندما تنخفض نحو الأرض تأتيها رياح الجنوب وهي أدر ريح للمطر تحركها بلين فتستخرج منها مياهها المتدافعة ودفعات تلك المياه النازلة بشدة وقوة...

(فلما ألقت السحاب برك بوانيها وبعاع ما استقلت به من العبء المحمول عليها

أخرج به من هوامد الأرض النبات ومن زعر الجبال الأعشاب). فلما ألقت الغيوم بصدرها شبهها بالجمل المثقل المتعب فقد ألقت بصدرها ورمت بحملها المحمول عليها الذي أتعبها وأثقلها أخرج عندها بما ألقت ما كان هامداً ساكناً من نبات الأرض وكسى عرى الجبال بالأعشاب كما قال تعالى: **﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾**.

(فهي تبهج بزينة رياضها وتزدهي بما ألبسته من ريط أزاهيرها وحلية ما سمطت به من ناضر أنوارها). فهي فرحة تضحك بما تزينت به حدائقها وتتكبر بما ألبسته وما انتظم فيها من أزهارها وما اشتملت عليه نضرة ورودها وأزهارها... وبعبارة موجزة لبست الأرض حلية جديدة تحكي عزها وتفخر بما أنعم الله به عليها.

(وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام). وهذه غاية الكون حيث جعله الله مستمراً لمصلحة هذا الإنسان ولبلوغ ما يريد به فهي وسيلة يبلغ المرء بها مراده ورزقاً للحيوان يعيش بما تنبت الأرض وتخرجه...

قال تعالى: **﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾**.

(وخرق الفجاج في آفاقها وأقام المنار للسالكين على جواد طرقها). وهذه منة من منن الله وفضل منه أنه شق الطرق الواسعة في هذه الجبال كي يتيسر لهذا الإنسان اجتيازها بدون صعوبة كما أنه سبحانه أقام دلائل وعلامات لهذه الطرق كي يمشي فيها الإنسان بدون أن يضل والعلامات إما النجوم أو الجبال فهو سبحانه مهّد الطريق ودل عليه بالعلامات الواضحة قال تعالى: **﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾**.

(فلما مهد أرضه وأنفذ أمره اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه وجعله أول جبلته وأسكنه جنته وأرغد فيها أكله وأوعز إليه فيما نهاه عنه وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته). ذكر عليه السلام أن الله عندما سوى الأرض وجعلها صالحة لإقامة الحياة فيها والراحة عليها تحقق ما أراد ووجد مراده فاختار آدم عليه السلام من بين خلقه وجعله أول مخلوق بشري ومنه تبتدأ سلسلة هذا الإنسان وأسكنه جنته كما قال تعالى: **﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾**. وجعل عيشه واسعاً طيباً كما قال تعالى: **﴿فكلا منها رغداً حيث شئتما﴾**. ثم كانت فترة الإمتحان لآدم فتقدم إليه بالنهي عن الأكل من بعض أشجار الجنة وأعلمه أن في مخالفة هذا النهي معصية لله على حد «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

قال تعالى: **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما**

ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

(والمخاطرة بمنزلته فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله وليقيم الحجة به على عباده). نهاه أن يقع في مهلكة المعصية فتنزل مكانته وتسقط رتبته ولكن الشيطان وسوس إليه فأقدم عليها وتناولها طبقاً لما كان يعلمه الله منه وأنه سيوافيها ويتناولها فلما أكل منها وعصى ربه أدرك خطأه فتاب وعاد إلى الله فعاد الله عليه وقبل توبته ثم أنزله إلى الأرض كما قال تعالى: **﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقال اهبطا منها جميعاً﴾**. وأنزاله إلى الأرض ليجعلها عامرة بأولاده وذريته وليكون حجة على عباده وأنه النبي الذي اختاره الله وتاب عليه واجتباه.

وقال بعضهم أن المراد بإقامة الحجة به أنه إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فأخلق بها أن لا يدخلها ذو خطايا جمة...

والأظهر الأول لما سيرد بعد هذا الكلام من عدم خلو الأرض من حجة بعد آدم...

(ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته ويصل بينهم وبين معرفته بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً).
بعد أن قبض الله آدم إليه لم تخل الناس من الحجج والبراهين الدالة على ربوبيته فإن الإنسان بما زوده الله به من العقل يكفي ليستدل به على إثبات وجوده وعلى صلته به فإن معرفة الله فطرية في نفس هذا الإنسان يهتدي إلى الله. بمجرد أن يتوجه إليه ويلتفت إلى نفسه وإلى خلق العالم ومن هنا كانت الرسل والأنبياء، من أجل تأكيد هذه الربوبية من جهة ولبيان الشريعة من جهة أخرى.

ومع ما زودهم الله به من الفطرة التي تهدي هذا الإنسان إلى الله أرسل لهم خيرته من الأنبياء وحاملي ما أودعهم الله عندهم من الرسالات وهكذا لم يخل زمان بدون رسول يحتج به على الخلق بما يحمل إليهم من الحجج والبينات وبما زودهم به من التعاليم والأحكام...

(حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم حجته وبلغ المقطع عذره ونذره).
وهكذا بقيت الرسل قائمة تترى إلى أن كملت وتمت حجته ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله فعندها بلغ النهاية في إعذاره وإنذاره وسقطت حجة الناس وكان لله الحجة والعذر في عقاب المخالف ومن أنذرهم وخوفهم فلم يرتدعوا...

(وقدّر الأرزاق فكثرها وقللها وقسمها على الضيق والسعة فعدل فيها ليبتلي من أراد

بميسورها ومعسورها وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها). جعل لكل نفس قدراً معيناً من الرزق فوسّع على بعضها وضيّق على أخرى وأغنى بعض الأفراد وأفقر آخرين وقد جعل ذلك حكماً عدلاً وعلى مقتضى الحكمة يبتلي بذلك أصحاب الغنى وأصحاب الفقر ويختبرهم ليجد صبر الفقراء وشكر الأغنياء وقد أثبتت التجارب أن فتنة المال من أعظم الفتن وقد قال تعالى: **﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾** فمع الغنى يأتي الطغيان والظلم وتجاوز الحدود المشروعة وإن شئت الحقيقة فأضرب بطرفك نحو طبقة الأغنياء لتجد الإنحراف والظلم وتسخير المال من أجل إضلال الناس والإنحلال...

(ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها وبسلامتها طوارق آفاتها وبفرج أفراحها غصص أتراحها). وهذه من حكمة الله وتقديره ينبه الإنسان من خلالها ويرده إلى حجمه لئلا يكفر أو يظلم إنه قرن الأمور بأضدادها وجمعها مع ما يخالفها...

قرن بين السعة في المال وبين الحاجة والفقر فبينما ترى الإنسان موسعاً عليه في بحبوحة من العيش إذ به يقع في ضيق ويتحول إلى أفقر الفقراء ويحكي لنا التاريخ عن ملوك أصبحوا من الفقر يستجدون القليل...

وكذلك إقترنت سلامتها بطوارق آفاتها فبينما الإنسان سليماً صحيحاً معافى في بدنه إذ تهجم عليه المصائب والعلل على حين غرة وقد قيل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله   إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

وتقترن أيضاً مسراتها بأحزانها في وقت الأفراح قد تأتي الأحزان...

(وخلق الآجال فأطالها وقصرها وقدمها وأخرها ووصل بالموت أسبابها وجعله خالجاً لاشطانها وقاطعاً لمرائر أقرانها). فهو الذي خلق الأعمار وقدرها فجعل بعضها طويلاً بحيث يعّمر الإنسان عمراً طويلاً وبعضها يجعله قصيراً فيموت صاحبه في عمر الشباب.

كما قدم أعمار بعض الناس كمن تقدم علينا من الأفراد والشعوب وأخّر أخرى كما هو واقعنا نسبة إلى من تقدمنا.

ثم بين أن هذه الأعمار موصولة بأسباب الموت من القتل والوفاة والمرض وغيرها.

وشبه الأعمار بالجبال الطويلة وجعل الموت جاذباً لها نحوه ومقربها منه إنه يقطع

هذه الأعمار الفتية القوية الشابة التي تمتلىء نضارة وبهجة وقد شبه ذلك بالحبال القوية المفتولة على أكثر من طـاق بحيث يظن الإنسان عدم إمكان قطعها ولكن الموت يقطع أعمار الشباب والفتيان مهما كانوا أقوياء. . .

(عالم السر من ضمائر المضمرين). أشار عليه السلام إلى علم الله بالجزئيات وقد أحسن ابن أبي الحديد عند ذكر هذا الفصل فأثنى عليه بقوله:

لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن العباس بن جريج لإسماعيل بن بلبل:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كـلا ولكـن لعمـري منـه شيبـان
وكـم أب قـد عـلا بـابـن ذرا شـرف كمـا عـلا بـرسـول الله عـدنـان

إذا كان يفخر به على عدنان وقحطان بل كان يقربه عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ويقول له: إنه لم يُعفِ ما شيّدت من معالم التوحيد بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعه أنت في جاهلية النبط، بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات لخشع قلبه ووقف شعره واضطرب فكره ألا ترى ما عليه من الرواء والمهابة والعظمة والفخامة والمتانة والجزالة مع ما قد أشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه فإن هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة وجدول من ذلك البحر وجذوة من تلك النار وكأنه شرح قوله تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة ألا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾** انتهى كلامه. . .

(ونجوى المتخافتين). وإذا كان سبحانه يعلم السر وأخفى فهو يعلم بطريق أولى ما يدور بين إنسان وآخر قال تعالى: **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾** فالله مع كل اثنين يتخافتان في حديثهما ويتساران به. . .

(وخواطر رجم الظنون). يعلم سبحانه ما يسبق إلى خواطر هذا الإنسان من الظنون التي لا دليل عليها.

(وعقد عزيمات اليقين). ويعلم سبحانه ما تعقد عليه ضميرك ولا تتردد فيه.

(ومسارق إيماض الجفون). يعلم ما يسرقه البصر خفية وحين تكون الناس في

غفلة قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

(وما ضمنته أكنان القلوب). يعلم ما سترته القلوب وخبأته في طياتها بحيث لا تبيح به لأحد مهما قرب منها.

(وغيابات الغيوب). ويعلم ما في أعماق الغيب مما يأتي ولم يطلع عليه أحد.

(وما أصغت لاستراقه مصائخ الأسماع). يعلم ما مالت إليه الآذان طالبة استماعه خفية مسترقة سره...

(ومصائف الذر ومشاتي الهوام). ويعلم سبحانه بيوت الصيف التي تقيم به صغار النمل وأماكن الشتاء التي تقيم فيه الحشرات.

(ورجع الحنين من المولهات). إنه يعلم ترديد صوت الثكلى في بكائها وحنينها إلى من فقدته وحيل بينها وبينه.

(وهمس الأقدام). يعلم ما خفي من صوت الأقدام التي لا يستطيع السمع أن يلتقطها...

(ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الأكمام). فهو تعالى يعلم بالثمرة قبل أن تخرج من أكمامها وتظهر إلى الوجود...

(ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها). يعلم أماكن اختباء الوحوش من سباع ونمور في مغاراتها في قلب الجبال أو في بطون الأودية...

(ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها). يعلم سبحانه البعوض وهو البرغش في مكان اختبائه بين جذوع الشجر وقشرها بحيث لا تخفى عليه أماكن سترها مع صغرها ودقيق مكانها...

(ومغرز الأوراق من الأفنان). يعلم محل خروج الأوراق من الغصون.

(ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب). يعلم سبحانه مكان النطف ومستقرها ويعلم تحركها وطرق تحركها في أصلاب أهلها.

(وناشئة الغيوم ومتلاحمها). ويعلم أول ما يتكون من الغيوم وينشأ كما يعلم ما يتصل بعضه منها ببعض ويلتحم ويجتمع...

(ودرر قطر السحاب في متراكمها). يعلم سبحانه قطر المطر في السحاب المتراكم بعضه فوق بعض، فهو يعلم قطر السحاب على كثرته...

(وما تسفي الأعاصير بذيولها وتعفو الأمطار بسيولها). فكل ذرة تحركها الرياح وتثيرها بهبوبها يعلمه الله كما يعلم ما تمحوه المياه بفيضاناتها وسيولها وتأتي عليه فلا تدع له أثراً. . .

(وعوم بنات الأرض في كثبان الرمال ومستقر ذوات الأجنحة بذرا شناخيب الجبال). يعلم الحشرات التي تتحرك في تلال الرمال وبين ذراتها ويعلم الطيور في أعالي الجبال الشاهقة ورؤوس القمم العالية. . .

(وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار). يعلم أصوات العصافير والطيور التي تطرب وهي في ظلمات أعشاشها ومختبآتها. . .

(وما أوعبته الأصداف). ما ضمته الأصداف وحفظته من اللؤلؤ يعلمه الله بحجمه وجودته ولونه. . .

(وحضنت عليه أمواج البحار). ما نمى وعاش في البحار كالعنبر والأسماك وقد عبر بالأمواج أنها تحتضنه لأنه يعيش في كنفها. . .

(وما غشيته سدفة ليل أو ذر عليه شارق نهار). يعلم كل ما يحويه ظلام الليل وما يظهر عليه ضوء النهار فما يمر عليه ليل أو نهار من حيوان وأشجار وأشياء يعلمه الله. . .

(وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير وسبحات النور). وعلمه سبحانه يشمل ما تعاقبت عليه ظلمات الظلام وأطوار النور المختلفة فعلمه يشمل ما تعاقب عليه الظلام والضياء. . .

(وأثر كل خطوة وحس كل حركة ورجع كل كلمة). يعلم سبحانه ما تتركه كل خطوة من أثر وعلامة إذا مشت ويعلم كل صوت خفي من أي حركة تصدر في الوجود كما أنه يعلم ما يردده الإنسان بينه وبين نفسه ويفكر فيه من الحديث.

(وتحريك كل شفة ومستقر كل نسمة ومثقال كل ذرة). يعلم سبحانه ما تتحرك به الشفاه وتنطق وفي كل لغة ومن أي إنسان كما يعلم مستقر كل نفس سواء كانت في الأصلاب والأرحام أم في زوايا الوجود في الدنيا والآخرة. . .

كما أنه سبحانه بعلمه يعلم وزن كل ذرة صغيرة مهما تناهت في الصغر وفي أي موضع كانت وفي أي محل استقرت. . .

(وهماهم كل نفس هامة وما عليها من ثمر شجرة أو ساقط ورقة). يعلم سبحانه ما

يختلج في كل نفس عازمة على أمر ويعلم ما على الأرض مما تحمل الأشجار من ثمر على اختلاف أصنافه وأنواعه وألوانه ويعلم بكل ورقة تسقط ومتى تسقط وكيف تسقط وأين تسقط. . .

(أو قرارة نطفة أو نقاعة دم ومضغة أو ناشئة خلق وسلالة). يعلم أين تستقر النطف وهي مني الرجال الذي يتكون منه الولد يعلم في أي رحم كما يعلم بكل نقطة من حيض يجتمع في مكانه ويعلم بكل قطعة لحم بقدر ما يمضغ ولعله إشارة إلى تكوّن الإنسان وإنه في أحد مراحل حياته وهو جنين يمر عليه أن يكون مضغة وذلك بقرينة السياق.

كما أنه يعلم ما يتكون منه صورة بشرية وتتوقف عنده ويعلم ما يكون من الأولاد والذرية. . .

(لم يلحقه في ذلك كلفة ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضة). نزه الله أن يلحقه ما يلحق المخلوقين من المشقة والتعب إذا أرادوا أن يعلموا أمراً أو يصفوه كما أنه سبحانه لا يقف في طريق حفظ مخلوقاته وصيانتهم أي عقبة أو مانع بل يعلم كل شيء ويحفظ كل ما خلق. . .

(ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا فترة). وهذا أيضاً من جملة تنزيه الله عن شبه المخلوقين وهو أنه لا يعتريه في اتمام ما أراد من الأشياء وتنفيذه أو إصلاح المخلوقين وتدبير شؤونهم ضجر أو سآمة ولا ملل أو انكسار.

(بل نفذهم علمه وأحصاهم عدده ووسعهم عدله وغمرهم فضله مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله). عِلْمُ الله أحاط بمخلوقاته وعرف سبحانه كل فرد بخصوصياته وما يعمل كما أنه عرف عددهم بدقة وأحصاهم كما قال تعالى: **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد[1] أحصاهم وعدهم عداً﴾**. وعدله قد شمل الجميع بحيث لا يظلم أحداً بل كل وما يستحق وأما فضله فقد عم الجميع وشملهم فهو سبحانه أخرجهم من زاوية العدم إلى الوجود وأفاض عليهم كل موجود من أصغر الأمور وأحقرها إلى أجلها وأعظمها. . .

مع أنهم لا يدركون حقيقة ما يستحق من الشكر وما ينبغي لجلال وجهه وكريم فعله. . . فهو يعطي ويتفضل وإن كنا في جهلنا نعيش ونتنكر. . .

---

(١) سورة مريم آية/ ٩٤.

دعـــاء

اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ(١) الوَصْفِ الجَمِيلِ، والتَّعْدَادِ(٢) الْكَثِير، إنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأمُولٍ، وإنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ. اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إلَى مَعَادِنِ الخَيْبَةِ(٣) وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ(٤)، وَعَدَلْتَ(٥) بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ الآدمِيِّينَ، والثَّنَاءِ(٦) عَلَى المَرْبُوبِينَ المَخْلُوقِينَ. اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ(٧) مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ(٨) مِنْ عَطَاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ(٩) الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ(١٠) الْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ وَهذَا مَقَام مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذي هُوَ لَكَ، ولَمْ يَرَ مُسْتَحِقاً لِهذِهِ المَحَامِدِ والمَمادح غَيْرَكَ، وَبِي فَاقَةٌ(١١) إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إلاَّ فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ(١٢) مِنْ خَلَّتِهَا(١٣) إلاَّ مَنُّكَ(١٤) وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي هذَا المَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ، «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!».

اللغة

١ ـ أهل	:	لكذا مستحق له.
٢ ـ التعداد	:	الاحصاء والحساب.
٣ ـ الخيبة	:	انقطع الأمل في المطلوب، وعدم الظفر به.
٤ ـ الريبة	:	الشك والتهمة.
٥ ـ عدلت	:	عن كذا ملت عنه ورجعت عنه.
٦ ـ الثناء	:	المدح.
٧ ـ المثوبة	:	الثواب والجزاء.
٨ ـ العارفة	:	المعروف.
٩ ـ الذخائر	:	جمع ذخيرة ما ذخر أي خُبيء لوقت الحاجة.
١٠ ـ الكنوز	:	جمع كنز كل مجموع مذخّر يتنافس فيه، المال المدفون في الأرض.

١١ ـ الفاقة : الفقر والحاجة.
١٢ ـ انعشه : من نعش إذا رفع ومنه سمي النعش لارتفاعه.
١٣ ـ الخلة : الفقر.
١٤ ـ مَنّك : من المنّ وهو الاحسان، والعطاء.

الشرح

(اللهم أنت أهل الوصف الجميل والتعداد الكثير إن تؤمل فخير مأمول وإن ترج فخير مرجو). أراد أن يتوجه في آخر الخطبة بالدعاء إلى الله وقد وصفه بالاستحقاق لكل وصف جميل فله الأسماء الحسنى ومستحق لذكر نعمه الكثيرة وعلى كل المستويات.

إن وضع أحد أمله فيك لم يرجع خائباً ولم يعد آيساً وإن رجاك لأمر أهمه كنت عند رجائه ومناه...

(اللهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ولا أثني به على أحد سواك ولا اوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة). اللهم أنت أعطيتني حسن البيان وساعدتني على ذلك فلا أمدح به غيرك ولا أثني به على أحد سواك لأنك وحدك المستحق لأعظم المدح والثناء ولا أوجهه إلى الناس الذين لا يستجيبون لمن توجه لهم ومن قصدهم كان في شك من استجابتهم له.

(وعدلت بلساني عن مدائح الآدمين والثناء على المربوبين المخلوقين). فلساني الذي ينطق ويتحرك ترك مدح الناس والثناء على المخلوقين وعدلت إليك للثناء عليك ومدحك.

(اللهم ولكل مثنٍ على من أثنى عليه مثوبة من جزاء أو عارفة من عطاء). كل من مدح إنساناً وأثنى عليه كان حقاً له أن ينال جزاء مدحه ومعروفاً من عطائه صلة يوصله بها...

(وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة). أنت يا رب الرجاء والأمل أن تكون دليلاً لي وموصلاً إلى أبواب الرحمة وأماكن تواجدها وأسباب المغفرة ومحلاتها...

(اللهم وهذا مقام من افردك بالتوحيد الذي هو لك ولم ير مستحقاً لهذه المحامد

والممادح غيرك). أنت ترى مكان هذا العبد الذي وحدّك وشهد إنك واحد لا شريك لك وهذا حق لك وأنت تستحقه وأهله إنه لم ير أحداً سواك مهما علت منزلته وارتفعت رتبته يستحق هذه الممادح الكريمة التي ذكرها وهذه المحامد الجليلة غيرك بل أنت وحدك الذي تستحق ذلك. . .

(وبي فاقة اليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك ولا ينعش من خلتها إلا منكّ وجودك). إنني محتاج إلى جودك وعطائك ولا يرفع هذا الفقر والمسكنة إلا عطاؤك وجودك ولا يرفع هذا الفقر والحاجة إلا كرمك. . .

(فهب لنا في هذا المقام رضاك وأغننا عن مد الأيدي إلى سواك إنك على كل شيء قدير). عطاياك يا رب أنزلها علينا ونحن في مقامنا هذا الذي نتوجه إليك فيه ونخلص في دعائنا لك وأغننا من فضلك وأفض علينا من فضلك حتى نكف أيدينا عن الحاجة إلى غيرك فإنك القادر على كل شيء تقدر على عطائنا وتكفينا إنك على كل شيء قدير. . .

٩٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه

دَعُوني والْتَمِسُوا[١] غَيْري، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ[٢] لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ العُقُول. وَإِنَّ الآفاقَ[٣] قَدْ أغَامَتْ[٤]، والمَحَجَّةَ[٥] قَدْ تنكَّرتْ[٦]. واعْلَمُوا أنِّي إنْ أجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ[٧] إلى قَوْلِ القَائِلِ وَعَتْبِ العَاتِبِ[٨]، وإنْ تَرَكْتُمُونِي فأنَا كَأحَدِكُمْ، ولَعَلِّي أسْمَعُكُمْ وَأطْوَعُكُمْ لِمنْ وَلَّيْتُمُوهُ أمْرَكُمْ، وأنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أمِيراً!.

اللغة

١ ـ التمسوا : غيري أطلبوا غيري.
٢ ـ لا تقوم : له القلوب أي لا تصبر.
٣ ـ الآفاق : النواحي، ما ظهر من نواحي الفلك ماساً الأرض.
٤ ـ أغامت : غطيت بالغيم وهي السُحب.
٥ ـ المحجه : الطريق.
٦ ـ تنكرت : تغيّرت.
٧ ـ أصغ : استمع.
٨ ـ العتب : هو الإنكار على شيء من الفعل، اللوم...

الشرح

(دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول). هذا الكلام من الإمام كان على أثر مقتل عثمان وقدوم الناس عليه

يطلبون منه قبول البيعة وتولي الإمامة فأجابهم عليه السلام بقوله هذا يطلب منهم أن يتركوه ويعدلوا عنه إلى غيره من المسلمين.

وهذا القول منه ليس تهرباً من الواقع أو رفضاً لحقه المشروع وإنما ليلقي الحجة عليهم من جهة ما يقوم به في مستقبل أمره في شأنهم فيسقط احتجاجهم عليه. . .

وقد يكون لعلمه بما ستجري عليه الأمور من قيام الناكثين والقاسطين والمارقين بحربه فإذا التمسوا غيره ولم يجد الناصر له سقط التكليف عنه بتولي الخلافة ويكون هذا من قبيل انتفاء الحكم بانتفاء موضوعه في حقه. . .

التمسوا غيري. . اطلبوا غيري فإنّ أمامنا أمر نستقبله له وجوه وألوان إنها فتنة نستقبلها سيخرج الثالوث طلحة والزبير وأم المؤمنين وسيخرج الخوارج وسيخرج معاوية وهي فتن صعبة ومحن مريرة لا تصبر عليها القلوب وتتردد فيها العقول. . سيرى الناس أصحاب رسول الله وأم المؤمنين يحملون راية المعارضة ويخرجون لحرب الخليفة. . سيرى الناس هذا المشهد فتضطرب عقولهم وتشوش أفكارهم ويترددون طويلاً في تعيين المحق من المبطل. . وكيف يصبر من لا علم له بالحق ولا خيرة له به. . هناك أمة ستقرأ الحق في الرجال ولا تقرأ الرجال في الحق. . سيرون في عمل بعض الصحابة حجة وينسبون الحق إليهم ولا يقيسون أعمالهم على الحق. . .

(**وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت**). إن المستقبل مظلم معتم فيه فتن واضطرابات بل تمرد وخلاف. . فيه حروب ودماء والطريق الصحيحة السليمة قد تشوشت معالمها وطمست آثارها وضل السائرون في متاهاتها وما عليه الإمام هي المحجة والطريق ولكن للأهواء قوة في الإنحراف عنها لا يقوى على مقاومتها أحد. . .

(**واعلموا إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب**). وهذا إنذار لهم وبيان لدوره إن أجابهم إلى البيعة وأضحى خليفة عليهم إنه سيحملهم على علمه بالشريعة وما تلقاه من النبي، فقد عاش مع الرسول فترة طويلة بل هي أطول فترة زمنية عاشها أحد من الصحابة مع النبي وقد تلقى عنه ألف باب من العلم وكل باب يفتح له منه ألف باب فهو بعد هذا على علم بالشريعة المحمدية سيحمل الناس عليها إن تولى الأمر وتقلد الخلافة وعندها لا يستمع إلى أقوال الناس ولا إلى آرائهم المخالفة لرأيه ولن يلتفت إلى العاتبين عليه الذين يريدون أكثر من حقهم ويطلبون أزيد من نصيبهم فيلومونه على عدم إعطائهم ذلك. . .

(**وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعليّ أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا**

لكم وزيراً خير لكم مني أميراً). إن تركتموني ولم تحملوني على تحمل أعباء الخلافة فأنا كأحدكم لن أشق عصا الطاعة أو أفرق الجماعة بل سأكون أطوعكم له إن لم يخالف الحكم الشرعي وكان عاملاً لمصلحة الإسلام وإقامة حكم الله وإعزاز عباده ثم أشار إلى ما فيه راحة لهم وإنه وهو وزير لهم خير منه أمير وذلك لأن الوزير له حق إبداء الرأي والإشارة فحسب دون إن يلزم الآخرين برأيه ولكن الأمير بيده التنفيذ فربما خالفهم في الرأي فكان عليه أن يحملهم عليه كرهاً عنهم وبالقوة والإمام عليه السلام قد سلك هذا الطريق فعندما تولى الأمر حملهم على ما يكرهون فقد قسم بالسوية وساوى في العطاء وهذا أمر لم يرتضوه أو يقبلوا به ومع ذلك نفذه قهراً عنهم، وهكذا حملهم على رأيه في كل أمر خالفوه في آرائهم. . .

٩٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينبِّه أمير المؤمنين على فضله وعلمه ويبين فتنة بني أمية

أمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ، والثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ[١] عَيْنَ الفِتْنَةِ[٢]، ولمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ[٣] عَلَيْها أحَدٌ غَيْري بَعْدَ أنْ مَاجَ[٤] غَيْهَبُهَا[٥]، واشْتَدَّ كَلَبُهَا[٦]. فاسْأَلُونِي قَبْلَ أنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَنْ فِئَةٍ[٧] تَهْدِي مِئَةً وتَضِلُّ مِئَةً إلاَّ أنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا[٨] وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، ومُنَاخِ[٩] رِكَابِهَا، ومَحَطِّ رِحَالِهَا[١٠]، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أهْلِهَا قَتْلاً، ومَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي ونَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ[١١] الأُمُورِ، وَحَوَازِبُ[١٢] الخُطُوبِ[١٣]، لأَطْرَقَ[١٤] كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ المسْؤُولِينَ، وَذَلِك إذَا قَلَّصَتْ[١٥] حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ[١٦] عَنْ سَاقٍ، وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُون مَعَهُ أيَّام البَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأبْرَارِ مِنْكُم.

إنَّ الفِتَنَ إذَا أقْبَلَتْ شَبَّهَتْ[١٧]، وَإذَا أدْبَرَتْ نَبَّهَتْ[١٨]، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، ويَعْرِفْنَ مُدْبِرَات، يَحُمْنَ[١٩] حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. ألاَ وَإنَّ أخْوَفَ الفِتَنِ عِنْدِي عَلَيكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فإنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا[٢٠]، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وأصَابَ البَلاَءُ مَنْ أبْصَرَ فِيهَا، وَأخْطَأَ البَلاَءُ[٢١] مَنْ عَمِيَ عَنْهَا. وَايْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أرْبَابَ سُوْءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ[٢٢] الضَّرُوسِ[٢٣]: تَعْذِمُ[٢٤] بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ[٢٥] بِيَدِهَا،

وَتَزْبِنُ(٢٦) بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا(٢٧)، لاَ يَزَالُونَ لِكُمْ حتَّى لاَ يَتْرُكُوا مِنكُمْ إلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أوْ غيرَ ضَائِرٍ(٢٨) بِهِمْ. وَلاَ يَزَالُ بَلاَؤُهُمْ عَنكُمْ حَتَّى لاَ يكُون انْتِصَارُ أحدِكُمْ مِنهُمْ إلاَّ كَانْتِصَارِ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، والصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِه، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهاءَ(٢٩) مَخْشِيَّةً(٣٠)، وَقِطَعاً(٣١) جاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى، وَلاَ عَلَمٌ(٣٢) يُرَى.

نَحْنُ أهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجاةٍ(٣٣)، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَدِيمِ(٣٤): بِمَنْ يَسُومُهُمْ(٣٥) خَسْفاً(٣٦)، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً(٣٧)، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأسٍ مُصَبَّرَةٍ(٣٨) لاَ يُعْطِيهِمْ إلاَّ السَّيْفَ، وَلاَ يُحْلِسُهُمْ(٣٩) إلاَّ الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَوَدُّ(٤٠) قُرَيْشٌ - بالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ(٤١) جَزُورٍ(٤٢)، لأقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِيهِ!.

اللغة

١ - فقأت : العين قلعتها.
٢ - الفتنة : المحنة، اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من قتال.
٣ - اجترأ : اقدم على الشيء وهجم عليه.
٤ - ماج : اضطرب.
٥ - الغيهب : الظلمة.
٦ - الكلب : محركة داء معروف يصيب الكلاب، والمقصود هنا شرها.
٧ - الفئة : الطائفة.
٨ - ناعقها : الداعي إليها.
٩ - المناخ : محل البروك.
١٠ - الرحال : جمع الرحل.
١١ - الكرائه : جمع كريهة وهي الشدة في الحرب.

١٢ ـ الحوازب : جمع حازب وهو الأمر الشديد وحزبه الأمر أي دهمه.
١٣ ـ الخطوب : جمع الخطب وهو الأمر العظيم.
١٤ ـ اطّرق : إذا سكت وأقبل ببصره إلى صدره.
١٥ ـ قلّصت : اجتمعت وانضمت.
١٦ ـ شمرت : عن ساقها اشتدت من شمر إذا مر مسرعاً أو من شمر ثوبه إذا رفعه.
١٧ ـ شبّلهت : اشتبه فيها الحق بالباطل.
١٨ ـ نبّهت : ايقظت.
١٩ ـ يحمن : من حام إذا دار.
٢٠ ـ الخُطة : بالضم الأمر، والحال.
٢١ ـ البلاء : الغم، المصيبة، الشر.
٢٢ ـ الناب : الناقة المسّنه.
٢٣ ـ الضروس : السيئة الخلق التي تَعضّ صاحبها.
٢٤ ـ تعذم : تعضّ أو تأكل بجفاء.
٢٥ ـ خبط : البعير الأرض إذا ضربها بيده.
٢٦ ـ تزّين : تضرب.
٢٧ ـ الدر : اللبن.
٢٨ ـ غير ضائر : غير ضار ولا مؤذي.
٢٩ ـ شوهاء : قبيحه.
٣٠ ـ مخشية : مخوفة.
٣١ ـ القطع : جمع قطعة الطائفة من الشيء.
٣٢ ـ علم : دليل يهتدى به.
٣٣ ـ المنجاة : من نجا إذا خلص، ما ارتفع من الأرض، الباعث على النجاة.
٣٤ ـ الأديم : الجلد.
٣٥ ـ السوم : المعاملة بجفاء.
٣٦ ـ الخسف : الذل.
٣٧ ـ العنف : مثلث ضد اللين.
٣٨ ـ مصبرة : أما بمعنى الجوانب، وأما الممزوجة بالصبر وهو عصارة شجر مّر.
٣٩ ـ يحلسهم : يلبسهم الحلس وهو الكساء تحت بردعة البعير.
٤٠ ـ تود : تتمنى، تحب.
٤١ ـ الجزر : القطع.
٤٢ ـ الجزور : الناقة المجزورة.

الشرح

(أما بعد حمد الله والثناء عليه أيها الناس فإني فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيهبها واشتد كلبها). هذه الخطبة كانت بعد وقوع الفتنة وواقعة الجمل والنهروان وصفين وفيها يبين فضله وعلمه ويبين فتنة بني أمية.

يذكر فيها أنه هو الذي قضى على هذه الفتن وأعلن ردها والحرب عليها وقد شبهها بالعين التي تنظر إلى ما لا يحل لها فبادر إلى قلعها ليمنع شرها ويمنعها عن الحرام...

وبيّن مهابة المسلمين لردها وكيف توقفوا أمامها لم يجرأ أحد على خوضها ولم يعرفوا حكمها. كيف يجرأ أحد والمتقاتلون صحابة عاشوا مع النبي وفيهم أم المؤمنين عائشة زوجه؟ كيف يقدمون على شهر السلاح في وجوه من حملوا الإسلام وضحوا وبذلوا؟...

ولذا توقف جماعة ولم يدروا ماذا يصنعون واحجم آخرون ولم يجرؤا...

ولكن الإمام كشف القناع عن الحقيقة عندما شهر السلاح في وجه الناكثين والقاسطين والمارقين وأعلنها عليهم حرباً حتى يعودوا إلى الطاعة وينبذوا الخلاف والعصيان...

إنه سّن فيهم سنة مباركة لولاه لم يعرف أهل الإسلام كيف يتعاملون مع من يقاتلهم من أهل القبلة...

ولذا قال الشافعي: لولا علي لما عرف شيء(١) من أحكام أهل البغي...

لقد كانت فتنة متنقلة من البصرة إلى صفين إلى النهروان شملت جمعاً غفيراً من أقرب الصحابة وأشدهم جهاداً...

وقد ملك الإمام جرأة الاقدام على وأد هذه الفتنة وقتال اربابها دون أن يمُس بتهمة تسقط اعتباره، إذْ بقى أطهر إنسان حتى في حربه إذْ عرف الجميع أن قتاله ليس من أجل الملك والسلطة وليس حقداً وعداوة وليس من أجل الدنيا وإنما كان من أجل الله ومن أجل الإسلام ووحدة المسلمين وقد تعامل مع خصومه وأعداؤه معاملة العظيم الذي عفى عندما قدر وصفح عندما ظفر...

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٠ ص ١٢٧.

(فاسألوني قبل أن تفقدوني). وهذه مقولة اختص بها الإمام وأضحت عنواناً ترمز إليه وتدل عليه طلب أن يسألوه عن كل شيء قبل استشهاده وخروجه من بين أظهرهم ولكن أولئك القوم على ما يبدو كانوا اغبياء سخفاء لم يسألوا عن شيء ينفعهم ويفيدهم وجلّ مسائلهم كانت امتحاناً أو تعنتاً، وهذا العلم من علم رسول الله الذي علمه إياه ومن فضل الله عليه وما اختصه الله به حيث أفاض عليه من علمه...

(فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مئة وتضل مئة إلا انبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً). أقسم بالله الذي يملك نفسه وهو سبحانه يملك نفوس الناس جميعاً إنهم لا يسألونه عن شيء مدة حياتهم وإلى البعث والنشور ولا عن طائفة قليلة تهدي أمة أو تضلهاإلا كان عنده علمها بتفاصيلها وحدودها من صغير الأمور فيها إلى كبيرها من مطلق صوتها ومعلن نفيرها إلى قائدها الذي يحمل راية ضلالها ويأتي بها.. إلى سائقها الذي يدفعها إلى الضلال والانحراف، يعلم علية السلام أين تضع اثقالها وتنزل بخيلها ورجلها كما يعلم من يموت فيها قتلاً ومن يبقى حتى يموت موتاً بدون قتل، إنه عليه السلام يعلم بخصوصيات الأمور وجزئياتها...

قال ابن أبي الحديد في شرحه «وكم له[1] من الأخبار بالغيوب الجارية هذا المجرى ممّا لو أردنا استقصاؤه لكسرنا له كراريس كثيرة وكتب السير تشتمل عليها مشروحة».

أقول: ومن اخباره بالأمور الغيبية وما يجري من الفتن وما يمر على بعض الناس ويحدث لهم مما لا تتحمله العقول ولا تقوم له القلوب من ذلك كان الغلو فيه ورفع منزلته إلى ما لا يجوز...

(ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين). ولو خلي مكاني من بينكم ورحلت عنكم إلى الآخرة ونزلت بكم الأمور التي تكرهها انفسكم ولا تصبر عليها والشدائد الصعبة من المصائب والبلايا عندها يبهت السائل ويسقط ما في يديه ويطرق إلى الأرض مفكراً يمتنع عليه السؤال أما المسؤول فإنه يفشل أمام السؤال ولا يستطيع أن يرد الجواب لعدم معرفته بالأحداث وكيف تجري وما هو حلها...

(وذلك إذا قلّصت حربكم وشمّرت عن ساق وضاقت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون

---

(١) ابن أبي الحديد ج ٧ ص ٥٠.

معه أيام البلاء عليكم حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم). ثم فسر كرائه الأمور بأنها إذا تمادت الحروب بينكم وبين أعدائكم وكانت على أشدها وأعظمها وضاقت عليكم الدنيا مع سعتها ضيقاً عظيماً تطول معه الأيام لقساوتها وشدتها فالمبتلى يرى الزمن بطيئاً لا يتحرك ويبقى الأمر كذلك حتى يأذن الله بالفرج فيفتح لمن بقي من الأبرار منكم بالنصر وتنجلي الفتنة ويرتفع غبارها وأثرها. . .

وبعبارة أخرى مكاره الحياة عندما تشتد الأمور وتضيق حلقات البلاء فمن شدتها يخرج احرارها وثوارها وعلى أيديهم يكون الفتح والنصر واسترداد الكرامة. . .

•

(إن الفتن إذا أقبلت شبهّت وإذا ادبرت نبهّت ينكرن مقبلات ويعرفن مدبرات يحمن حوم الرياح يصبن بلداً ويخطئن بلداً). عندما يدخل الناس في الفتنة تضيع موازينهم وتختل مقايسهم وتشتبه الأمور عليهم ويعسر تميز الحق من الباطل لاختلاطها وتصوير كل قائد أن الحق إلى جانبه ولكن إذا انجلت وارتفع ثقلها عن الناس عاد الإنسان بفكره الصافي إلى تحليل الأمور والتدقيق فيها فيكتشف الحق ويميزه عن الباطل ثم فسر أيضاً بأن الفتن إذا اقبلت قد ينكر الإنسان كونها فتن إما لأنه يحسن الظن بدعاتها وأهلها وإما لقصور فيه ولكن إذا ادبرت وذهبت أيامها عرف إنها فتن ظالمة كما وقع لبعض الناس في معركة الجمل حيث نظروا إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة فظنوا صحة دعواهم فلما انتهت المعركة عرفوا ظلمهم وجورهم ثم شبه الفتن بالريح التي تعصف فقد تصيب بلداً فتأتي عليه وتذره هشيماً وقد ينجو منها بلد آخر حسب قوة فكر أهل البلد ووعيهم وثقافتهم وعلمهم بالأمور. . .

(ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها). نبههم إلى أعظم الفتن وأخطرها وهي فتنة بني أمية وكونها أعظم الفتن وأخطرها لأنها أرادت أن تأتي على الإسلام فتجتث جذوره وتقضي على معالمه وأسسه، فبني أمية قوم يحملون الروح الجاهلية بكل ما فيها من تعصب وحقد ومجون فعندما يستولون على الحكم يحاولون القضاء على خصومهم القدامى وهم الهاشميين وقد تمثلوا برسول الله وعلي وأبناء علي. . .

ثم وصفها بأنها فتنة عمياء مظلمة لأنها تسير على غير هدى وليس لها موازين أو قواعد بليتها عمت جميع المسلمين وشملتهم كلهم لأن مقاليد الحكم بيد أرباب الفتنة والرياسة العامة وإذا كانت تشمل ببلائها الجميع فإنها تخص بعضهم بمزيد من البلاء

والمصائب وهؤلاء المخصصّون بهذا البلاء هم أهل البيت وشيعتهم والشرفاء من أبناء الأمة ونظرة سريعة إلى قائمة الشهداء في العهد الأموي تجد ما يعجز الحساب عن ضبطه وعده وهل يقدر المرء أن يحسب ما طاله سيف ابن زياد وعمر بن سعد والحجاج ومسرف بن عقبة وغيرهم من عملاء بني أمية وأمرائهم. . .

وأشار إلى أن البلاء والمصيبة حلت بمن أبصر فيها أي رأى الحق لأنه لا يستطيع كتمه بل لا بد له من الجهر به والاعلان عنه وهذا يعرضه إلى بلاء الأمويين وانتقامهم. . .

أما من لم يكن يعرف الحق ولم يقف على المنكر فإنه يسالم الأمور ويسلم ولا يصيبه بلاء أو مصيبة. . .

(وأيم الله لتُجدن بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس تعذم بفيها وتخبط بيدها وتزبن برجلها وتمنع درها). أقسم بالله وأخبر أن بني أمية يجعلون أنفسهم كالارباب في أمرهم ونهيهم بحيث يجب اطاعتهم وأمتثال أمرهم وشبههم بالناقة المسنة السيئة الاخلاق التي تعض بفمها وتضرب بيدها وتدفع برجلها وتمنع حالبها من حلبها فهم مثلها من جهة ايذاؤهم للناس واعتداؤهم عليهم وقتلهم لهم ومنعهم العطاء والفيىء وقد مارس بنو أمية أبشع أنواع الظلم والتعدي ومنعوا الناس حقوقهم إلا من رضوا عنه وكان على دينهم وفي خطهم وضمن سياستهم.

(لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم). لا يزالون في ظلمهم عليكم ولا يتحولون عن قهركم وإذلالكم بل سيبقون كذلك حتى لا يتركوا منكم إلا عميلاً يخدمهم ويستفيدون منه أو من لا يضرهم ولا يؤثر على حكمهم وسلطانهم. . .

(ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه). لا يرتفع بلاء الأمويين وعذابهم عن الأمة ولا يمكن للأمة أن تنتصر لنفسها إلا كانتصار العبد من سيده والتابع من متبوعه أي ليس لهم انتصار أو تغيير أبداً أو ليس لهم انتصار إلا الغيبة لهم والكلام عليهم فحسب دون أن يغيروا بفعل أو سلوك كما ذكر ذلك في موضع آخر ويكون نصرة أحدكم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه. . .

(ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى). إنها فتنة منكرة عقلاً وشرعاً وقبيحة أشد القبح منفره للطباع مبعدة للقلوب، إنها أمواج من أمواج الجاهلية التي أحيتها العصبة الأموية لا تجد فيها معلماً يدل على الخير

ويهدي إلى الاستقامة فإن الأمويين قد كموا الأفواه واغمضوا العيون وقتلوا الأحرار وغيّروا مناهج الحق والعدل فلا مرشد ولا هادي يرشد إلى الحق أو يرد إلى الصواب.

(نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة). ذكر أهل البيت وإنهم لا يصيبهم من آثامها وجرائرها السيئة إثم أو سيئة وليس المراد أنها لا تصيبهم ببلائها ومصائبها لأن أهل البيت أصابهم أشد ما أصاب الأمة حيث أُصيب الحسين وأهله ونفى عليه السلام أن يدعو أهل البيت إلى هذه الفتنة أو مثلها...

(ثم يفرجها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً ويسوقهم عنفاً ويسقيهم بكأس مصبرة لا يعطيهم إلا السيف ولا يحلسهم إلا الخوف). بعد أن أخبر الناس بما يجري عليهم من البلاء جراء فتنة بني أمية وما يصيبهم من شرها وضررها زف إليهم البشرى بزوال دولتهم وإنها لن تكون لمدة طويلة بل ستزول وتنكشف عنكم كما ينكشف الجلد عما تحته وعندها تعود الكرة عليهم ويبتليهم الله بأيدي قوم يولوهم الذل والهوان ولا يدعوهم في راحة واطمئنان بل الإزعاج يلاحقهم حتى يسقون بكأس مملؤة صبراً كناية عن شدتها وألمها وما سيصيبهم من العذاب والآلام لا يسقيهم إلا السيف ينال منهم ويشفي قلوب المظلومين ويجعلهم حلفاء الخوف أينما توجهوا وكيف ساروا لا يفارقهم بحال...

(فعند ذلك تود قريش ـ بالدنيا وما فيها ـ لو يرونني مقاماً واحداً ولو قدر جزر جزور لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه). بعد أن أخبر بما يلحق بني أمية من الهوان والذل وما يصيبهم من العذاب والهوان قال: يومها يتمنى بنو أمية بالدنيا وما فيها لو يرونني خليفة ولو في مقام واحد ولحظة واحدة ولو بمقدار ما ينحر الأبل كناية عن قصر المدة، يتمنون ذلك ليعطوا في ما أطلب منهم اليوم جزءاً منه فيمتنعوا عن اعطائه وقد كان الإمام يطلب من الأمويين أن يكفوا عنه ويسكنوا ولا يحركوا الفتن ويزرعوا الاضطرابات وهو جزء من حقه وطاعته فلم يقبلوا منه ولم يسمعوا له أما عندما يحاصرون ويطاردون فيستمنون وجوده ولو لحظة قصيرة ليعطوه كل ما أراد ولكن تبت أيديهم وخسرت صفقتهم فقد طاردهم بنو العباس(وأذاقوهم العذاب المرير حتى قال مروان بن محمد آخر ملوكهم يوم الاحزاب لما شاهد عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بإزائه في صف خرسان: «لوددت أن علي بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى» لما يرى من عدل الإمام وعفوه وصفحه وكرمه..

٩٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف الله تعالى ثم يبين فضل الرسول الكريم وأهل بيته ثم يعظ الناس

الله تعالى

فَتَبَارَكَ[١] اللهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ[٢] بُعْدُ الهِمَمِ[٣]، وَلَا يَنَالُهُ[٤] حَدْسُ[٥] الفِطَنِ[٦]، الأَوَّلُ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِيَ، وَلَا آخِرَ لَه فَيَنْقَضِيَ.

ومنها في وصف الأنبياء

فَاسْتَوْدَعَهُمْ[٧] فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ[٨] فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ[٩] كَرَائِمُ الأَصْلَابِ[١٠] إِلَى مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ[١١]؛ كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ[١٢]، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ[١٣].

رسول الله وآل بيته

حَتَّى أَفْضَتْ[١٤] كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ المَعَادِنِ مَنْبِتاً[١٥]، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ[١٦] مَغْرِساً[١٧]؛ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ[١٨] مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ[١٩] مِنْهَا أُمَنَاءَهُ. عِتْرَتُهُ خَيْرُ العِتَرِ[٢٠]، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ[٢١]، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ؛ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ[٢٢]، وَبَسَقَتْ[٢٣] فِي كَرَمٍ؛ لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ؛ وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ؛ فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصِيرَةُ[٢٤] مَنِ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ[٢٥] ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ؛ سِيرَتُهُ القَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ[٣٠]، وَكَلَامُهُ الفَصْلُ[٣١]،

وَحُكْمُهُ العَدْلُ؛ أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ(٣٢) مِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَةٍ(٣٣) عَنِ العَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ(٣٤) مِنَ الأُمَمِ.

عظة الناس

اعْمَلُوا، رَحِمَكُمُ اللهُ، عَلَى أَعْلَامٍ(٣٥) بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ(٣٦) يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ(٣٧)، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ(٣٨) عَلَى مَهَلٍ(٣٩) وَفَرَاغٍ؛ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ وَالأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَالأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ.

اللغة

١ ـ تبارك : من البركة كثرة الخير وزيادته.
٢ ـ يبلغه : يدركه ويصل إليه.
٣ ـ الهمم : جمع الهمة العزم الشديد.
٤ ـ ناله : أصابه لا يناله لا يدركه أو يصيبه.
٥ ـ الحدس : قوة الفكر التي تطوي فيها المقدمات بسرعة عالية.
٦ ـ الفطن : جمع فطنة جودة الذهن.
٧ ـ استودعهم : دفعه إليهم ليكون عندهم وديعة.
٨ ـ أقرهم : ثبتهم وأسكنهم.
٩ ـ تناسختهم : تناقلتهم من النسخ وهو الإزالة والنقل.
١٠ ـ الأصلاب : عظم في الظهر يمتد من الكاهل إلى العجب أو أسفل الظهر.
١١ ـ الأرحام : ما يتكون فيه الجنين.
١٢ ـ السلف : المتقدمون من الآباء.
١٣ ـ الخلف : الباقون وهم الأولاد.
١٤ ـ أفضت : انتهت.
١٥ ـ منبت : كمجلس موضع النبات ينبت فيه.
١٦ ـ الأرومات : جمع أرومة الأصل.

١٧ ـ المغرس	:	موضع الغرس.
١٨ ـ صدع	:	إليه مال إليه؟ وعنه كف، ومنه شق وأخرج.
١٩ ـ انتجب	:	اختار واصطفى.
٢٠ ـ العترة	:	أهل الرجل وأقرب الناس إليه.
٢١ ـ الأسرة	:	جمعها أسر أهل بيت الرجل وأقرب الناس إليه.
٢٢ ـ الحرم	:	ما يحميه الرجل ويدافع عنه، ما لا يحل انتهاكه، والحرمان مكة والمدينة.
٢٣ ـ بسقت	:	ارتفعت.
٢٤ ـ البصيرة	:	في الداخل كالبصر في الخارج.
٢٥ ـ لمع	:	البرق إذا أضاء.
٢٦ ـ الشهاب	:	كل شيء مضيىء.
٢٧ ـ سطع	:	ارتفع.
٢٨ ـ الزند	:	العود الذي يقدح به لإخراج النار.
٢٩ ـ القصد	:	الاستقامة.
٣٠ ـ الرشد	:	ضد الغي، الاستقامة على طريق الحق.
٣١ ـ الفصل	:	الفاصل والفارق بين الحق والباطل.
٣٢ ـ الفترة	:	الزمان بين الرسولين.
٣٣ ـ الهفوة	:	الزلة.
٣٤ ـ الغباوة	:	الجهل وقلة الفطنة.
٣٥ ـ أعلام	:	جمع علم وهو الراية، ما ينصب ليهتدى به.
٣٦ ـ نهج	:	واضح قويم.
٣٧ ـ دار السلام	:	الجنة.
٣٨ ـ مستعتب	:	بفتح التائين طلب العتبى أي طلب الرضى.
٣٩ ـ المهل	:	عدم العجلة، الرفق، التوءدة.

الشرح

(فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن). تعالى الله وتعاظم عن صفات المخلوقين الذي لا تدركه العزائم الكبيرة والأفكار العالية وتعجز عن إدراك كنهه ولا تصل إلى شيء من خصائصه الواقعية، والأذهان مهما كانت في جودتها عالية وفي

إدراكها مصيبة فلن تنال من صفاته إلا ما يقع بنظرها القاصر وعجزها القائم. . .

(الأول الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي). فهو سبحانه السرمدي الذي لا بداية له فينتهي إليها ولا آخر له فيحّد عنده إنه واجب الوجود. . .

(فاستودعهم في أفضل مستودع وأقرهم في خير مستقر تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف). شرع عليه السلام في ذكر الأنبياء وابتدأ بذكرهم قبل ولادتهم فقد كانت عنايته بهم كبيرة وهم أهل لذلك حيث جعلهم في أفضل مستودع وخير مستقر تنقلوا في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة لم تدنسهم الجاهلية بأنجاسها فليس هناك من آباء الأنبياء وأمهاتهم أحد يتدنس برذيلة الفجور أو الزنا بل الوعاء الذي يحوي النبي يجب أن يكون طاهراً والصلب الذي يجري فيه يجب أن يكون أيضاً طاهراً، وقد قال الإمامية ومن عقائدهم أن آباء الأنبياء وأمهاتهم طاهرون من الزنا والفجور.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: **«ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني الله تعالى في عالمكم هذا»**.

والأنبياء حلقات متصلة بعضها ببعض كلما مضى منهم واحد جاء خلفه آخر يحمل الأمانة ويؤدي الرسالة ويكمل الشوط فإن الله لم يترك الناس بدون حجة تقام عليهم وبدون بيان يصل إليهم فكان الأنبياء هم الحجج وهم أهل بيان الله. . .

والأنبياء يحملون أصول العقيدة لا يختلفون في ذلك أبداً نعم تأتي مشخصات كل رسالة بحسب حاجة الناس وظروفهم وما ينفعهم ويفيدهم ولذا مع وحدة الرسالات الإلهية هناك فوارق واختلافات. . .

(حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه). فلما مضى من الأنبياء من تقدم منهم وانتهى دورهم في الحياة وصلت كرامة الله إلى الرسول الأمين سيد الأولين والآخرين محمد فأخرجه الله من أفضل الناس وأشرف الأصول من إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل الذبيح أو من مكة لأنه منها خرج. . .

نعم من نفس الشجرة التي خرج منها أنبياء الله وأصفياؤه الذين اختارهم لحمل أماناته وهذا يؤيد كون المراد بأفضل المعادن هو إبراهيم وإسماعيل. . .

(عترته خير العتر وأسرته خير الأسر وشجرته خير الشجر). عترة النبي هم أولاده

وقد فسّر النبي ذلك في حديث الثقلين المتواتر عند المسلمين حيث قال: «إني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

وأسرته وهم الهاشميون خير الأسر ومن الثابت أن بني هاشم تمتعوا بأفضل الصفات وأجلها.

وأما شجرته خير الشجر فيريد أنه من أفضل الأصول وأكرمها وهو إبراهيم وإسماعيل وهل هناك أفضل من خليل الله إبراهيم شيخ الأنبياء...

(نبتت في حرم وبسقت في كرم). فقد كان مولد النبي في مكة وهي حرم الله وتربت وتمت في عز وعلو وشموخ.

(لها فروع طوال وثمر لا ينال). ففروعها الأئمة الهداة أصحاب الشرف ومنتهى الكمال وأن علومهم ومكارم أخلاقهم لا يمكن إدراكها أو الوصول إليها لدقتها وعظمتها وعمقها ورقتها...

(فهو إمام من أتقى وبصيرة من اهتدى). فكل تقي يتخذ الرسول قدوة له وأسوة على طريقته يمشي ومن تقاه يتزود.

كما أن من اهتدى إلى الحق وأدركه ووصل إليه فهو عن طريق النبي وبإرشاده وتوجيهه وهدايته...

(سراج لمع ضوؤه وشهاب سطع نوره وزند برق لمعه). فالسراج إذا لمع ضوؤه اهتدى إليه الناس وأنسوا بوجوده والشهاب كذلك والزند وهو ما يخرج منه النار فإن هذه تتلفت إليها الأنظار عند حدوثها وترتاح إليها وتستأنس وترى فيها الخير فكذلك رسول الله عندما جاء جاءت الهداية والخير والبركة...

(سيرته القصد). فهو بسلوكه على محور الاعتدال لا إفراط ولا تفريط.

(وسنته الرشد). الحكمة والصواب وما هو جدير به وحقيق.

(وكلامه الفصل). كلامه يفصل بين الحق والباطل إذا وقع خلاف أو نزاع فهو الحاكم العادل الذي عن يديه تسترد الحقوق وتسترجع المظالم.

(وحكمه العدل). فإذا حكم بحكم كان حكمه عدلاً لا جور فيه وهو الذي قال لمن قال له: اعدل يا محمد قال له: ويلك ومن يعدل إن لم أعدل أنا...

(أرسله على حين فترة من الرسل وهفوة عن العمل وغباوة من الأمم). أرسله بعد

انقطاع الرسل إذ ليس بعد عيسى من نبي وهي فترة طويلة تعادل ستماية سنة حتى بعث الله محمداً نبياً.

وأما الأعمال فقد كانت جاهلية سلب ونهب واعتداء... انحراف وسقوط في الرذيلة واسفاف في الفكر وخروج على قواعد العدل...

وأما الأمم فقد كانت غبية بليدة لم تعرف ربها ولم تهتد إلى ما ينفعها فلذا كانت المظالم متفشية بينها وكانت شريعة الغاب والناب هي الحاكمة وبيدها أزمة الأمور ومقاليدها...

(اعملوا رحمكم الله على أعلام بينة فالطريق نهج يدعو إلى دار السلام). ختم خطبته المباركة بهذه الموعظة الكريمة فدعاهم إلى العمل وحثهم عليه ودعا لهم بالرحمة. اعملوا على مقتضى الأمور الظاهرة البينة التي رسمها لكم النبي وبينها للأمة، فالكتاب والسنة والأئمة يشكلون الأعلام الواضحة على الحق الدالة عليه والطريق واضح ظاهر، إنه ما عليه النبي والأئمة وهو يوصلكم إلى الجنة وهي مورد السعي والسعيد من أدركها ووصل إليها...

(وأنتم في دار مستعتب على مهل وفراغ). أنتم الآن في دار الدنيا تملكون الحرية الكاملة تستطيعون أن ترضوا الله بأعمالكم فتبادروا إليها وتقوموا بها ولديكم وقت متسع يمكنكم به العودة إلى الله والعمل بما يريد...

(والصحف منشورة والأقلام جارية). فصحف الأعمال منشورة مبسوطة يستطيع الإنسان أن يملأها بالحسنات والأعمال الطيبة...

والأقلام تتحرك تكتب ما يملى عليها فاكتب أنت الحسنات ولا تجعل القلم يشمئز منك ومن سيئاتك.

أما إذا طويت الأوراق وانكسرت الأقلام وذلك يكون بالموت فلا أعمال صالحة تكتب ولا أوراق ولا أقلام...

(والأبدان صحيحة والألسن مطلقة). أنت تستطيع أن ترضي الله عندما تكون صحيحاً سليماً تقوم بالواجبات وتمتنع عن المحرمات وتحارب المنكر والجهل والتخلف تحارب ذلك بيدك وبلسانك... إنها فرصة ثمينة أن يغتنم الإنسان صحة بدنه فيعمل لتحقيق رضى الله ويغتنم الأوقات التي يستطيع بها أن يتكلم فيهدي إنساناً إلى الحق أو يرد آخر عن الباطل وهكذا...

أما إذا مرضت الأبدان وخرست الألسن فكيف يقدر المرء على إدراك حظه من النجاح أو على تحقيق رضى الله . . .

(والتوبة مسموعة والأعمال مقبولة). وهذه من مرغبات العمل والرجوع إلى الله إننا ونحن في دار الدنيا إذا عدنا إلى الله ورجعنا عن ذنوبنا وتحققت التوبة الصادقة منا كانت مقبولة **﴿هو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾** بل هو الذي قال: **﴿توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾** والأعمال التي نصلح بها الخلل مقبولة يرضاها الله ويقبلها يكفر بها عنا السيئات ويدخلنا بها الجنات . . .

٩٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يقرر فضيلة الرسول الكريم

بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ(١) فِي حِيْرَةٍ(٢)، وَحَاطِبُونَ(٣) فِي فِتْنَةٍ(٤)، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ(٥)، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ(٦) الكِبْرِيَاءُ(٧)، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ(٨) الجَاهِلِيَّةُ الجَهْلاَءُ(٩)؛ حَيَارَى(١٠) فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الحِكْمَةِ، وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ.

اللغة

١ ـ ضلّال : من ضلّ إذا لم يكن مهتدياً والضلال ضد الهدى، الباطل.

٢ ـ الحيرة : عدم الاهتداء إلى السبيل.

٣ ـ حاطبون : جمع حاطب وهو الذي يجمع الحطب.

٤ ـ الفتنة : الضلال، الكفر.

٥ ـ الأهواء : جمع الهوى وهو ميل النفس إلى ما تستلذ وتحب.

٦ ـ استزلتهم : أدت إلى الزلل والسقوط في المضار.

٧ ـ الكبرياء : العظمة والتجبر.

٨ ـ استخفتهم : إذا أزالتهم عن الحق والصواب.

٩ ـ الجهلاء : وصف مبالغة للجهل كقولهم ليلة ليلاء.

١٠ ـ حيارى : جمع حائر التائه الذي لا يهتدي السبيل.

الشرح

(بعثه والناس ضلال في حيرة وحاطبون في فتنة). أراد في هذه الخطبة بيان بعض فضائل النبي وجهاده وما أتعب نفسه الشريفة من أجله . . .

فعندما بعث الله نبيه محمداً إلى الناس كانوا في انحراف وتيه لا يهتدون السبيل ولا يدركون ما ينفع مما يضر يجمعون البدع ويلمون الرذائل ولا يتورعون عن معصية أو إثم، كانوا يجمعون ما يصل إليهم من أقوال وأفعال دون أن يعرفوا النافع من الضار والصحيح من السقيم والحق من الباطل.

(قد استهوتهم الأهواء واستزلتهم الكبرياء واستخفتهم الجاهلية الجهلاء). هذه بعض أعمالهم ونبذة من تصرفاتهم لقد جذبتهم الأهواء إليها فكل يمشي على مقتضى هواه وما يرغب فيه وإن كان فيه فساد الأوضاع واضطراب الأحوال، جذبتهم أهواؤهم إلى الرذيلة وشدتهم إلى المعصية.

وأما كبرياؤهم فقد قادتهم إلى الإنحراف والخطأ فكان أحدهم من أجل ناقة يضرمها حرباً شعواء تأكل الأخضر واليابس تمشياً منه مع كبريائه واستعظامه لنفسه.

وأما الجاهلية المظلمة القاتمة فقد أخذتهم إلى حيث لا يجوز من الغارات والفساد والظلم والاعتداء، لقد أخذت عقولهم وأضعفتها عن إدراك منافعهم وما يفيدهم...

(حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل). وهذه أيضاً بعض خصالهم وما كانوا عليه، إنهم كانوا في حيرة واضطراب من شؤونهم لا يملكون رؤية واضحة يهتدون بها إلى الحق وإلى ما يصلحهم ويفيدهم.

وأما الجهل فهو سبب بلائهم ومصائبهم لأن الأمة الواعية المتعلمة المثقفة تستطيع بما عندها من رصيد علمي أن تتلافى أخطاءها وتقف على مصالحها وما ينفعها والعرب كانوا في جهل وعمى...

(فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيحة ومضى على الطريقة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة). جهد بكل طاقاته ليوفر للأمة ما يرشدها ويصلحها وينفعها وبذل ما في وسعه حتى لم يعذّب نبي كما عُذّب من أجلهم ومن أجل هدايتهم وقد ذهب إلى ربه على ما شرّع وبيّن وعلى ما سنّ للناس فكل حق أمر به كان ينفذه على نفسه وكل باطل نهى عنه كان أول من يبعد عنه، لم يخالف عمله ما شرّعه وسنه ونطق به وقاله...

ودعا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمره الله حيث خاطبه قائلا: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** وقد كان النبي بحكمته وحسن موعظته دافعاً للناس إلى دخولهم في دين الله والالتزام بشرع الله.

٩٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الله وفي الرسول الأكرم

الله تعالى

الحَمْدُ لله الأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ، وَالظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ، وَالبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ.

ومنها في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ[١]، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ الكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ[٢] السَّلاَمَةِ؛ قَدْ صُرِفَتْ[٣] نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ[٤] الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ[٥] إِلَيْهِ أَزِمَّةُ[٦] الأَبْصَارِ، دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ[٧]، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ[٨] أَلَّفَ[٩] بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ العِزَّةَ. كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.

اللغة

١ ـ المستقر : هو القرار في المكان أي الثبوت فيه.
٢ ـ المماهد : جمع ممهد كمقعد ما يمهّد أي يبسط فيه الفراش ونحوه.
٣ ـ صرفت : إليه القلوب تحولت إليه وعادت نحوه.
٤ ـ الإفئدة : جمع فؤاد القلب.
٥ ـ ثنيت : إليه صرفت.
٦ ـ الأزمة : جمع زمام ما يقاد به.

٧ ـ الضغائن : الأحقاد.
٨ ـ الثوائر : جمع ثائرة العداوة والمخاصمة.
٩ ـ ألف : جمع الشيء ووصل بعضه ببعض، وحدّ.
١٠ ـ الأقران : النظراء، والأكفاء.

الشرح

(الحمد لله الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه). صدّر هذه الخطبة في الثناء على الله وقد أثنى عليه بأمور الأول فلا شيء قبله كان ولم يكن معه أحد والآخر فلا شيء بعده يبقى ويفنى كل شيء والظاهر وهو الغالب فلا غالب يغلبه أو يراد بالظاهر أنه في وجوده لا يحتاج إلى براهين وأدلة.

والباطن العالم بخفايا الأمور ودقائقها ولا يعزب عن علمه شيء أو إن حقيقته لا تدرك كما هي وكما يجب...

(مستقره خير مستقر ومنبته أشرف منبت في معادن الكرامة ومماهد السلامة). في هذا الفصل يذكر النبي الأكرم وبعض مناقبه ومآثره وما كان له من يد كريمة على هذه الأمة... مستقره خير مستقر يراد به مكة لأنها أشرف بقاع الأرض وأطهرها ومراده بمنبته محل ولادته وهي مكة أيضاً ويمكن أن يكون مراده بالمنبت نسبه الشريف وأنه طهر طاهر من أطهار...

في معادن الكرامة ومماهد السلامة يراد أنه خرج من أصول كريمة لم تدنس بعهر أو فجور وفيها السلامة من كل العيوب التي تحط من قدر الإنسان ومنزلته.

(قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار وثنيت إليه أزمة الأبصار). قد توجهت إليه القلوب الطيبة الوفية الصادقة التي تتأثر بكل طيب وخير وعطفت إليه الأبصار فراحت تنظر إلى فضله وكرمه وما يتمتع به (تنجذب نحوه قهراً عنها ويشدها إليه ما هو فيه من صفات الكمال والعظمة...

(دفن الله به الضغائن وأطفأ به الثوائر). ما كان من أحقاد بين الناس فقد قضى عليها النبي ودفنها إلى الأبد ونموذجاً لذلك ما كان يقع بين الأوس والخزرج وما جرى بينهما من حروب وثأر فلما جاء النبي وآمنوا به ماتت تلك الأحقاد وطويت تلك الصفحة

السوداء وما كان بين الناس من عداوة وحروب أتت على استقرارهم واشتعلت في حياتهم قد أطفأها الله ببركة النبي وجهاده ومن ضرب بنظره إلى ما كان عليه الناس يوم بعثة رسول الله أدرك حقيقة هذا الكلام ووقف على وجه الحق وعرف فضل النبي وبركاته. . .

(ألّف به إخواناً وفرق به أقراناً). ببركة رسول الله اجتمع الناس وأصبحوا بنعمة الله إخواناً فقد التقى المسلمون على الإيمان بالنبي ورسالته وما جاء به وأضحوا بهذا الإيمان وحدة متكاملة متراصة، تآخوا في الله وعلى الإيمان برسول الله واجتمع سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي مع علي وحمزة ومصعب كما أن من كان قريناً للآخرين في أيام الجاهلية وكانت تربطه بهم عاداتها ولوثاتها وأسفافها وانحرافها هذا قد تفرق عن أقرانه عندما آمن بالله وصدّق رسول الله وتابع طريقته لأنه خالفهم في فكره وفي تصوره للأمور وفي عقيدته وفي طريقة حياته فكان الإنفصال بينهما والفراق حيث لا جوامع تجمع ولا روابط تؤلف وتوحد. . .

(أعز به الذلة وأذل به العزة). فمن أصابته الذلة أيام الجاهلية أعزه الله برسول الله حينما آمن به وصدقه كعمار وبلال وسلمان.

ومن كان عزيزاً أيام الجاهلية أصابته الذلة لمخالفته لرسول الله وعدم إيمانه برسالته كأبي جهل وابن أبي سلول وغيرهما من الطغاة. . .

(كلامه بيان وصمته لسان). فإذا تكلم النبي أبان أحكام الله وشرح مدلول الكتاب وأوضح للناس مالهم وما عليهم وأوقفهم على ما ينفعهم ويضرهم فهو اللسان الناطق عن الله الشارح لمراده. . .

وأما كون صمته لسان فلأن سكوته صلوات الله عليه عن حكم إما لأننا لم نكلف به فهو مسكوت عنه وعلى الناس السكوت عنه.

وأما أن يسكت عن فعل يمارس أمامه وتحت نظره وهو لا يردع عنه أو يزجر فاعله فنستفيد منه إباحته وجواز ارتكابه وهو المعبر عنه بلسان المتشرعة «التقرير» وهو حجة على مستوى قول النبي وفعله، وبهذا يكون سكوته بمستوى البيان واللسان. . .

٩٧ - ومن خطبة له عليه السلام

في أصحابه وأصحاب رسول الله

أصحاب علي

وَلَئِنْ أَمْهَلَ(١) الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ(٢) أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالمِرْصَادِ(٣) عَلَى مَجَازِ(٤) طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا(٥) مِنْ مَسَاغِ(٦) رِيقِهِ(٧). أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاَءِ القَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَى(٨) بِالحَقِّ مِنْكُمْ، وَلكِنْ لإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ(٩) عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا(١٠)، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي. اسْتَنْفَرْتُكُمْ(١١) لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا، أَشُهُودٌ(١٢) كَغُيَّابٍ(١٣)، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ! أَتْلُو عَلَيْكُمُ الحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ(١٤) مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ البَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ(١٥) عَلَى جِهَادِ أَهْلِ البَغْيِ(١٦) فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا(١٧). تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ(١٨) عَنْ مَوَاعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ(١٩) غُدْوَةً(٢٠)، وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً(٢١)، كَظَهْرِ الحَنِيَّةِ(٢٢)، عَجَزَ المُقَوِّمُ، وَأَعْضَلَ(٢٣) المُقَوَّمُ.

أَيُّهَا القَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ(٢٤)، الغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، المُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، المُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. لَوَدِدْتُ(٢٥) وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ

صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ[٢٦] الدِّينَارِ بالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!.

يَا أَهْلَ الكُوفَةِ، مُنِيتُ[٢٧] مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَاثْنَتَيْنِ: صُمٌّ[٢٨] ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ[٢٩] ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ البَلاَءِ! تَرِبَتْ[٣٠] أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ[٣١]: أَنْ لَوْ حَمِسَ[٣٢] الوَغَى[٣٣]، وَحَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ المَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا[٣٤]. وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ[٣٥] مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ[٣٦] مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً[٣٧].

أصحاب رسول الله

انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ[٣٨]، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ[٣٩]، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى[٤٠]، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا[٤١]، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا. وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا[٤٢]، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا[٤٣]. لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ! لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً[٤٤] غُبْراً[٤٥]، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ[٤٦] بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الجَمْرِ[٤٧] مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ[٤٨]! كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ[٤٩] المِعْزَى[٥٠] مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ! إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ[٥١] أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ[٥٢] جُيُوبَهُمْ[٥٣]، وَمَادُوا[٥٤] كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ العَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ العِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ!.

اللغة

١ ـ أمهل	:	أخّر.
٢ ـ فات الأمر	:	مضى، ذهب وقت فعله وفاته الأمر إذا صار لا يستطيع أن يدركه.
٣ ـ المرصاد	:	الطريق والراصد معناه الرقيب.
٤ ـ المجاز	:	المسلك.
٥ ـ الشجا	:	ما يعترض في الحلق من عظم وغيره.
٦ ـ مساغ	:	ريقه مكانه من ساغ الشراب سهل ممره.
٧ ـ الريق	:	لعاب الفم.
٨ ـ أولى	:	أحق.
٩ ـ الإبطاء	:	ضد الإسراع، التأخير.
١٠ ـ الرعاة	:	كالرعاء جمع الراعي وهو كل من ولي أمر قوم والقوم رعيته.
١١ ـ استنفرتكم	:	دعوتكم إلى أن تنفروا أي تسرعوا إلى الجهاد.
١٢ ـ شهود	:	جمع شاهد الحاضر.
١٣ ـ غيّاب	:	جمع غائب من لم يكن حاضراً.
١٤ ـ تنفرون	:	تشردون، تفرون.
١٥ ـ أحثكم	:	أحضّكم وأنشطكم.
١٦ ـ البغي	:	الظلم والعدول عن الحق.
١٧ ـ أيادي سبا	:	مثل يضرب للمتفرقين.
١٨ ـ تتخادعون	:	من تخادع إذا أري أنه مخدوع وليس به.
١٩ ـ أقومكم	:	أعدلكم من قومه إذا عدله وأصلح اعوجاجه.
٢٠ ـ الغدوة	:	جمعها غدًى وغدّو أول النهار أو ما بين الطلوعين.
٢١ ـ العشية	:	آخر النهار، أول الظلام من المغرب إلى العتمة.
٢٢ ـ الحنية	:	القوس.
٢٣ ـ أعضل	:	استصعب واستعصى.
٢٤ ـ الأبدان	:	الأجساد.
٢٥ ـ وددت	:	تمنيت.
٢٦ ـ صرف الدينار	:	أبدله بدراهم أو دينار سواه.
٢٧ ـ منيت	:	ابتليت.
٢٨ ـ الصمم	:	علة في الأذن تمنع من السمع.
٢٩ ـ بكم	:	جمع أبكم الأخرس.

٣٠ ـ تربت : أيديكم افتقرت والأصل أصابها التراب.
٣١ ـ أخالكم : أظنكم.
٣٢ ـ حمس : اشتد.
٣٣ ـ الوغى : الحرب.
٣٤ ـ القُبُل : ضد الدُبر.
٣٥ ـ بينة : حجة ودليلاً.
٣٦ ـ المنهاج : الطريق الواضح.
٣٧ ـ اللقط : أخذ الشيء من الأرض.
٣٨ ـ السمت : الطريق.
٣٩ ـ الأثر : ما بقي من رسم الشيء، السُّنة.
٤٠ ـ الردى : الهلاك.
٤١ ـ لبدوا : بالأرض التصقوا بها، أقاموا.
٤٢ ـ تضلوا : من ضل ضلالة ضد اهتدى.
٤٣ ـ تهلكوا : من هلك هلاكاً مات ولا يكون إلا في ميتة السوء.
٤٤ ـ الأشعث : المغبّر الرأس.
٤٥ ـ الأغبر : ما لونه الغُبرة والغبرة هي لطخ الغبار.
٤٦ ـ يراوحون : المراوحة هي أن يقوم بهذا تارة وبالآخر أخرى والمراوحة بين الجباه والخدود أي يسجد على هذه تارة وعلى تلك أخرى.
٤٧ ـ الجمر : النار المتقدة.
٤٨ ـ المعاد : يوم الحساب.
٤٩ ـ الركب : جمع ركبة الموصل ما بين الفخذين والساق.
٥٠ ـ المعزى : خلاف الضأن من الغنم وهي ذوات الشعر والأذناب الصغار.
٥١ ـ هملت : فاضت وسالت.
٥٢ ـ تبل : من البلل وهو النداوة.
٥٣ ـ الجيوب : جمع جيب القميص.
٥٤ ـ مادوا : اضطربوا وارتعدوا.

الشرح

(ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجا من مساغ ريقه). هدّد الظالمين بالله ـ سواء كانوا ممن هم معه فتباطؤوا أم العصاة

مع معاوية ـ هددهم بأن الله يؤخر الظالم فلا يأخذه فوراً عند عمل المعصية بل يتركه حتى يتمادى ويطغى ولكن ذلك لن يفوت الله أخذه بل يأخذه مهما امتد عمره وعمَّر في المعصية وهو على حد «إن الله يمهل ولا يهمل». . .

ثم بيّن عليه السلام قرب الله من هذا الإنسان وأنه تحت رقابة الله يعلم بكل حركة وكل كلمة فهو له بالمرصاد كما قال تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ أي لا يفوته شيء من أعمال هذا الإنسان لأنه يرى ويسمع جميع أقواله وأفعاله ومن كان يراقبك ويرصد حركاتك يعرف عنك أمورك بدقة ويستطيع أخذك. . .

وأيضاً هو سبحانه يأخذ عليه الطريق التي يسلكها وقادر عليه.

كما أنه سبحانه من جهة قربه منه بموضع ما ينبت في الحلق كما قال تعالى: ﴿وهو أقرب إليكم من حبل الوريد﴾ أو إنه يستطيع أن يخلق له ما يؤذيه ويمنعه من الإساغة في حلقه مع سعته. . .

(أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم). أقسم عليه السلام بالله الذي روحه عليه السلام وروح كل الناس بيده أن معاوية وأتباعه سينتصرون على أهل العراق وهذا من أخباره بالغيب وبما كان عنده من آثار النبوة وأخبار الحق أو بما يظهر من الآثار المرئية عنده ومن المقدمات التي بين يديه التي هي بمستوى اليقين حيث علل هذا الظهور بما يأتي بعد ذلك من اجتماع أهل الشام على باطلهم وتفرق أتباعه عن حقهم. . .

(ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي). دفع توهماً يمكن أن يحصل ومفاده أن انتصارهم لأنهم أهل الحق دفعه بأن انتصارهم ليس لأنهم أهل الحق بل لأطاعتهم إلى صاحبهم وباطله وتفرقكم عن صاحبكم وحقه فإن سنن الحرب جارية على أن من اجتمعت كلمتهم وتوحدت صفوفهم واعدوا واستعدوا كان النصر حليفهم وإن كانوا كفاراً وإن الهزيمة والخسران نتيجة من اختلفت كلمتهم وتشتت رأيهم ولم يستعدوا وإن كانوا مؤمنين. . .

وهذا قانون طبيعي يجب أن يعيه أصحاب الحق ويعملوا به ولا يتكلوا على إيمانهم العاري عن الاستعداد.

فإن ذلك يناقض حكم الله ويعارض الإيمان فإن من كان مؤمناً عمل بقوله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. . ﴾.

(ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي). عادة

الأمم أنها تقع تحت ظلم رعاتها وولاة أمورها فترى الحاكم ظالم مستبد يستعبد شعبه ويذله ويذيقه المرارات فالحاكم هو الظالم والشعب هو المظلوم وهذه القضية انعكست في حق الإمام فأضحى هو المظلوم والرعية هي الظالمة، هي الظالمة له لمخالفتها وعنادها له ورفضها لأمره وعدم الالتزام بقوله ولا يستطيع أن يتجاوز المشروع بأن يأخذها بالقوة والظلم والإرهاب والتخويف.

(**استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا**). هذه بعض أياديه الكريمة التي قابلها قومه واتباعه بالتنكر لها وعدم الاستجابة له... يذكر جملة منها.

الأولى: إنه كان يدعوهم ويحثهم للخروج إلى جهاد معاوية وقتاله... اخرجوا إلى قتال عدوكم ولكنهم تباطؤوا وتأخروا بل امتنعوا ولم يستجيبوا.

الثانية: (**وأسمعتكم فلم تسمعوا**). أسمعتكم كل حق وقلت لكم اعملوا به وأسمعتكم كل ما هو باطل وحذرتكم منه ولكنكم لم تسمعوا قولي فنزّل سماعهم بحكم عدمه لأن من حق من يسمع أن يعمل وأما من يسمع ولا يعمل فهو كأنه لم يسمع وينزّل منزلة من لم يسمع ويخاطب خطابه...

الثالثة: (**ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا**). دعوتكم إلى الله وإلى السير في ركابه، دعوتكم سراً بيني وبينكم ودعوتكم أمام الجميع وعلى رؤوس الأشهاد... دعوتكم بكل ما يصلحكم وينفعكم فلم تستجيبوا لي وتلبوا ما طلبت منكم وهذه شكوى تتساوى مع شكوى نوح من قومه حيث قال: ﴿**ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً...**﴾.

الرابعة: (**ونصحت لكم فلم تقبلوا**). أرشدتكم لما فيه مصلحتكم ودللتكم على ما فيه منفعتكم فلم تقبلوا نصحي ولم تستجيبوا لي...

(**أشهود كغياب وعبيد كأرباب**). نزلهم منزلة الغائبين مع أنهم شهود معه لأن حق من شهد أمراً أن يسمعه ويفهمه ويعمل به وهم مع حضورهم لم ينتفعوا بمواعظه.

ونزلهم منزلة الأرباب القادة والأمراء مع أنهم رعية وسوقة لأن من حق الرعية الإستماع وهم لم يستمعوا منه بل تاهوا كبراً وعلواً وانتفخوا بدون معنى كالأمراء والحكام...

(**أتلوا عليكم الحكم فتنفرون منها**). يقرأ عليهم الحكم التي فيها صلاحهم وإرشادهم وما ينفعهم فيفرون منها ويرفضون قبولها على عكس سيرة العقلاء الذين

يلتقطون الحكم ويبحثون عن أصحابها. . .

(وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها). أعظكم بكل موعظة ترقق القلب وتخشع لها النفس وتؤثر أثرها في النفس القابلة للإنتفاع فتتفرقون عنها وكأنكم لم تسمعوها وكأنها لم تطرق أسماعكم. . .

(وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبا ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم). كان عليه السلام يدفع أصحابه ويحضهم على قتال أهل الشام الفئة الباغية التي جاءت تسميتها على لسان النبي الأكرم. كان يحضهم وبمختلف الأساليب الشرعية والعرفية والوعظية فلم يتم كلامه ويخرجوا من عنده حتى يتفرقوا إلى غير اجتماع ولا لقاء فكل واحد يعود إلى بيته وأسرته ومحل عمله ويخدعون أنفسهم كأنهم لم يسمعوا الكلام ولم يصغوا إلى المقال. . .

(أقومكم غدوة وترجعون إليّ عشية كظهر الحنية عجز المقوم وأعضل المقوّم). أُصلحكم في أول النهار بمواعظي وكلامي وما ألقيه عليكم ولكن لم يأت عليكم المساء حتى تعودوا إلى اعوجاجكم وعصيانكم وتمردكم شبههم بظهر القوس في الاعوجاج من حيث عدم امكان تقويمه وتعديله لقد عجزت عن إصلاحكم إقرار منه بالعجز عن إصلاحهم لعدم قابليتهم للهداية لا لقصور في البيان وعجز في اللسان لقد أضحى مرضهم مزمناً لا شفاء له ونفاقهم قديم لا يصلحه موعظة أو حكمة. . .

(أيها القوم الشاهدة أبدانهم الغائبة عنهم عقولهم المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم). هكذا كانوا وبهذه الصفات عاشوا فأبدانهم حاضرة أمام عليّ وفي هذه الدنيا. . . هياكل بشرية تأخذ حجماً من المساحة وقد تملأ العين منظراً وهيئة ولكنها بدون عقل. . . لقد عطلت قواها العقلية وإدراكاتها الذهنية، وهذا على حد قوله تعالى: **﴿وإذا رأيتهم تعجبك(١) أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة﴾**. وأما أهواؤهم فمختلفة فهذا يريد الحرب وذاك يريد السلم هذا يريد الدنيا وذاك يريد الآخرة وهذا يريد أمراً والآخر يريد خلافه لم يجتمعوا إلا على اختلاف الآراء والأهواء. . .

ثم بيّن ابتلاؤه بهم وما أشده وأقساه من ابتلاء ابتلي بهم حيث لم يطيعوه ولم يسمعوا قوله فكانت له فتنة صعبة هل يأخذهم بالقهر والقوة وبما يأخذ الظالمون به رعيتهم وحاشاه أن يكون جباراً يطلب الدنيا ويروّع الناس أم يعاملهم باللين واللطف

(١) سورة المنافقون آية/ ٤.

والموعظة الحسنة وهذا ما فعله ولكنهم أصروا على خلافه فكان هذا الابتلاء والإمتحان له. . .

(صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه). ذكر التضاد بينه وبين معاوية وبين أصحابه وأصحاب معاوية. . .

فهو يطيع الله ويعمل بأمره ويحقق إرادته، يريد أن يردّ البغاة عن ظلمهم بينما معاوية يعصي الله ويتمرد على حكمه ويعمل بخلاف ما أمر ويخرج على الخليفة الشرعي ويمزق وحدة المسلمين ومع هذا فأصحاب الإمام لا يطيعونه مع طاعته لله وعلى العكس من ذلك أصحاب معاوية فإنه مع عصيانه لله يطيعونه وكان حق القضية أن أصحاب الإمام يطيعونه لطاعته لله بينما أصحاب معاوية حقهم أن يعصوه لمعصيته لله وهذا ذم لهم لتمردهم عليه وذم لمعاوية لأنه أمام ضلالة وذم لأهل الشام لغبائهم وجهلهم وضلالهم. . .

(لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم). وهذا الكلام يبيّن مدى لوعة الإمام وحسرته وما يعيشه من ألم الوحدة بحيث يتمنى أن يعطيه معاوية واحداً مطيعاً للإمام عاملاً بقوله سائراً على نهجه ويأخذ منهم عشرة تحقيراً لهم بهذا الصرف.

(يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين صم ذوو أسماع وبكم ذوو كلام وعمي ذوو أبصار لا أحرار صدق عند اللقاء ولا أخوان ثقة عند البلاء). ثم صرخ بأهل الكوفة وناداهم أنه ابتلي منهم بثلاث واثنتين ولم يقل بخمس لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سلبية فأحب أن يفصل بينهما هكذا قيل.

١ ـ أما الثلاث: .

أ ـ فهم يملكون آلات السمع من الآذان ولكنهم لا يستعملون سمعهم فيما ينفع ويفيد فيتحولون إلى قوم أصابهم المرض المانع من السمع لأن من حق السامع أن يعمل بما سمع.

ب ـ وهم أيضاً يتكلمون ويملكون ألسنة ناطقة ولكنها لا تنطق بالحق فتتحول إلى العدم بنظر أهل العقل والدين.

ج ـ وكذلك هم يملكون عيوناً تبصر ولكنهم لا يبصرون الحق ولا يستعملون نظرهم فيما ينفع ويفيد فتتحول إلى عدم وكأنها لم تكن.

٢ ـ وأما الاثنتان: .

أ ـ فالأولى نفى عنهم صفة الأحرار من حيث إنهم لا يصدقون اللقاء في وجه الأعداء لأن من كان حراً أنف الفرار والهزيمة بل أصر على إحدى الحسنين النصر أو الشهادة أما الفرار والهزيمة فهذا فعل الجبناء المتخاذلين، فعل العبيد السفهاء. . .

ب ـ الثانية نفى عنهم أن يكونوا أخوان ثقة لأن الأخ الصادق في اخوته لا يخذلك عند البلاء ووقوع المصيبة عليك بل يبادر إلى إعانتك وتسديدك ونصرك وبذلك تصدق اخوته وما أكثر اخوان المكاشرة في هذه الأيام العصيبة وأقل اخوان الصدق والثقة لقد جربنا الأشخاص وامتحنا قلوبهم فوجدنا أكثرهم بدون وفاء. . .

(تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر). عاد للدعاء عليهم فقال لا أصبتم خيراً ومن لم يصب خيراً خسر وضل ثم شبههم بالإبل التي غاب عنها رعاتها فإنها تتوزع وتتفرق ولا يعود لها من جامع يجمعها وبذلك تضل في البيداء وكلما جمعتها الصدف من جهة والتقى بعض أفرادها في ناحية تفرقوا من ناحية أخرى فليس هناك من راع يجمعها وقد شبههم بهذا الشبه لعصيانهم أمره وعدم إطاعتهم له بحيث تفرقوا في الآراء والمواقف والأهداف. . .

(والله لكأني بكم فيما إخالكم أن لو حمس الوغى وحمي الضراب قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها). أقسم لقرائن يقرأها فيهم وظناً وظن الألمعي يقين أنه لو اشتعلت الحرب واشتد الضرب بالسيوف والحراب لتركوه وحده فريداً في ساحة المعركة وتخلوا عنه لا يدفعون ضيماً ولا يردون عدواً، عندها تظهر عوراتهم وتهتك أسرارهم وقد شبه انفراجهم وتخليهم عنه بالمرأة التي تكشف عورتها عند ولادتها فتستسلم لمن تتولى أمرها دون حياء أو تكشف عورتها عند الطعان تدرأ بها القتل وتستدفع الموت فإن العرب لا يجهزون على امرأة ويربأ سيف الأبطال أن يطال النساء بل من فعل ذلك يعّير بفعله.

(وإني لعلى بينة من ربي ومنهاج من نبيي وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً). بين عليه السلام ما هو عليه من الحق ليرغبوا في متابعته فقال: إني على هذين النورين أسير، على كتاب الله وسنة رسوله على مقتضى البينات والأدلة والبراهين الواضحة وعلى مقتضى الشريعة المحمدية. . إني على طريق الدين الواضح الظاهر أجمعه من بين طرق الضلال والمذاهب المبتدعة والأهواء المختلفة. . .

(انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم). أمر الناس أن يتطلعوا نحو

أهل البيت ويلزموا طريقهم ويقتفوا أثرهم فيعملوا بما جاء عنهم وما صدر عن جنابهم وهذا تأكيد لما جاء عن النبي في حق أهل البيت حيث جعلهم النبي في أحاديثه تارة كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى وتارة أخرى كالنجوم أمان لأهل الأرض وثالثة عدل القرآن وأحد الثقلين ورابعة كباب حطة من دخله كان من الآمنين وهكذا مما يدل على وجوب الالتزام بنهجهم والسير خلفهم والاقتداء بهم. . .

(فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى). هذا ترغيب في اقتفاء أثر أهل البيت وإن من كان على الهدى فأهل البيت لن يخرجوه منه إلى الضلال وكما أنهم لن يعيدوا إنساناً إلى الهلاك الأبدي بما كان عليه أيام الجاهلية وهذا تعريض بغيرهم. . .

(فإن لبدوا فالبدوا وإن نهضوا فانهضوا). فإن سكنوا وسكتوا فاسكتوا واسكنوا وإن نهضوا في وجه الطغاة وأعلنوها عليهم حرباً فانهضوا معهم وأعلنوا الحرب وذلك لأن أهل البيت أدرى بمواقع التحرك ومواقع السكون فهم يعرفون المصلحة الإسلامية التي تحكمهم بالثورة أو تحكمهم بالسكوت. . .

(ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا). نهاهم عن التقدم على أهل البيت أو التأخر عنهم لأنهم الأدلاء على الحق أرباب البيان ولسان الرحمن فمن سبقهم ضل وانحرف عن الصراط لأن العمل بدون اعتماد على الحجة مظنة الخطأ والوقوع في الانحراف ومن تأخر عنهم ولم يعمل بقولهم هلك لأنه رأى الحجة أمامه فتمرد عليها وخالفها فعاقبته الهلاك. . .

(لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يشبههم منكم). عاش الإمام مع النبي من نعومة أظفاره وحتى انتقل النبي إلى ربه لم يفارقه لحظة ولم يتخلف عنه في موقف وقد عاش مع الصحابة منذ أسلم أول صحابي وحتى مضى النبي وهو أعرف بأولئك الصحابة الذين عاشوا مع النبي لأنه عاش معهم ودرسهم ووقف على تفاصيل حياتهم. . .

لقد قرأ حياة أهل العراق ومن معه من الناس فأنكر أن يكون فيهم أحداً يشبههم. . .

ثم ذكر بعض مواصفات الصحابة. . .

(لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً وقد باتوا سجداً وقياماً يراوحون بين جباههم وخدودهم). فقد ذكر ثلاثة أوصاف للصحابة افتقدها أهل العراق: .

الأولى: إنهم يصبحون شعثاً غبراً معناه لا يعيرون الدنيا أهمية ولا يعطونها وقتاً بل استغرقوا في طاعة الله فشغلهم ذلك عن الاهتمام بزينتهم وجمالهم.

الثانية: إنهم باتوا في صلاة طيلة ليلهم سجداً لله وقياماً في طاعته كما قال تعالى: ﴿**والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً...**﴾. الثالثة: إنهم يراوحون بين جباههم وخدودهم فتارة يتذللون بالخضوع لله بالسجود على جباههم وتارة أخرى يتذللون له بوضع خدودهم على الأرض يرغمون أنفسهم على طاعة الله...

(**ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم**). هذه رابعة الصفات وأنهم أمام ذكر يوم الحساب والوقوف بين يدي الله والعودة إليه كالواقفين على الجمر لا استقرار لهم ولا هدوء بل هم في همّ وغم وخوف وعذاب كما قال عليه السلام في خطبة المتقين: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار فيها كمن قد رآها فهم فيها معذبون...».

(**كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم**). وهذه خامسة الصفات إنها صفة ظاهرة تحكي عن داخل مطيع لله إن بين أعينهم كركب المعزى من حيث اسودادها وكثرة السجود عليها وقد نقلت لنا كتب السير أن الإمام زين العابدين كانت جبهته الشريفة كثفنة البعير لطول سجوده وقد وصف الله أصحاب النبي بقوله تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً**[1] **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود...**﴾.

(**إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم**). وهذه سادسة الصفات إنها صفة الرقة في القلب أمام الله. وإن هذا القلب إذا التفت إلى الله وذُكّر به انعكس ذلك ترجمة عملية لم يتمالك هذا الإنسان من ضبط دموعه ومنعها عن السقوط بل تتساقط لتبل جيوبهم أي ثيابهم...

(**ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاء للثواب**). اضطربت قلوبهم بشدة خوفاً من عقاب الله كما أنها تضطرب من شدة الفرح والسرور وهكذا المؤمن يعيش بين الرجاء والخوف يهزه كل منهما خوفاً وشوقاً.

---

(١) سورة الفتح آية/ ٢٩.

٩٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

يشير فيه إلى ظلم بني أمية

وَاللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّى لاَ يَدَعُوا(١) للهِ مُحرماً(٢) إلاَّ اسْتَحَلُّوهُ(٣)، وَلاَ عَقْداً(٤) إلاَّ حَلُّوهُ(٥)، وَحَتَّى لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ(٦) وَلاَ وَبَرٍ(٧) إلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ(٨) سُوءُ رَعْيِهِمْ(٩)، وَحَتَّى يَقُومَ البَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ(١٠) أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ العَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إذَا شَهِدَ(١١) أَطَاعَهُ، وَإذَا غَابَ اغْتَابَهُ(١٢)، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً(١٣) أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً، فَإنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإنِ ابْتُلِيتُمْ(١٤) فَاصْبِرُوا، فَإنَّ «العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

اللغة

١ ـ يدعوا : يتركوا.
٢ ـ محرماً : ما حرمه الله وما لا يحل انتهاكه.
٣ ـ استحلوه : استباحوه.
٤ ـ العقد : يقال عقد البيع إذا أحكمه إذا تممه وأوقعه.
٥ ـ حلوه : فكوه ونقضوه.
٦ ـ المدر : الطين وبيوت المدر المبنية من طوب وحجر.
٧ ـ الوبر : جمع أوبار وهو للإبل كالصوف للغنم وبيوت الوبر هي الخيام.
٨ ـ نبا به المنزل : إذا لم يوافقه.
٩ ـ رعيهم : ولايتهم وإمارتهم من رعا يرعى.
١٠ ـ نصرة : النصر وحسن المعونة.

١١ ـ شهد : حضر.
١٢ ـ اغتابه : عابه وذكره بما فيه من السوء.
١٣ ـ العناء : التعب.
١٤ ـ ابتليتم : اختبرتم وأصبتم بسوء.

الشرح

(والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه ولا عقداً إلا حلوه). هذا الكلام الشريف يقصد به بني أمية ويبيّن فيه مظالمهم وجورهم بحق المسلمين وقد أقسم بالله أن هذه الأمور ستجري وتتحقق على أيديهم...

أولها: إنهم لن يتركوا لله أمراً حرمه إلا ويستحلونه فهم سيقصدون كل محرم فينون على حليته ويرتكبونه مستحلين له مخالفةلله ولرسول الله وما صدر من معاوية وطغاة الأمويين يحكي صدق هذا النبأ فقد استحلوا قتل الشرفاء والأتقياء والأئمة الأطهار سمّوا الحسن وقتلوا الحسين وقضوا على حجر بن عدي وكميل بن زياد ومسلم بن عقيل وهاني بن عروة ودخلوا مدينة النبي دخول الفاتحين وكأنهم من غير الملل فاستباحوها قتلاً وهتكاً حتى افتضت ألف بكر حراماً... وضربوا الكعبة بالمنجنيق وأحرقوها وهكذا دواليك إلى آخر القائمة السوداء التي يأبى الحر الشريف عن ذكرها والكلام فيها...

ثانيها: إنهم لا يلتزمون بعقودهم بل ينكثون العهود ويخالفون الوعود سواء كانت بينهم وبين الله أم بينهم وبين الناس فقد نقضوا عرى هذا الدين وأحكامه كما نقضوا ما أعطوه للشرفاء وفي سيرة معاوية مع الإمام الحسن أصدق شاهد وأقوى برهان.

(وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم). ثالثها: تعميم ظلمهم حتى يشمل كل الناس المقيم منهم والظاعن أهل المدن والقرى أم العرب الرحل، أصحاب الطين المستقرين أم أصحاب الخيام المتنقلين حتى يبلغ الظلم بصاحب البيت أن يهجر بيته ويستخفي منهم لما يسومونه من الظلم وسوء الولاية وقد كان الشرفاء يختفون عن أعين السلطة ويهجرون منازلهم خوفاً من الظلم...

(وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه). وسيبقى ظلم الأمويين قائماً ومستمراً حتى يعود الشرفاء من الأمة أحد رجلين، رجل يبكي لدينه لأنه يرى تعطيل الأحكام وتغييرها واستحلال حرامها أو لأنه لا يقدر على الجهر بما فرض الله

عليه من الدين الصحيح وبيان أحكامه وشرائعه. . .

ورجل يبكي لدنياه حيث يصيبه الحرمان فيُمنع من حقه زكاة أو فيئاً أو مغانم فيرى دنياه مسلوبة منه قهراً عنه.

(وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه). ثم نفى أن يقدر أحد من الناس على الانتصار على أحدهم أو الانتقام منه وذلك بتشبيههم بالعبد مع سيده فإنه إذا حضر أطاعه في كل ما أمر ولم يستطع أن يعصي له أمراً وإذا غاب عنه اغتابه وذكر معايبه وهذا أقصى ما يقدر عليه وهكذا أنتم فإن أحدكم ضعيف عن الانتقام منهم عاجز عن الانتصار عليهم. . .

(وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً). أشد الناس تعباً في دولة بني أمية من كان محسناً بالله الظن لأنه سيبتعد عنهم ويتنكر لهم وهذا يستدعي منهم محاربته ومطاردته وعداوته فيلقى عنتاً وتعباً. . .

(فإن أتاكم الله بعافية فاقبلوا وإن ابتليتم فاصبروا فإن العاقبة للمتقين). توجيه للناس بأن يقبلوا العافية إذا جاءتهم وهي عدم تعرضهم للبلاء والنجاة من ظلم الأمويين واضطهادهم وعدم وقوعهم تحت أيديهم يمارسون عليهم الظلم كما أمرهم بالصبر إذا ابتلوا بالأمويين ونالتهم أيديهم وسيوفهم ومظالمهم وبشرّهم بالعاقبة الطيبة إن هم صبروا وتحملوا واستمروا على الحق متحملين من أجله هذا البلاء.

٩٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد من الدنيا

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ المُعَافَاةَ(١) فِي الأَيْمَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ المُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ.

عِبَادَ اللهِ، أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهٰذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبّوا تَرْكَهَا، وَالمُبْلِيَةِ(٢) لأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ(٣) سَلَكُوا سَبِيلاً(٤) فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ(٥)، وَأَمُّوا(٦) عَلَماً(٧) فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ(٨). وَكَمْ عَسَىٰ المُجْرِي(٩) إِلَىٰ الغَايَةِ(١٠) أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ(١١)، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ(١٢) مِنَ المَوْتِ يَحْدُوهُ(١٣) وَمُزْعِجٌ(١٤) فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً(١٥)! فَلاَ تَنَافَسُوا(١٦) فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا(١٧) وَنَعِيمِهَا، وَلاَ تَجْزَعُوا(١٨) مِنْ ضَرَّائِهَا(١٩) وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَىٰ انْقِطَاعٍ، وَإِنَّ زِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا(٢٠) إِلَىٰ نَفَادٍ(٢١)، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَىٰ انْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَىٰ فَنَاءٍ. أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ(٢٢)، وَفِي آبَائِكُمُ المَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ! أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَىٰ المَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِلَىٰ الخَلَفِ(٢٣) البَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ! أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَىٰ أَحْوَالٍ شَتَّىٰ(٢٤): فَمَيِّتٌ يُبْكَىٰ، وَآخَرُ يُعَزَّىٰ(٢٥)، وَصَرِيعٌ(٢٦) مُبْتَلَىٰ، وَعَائِدٌ(٢٧) يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ(٢٨)،

وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ؛ وَعَلَىٰ أَثَرِ المَاضِي مَا يَمْضِي البَاقِي!.

أَلَا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ(٢٩)، وَمُنَغِّصَ(٣٠) الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الأُمْنِيَاتِ(٣١)، عِنْدَ المُسَاوَرَةِ(٣٢) لِلأَعْمَالِ القَبِيحَةِ: وَاسْتَعِينُوا اللهَ عَلَىٰ أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لا يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ.

اللغة

١ ـ المعافاة : طلب العافية وهي صحة البدن من الأسقام.
٢ ـ المبلية : من بلى وبلاء الثوب رث.
٣ ـ سفر : بسكون العين جمع سافر أي مسافر.
٤ ـ السبيل : الطريق.
٥ ـ قطعوه : اجتازوه.
٦ ـ أموا : قصدوا.
٧ ـ العلم : الجبل، أو المنار في الطريق يهتدى به.
٨ ـ بلغوه : أدركوه.
٩ ـ أجرى : الفرس أرسله وحمله على السير.
١٠ ـ الغاية : المدى، الفائدة المقصودة.
١١ ـ لا يعدوه : لا يتعداه ويتجاوزه.
١٢ ـ الحثيث : السريع وحثه على الشيء إذا حرّضه عليه.
١٣ ـ يحدوه : يسوقه.
١٤ ـ مزعج : مقلق وأزعجه من مكانه إذا طرده منه.
١٥ ـ رغماً : قهراً وقسراً.
١٦ ـ المنافسة : المحاسدة ونفست عليه بكذا أي ضننت.
١٧ ـ الزينة : الزخرفة وزخرفه حسنه.
١٨ ـ الجزع : عدم الصبر مع الحزن والكمد.
١٩ ـ الضراء : الشدة نقيض السراء.
٢٠ ـ البؤس : الشدة.

٢١ ـ النفاد	:	الفناء.
٢٢ ـ المزدجر	:	مصدر ميمي من أزدجر ومعناه الارتداع والإنزجار.
٢٣ ـ الخلف	:	الذرية ومن جاء من بعد، الأولاد.
٢٤ ـ أحوال شتى	:	أحوال متفرقة.
٢٥ ـ يعزّى	:	يصبّر على نائبة، يعزي المصاب يسليه.
٢٦ ـ الصريع	:	الطريح.
٢٧ ـ عائد	:	جمع عوّاد وعاد المريض إذا زاره.
٢٨ ـ يجود	:	بنفسه سمح لها أن تموت.
٢٩ ـ هاذم اللذات	:	قاطع اللذات.
٣٠ ـ نغّص عيشه	:	كدره.
٣١ ـ الأمنيات	:	ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه ويريده.
٣٢ ـ المساورة	:	المواثبة وسار إليه يسور سوراً وثب.

الشرح

(نحمده على ما كان ونستعينه من أمرنا على ما يكون ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان). ابتدأ عليه السلام بحمد الله على ما كان لأنه قد وقع فاستحق عليه الحمد كما أن ما لم يقع طلب من الله معونته عليه لأنه يحتاج إلى ظهر قوي لئلا يتداعى أو يسقط...

وسأل الله أن يعافيه في دينه أي يحفظ له دينه وعقيدته فلا يتعرض لخلل في العقيدة من شك أو تردد أو إهمال للعمل وتسويف فيه فإن سلامة الدين تحتاج إلى دعاء قال تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا...﴾. كما أنه سأل الله أن يعافيه في بدنه لأن الصحة إحدى النعمتين المجهولتين ومن كان صحيحاً معافى استطاع القيام بالواجبات وأداء الحقوق والعمل لخير نفسه وخير الإنسانية وعرف طعم الحياة وذاق لذتها.

(عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها). توجه عليه السلام بالنصيحة للناس كي يتركوا الدنيا ويرفضوا الخنوع لها والاستسلام لحكمها من جهة تنفيرهم عنها وذلك بذكر بعض معايبها. فذكر أن من معايبها:.

١ ـ إنها تخرجكم عنها قهراً فلماذا لا تكونون أنتم أصحاب المبادرة في رفضها وتركها.

٢ ـ إنها الدنيا التي تفرّق بينكم وبين ما تحبون فإنكم تحبون تجديد شبابكم وهي تحول دون ذلك فالشيخ الكبير يحب أن تعود إليه أيام الشباب ويتأسف على انقضائها ولكنّ الدنيا لا تعطي أذناً لطالب بل تستمر في هدم العمر وتلف البدن ومن كانت هذه الدنيا تتعامل معه بهذا الأسلوب حقّ له أن يناصبها العداء ويرفضها ويسعى للتي هي أبقى...

(فإنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه وأموا علماً فكأنهم قد بلغوه). جعلنا والدنيا كقوم مسافرين في طريق فهم لسيرهم فيه لا بد وأن يقطعوه فلقرب اجتيازهم فكأنهم قطعوه أو كقوم قصدوا هدفاً لهم فهم سائرون إليه فباعتبار أن هدفهم متحقق فكأنهم قد بلغوه ووصلوا إليه وهكذا فإن الإنسان طالما أنه سائر في الدنيا فلا بد وأن يقطعها وطالما أن نهايته الموت فلا بد وأن يصل إليه...

(وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها). وهذا استفهام تحقيري لقصر مدة الدنيا وأن السائر نحو الغاية مهما تصور أنه بعيد عنها فهو قريب سيصل إليها ومن ركب جواد الأيام أدرك يوم وفاته بأسرع ما يكون...

(وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه). حقّر هذا البقاء في الدنيا لقصره لأنه مهما طال فهو ليس بشيء طالما أن الموت آتيه ومدركه...

(وطالب حثيث من الموت يحدوه). وكيف يركن الإنسان إلى الدنيا وكيف يطمئن إليها وهناك طالب مسرع نحوه إنه الموت يسوق الإنسان في الدنيا حتى يتخلى عنها، ومن كانت أيامه بهذا المستوى التافه والحقير لا يجوز أن تكون أكبر همه فضلاً أن يعطيها كل همه...

(ومزعج في الدنيا حتى يفارقها رغماً). فإن الموت يقلع الإنسان من الدنيا ويخرجه عنها قهراً عنه ومن كانت هذه آخرته من الدنيا وجب عليه أن لا يعصي الله فيها ولا يهتم فيها إلا بمقدار طاعة الله...

(فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها). أي لا يبخل بعضكم على بعض أو لا يحسد بعضكم بعضاً في أمور الدنيا من الأموال والممتلكات والمدخرات نهي عن بعض ما يتصور أنه خير الدنيا.

(ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها). لا يأخذكم العجب وتندهشوا بحسن الدنيا وما فيها

من نعيم وطيبات ورزق واسع.

(**ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها**). لا يأخذكم الجزع واليأس وعدم الصبر فتحزنوا وتتألموا مما يمر عليكم من الدنيا وشدتها وضيقها وتقتيرها عليكم.

نهى عليه السلام عن خير الدنيا وعن شرها وأن لا ينظر الإنسان إلى ذلك على أنه كل شيء بل هو لا شيء في ميزان أهل الكشف والمعرفة وأهل الإيمان والدين وقد علل عليه السلام ذلك بقوله:

(**فإن عزها وفخرها إلى انقطاع**). فإن ما يملكه الإنسان ويحسد غيره عليه ويتنافس فيه لا بد له من نهاية يتوقف عندها.. إن الموت سيخرجك عما تتقاتل عليه وتعتز به وتفتخر ستخرج عن الأموال والأولاد والسلطان.

(**وإن زينتها ونعيمها إلى زوال**). فما كان يتزين به الإنسان من قصور وسيارات وأموال وأولاد وما كان يتنعم به في الدنيا سيزول عنه ويتحول إلى غيره إن بقي له عين أو أثر.

(**وضرائها وبؤسها إلى نفاد**). أيام الشدة والبلاء أيام العسر والحرج كل ذلك سينتهي... وسيتوقف... سيقطع الموت بقاءه ويقضي عليه...

وإذا كان هذا هو حال هذه الأمور فيجب أن يعتبر الإنسان بها ويؤمن أنها عارية سترد وستخرج عنه ولا تبقى له ولا يدوم لها...

(**وكل مدة فيها إلى انتهاء وكل حي فيها إلى فناء**). هذه من جملة القواعد العامة التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة إنها قاعدة كل شيء إلى انتهاء... له مدة ينتهي عندها، فالشباب له مدة ينتهي عندها والغنى له حد يتوقف عنده والسلطان له حد يتوقف عنده وهكذا دواليك...

وكل حي فيها إلى الموت كما قال تعالى: ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾.

(**أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر وفي آبائكم الماضين تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون**). استفهام أنكاري ليتعظوا ويستفيدوا يعني استفيدوا من آثار الأولين وارتدعوا عما لا يجوز لكم، مرّوا في ديار السابقين قوم عاد وثمود وفرعون وخذوا العظة والعبرة منهم كما أنكم لو نظرتم إلى آبائكم الذين تقدموا عليكم وأنهم لم يبقوا ولم يكتب لهم الخلود، لو فكرتم في كل ذلك لنظرتم لأنفسكم ولما يفيدكم وينفعكم...

(أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون وإلى الخلف الباقين لا يبقون). انظروا واعتبروا بحال من مات من الأولين كيف أنهم لا يرجعون إلى الدنيا حتى يصلحوا أعمالهم ويتداركوا ما فات منهم كما أن من تخلفوا بعدهم ممن هم يعيشون معنا ـ ونحن معهم ـ كيف إننا جميعاً خلفاؤهم ولا نبقى على هذه الأرض وفي هذه الدنيا بل سيطوينا الموت ونغيب عن هذا الوجود. . .

(أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى). نبه عليه السلام بأحوال الدنيا المختلفة إلى عدم بقائها ودوامها وإن على الإنسان أن يعتبر بها ولا يغتر بنعيمها فإن الناس لا يمر عليهم ليل أو نهار إلا وهم في أحوال مختلفة وذكر بعض هذه الحالات. . .

(فميت يبكى وآخر يعزّى). هذا هو حال الدنيا فهنا جنازة قد قامت النوادب عليها تحكي صفاتها وتبكي شبابها وإنني وأنا أكتب هذه الكلمات أسمع قراءة القرآن على فقيد حبيب فقده أهله وغاب شخصه عن أعينهم وفي المقابل يقف أهل الفقيد يتقبلون العزاء، يسليهم الناس بكلمات العزاء ويصبّرونهم على عادة أهل الدنيا وكما أمر الشرع بذلك. . .

(وصريع مبتلى وعائد يعود). وهذه من جملة أحوال الدنيا فهناك طريح على الفراش مصاب بمرض أقعده عن الحركة ومنعه من الضرب في الأرض قد امتحنه الله بهذا البلاء وفي مقابله يوجد زواره وقصّاده الذين ينظرون إلى ثواب الله وما أعده من زيارة للمريض كما أنهم يدخلون عليه السرور بزيارتهم ويسلونه عما به من هموم وأسقام. . .

(وآخر بنفسه يجود). وهذا أيضاً من حالات الدنيا التي تمر على بعض الناس. . . إنه يصارع الموت ويريد أن يفارق الحياة. . . إنه رجل يعالج سكرات الموت وينتظر خروج روحه ليرحل من الدنيا إلى الله.

(وطالب للدنيا والموت يطلبه). فهذا يسعى في طلب الدنيا ويجدّ ويتعب من أجلها وبينما هو طالب إذ بالموت يطلبه حيث تجري الأيام ويمضي العمر ويتقدم الموت نحوه في كل لحظة. . . فهو طالب للدنيا والموت يطلبه ولن يدرك الدنيا وسيدركه الموت فيقطع أمنيته وما كان يطلب من الدنيا.

(وغافل وليس بمغفول عنه). فهذا الإنسان غافل عما خلقه الله من أجله وطلبه منه بينما هو ليس مغفول عنه من حيث إن الله ناظر إليه وإلى أعماله. . .

(وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي). سنة جارية فعلى طريقة السلف يمشي

الخلف، ويجري على الحاضرين ما كان يجري على الماضين. . .

(ألا فاذكروا هاذم اللذات). نبههم إلى ذكر هذه الحقيقة التي لا بد وأن نصل إليها ولا بد وأن تدركنا ومع ذلك لا نتعامل معها كحقيقة لا بد من الوقوف عليها. . .

ينبهنا إلى ذكر الموت فما ذكره إنسان إلا ورجع إلى نفسه وعاد إلى حقيقته يستنطقها ويستفسر منها عن هذا اللغز الرهيب الذي لم يقدر هذا الإنسان على حله وإنما الله تولى حله فعاش المؤمنون في رحاب تعاليمه حياة أبدية وكان الموت بالنسبة إليهم كثوب وسخ خلعوه واستبدلوه بثوب نظيف، فهم مطمئنون إلى حكم الله وقضائه يتنعمون بما أحله لهم ويبتعدون عما حرم عليهم وبذلك هان الموت عليهم بل كان القنطرة التي يقطعونها ليدخلوا إلى الجنة ونعيمها. . .

وعلى كل حال يريد الإمام أن يذكرنا بالموت الذي يقطع لذات الدنيا من مأكل ومشرب ونكاح وطيبات.

يذكرنا أن هذه الأمور إذا كانت من حرام لن تدوم لنا وإذا كانت أنفسنا تطمعنا بدوامها فلا دوام لها سيقضي عليها الموت وسيأتي عليها فلا تبقى.

(ومنغص الشهوات). هذه صفة ثانية للموت إنه يكدّر على المرء رغباته ففي ليلة زفافه قد يأتي أجله وفي ليلة فرحه قد يأتي ترحه. . .

(وقاطع الأمنيات). فما يتمناه الإنسان ويطمح إليه ويرغب فيه ويسعى إلى تحقيقه يقطعه الموت ويوقفه وهذه الصفة للموت لنتذكر أن أمنياتنا يجب أن تكون في طاعة الله وفي خدمة عباده.

(عند المساورة للأعمال القبيحة واستعينوا الله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه). يقول الإمام اذكروا هادم اللذات ومنغّص الشهوات وقاطع الأمنيات عندما تريدون أن تعملوا الأعمال القبيحة التي لا يحبها الله، فإنكم إذا تذكرتم الموت ارتدعتم عن فعل القبيح ولم تقدموا على عمل يكرهه الله ولا يحبه وإن المؤمن باستمرار لا يغفل عن ذكر الموت وخصوصاً في المواقف التي يكون فيها معصية لله فإنه يتوقف عن ارتكابها عندما يتذكر الموت وما بعده من الحساب والعقاب. . .

ثم يأمرنا عليه السلام أن نستعين بالله على القيام بحقه وما أوجبه علينا فإن من أدى حق الله فقد أدرك أقصى الغايات.

كما أن علينا أن نقوم بشكر نعم الله التي لا تعد وإحسانه الذي لا يحد. . .

١٠٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في رسول الله وأهل بيته

الحَمْدُ للهِ النَّاشِرِ(١) فِي الخَلْقِ فَضْلَهُ(٢)، وَالبَاسِطِ فِيهِمْ بِالجُودِ يَدَهُ(٣). نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَىٰ رِعَايَةِ(٤) حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً(٥)، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّىٰ(٦) أَمِيناً، وَمَضَىٰ رَشِيداً(٧)؛ وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ(٨)، وَمَنْ تَخَلَّفَ(٩) عَنْهَا زَهَقَ(١٠)، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ(١١) الكَلاَمِ، بَطِيءُ(١٢) القِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ. فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ(١٣) لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ(١٤) إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ المَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ(١٥) بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللهُ حَتَّىٰ يُطْلِعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ(١٦)، فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ(١٧)، وَلاَ تَيْأَسُوا(١٨) مِنْ مُدْبِرٍ(١٩)، فَإِنَّ المُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ(٢٠) بِهِ إِحْدَىٰ قَائِمَتَيْهِ(٢١)، وَتَثْبُتَ الأُخْرَىٰ، فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا(٢٢) جَمِيعاً.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَىٰ(٢٣) نَجْمٌ طَلَعَ(٢٤) نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ(٢٥)، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

اللغة

١ ـ الناشر : من نشر الثوب إذا بسطه والشيء فرّقه.
٢ ـ الفضل : الإحسان أو الابتداء به بلا علة له.

٣ ـ اليد : في الأصل هي الجارحة المعلومة وقد يكنى بها عن النعمة كما يقال لفلان يد عندي.
٤ ـ الرعاية : الحفظ والصيانة.
٥ ـ صادعاً : مظهراً ومتجاهراً.
٦ ـ أدى : أوصل.
٧ ـ الرشيد : المدرك للصواب أو المستقيم على طريق الحق.
٨ ـ مرق : خرج من الدين.
٩ ـ تخلف : عنها إذا تأخر ولم يلتحق.
١٠ ـ زهق : هلك.
١١ ـ المكيث : البطيء.
١٢ ـ البطيء : المتأني.
١٣ ـ ألنتم : من اللين وهو ضد الخشونة الملاطفة وحسن العشرة.
١٤ ـ أشار : إليه أومأ إليه.
١٥ ـ لبثتم : مكثتم وأقمتم.
١٦ ـ يضم نشركم : يصل متفرقكم.
١٧ ـ المقبل : المتوجه نحوك.
١٨ ـ لا تيأسوا : لا تقنطوا.
١٩ ـ المدبر : من أعطاك دبره وتوجه بخلاف ما أنت عليه.
٢٠ ـ تزل : تسقط وتزلق.
٢١ ـ قائمتاه : رجلاه.
٢٢ ـ تثبت : تستقر.
٢٣ ـ خوى : سقط للمغيب.
٢٤ ـ طلع : ظهر.
٢٥ ـ الصنائع : جمع صنيعة النعم والإحسان.

الشرح

(الحمد لله الناشر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجود يده نحمده في جميع أموره ونستعينه على رعاية حقوقه). هذه الخطبة المباركة تتضمن أخباره بأمور تجري على الناس ممن يتولون الحكم بعده كما يخبرهم أنه لا بد من ظهور إمام هو الإمام

المنتظر وعلى يديه يكون الفرج . . .

ابتدأ بذكر حمد الله الذي فرق في الناس إحسانه وعمم كرمه على الناس جميعاً، نحمده في كل أموره سراءها وضرائها، بؤسها ونعيمها، رخائها وضيقها، في أوقات المرض والصحة في الغنى والفقر وفي كل الأحوال لأنه يستحق الحمد.

ونطلب إعانته لأداء حقه مما كلفنا به من صلاة وصيام وحج وزكاة وجهاد وغيرها . . .

(ونشهد أن لا إله غيره وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بأمره صادعاً وبذكره ناطقاً). فبعد الشهادة لله بالوحدانية وأنه لا إله غيره شهد أن محمداً هو رسول الله وسفيره إلى الخلق أرسله مجاهراً بما أمر معلناً للناس رسالة الله وبذكر الله متكلماً.

فإن الرسول يحكي مراد الله إلى الخلق وينقل إليهم ما يريد منهم وقد يراد بذكره ناطقاً أنه يحمد الله ويسبحه ويذكره بما يتنزه ويقدسه . . .

(فأدى أميناً ومضى رشيداً وخلف فينا راية الحق من تقدمها مرق ومن تخلف عنها زهق ومن لزمها لحق). يذكر رسول الله وبعض صفاته الكريمة وأهمها أنه أدى عن الله ما أئتمنه عليه . . . بلّغ للناس بأمانة وصدق ما كلّفه الله به وقد كان الأمين قبل النبوة وهو بعدها أشد أمانة كما أنه مضى إلى الله رشيداً قد بلّغ الرسالة على وجهها الصائب الكامل التام وترك بعده في الأمة راية الحق وهي كتاب الله وعترته حيث قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . . .».

فقد جعل الميزان لهداية الخلق هذه الراية والتقاء الناس عندها والتفافهم حولها وجعل من تقدم عليها مارقاً عن الدين وخارجاً عن أحكامه لأنه أخذ ما ليس له بحق أو أخذه عن غير الطريق المشروع الذي أمر الله بالسير فيه . . .

كما جعل من تخلف عنها ولم يقتد بها من الهالكين لأنه أهمل نفسه أو اعتمد على غيرها من رايات الضلال والانحراف فدفعته إلى الهاوية . . .

وأما الناجي والفائز برحمة الله وعفوه وجوده وكرمه فهو الملتزم بهذه الراية التي نصبها النبي لهداية الناس فمن اقتدى بأهل البيت وعمل بأوامرهم فهو الملتزم بهذه الراية وأما من اكتفى بحبه لهم دون الاقتداء بهم فهذا لن يستفيد شيئاً من هذا الحب . . .

(دليلها مكيث الكلام، بطيء القيام، سريع إذا قام). يريد بهذا الكلام نفسه الشريفة

فإنه سيد العترة وزعيمها وراية الحق ودليلها وعنوانها وشعارها. . .

أشار إلى نفسه إلى أنه دليل هذه الراية لأن من عرف الإمام فقد وضع يده على الحق واهتدى أول الطريق واستطاع أن يمشي على الصراط المستقيم. . .

ثم أشار إلى بعض أوصافه فهو متروي متثبت في أقواله لا يقع منه خطأ في حديث ولا يعتذر من كلمة لأن له ملكة تهديه إلى صواب الكلام وصدق الحديث. . .

وأشار أيضاً إلى بطئه في القيام أي لا يتسرّع في أخذ القرار بل يدرس الأمور بتأني ويرى وجه المصلحة فيها، فقد كان صلوات الله عليه يدفع الحرب ما اندفعت ويحاول أن يؤخرها ويسوفها عسى أن يرجع إليه ضال أو يهتدي تائه وكان يصرح بذلك ويقول: ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي فئة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها.

ومن صفات هذا الإمام أنه إذا قام عندما تكتمل عناصر القوة وتتم عوامل النصر قام بدون تأخير بل بأقصى سرعة وقد كان في الحرب سيدها وبطلها ومنتزع النصر من شجعانها.

(فإذا أنتم ألنتم له رقابكم وأشرتم إليه بأصابعكم جاءه الموت فذهب به فلبثتم بعده ما شاء الله حتى يطلع الله لكم من يجمعكم ويضم نشركم). وفي هذا إشارة إلى موته وأنه سيكون عندما تخضع له الأمة وتستسلم لإرادته وتؤدي له فروض الطاعة والاحترام وتجلّه وتعظمه عندها يأتيه الموت فيذهب به. . .

وقد قالوا: إنه عليه السلام كنى في هذه الخطبة عن نفسه وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه وطاعتهم له وهكذا وقع الأمر فإنه نقل أن أهل العراق لم يكونوا أشد اجتماعاً عليه من الشهر الذي قتل فيه عليه السلام.

وجاء في الأخبار أنه عقد للحسن ابنه عليه السلام على عشرة آلاف ولأبي أيوب الأنصاري على عشرة آلاف ولفلان وفلان حتى اجتمع له مائة ألف سيف وأخرج مقدمته أمامه يريد الشام فضربه اللعين ابن ملجم وكان من أمره ما كان وانفضت تلك الجموع وكانت كالغنم فقدت راعيها. . .

ثم أخبر أنه بعد موته سيتشتتون ويتوزعون ويبقون هكذا ما شاء الله حتى يخرج إليهم القائد العظيم الذي يجمع شملهم ويضم متفرقهم ويوحد كلمتهم وحمل على أنه الإمام المهدي أرواحنا له الفداء وهذا القدر المتيقن وعليه ينطبق الأمر بكماله وتمامه

وهو المعدّ لذلك وحمله بعضهم على دولة العباسيين وأمراؤها وبعضهم حملها على كل قيادة تخرج من أهل البيت، وهذا الأخير وإن كان في نفسه صحيحاً ولكن لم يكتب لأحد من أهل البيت أن يجمع المسلمين ويوحدهم جميعاً نعم هذا ينحصر في الإمام المهدي بالخصوص وبه يتعين التفسير.

(فلا تطمعوا في غير مقبل ولا تيأسوا من مدبر فإن المدبر عسى أن تزل به إحدى قائمتيه وتثبت الأخرى فترجعا حتى تثبتا جميعاً). ثم بين لهم أن لا يطمعوا فيمن لم يطلب الإمامة والرياسة لأن عدم طلبه قد يكون لعدم استكمال شرائطها كما نهاهم عن اليأس عمن أدبر عن الخلافة ولم يطلبها إذ ربما كان ذلك لفقدان بعض الشروط ولربما اجتمعت تلك الشروط فعندها يرجع إلى حقه وتتم شروط قيادته.

وقال بعضهم في تفسير هذه الكلمات المباركة: لا تطمعوا أن يحكمكم بعدي من هو مثلي فإن هذا بعيد المنال ولا تيأسوا من هدايتنا أهل البيت فإذا لم تجدوا بعدي من آل الرسول من يملك الحكم والأمر سياسياً فإنكم واجدون منهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون فالزموهم وانقادوا لأمرهم وأشار بالقائمتين إلى السلطة الدينية والسلطة الزمنية وأنه إذا ذهبت هذه بوفاة الإمام تبقى تلك ببقاء أبنائه وعلى طول المدة ستعود السلطة السياسية أيضاً وتنضم إلى السلطة الدينية.

(ألا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون). أوصى بأهل البيت وأشار إلى أنهم كالنجوم في ضوئها وكونها تهدي الناس وإلى أن الأرض لا تخلو من أحدهم بل كلما غاب واحد ظهر منهم آخر حلّ محله وقام مقامه وهذا يدل على أنه لا يخلو زمان من إمام يوجه الناس وبه يُحفظون.

ثم زف إليهم البشرى بتفضل الله عليهم بإحسانه العميم الذي يشمل الجميع ويكمل عليهم فضله وإحسانه ويريهم ما كانوا يأملون ويرجون من انتصار الحق ولمّ الشعث وإعادة حكم الله في الأرض وهذا إشارة إلى ظهور الإمام المهدي وما يكون على يديه من المعجزات وبه تكتمل النعم ويعم الخير كل البشر...

١٠١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي إحدى الخطب المشتملة على الملاحم

الحَمْدُ للهِ الأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ[١] أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰه إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ[٢] الإِعْلاَنَ، وَالقَلْبُ اللِّسَانَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ[٣] شِقَاقِي[٤]، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ[٥] عِصْيَانِي[٦]، وَلاَ تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ[٧] عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي. فَوَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ[٨]، وَبَرَأَ[٩] النَّسَمَةَ[١٠]، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ[١١] بِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَا كَذَبَ المُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ. لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ ضِلِّيلٍ[١٢] قَدْ نَعَقَ[١٣] بِالشَّامِ، وَفَحَصَ[١٤] بِرَايَاتِهِ[١٥] فِي ضَوَاحِي[١٦] كُوفَانَ[١٧]. فَإِذَا فَغَرَتْ[١٨] فَاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ[١٩]، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ[٢٠]، عَضَّتِ[٢١] الفِتْنَةُ[٢٢] أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا[٢٣]، وَمَاجَتْ[٢٤] الحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا[٢٥] مِنَ الأَيَّامِ كُلُوحُهَا[٢٦]، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا[٢٧]. فَإِذَا أَيْنَعَ[٢٨] زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَىٰ يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ[٢٩] شَقَاشِقُهُ[٣٠]، وَبَرَقَتْ[٣١] بَوَارِقُهُ[٣٢]، عُقِدَتْ رَايَاتُ الفِتَنِ المُعْضِلَةِ[٣٣]، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَالبَحْرِ المُلْتَطِمِ[٣٤]. هٰذَا، وَكَمْ يَخْرِقُ[٣٥] الكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ[٣٦] وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ[٣٧]! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ القُرُونُ بِالقُرُونِ[٣٨]، وَيُحْصَدُ[٣٩] القَائِمُ، وَيُحْطَمُ[٤٠] المَحْصُودُ!.

اللغة

١ ـ وجب : ثبت ولزم.
٢ ـ السّر : ما يكتمه الإنسان في نفسه.
٣ ـ لا يجرمنكم : لا يحملنكم.
٤ ـ شقاقي : مخالفتي وعصياني.
٥ ـ لا يستهوينكم : لا يستميلنكم من استهواه إذا استماله.
٦ ـ العصيان : ترك الطاعة وعدم الانقياد.
٧ ـ لا تترامو بالأبصار : لا ينظر بعضكم إلى بعض تغامراً.
٨ ـ فلق الحبة : شقها.
٩ ـ برأ : خلق.
١٠ ـ النسمة : الروح.
١١ ـ أنبئكم به : أخبركم به.
١٢ ـ الضليل : الكثير الضلال.
١٣ ـ نعق : صاح والنعيق صوت الراعي بغنمه.
١٤ ـ فحص : القطا التراب إذا اتخذ فيه مفحصاً وهو الموضع الذي تبيض فيه.
١٥ ـ الرايات : جمع راية وهي علم الجيش، العلامة المنصوبة لكي يراها الناس.
١٦ ـ الضواحي : النواحي البارزة القريبة.
١٧ ـ كوفان : اسم لمدينة الكوفة وهي معروفة مشهورة ولها أيام في تاريخ الإسلام.
١٨ ـ فغرت : فتحت.
١٩ ـ اشتدت شكيمته : إذا كان قوي النفس أبياً وأصل الشكيمة الحديد المعترض في فم الفرس من اللجام.
٢٠ ـ الوطأة : الأخذة الشديدة والضغطة.
٢١ ـ عضت : من العض وهو الإمساك بالأسنان.
٢٢ ـ الفتنة : المحنة، الإبتلاء.
٢٣ ـ الأنياب : جمع ناب السن خلف الرباعية.
٢٤ ـ ماجت : اضطربت.
٢٥ ـ بدا : ظهر.
٢٦ ـ الكلوح : العبوس.
٢٧ ـ الكدوح : الخدوش وأثر الجراحات.
٢٨ ـ أينع : نضج وحان قطافه.

٢٩ ـ هدرت : سالت وهدر البعير إذا قرقر وكرر صوته في حنجرته.
٣٠ ـ الشقاشق : جمع شقشقة شيء كالزبد يخرج من فم البعير عند هياجه.
٣١ ـ برقت : لمعت.
٣٢ ـ البوارق : السيوف والرماح لبريقها ولمعانها سميت بذلك.
٣٣ ـ المعضلة : كالمشكلة لفظاً ومعنى ما استعصى حلّه.
٣٤ ـ الملتطم : الذي يضرب بعضه بعضاً كالبحر يضرب موجه بعضه بعضاً.
٣٥ ـ يخرق : ينفذ من الشيء ويقطعه.
٣٦ ـ القاصف : ما اشتد صوته من الرعد والريح وغيرها.
٣٧ ـ العاصف : ما اشتد من الريح.
٣٨ ـ القرون : جمع قرن العظم النابت المرتفع في رؤوس بعض الحيوانات.
٣٩ ـ يحصد : يقطع الزرع بالمنجل/ والقرن الجيل من الناس.
٤٠ ـ يحطّم : يكسّر.

الشرح

(الحمد لله الأول قبل كل أول والآخر بعد كل آخر وبأوليته وجب أن لا أول له وبآخريته وجب أن لا آخر له). تحدث عليه السلام بهذه الخطبة عن أمور ستقع في مستقبل الأيام وابتدأها بحمد الله الأول الذي هو مبدأ الكائنات والآخر الذي يبقى وتفنى الكائنات وبهذا الاعتبار امتنع أن يكون قبله أحد أو يبقى بعده أحد لأنه لو كان الأمر كذلك لأنتفت أوليته وآخريته بما فسرناه. . .

(وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الإعلان والقلب اللسان). أراد أن يثبت صدق توحيده وينفي النفاق عنه وذلك يتطابق ما في السر من هذه الشهادة لما في الظاهر وما في القلب لما في اللسان. . .

(أيها الناس لا يجرمنكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني ولا تترامو بالأبصار عندما تسمعونه مني). وجّه الخطاب إلى أولئك الذين جلسوا تحت منبره يستمعون كلامه وهو يحدثهم بأمور خارقة للعادة ستجري عليهم وعلى الناس وهم على أطوار شتى فهذا يحمله عداءه له ومعادته معه إلى تكذيبه وذلك يجره التمرد وحب مخالفته إلى تكذيبه أيضاً وثالث يتغامز مع غيره إشارة منه إلى عدم الصدق في قوله عليه السلام يرى ممن تحت منبره هذه المناظر الموحشة ويبصر بأم عينه مدى تجاوزهم عليه ورميه بما لا يليق

بساحته ليس لأمر يرون فيه كذبه بل لأمور في نفوسهم المريضة العليلة التي تحملهم على ذلك ولذا يحلف لهم ويبيّن لهم مصدر علمه حتى يستمعوا له ويتقبلوا قوله ولا يرمونه بأمر باطل هو منه بريء.

(فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة أن الذي أنبئكم به عن النبي الأمي صلى الله عليه وآله ما كذب المبلّغ ولا جهل السامع). حلف عليه السلام بالله الذي شق الحبة فأخرج منها الأشجار والزرع وخلق النفس البشرية بما تحويه من ألوان ولغات وأشكال، حلف بالله بهذين الوصفين أن الذي يخبرهم به من الأمور الغيبية والملاحم وما يجري عليه وعليهم هو عن النبي صلى الله عليه وآله وليس من عند نفسه وإذا كان من عند النبي فالنبي لا يكذب فيما يقول أو يتكلم وأنا لست بجاهل ما سمعت بل كان صلوات الله عليه أصدق القائلين وكان الإمام هو الأذن الواعية لكل ما نطق به النبي فالمتكلم ثقة أمين صادق والسامع واعي مدرك حافظ . . .

(لكأني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان). نقل عليه السلام هذا الخبر وكأنه أمامه ينظر إليه يخبر أنه سيخرج في الشام رجل كثير الضلال يصيح إما بالدعوة لنفسه أو بالخروج للحرب وقد وصل براياته إلى الكوفة ونصب لراياته أمكنة يأوي أليها جنده وجماعته.

وقد اختلفت كلمة الشرّاح في المراد من الضليل من هو؟.

فقالوا: إنه معاوية فقد ابتدأت دعوته بالشام وشملت العراق بما فيه الكوفة.

وقيل إن هذا ينطبق على عبد الملك بن مروان لأن هذه الإمارات تنطبق عليه أكثر من غيره فقد قام بالشام حين دعا إلى نفسه وهو معنى نعيقه وفحصت راياته بالكوفة حين قتل مصعباً.

وقيل: إنه أشار بذلك إلى السفياني الدجال. وعلى كل حال فكل ما ذكر فهي مصاديق لتلك الكبرى التي ذكرها الإمام. . .

(فإذا فغرت فاغرته واشتدت شكيمته وثقلت في الأرض وطأته). وهذه أيضاً من أوصاف هذا الضليل الذي نعق بالشام وما يمارسه على الناس أنه يفتك فيهم كما يفتك الأسد بفريسته حينما يفتح فمه ويتناولها وقد عبّر عن ذلك بقوله فغرت فاغرته. . .

وكذلك عبّر عن شدة شكيمته بقوة شوكته وشدة بأسه.

وعن كون الأرض ثقلت بوطأته أي كثر جوره وظلمه. . .

إذا كان الأمر كذلك مرّ على الناس فتنة قاسية شرحها الإمام بقوله. . .

(عضت الفتنة أبناءها بأنيابها وماجت الحرب بأمواجها). بيان لما يصيب الأمة عندما يشتد جور هذا الضليل وتقوى شكيمته وتشتد في الأرض وطأته، إنها تأخذ هذه الفتنة الأبناء وتذيقهم مرارتها وألمها فقد شبهها بدابة لها أنياب قد غرزتها في هذه الأمة فكم يكون الألم وكم تكون المرارة؟!.

وعندها تموج الحرب بأمواجها أي تكثر وتشتد وتتحول في كل مكان وتشمل كل إنسان فيكثر القتل والتشريد والعذاب. . .

(وبدا من الأيام كلوحها). عندها تظهر الأيام السوداء على الناس لما تحمله معها من مآسي وآلام.

(ومن الليالي كدوحها). تظهر آثار تلك الليالي السوداء في جسد الأمة حيث يكون العذاب والمرارة والألم بحيث لا تمحى ولا يعفى أثرها. . .

(فإذا أينع زرعه وقام على ينعه). أراد بهذا الكلام أنه إذا هدأت له الحال فتملك واستقر وأراد أن يستفيد من ذلك الاستقرار.

(وهدرت شقاشقه وبرقت بوارقه). ظهرت قبائحه وبان طغيانه بما يصدر منه من تهديد ووعيد وظهرت سطوته وقوته.

(عقدت رايات الفتن المعضلة). عندئذ تقع الفتن الكثيرة التي يصعب حلها ويستعصي علاجها.

(وأقبلن كالليل المظلم والبحر الملتطم). فهذه الفتن لشدتها وقساوتها شبهها بالليل المظلم الذي لا يرى فيه الإنسان مواقع أقدامه ولا يهتدي فيها إلى الحق كما أن الناس فيها يضرب بعضهم وجوه بعض ويقضي بعضهم على بعض كالبحر تتلاطم أمواجه ويضرب بعضها بعضاً. . .

(هذا وكم يخرق الكوفة من قاصف ويمر عليها من عاصف). وهذا إخبار عما سيجري على الكوفة من البلاء والمحن، إنها كثيرة تقضي على الشرفاء والأخيار بل تعم الناس جميعاً. . . سيمر عليها الجبار العنيد والشيطان المريد الذي يأتي على الناس فيقضي عليهم وقد وقع ذلك في زمن ابن زياد والحجاج والأمويين حيث كانوا يعرفون موقع الكوفة من الأحداث ويعرفون مَنْ بها من رجالات العرب وأنصار أهل البيت ولذا أذاقوها المرارات وجرعوها الغصص ومارسوا عليها أبشع صور الإذلال والقهر. . .

(وعن قليل تلتف القرون بالقرون). شبههم بالكباش الذين يتناطحون فتلتف قرون بعضها ببعض كنى بذلك عن لقاء السيوف بعضها ببعض ووقوع الحرب بالمواجهة والمباشرة بحيث تلتحم السيوف ويعضّ بعضها البعض.

وقيل: وعن قليل يلحق قرن من الناس بقرون وكنى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض.

(ويحصد القائم ويحطم المحصود). قالوا: إنه كناية عن قتل الأمراء من بني أمية في الحربِ ثم قتل المأسورين منهم صبراً فحصد القائم قتل المحاربة وحطم الحصيد القتل صبراً.

وقيل: إن ذلك إشارة إلى عموم البلاء وحصد القائم كناية عن قتل القوي وحطم المحصود كناية عن استئصال الضعيف.

وقيل: كنى بحصدهم عن قتلهم وبحطمهم عن فنائهم وتفرق أوصالهم...

١٠٢ - ومن خطبة له عليه السلام

تجري هذا المجرى

وفيها ذكر يوم القيامة وأحوال الناس المقبلة

يوم القيامة

وَذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِنِقَاشِ الحِسَابِ(١) وَجَزَاءِ(٢) الأَعْمَالِ، خُضُوعاً(٣)، قِياماً، قَدْ أَلْجَمَهُمُ العَرَقُ(٤)، وَرَجَفَتْ(٥) بِهِمُ الأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً(٦).

حال مقبلة على الناس

ومنها: فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ(٧) المُظْلِمِ، لاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ(٨)، وَلاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ(٩)، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً(١٠) مَرْحُولَةً(١١): يَحْفِزُهَا(١٢) قَائِدُهَا(١٣) وَيَجْهَدُهَا(١٤) رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ(١٥)، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ(١٦) يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ المُتَكَبِّرِينَ، فِي الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ. فَوَيْلٌ(١٧) لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ(١٨) اللهِ! لاَ رَهَجَ(١٩) لَهُ، وَلاَ حَسَّ(٢٠)، وَسَيُبْتَلَىٰ أَهْلُكِ بِالمَوْتِ الأَحْمَرِ، وَالجُوعِ الأَغْبَرِ(٢١).

اللغة

١ ـ نقاش الحساب : الاستقصاء فيه.
٢ ـ الجزاء : المكافأة.
٣ ـ الخضوع : التواضع والتطامن والانقياد.
٤ ـ ألجمهم العرق : سال منهم العرق حتى بلغ موضع اللجام من الدابة وهو الفم.
٥ ـ رجفت : تحركت واضطربت والرجفة الزلزلة.
٦ ـ المتسع : من وسع ضد ضاق.
٧ ـ قطع الليل : جمع قطع بكسر القاف وهو الظلمة.
٨ ـ القائمة : للدابة رجلها أو يدها وقائمة السيف مقبضه.
٩ ـ الراية : علم الجيش، ما يوضع ليهتدى به.
١٠ ـ مزمومة : من الزمام وهو المقود والمزمومة التي معها زمامها.
١١ ـ مرحولة : من الرحل وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج والمرحولة عليها رحلها.
١٢ ـ يحفزها : يحثها، يدفعها.
١٣ ـ القائد : من قاد يقود قيادة الدابة مشى أمامها آخذاً بقيادها.
١٤ ـ يجهدها : يحمل عليها فوق ما تطيق.
١٥ ـ الكلب : بفتح اللام الشر والأذى والشدة في كل شيء.
١٦ ـ السلب : محركة ما يأخذه القاتل من ثياب المقتول وسلاحه في الحرب.
١٧ ـ الويل : الشر، الهلاك، يدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها.
١٨ ـ النقم : جمع نقمة العقوبة.
١٩ ـ الرهج : بالتحريك وسكون الهاء الغبار.
٢٠ ـ الحس : بفتح الحاء الجلبة والأصوات المختلطة الخفية.
٢١ ـ الأغبر : جمعه غُبُر ما لونه الغبرة، والغبرة لون الغبار.

الشرح

(وذلك يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال خضوعاً، قياماً قد ألجمهم العرق ورجفت بهم الأرض). تضمنت هذه الخطبة في مطلعها الحديث عن يوم القيامة وبعض شدائده وفي بقيتها تضمنت الحديث عن بعض الملاحم والأمور الغيبية.

أما يوم القيامة فهو يوم شديد يجمع الله فيه الناس جميعاً من مضى منهم في قديم الزمان ومن هو قريب عهد يجمعهم للحساب كما قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾. قال الطبرسي في مجمع البيان: أي يجمع فيه الناس كلهم الأولون والآخرون منهم للجزاء والحساب. . . يشهده الخلائق كلهم من الجن والإنس وأهل السماء وأهل الأرض أي يحضره ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق. . .

ويوم القيامة يلتقي فيه الظالم والمظلوم، المطيع لله والعاصي، يلتقون جميعاً لتقديم حساباتهم وما عملوا في دار الدنيا.

وقيامهم في خشوع وخضوع يأخذهم الخوف والفزع قد أغرقهم العرق إلى أفواههم واضطربت بهم الأرض وزلزلت زلزالها. . .

(**فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متسعاً**). وهذا وصف لشدة الزحام في ذلك اليوم وأن أحسن الناس وأفضلهم من وجد موطئاً لقدميه بحيث تستقران به على الأرض ولشخصه مكاناً يسعه دون ضيق. . .

(**فتن كقطع الليل المظلم**). اضطرابات شديدة يخبر بها الإمام حتى كأنها ظلمات الليالي الحالكة التي لا يهتدي فيها المرء إلى الطريق ولا يبصر كيف يسير. . .

(**لا تقوم لها قائمة ولا ترد لها راية**). لا يقف في وجهها أحد إلا أخذته ودمرته ولا تهزم في موقع أو تسقط في معركة بل يكون النصر لها باستمرار.

(**تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها ويجهدها راكبها**). وهذه الفتنة شبهها بالناقة المهيأة للركوب فزمامها التي تقاد به جاهز ورحلها بأدواته كلها عليها وكذلك الفتنة فإن جميع عناصرها جاهزة المشاغبون والإعلاميون والسياسيون والعسكريون.

إنها تأتي متكاملة يدفعها قائدها وهم الأعوان ويسعر نارها راكبها وهم أرباب الفتنة.

وقيل: يمكن أن يراد بالقائد هم الرّجل وبالراكب الفرسان. . .

ومختصر ما يراد أنها فتنة شديدة وفوضى رهيبة يجهد أهلها في تسعيرها لإدراك ما يطلبون. . .

(**أهلها قوم شديد كلبهم قليل سلبهم**). وهذا وصف لأهل هذه الفتنة إنهم قوم

شديد أذاهم وكبير ضررهم همهم القتل لا ينظرون إلى سلب القتلى الذين تطالهم سيوفهم بل همهم في نفس القتل والأذى. . .

(يجاهدهم في سبيل الله قوم أذلة عند المتكبرين في الأرض مجهولون وفي السماء معروفون). وهذه بشرى يزفها الإمام إلى الناس وأنه بعد تلك الفتنة وما وصف به أهلها سيبعث الله قوماً يطلبون وجه الله في جهادهم إنهم مجهولون عند الناس محتقرون عند المتكبرين يعرفهم الله وإن جهلهم الناس واحتقرهم الطغاة وهم قوم اتصلوا بالله وباعوا أنفسهم له، وقالوا: إن هذا إخبار منه لأمر سيأتي في آخر الزمان وأنه ستكون فتنة ويكون ما أخبر به.

وذهب بعضهم إلى أن هذا الإخبار منه إنما هو لوقعة الزنج في البصرة.

(فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر). ثم أنذر البصرة والمراد أهلها بما يصيبها حيث يرسل الله عليها جيشاً من عذابه لا غبار له عندما يمشي ولا أصوات لأدواته من حافر أو سلاح وقد قال بعضهم: إن الله يسلط عليهم الجرب والطاعون فيصيبهم حتى يبيدهم وفسّر الموت الأحمر بالوباء والجوع وفسّر الجوع الأغبر كناية عن المحل ووصف بالأغبر لأن الجائع يرى الآفاق كأن عليها غبرة وظلاماً.

وقال بعضهم: إن هذا منه إخبار بوقعة الزنج في البصرة وأنهم لم يكن لهم غبار ولا أصوات إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فإذن لا رهج لهم ولا حس وفسر الموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف ووصف بالحمرة كناية عن شدته وذلك لأن أشد الموت ما كان بسفك الدم وفسر الجوع الأغبر لأن أشد الجوع ما أغبر معه الوجه منه.

١٠٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في التزهيد في الدنيا

أَيُّهَا النَّاسُ، انْظُرُوا إِلىٰ الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا[١]، الصَّادِقِينَ[٢] عَنْهَا، فَأَنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ[٣] الثَّاوِيَ[٤] السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ[٥] المُتْرَفَ[٦] الآمِنَ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى[٧] مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلاَ يُدْرَى[٨] مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ[٩] بِالحُزْنِ، وَجَلَدُ[١٠] الرِّجَالِ فِيهَا إِلَىٰ الضَّعْفِ وَالوَهْنِ[١١]، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ[١٢] كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا.

رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ[١٣]، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ[١٤]، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ[١٥].

صفة العالم

ومنها: العَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ[١٦]، وَكَفَىٰ بِالمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ[١٧] الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لَعَبْداً وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، جَائِراً[١٨] عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ[١٩]، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ؛ إِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ[٢٠] الدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَىٰ حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ[٢١]! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ؛ وَكَأَنَّ مَا وَنَى[٢٢] فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!.

آخر الزمان

ومنها: وَذٰلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إِلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ[٢٣]، «إِنْ شَهِدَ[٢٤]

لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ(٢٥)، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ،» وَأَعْلَامُ السُّرَىٰ(٢٦)، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ(٢٧)، وَلَا الْمَذَايِيعِ(٢٨) الْبُذُرِ(٢٩)، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ(٣٠) نِقْمَتِهِ(٣١).

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ(٣٢) فِيهِ الإِسْلَامُ، كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ(٣٣) بِمَا فِيهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ(٣٥) عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيكُمْ(٣٦)، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

قال السيد الشريف الرضي: أما قوله عليه السلام: «كل مومِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أراد به الخامل الذكر القليل الشر، والمساييح: جمع مسياح، وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم، والمذاييع، جمع مِذْياع، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوّه بها، والبُذُرُ: جمع بَذُور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه.

اللغة

- ١ ـ زهد فيه : وعنه رغب عنه وتركه.
- ٢ ـ الصادفين : المعرضين عن الشيء.
- ٣ ـ تزيل : تهلك.
- ٤ ـ الثاوي : المقيم.
- ٥ ـ تفجع : من الفجيعة وهي المصيبة.
- ٦ ـ المترف : بفتح الراء المتروك يصنع ما يشاء لا يُمنع.
- ٧ ـ تولى : عنه أدبر عنه وتركه.
- ٨ ـ لا يُدرى : لا يعلم.
- ٩ ـ مشوب : مخلوط.
- ١٠ ـ الجلد : الصلابة والقوة.
- ١١ ـ الوهن : بسكون الهاء وتحريكها الضعف.
- ١٢ ـ لا يغرنكم : لا يخدعنكم.
- ١٣ ـ اعتبر : اتعظ.

١٤ ـ منقض : من انقضى الشيء إذا فني وتصرم.
١٥ ـ دان : قريب.
١٦ ـ القدر : الشأن، مبلغ الشيء، كون الشيء مساوياً لغيره بدون زيادة ولا نقصان.
١٧ ـ البغض : الكراهية ضد الحب.
١٨ ـ الجائر : المائل عن الاستقامة.
١٩ ـ قصد السبيل : الطريق المستقيم ومعنى وعلى الله قصد السبيل أي بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق.
٢٠ ـ الحرث : كل ما يصنع ليثمر فائدة.
٢١ ـ الكسل : الفتر والتثاقل والتواني عما لا ينبغى أن يتوانى عنه.
٢٢ ـ ونى فيه : ضعف وفتر.
٢٣ ـ النومة : كثير النوم/ خامل الذكر.
٢٤ ـ شهد : حضر.
٢٥ ـ لم يفتقد : لم يطلب في غيبته.
٢٦ ـ السّرى : كالهدى السير في الليل.
٢٧ ـ المسابيح : جمع مسياح وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم.
٢٨ ـ المذاييع : جمع مذياع وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها.
٢٩ ـ البُذُر : الذي يذيع الأسرار، أو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه.
٣٠ ـ الضراء : الشدة، نقيض السراء.
٣١ ـ النقمة : العقوبة.
٣٢ ـ يكفأ : الإناء يُقلب على وجهه.
٣٣ ـ الإناء : الوعاء.
٣٤ ـ أعاذكم : الله عصمكم وحفظكم.
٣٥ ـ يجوَر : يظلم، يميل عن الحق.
٣٦ ـ يبتليكم : يمتحنكم ليميز الخبيث من الطيب.

الشرح

(أيها الناس انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها). هذه الخطبة تتضمن التزهيد في الدنيا كما تتضمن وصف أبغض الرجال إلى الله وفي آخرها وصف لأخبار آخر الزمان.

ابتدأ عليه السلام بمناداة الناس أن ينظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها المعرضين عنها وهؤلاء الزاهدون الصادقون قد أعرضوا عن الدنيا واستخدموها لآخرتهم، ملكوها ولم تملكهم، لم يعيشوا لبطونهم وشهواتهم وإنما عاشوا لله وفي سبيله ومن أجل خدمة عباده، هؤلاء القوم هم الذين خلفوا الدنيا وراء ظهورهم ولم يجعلوها بما فيها ثمناً لحياتهم فلذا كانت عندهم حقيرة صغيرة...

(فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن وتفجع المترف الآمن). علل نصيحته بعدم بقائها وأقسم أنها عن قريب تهلك المستقر المقيم الهادىء الذي غفل عنها فظن بقاءه فيها فأخلد إليها فنقلته فجأة بالموت إلى عالم الآخرة...

وهذا المترف الذي طغى وتكبر وتجبر وأمن غدر الدنيا وغفل عن أشراكها هذا ستنزل عليه بمصيبة مؤلمة في نفسه وفيمن أحب...

(لا يرجع ما تولى منها فأدبر ولا يدرى ما هو آت منها فينتظر). وهذه من أوصاف الدنيا أيضاً ما مضى منها قضى ولم يعد له رجوع فالشباب لن يعود إليك بعد أن تصبح شيخاً والقوة لن تعود إليك بعد أن تصبح عاجزاً وأيامك الماضية التي كانت رأس مالك لن تعود إليك...

وأما المستقبل فهو مجهول لا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب فلربما لم يكن يوم غد من أيامك في هذه الدنيا، ولربما كان ولكنه جاء محملاً بالآلام والمصائب والأحزان والأحداث الجسام، إنك لا تدري ماذا تحمل الأيام لتعدَّ لها عدتها...

(سرورها مشوب بالحزن وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن). وهذه من صفات الدنيا إنها لا تصفو لأحد، إن سرتك من جانب ساءتك من عدة جوانب...

وقوة الرجال وبأسهم وشدتهم إلى ضعف وانحلال، كانت لك قوة أيام شبابك تستطيع أن تقطع المسافات الطويلة مشياً وكان لك قوة تستطيع أن تصارع الأبطال ولكن قد عجزت أو سوف تعجز عن نقل رجلك من مكانها ولن تستطيع أن تقاوم طفلاً صغيراً بعد حين...

(فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها). لا يأخذكم الغرور بكثرة ما يعجبكم من الدنيا، يعجبكم المال والبنين والنساء والدور والقصور ولكن هذه كلها يجب أن لا تخدعكم عن طاعة الله فتركنوا إليها وتفرحوا بها...

وعلل ذلك بقلة ما نأخذه معنا منها إذ لا نأخذ إلا الكفن ثلاث خرق نأبى أن نلبسها

في الدنيا ومن كان نصيبه من دنياه هذا حق له أن لا يغترّ بها وبزينتها وما فيها. . .

(رحم الله امرأ تفكر فاعتبر، واعتبر فابصر). دعا بالرحمة لمن تفكر لأن الإنسان إذا فكّر في حاله وحال الدنيا وما هو فيه وما هو صائر إليه اتعظ وأخذ العبرة وإذا اتعظ انكشف له وجه الحق والصواب فادرك الحقيقة عارية كما هي فعمل لها وأوصى بها وكم في التاريخ من أشخاص تداركتهم رحمة الله فحوّلتهم من أشرار فساق فجار إلى أخيار عدول أتقياء، قد تكون كلمة واحدة تنطلق من قلب صادق فتلتقي بساعة من ساعات الصفاء والطهر والتوجه فتغير مسار هذا الشخص وبرنامج حياته وقصة بشر الحافي مع الإمام الكاظم أصدق شاهد فقد كان بشر منحرفاً مستهتراً فاسقاً وبكلمة واحدة تحوّل ليكون من الأبدال والأوتاد في الأرض. . .

(فكأن ما هو كائن من الدنيا عن قليل لم يكن وكأن ما هو كائن من الآخرة عما قليل لم يزل). موجود الدنيا لزواله كأنه لم يكن ومعدوم الآخرة لوجوده ودوامه لا يفنى، كناية عن شدة زوال الدنيا وانقضائها وأن الموجود منها لا يبقى وكنى عن دوام الآخرة ونعيمها بعدم الفناء لها، فنعيم الدنيا يفنى وكأنه لم يكن وأجر الآخرة يبقى وإن لم يأت بعد. . .

(وكل معدود منقض وكل متوقع آت وكل آت قريب دان). كل معدود محدود والمحدود ينتهي فينقضي أشار إلى الأعمار وأنها معدودة بالأيام والساعات وهي تتصرم شيئاً فشيئاً وتهدم في كل لحظة حتى ينتهي عمر هذا الإنسان وما تتوقعه من خير أو شر في الآخرة لا بد وأن يأتي وكل آت قريب وإن طالت مدته لأن كل يوم يمضي يقترب هو منك وتدنو أنت منه. . .

(العالم من عرف قدره وكفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره). الذي يصح أن يطلق عليه أنه عالم وينحصر العلم فيه هو ذلك الذي يعرف قدره أي موقعه من تكوين هذا الوجود ودوره فيه ومن هذه المعرفة تتفرع عنها سائر المعارف الصغيرة من نسبته إلى غيره من الموجودات وما المراد منه بالنسبة إلى الحياة.

ويكفي الإنسان جهلاً أن لا يعرف قدره لأن من يجهل موقعه وقدره من الله وهذا الكون فهو الجهل الذي يتفرع عنه غيره من الجهل.

(وإن من أبغض الرجال إلى الله تعالى لعبداً وكلّه الله إلى نفسه جائراً عن قصد السبيل سائراً بغير دليل). هذا هو الرجل الذي سقط من عين الله فتركه الله وشأنه. . .

إنه من أبغض الرجال وأكرههم عند الله، إنه الرجل الذي تخلى الله عنه وسلب عنه ألطافه وعنايته وفي الدعاء: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك».

ومن وكله الله إلى نفسه أو استبد هو برأيه متخلياً عن الله فهذا يشبه السيارة التي انتهى منها الوقود وتعطلت فيها الأجهزة تفقد الحركة وتصبح عالة على نفسها وعلى من وراءها والإنسان إذا قطع الله عنايته به وتخلى عنه خبط خبْط عشواء لا يهتدي الطريق ولا يصل إلى مطلوب. . .

إنه لضلاله يتخلى عن الطريق المستقيم لا يعرف الاستقامة ولا الطريق إليها فهو مائل منحرف عن ذلك يمشي بغير دليل لم يتخذ الأنبياء والأوصياء هداة وقادة يمشي على أثرهم بل يستبد برأيه فلا يهتدي ولا يرشد. . .

(إن دعي إلى حرث الدنيا عمل وإن دعي إلى حرث الآخرة كسل كأن ما عمل له واجب عليه وكأن ما ونى فيه ساقط عنه). وهذه من جملة صفات من وكله الله إلى نفسه إنه إذا دعي إلى عمل من أعمال الدنيا يستفيد منه وينتفع هبّ إليه مسرعاً نشطاً لا يؤخره عنه شيء وإن دعي إلى عمل الآخرة من إصلاح بين الناس وعمل بر ودعوة إلى الله كف وامتنع وتباطأ وتكاسل، ولسوء فعله كأن ما نشط من أجله واجب عليه وما كسل فيه ساقط عنه غير واجب عليه، إنه لسوء فعله عكس القضايا وغيّر المطلوب.

(وذلك زمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نومة إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد أولئك مصابيح الهدى وأعلام السرى). يتحدث في هذا الفصل عن زمان يأتي يقل فيه الدين فتتعطل أحكامه ويتنكر له أهله وأتباعه ويذكر الناجي فيه ويحدده بأنه المؤمن النومة أي خامل الذكر الذي فسره: إن شهد في المناسبات ومع الناس لم يعرف لأن الأعلام ووسائله من إذاعات وتلفزة ومجلات وجرائد لا تتناوله ولا تعرفه ولا تعرف موقعه فلا يعرفه أحد إنه مجهول في اللقاءات والتجمعات. . .

وكذلك من صفات هذا المؤمن أنه إذا غاب عن هذه اللقاءات لا يُفتقد ولا يبحث عنه أو يسأل أين هو لأنه لا يتمتع بموقع مميّز بين أبناء الدنيا.

ثم إنه عليه السلام قال: إن هؤلاء هم مصابيح الهدى هؤلاء ينيرون الدرب أمام السالكين إلى الله الطالبين مرضاته، هؤلاء الذين يعلّمون الناس أحكام دينهم ويأخذون بأيديهم إلى الله وإلى رضاه وما يحب ويرغب، هؤلاء هم الذين يرفعون الجهل والغشاوة عن أعين الناس ويكشفون بأنوارهم الطريق المظلم ويوضحونه للناس إنهم دعاة هداة.

(ليسوا بالمسابيح ولا المذابيع البذر أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضراء نقمته). وهذه أيضاً من صفات أولئك الذين كتب لهم النجاة إنهم لا يسيحون بين الناس بالفساد والنمائم ولا ينشرون بينهم الفواحش والموبقات ولا يعملون لإفساد المجتمع وإضلاله وزرع الفتن فيه كما يعمله المفسدون والمضلون الذين يجهزون كل وسائل الإعلام وأجهزتها من أجل أن يضلوا الناس ويفسدوا أخلاقهم ويحولوهم عن عقيدتهم. . .

ثم رتب عليه السلام على هذه الأوصاف نتيجة كريمة، وهي أن الله يفتح لهم أبواب رحمته من حيث تيسير أمورهم وتوفيقهم في الدنيا ومن حيث يدخلهم الجنة عرفها لهم في الآخرة.

وكذلك يكشف عنهم ضراء نقمته فلا يصيبهم مكروه في الدنيا كما لا يصيبهم أذية من عقاب الله في الآخرة. . .

(أيها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه). أخبر عليه السلام بما يحمله الزمان بعده وأن الإسلام ستتعطل أحكامه ويتوقف دوره ولا يعود يعمل به حتى من أهله بل تقلب مفاهيمه وأحكامه وتسخر من أجل أهداف الحكام وتمرير مخططاتهم الجهنمية وقد هزّنا التلاعب بهذا الدين وأحكامه وراح علماء السوء يبررون فعل الظالمين ويباركون مسيرة الخائنين وقد برز ذلك فيما حدث في معاهدة الصلح المصرية الإسرائيلية حيث راح علماء البلاط يصححون السلام المذل ويباركون جهود الخونة ويضفون على خطواتهم شرعية إسلامية والإسلام منها بريء، وكذلك حدث ما يهز المسلم من أعماقه أثناء حرب الخليج التي حشدت فيها أمريكا وحلفاؤها جيوشهم في مواجهة الخائن الصغير صدام التكريتي فقد دارت المهاترات بين العلماء وعلى شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد فهذا يقف إلى جانب الإستعمار الأمريكي في حربه لتحرير الكويت المزعوم وذاك يقف إلى جانب العميل الإستعماري صدام وكلهم في خدمة الحكام وليس في مصلحة الإسلام وبيان أحكامه أو الإلتزام بما فيه وما أمر.

(أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم وقد قال جل من قائل: إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين). أشار عليه السلام إلى أن الله عصمنا من ظلمه لنا فقال سبحانه: **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾** فليس في ساحة الجلالة الإلهية ظلم. . .

نعم إنه سبحانه لم يعصمنا من الابتلاء بل كان الابتلاء من أجل اختبارنا حتى يميز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي والناجح من الفاشل وتنقطع حجة من يقول لماذا عاقبني ولم يعاقب فلان كما يرتفع سؤال لو كلفني لأطعت فقد كلفك فأمرك ونهاك فعصيت وتمردت فاستحققت العذاب. . .

وقد استشهد على عدم عصمته لنا من الابتلاء بقوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين**﴾. فإنه سبحانه لا يلجىء عباده إلى الصلاح لكن يتركهم واختيارهم امتحاناً لهم فمن أطاع دخل الجنة ومن تمرد وعصى دخل النار.

١٠٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلاَ وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَىٰ مَنْجَاتِهِمْ(١)، وَيُبَادِرُ(٢) بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ(٣)، يَحْسِرُ(٤) الحَسِيرُ(٥)، وَيَقِفُ الكَسِيرُ(٦)، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلاَّ هَالِكاً لاَ خَيْرَ فِيهِ، حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ وَبَوَّأَهُمْ(٧) مَحَلَّتَهُمْ(٨)، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ(٩)، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ(١٠). وَايْمُ اللهِ، لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا(١١) حَتَّىٰ تَوَلَّتْ(١٢) بِحَذَافِيرِهَا(١٣)، وَاسْتَوْسَقَتْ(١٤) فِي قِيَادِهَا(١٥)؛ مَا ضَعُفْتُ، وَلاَ جَبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ، وَلاَ وَهَنْتُ، وَايْمُ اللهِ، لأَبْقُرَنَّ(١٦) البَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ الحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ(١٧).

قال السيد الشريف الرضي: وقد تقدم مختار هذه الخطبة، إلا أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانية.

اللغة

١ ـ المنجاة : النجاة، الباعث على النجاة.

٢ ـ يبادر : يسرع.

٣ ـ نزل به : حل به، نزل به الموت إذا حل به.

٤ ـ يحسر : يكشف وحسرت عن وجهها إذا كشفته.

٥ ـ الحسير : الذي أصابه الإعياء في طريقه، الكليل الضعيف.

٦ ـ الكسير : المكسور.
٧ ـ بوأهم : أسكنهم.
٨ ـ محلتهم : منزل الحلول.
٩ ـ استدارت رحاها : كناية عن وفرة أرزاقهم.
١٠ ـ القناة : الرمح ومعنى استقامت قناتهم أي انتظم أمرهم.
١١ ـ ساقتها : الساقة جمع سائق.
١٢ ـ تولت : أدبرت، ومضت.
١٣ ـ بحذافيرها : بأجمعها.
١٤ ـ استوسقت : اجتمعت وانتظمت.
١٥ ـ القياد : الزمام.
١٦ ـ بقر : شق.
١٧ ـ الخاصرة : جمعها خواصر من الإنسان جنبه فوق رأس الورك.

الشرح

(أما بعد فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة ولا وحياً). في هذه الخطبة بيان حال العرب قبل الإسلام ومنها أيضاً ذكر النبي وجهاده ومعاناته وفي ختامه يذكر موقعه من الدعوة حينما قام النبي وإكماله المسيرة بعده حتى يومه ذاك. . .

ابتدأ بذكر بعثة رسول الله وأن الله بعثه في أمة أمية لا تقرأ كتاباً وليس منها أحد يدعي أنه نبي أرسله الله أو أنزل الله عليه وحياً فيما أراد ليبلغه للناس قال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**.

(فقاتل بمن أطاعه من عصاه يسوقهم إلى منجاتهم ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم). فعندما بعث الله نبيه شرح الله صدور قوم فهداهم للإيمان فآمنوا وأطاعوا والتزموا أمره فنظمهم ورتب صفوفهم وقاتل بهم من عصاه ولم يؤمن به، قاتلهم من أجل أنفسهم يريد هدايتهم وإنقاذهم من براثن الكفر وظلمات الجاهلية. . . إنه يسوقهم إلى ما فيه نجاتهم من النار ويسرع بهم لإخراجهم من الضلال والعمى والكفر قبل أن تقوم القيامة فتسبقه وتفوته هدايتهم فيموتوا على الكفر والضلال. . .

(يحسر الحسير ويقف الكسير فيقيم عليه حتى يلحقه غايته إلا هالكاً لا خير فيه).
يصف إشفاق النبي على الناس وكيف كانت مداراته لهم وقيامه عليهم وإحسانه إليهم وهذا الكلام من باب المجاز يقول عليه السلام كان النبي لحرصه عليهم ورأفته بهم يلاحظ من تزلزل اعتقاده أو عرضت له شبهة فكان لا يزال يوضح له ويرشده حتى يزيل ما به من العلل ويلحقه بالمؤمنين الصادقين ولم يكن يقصّر في حق أحد من الناس إلا من لا خير فيه قد ارتكب العناد وكفر برب العباد وأصر على ركوب رأسه معاندة وشقاقاً...

فقد شبه الناس معه بإبل في سفر قد أعيا بعضها وكلّ وقد وقف النبي عليها يعالجها ويصلح أمرها حتى يلحقها بالقافلة فلم يهملها ويضيّعها إلا ما كان منها هالكاً لا يمكن علاجه ولا شفاؤه كأبي لهب وأضرابه.

(حتى أراهم منجاتهم وبوأهم محلتهم فاستدارت رحاهم واستقامت قناتهم).
وهؤلاء الذين تابعوا النبي والتزموا أمره رأوا ما ينجيهم من حيث آمنوا واعتقدوا بالله ورسوله وقد وصلوا إلى مكانهم الذي أعد لهم من كونهم قادة الأمم وروّاد الحضارة وبأيديهم زمام الأمور، فاجتمعوا موحدين قد نجحوا فيما سعوا إليه وكانوا القوة التي تغيّر المعادلات وتحطّم الموازين.

وبعبارة موجزة أراهم النبي الإسلام الذي فيه نجاتهم وأجلسهم في مكانهم اللائق بهم روّاد العالم وقادته فقويت شوكتهم وانتصروا في أمورهم...

(وايم الله لقد كنت من ساقتها حتى تولت بحذافيرها واستوسقت في قيادها ما ضعفت ولا جبنت ولا خنت ولا وهنت). أقسم عليه السلام أنه كان ممن ساق الجاهلية إلى حتفها وحتى تولت وغابت عن الوجود بأجمعها عقيدة وعادة وقد اجتمعت في ذل الانقياد التي لا تخرج منها قد كُبّلت وجمعت فلا فكاك لها من هذا الوثاق...

ثم أشار إلى عزيمته وقوته فقال: إنه ما ضعف عن قتالها ولا جبن في موقف من مواقفها ولا خان المسلمين في موقعة ولا توانى عن قتال لحظة.

ومن قلّب نظره في تاريخ الإسلام وحروبه أدرك صدق هذا القول ووقف على الحقيقة.

(وايم الله لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته). أقسم عليه السلام بالله أنه سوف يشق الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته التي خبأه فيها كناية عن أنه سيقاتل أهل الباطل حتى يهتدوا إلى ما هو عليه من الحق وبذلك يموت الباطل ويتخلص الحق مما يشوبه من هذا الباطل...

١٠٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في بعض صفات الرسول الكريم وتهديد بني أمية وعظة الناس

الرسول الكريم

حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، شَهِيداً، وَبَشِيراً، وَنَذِيراً، خَيْرَ البَرِيَّةِ(١) طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا(٢) كَهْلاً(٣)، وَأَطْهَرَ المُطَهَّرِينَ شِيمَةً(٤)، وَأَجْوَدَ المُسْتَمْطِرِينَ(٥) دِيمَةً(٦).

بنو أمية

فَمَا احْلَوْلَتْ(٧) لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا(٨) إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً(٩) خِطَامُهَا(١٠)، قَلِقاً(١١) وَضِينُهَا(١٢)، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ(١٣) المَخْضُودِ(١٤)، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا، وَاللهِ، ظِلاًّ مَمْدُوداً(١٥) إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ. فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ(١٦)، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ(١٧)، وَأَيْدِي القَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ(١٨)، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ(١٩)، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ(٢٠) أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً(٢١)، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً. وَإِنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ(٢٢) مَنْ طَلَبَ، وَلاَ يَفُوتُهُ(٢٣) مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللهِ، يَا بَنِي أُمَيَّةَ، عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ! أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ(٢٤) فِي الخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَىٰ(٢٦) التَّذْكِيرَ(٢٧) وَقَبِلَهُ!

وعظ الناس

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ(٢٨) مِصْبَاحِ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَامْتَاحُوا(٢٩) مِنْ صَفْوِ(٣٠) عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ(٣١) مِنَ الكَدَرِ(٣٢).

عِبَادَ اللهِ، لاَ تَرْكَنُوا(٣٣) إِلَىٰ جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا(٣٤) لأَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهٰذَا المَنْزِلَ نَازِلٌ بِشَفَا(٣٥) جُرُفٍ(٣٦) هَارٍ(٣٧)، يَنْقُلُ الرَّدَىٰ(٣٨) عَلَىٰ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَىٰ مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ؛ يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ(٣٩) مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ اللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَىٰ مَنْ لاَ يُشْكِي(٤٠) شَجْوَكُمْ(٤١)، وَلاَ يَنْقُضُ(٤٢) بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ(٤٣) لَكُمْ. إِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإِمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: الإِبْلاَغُ فِي المَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَالإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ الحُدُودِ(٤٤) عَلَىٰ مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ(٤٥) السُّهْمَانِ(٤٦) عَلَىٰ أَهْلِهَا. فَبَادِرُوا(٤٧) العِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ(٤٨) نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ(٤٩) العِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!.

اللغة

١ ـ **البرية** : جمعها برايا الخلق.

٢ ـ **أنجبها** : أكرمها.

٣ ـ **الكهل** : بفتح الكاف من جاوز الثلاثين وقيل من بلغ الأربعين وقيل غير ذلك.

٤ ـ **الشيمة** : الخُلق.

٥ ـ **المستمطر** : طالب المطر والمراد هنا طالب العون.

٦ ـ **الديمة** : المطر الدائم بهدوء.

٧ ـ **أحلولت** : صارت حلوة واحلولى الشيء صار حلواً.

٨ ـ **الأخلاف** : جمع خلف بالكسر وهو حلمة ضرع الناقة أو نفس الضرع لكل ذات ظلف وخف.

٩ ـ الجائل : المتحرك، وجال في مكانه إذا طاف ودار.
١٠ ـ الخطام : بالكسر ما يقاد به البعير.
١١ ـ القلق : المضطرب المتحرك الذي لا يستقر في مكانه.
١٢ ـ الوضين : بطان منسوج بعضه ببعض يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج.
١٣ ـ السدر : شجر النبق.
١٤ ـ المخضود : الذي خضد شوكه أي قطع.
١٥ ـ الظل الممدود : الفيء الواسع الطويل.
١٦ ـ شاغرة : خالية، شغر المكان أي خلا.
١٧ ـ المبسوطة : الممدودة، ويده مبسوطة أي كريم.
١٨ ـ مكفوفة : مقبوضة، ممنوعة.
١٩ ـ سلط : السيف أعمله من السلط هو الطويل اللسان، الشديد...
٢٠ ـ مقبوضة : خلاف المبسوطة، جمعه وزواه ومنعه.
٢١ ـ الثائر : طالب الثأر.
٢٢ ـ لا يعجزه : لا يصعب عليه وعجز عن كذا إذا لم يقتدر عليه.
٢٣ ـ فاته : الأمر إذا ذهب منه ومضى وقت فعله.
٢٤ ـ نفذ : الشيْء خرقه ونفذ السهم إذا دخل وخرج طرفه من الشيء.
٢٥ ـ الطرف : العين.
٢٦ ـ وعى : الشيء حفظه وفهمه.
٢٧ ـ التذكير : الوعظ.
٢٨ ـ الشعلة : لهب النار، ما اشعلت النار به.
٢٩ ـ امتاحوا : من الماتح وهو الجاذب للدلو من البئر وامتاحوا معناها استقوا.
٣٠ ـ الصفو : خلاف الكدر، النقي.
٣١ ـ روقت : صُفيَت.
٣٢ ـ الكدر : خلاف الصفاء.
٣٣ ـ ركن : إليه مال إليه وسكن ووثق.
٣٤ ـ انقادوا : أذعنوا وخضعوا وذلوا.
٣٥ ـ الشفا : للشيء حرفه.
٣٦ ـ الجرف : بضمتين ما تجرفه السيول.
٣٧ ـ الهاري : أصله هائر وهو المنهدم.
٣٨ ـ الردى : الهلاك.
٣٩ ـ يلصق : يلزق ألصق الشيء بالشيء ألزقه به.

٤٠ ـ يُشكي : من أشكاه إذا أزال شكواه.
٤١ ـ الشجو : الهم والحزن.
٤٢ ـ ينقض : يحلّ.
٤٣ ـ أبرم : الأمر أحكمه.
٤٤ ـ الحدود : جمع حد وهو الحاجز بين شيئين وشرعاً عقوبة وضعها الشارع لبعض المحرمات.
٤٥ ـ أصدر : من صدر عن المكان إذا رجع عنه وإلى المكان صار إليه وصدر السلعة ورّدها إلى الخارج.
٤٦ ـ السهمان : بضم السين جمع سهم بمعنى الحظ والنصيب.
٤٧ ـ بادروا : أسرعوا.
٤٨ ـ التصويح : للنبت هو اليباس.
٤٩ ـ مستثار : اسم مفعول من الاستثارة طلب الثور وهو السطوع والظهور.

الشرح

(حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً). في هذه الخطبة الشريفة ثلاثة أمور: .

الأول: ذكر محامد رسول الله وصفاته الكريمة.

الثاني: ذم بني أمية وذكر بعض أفعالهم.

الثالث: حال بني أمية مع أهل البيت عليهم السلام.

كأنه عليه السلام قد ذكر أموراً سابقة من سوء حال الناس فوصل بعدها إلى ذكر رسول الله فقال: إن حالهم بقي كذلك حتى بعث الله محمداً شهيداً وبشيراً ونذيراً وهذا مستقى من كتاب الله الذي وصف رسوله محمداً بهذه الأوصاف.

فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي[1] إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾.

فهو شاهد على أمته بأنه قد بلغها دستور سعادتها الذي أرسله به الله وهو مبشر لها بما أعده الله لها من الثواب والأجر والنعيم وهو منذر لها أي مخوفها بما أعدّه الله للعصاة

---

(١) سورة الأحزاب آية/ ٤٥.

والمتمردين من العذاب الأليم والجحيم. . .

(**خير البرية طفلاً وأنجبها كهلاً**). كان رسول الله خير الخلق في طفولته لاجتماع الصفات الطيبة فيه فقد كانت كل أعماله صالحة وأخلاقه مرضية يسير بالحق ويعمل بالصدق ويكره الباطل، ولخصاله وطيب عنصره كان محط عناية أهله. . .

وأما نجابته في كهولته فقد ظهرت في مواقفه قبل النبوة في صدق الحديث وأداء الأمانة وحمل الكلّ وإقراء الضيف وحل المعضلات حتى غلب عليه اسم الأمين وهل تجتمع هذه الخلال في رجل إلا وبلغ سدرة المنتهى في النجابة. . .

(**وأطهر المطهرين شيمة وأمطر المستمطرين ديمة**). طينته أطهر الطهر جبلت على عين الله وبيده فجاء رسولاً نبياً معلماً للأخلاق والآداب فهو صاحب الأخلاق الكريمة خاطبه ربه بقوله: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ وقال هو عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وأما جوده وعطاياه للطالبين فهو الذي علم الناس الكرم فيده كالسحاب وعطاياه لا يقف عندها عدّ ولا حساب، كان ينفق ولا يخاف الفقر، وكانت بيده أموال الجزيرة العربية كلها ومغانم الحروب من العدو فكان يوزعها على المحتاجين والمجاهدين ولا يتناول منها شيئاً. . .

(**فما احلولت لكم الدنيا في لذتها ولا تمكنتم من رضاع أخلافها إلا من بعد ما صادفتموها جائلاً خطامها قلقاً وضينها**). وجّه خطابه إلى الصحابة والمسلمين وقيل إلى بني أمية بقرينة السياق قائلاً: إن الدنيا لم تقبل عليكم وتعطيكم خيراتها ولا استطعتم أن تذوقوا حلاوتها ونعيمها في زمن رسول الله كرامة له واعزازاً لجانبه وإنما كان كل ذلك عندما فتحت أبوابها لكم وأنزلت خيراتها في ساحتكم ولكنها لم تكن على موازين القسط والعدل فكان فيها الخلل والزلل والاضطراب بحيث أضلت قوماً وأعمت آخرين وذلك نتيجة من تولى الأمر بعده من حيث إنهم لم يراعوا الأمور على أصولها ولم يحكموا بالعدل والحق فكان هذا الإنحراف والزيغ. . .

وقال بعضهم ما مضمونه: إن النبي هو الذي طوع الدنيا لكم وجعلها تحت أقدامكم وبعده لم تجد من يحل محله ليضبطها ويسدد رعيتها فكان مثله مثل راكب الناقة التي لا يملك زمامها ليضبطها ومع ذلك لا يثبت رحلها من تحته فهو مهدد بالسقوط في كل وقت. . .

(قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود وحلالها بعيداً غير موجود). وهذا بيان لحال نفسية بعض الناس وسلوكهم وأن الدنيا عندهم أصبحت سهلة لا صعوبة فيها باعتبار أنهم أسقطوا من حسابهم قانون الحرام والممنوع فأضحت كل الطرق لهم سالكة وآمنة ولم يعد لهم من طرق الحلال باباً يطرقونه أو يدخلون منه لأن الأبواب المشروعة للحلال قد انسدت ولا مجال لكسب العيش إلا من الحرام. . .

(وصادفتموها والله ظلاً ممدوداً إلى أجل معدود). قد أتتكم الدنيا بخيراتها وعطاياها فاحذروا هذا العطاء فإنما هو إلى وقت محدود ينقضي عنده وينتهي إليه فلا تبطركم النعمة فتنسوا الله، وهذا تحذير لهم أن لا يغتروا بالدنيا ونعيمها لأنها إلى انتهاء. . .

(فالأرض لكم شاغرة وأيديكم فيها مبسوطة وأيدي القادة عنكم مكفوفة وسيوفكم عليهم مسلطة وسيوفهم عنكم مقبوضة). الأرض كلها لكم وليس من ينازعكم عليها وأيديكم عليها تتصرفون فيها كيف تشاؤون وأيدي مستحقي الرئاسة مكفوفة عنكم لعدم قدرتهم عليكم لعدم الناصر والمعين وسيوفكم عليهم مسلطة تقتلون من شئتم بينما سيوفهم عنكم ممنوعة لا تطالكم ولا تنالكم.

وقال ابن أبي الحديد في شرحه: وكأنه كان يرمز إلى ما سيقع من قتل الحسين عليه السلام وأهله وكأنه يشاهد ذلك عياناً ويخطب عليه ويتكلم على الخاطر الذي سنح له والأمر الذي كان أخبر به.

(إلا وإن لكل دم ثائراً ولكل حق طالباً وأن الثائر في دمائنا كالحاكم في حق نفسه وهو الله الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب). كل دم طاهر زكي سفك بغير حق كان له طالب يأخذ بثأر صاحبه وكل حق لإنسان أخذ منه بغير حق كان وراءه طالب يطالب به ومن طلب حقه أخذه.

وقدم هذه المقدمة ليتوصل منها إلى إثبات حقهم وأن دماءهم سوف يثأر لها والذي يتولى ذلك هو الحاكم وهو الخصم وسوف يحكم لنا وهو الله الذي لا يعجزه مطلوب ولا يفلت منه هارب فالحاكم الآخذ بحقنا هو الخصيم لكم وهو الله وهذا تحذير منه لبني أمية من عذاب الله وعقابه وما ينالهم من جراء فعلتهم الشنيعة. . .

(فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم). بعد أن هددهم بانتقام الله منهم أقسم بالله أن دولة بني أمية ستزول عن قريب وستتحول عنهم إلى أعدائهم من بني العباس وستصبح ملكاً في أيديهم وقد كان هذا الإخبار من جملة

أخباراته بالغيب وهي واحدة من مفرداته التي جاءت كفلق الصبح. . .

وإن أي حاكم يتعامل مع رعيته بالظلم والقهر لا بد وأن يزول ملكه لأن الأمة تصبر قليلاً حتى إذا قهرت ولم يعد بالإمكان أن تتحمل الأذى ثارت وحطمت الحكم والحاكمين وأزالت أربابه من الوجود.

وإن الدولة الأموية التي ابتدأت بأول ملوكها معاوية سنة أربعين للهجرة لم تستمر إلا إلى سنة ١٣٢ فسقطت بأيدي بني العباس وكان آخر ملوك الأمويين مروان بن محمد الملقب بالحمار وكان أول ملوك العباسيين السفاح والمعروف أن اسمه أحمد. . .

(ألا إنّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه، ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير وقبله). وهذه نصيحة الإمام يوجهها إلى الناس بما فيهم أعداءه، يقول: إن أحسن الأبصار من أبصر الخير وعمل به وأفضل الأسماع من سمع الخير وفهمه وقبل الموعظة.

(أيها الناس، استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ وامتاحوا من صفو عين قد روقت من الكدر). أراد أن يدلهم على الدليل المستقيم وأن يأخذ بأيديهم إلى ما فيه نجاتهم فشبه نفسه بالمصباح وأمرهم أن يشعلوا أسرجتهم منه باعتبار أنه باب الهداية ومفتاحها وهو بعد ذلك واعظ لغيره متعظ في نفسه ومن كانت هذه مواصفاته وجب على الخلق أن يهتدوا بنوره وأن يقبلوا قوله وأن يسيروا خلفه.

كما أمرهم أن يأخذوا علومهم ويشربوا من عينه الصافية التي لم تعكرها الطرق المختلفة والوسائط المتعددة لأنه أخذ علمه مباشرة من النبي.

(عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم ولا تنقادوا لأهوائكم). بعد أن بيّن لهم طريق الهدى وأرشدهم إلى مصدر العلوم الصافية نهاهم أن يعتمدوا على ما توصلت إليه أفكارهم القاصرة التي لن توصلهم إلى الحق والهدى وإنما إلى الجهالة والردى. . .

كما نهاهم أن يسيروا خلف أهوائهم وما تميل إليه نفوسهم فإن من ركب هذا المركب ضل وهلك. . .

(فإن النازل بهذا المنزل نازل بشفا جرف هار ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع لرأي يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق ويقرب ما لا يتقارب). أشار إلى أن من يعتمد على هواه ويركن إلى جهله فكأنه ينزل في منزل مشرف على السقوط والخراب باعتبار عدم صحته وسلامته ومثله أيضاً كمن ينقل هلاكه على ظهره من موضع إلى موضع فإنه يحدث الرأي ويختلقه بدون سند شرعي صحيح ولكنه يقيم عليه صورة

الحجة والبرهان، إنه لجهالته يعتمد على الشبهات ويتصور أنها حقائق. . .

(فالله الله أن تشكوا إلى من لا يشكي شجوكم ولا ينقض برأيه ما قد أبرم لكم). حذرهم الله أن لا يشكوا لمن لا يرفع عنهم حزنهم ولا يبدّد همهم لعدم علمه بمجاري الأمور كما حذرهم من ذلك الشخص أن ينقض بنظره القصير ورأيه الفطير ما استحكم أمره فيهم من أوامر الشرع ونواهيه.

(إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه: الإبلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار السهمان على أهلها). حصر ما وجب على الإمام وولي الأمر بهذه الأمور الخمسة التي ترجع إلى معاش الإنسان ومعاده وهي:

الأول: الإبلاغ في الموعظة: التي هي عبارة عن الاجتهاد في تقريب الناس من الله وقد قام النبي والإمام من بعده بأبلغ المواعظ ولم يتركوا شيئاً يقرب الناس من الله إلا وذكروه وبينوه وحملوا الناس عليه ولم يبق شيء يبعد عن الله إلا وبينوه وذكروه وحملوا الناس على تركه. . .

الثاني: الإجتهاد في النصيحة: التي تعني إرشاد الناس إلى أعدل الطرق وأقومها وأن لا يخفى عنهم ما يصلحهم وينفعهم ويسدد خطاهم نحو الأفضل.

الثالث: الإحياء للسنة: وتعني إقامة ما جاء به النبي بحيث لا يخالفها ولا يهملها ولا يسوّف في تنفيذها.

الرابع: إقامة الحدود على مستحقيها: فمن زنا جلده أو رجمه ومن سرق وتمت شروط السرقة أقام عليه الحد بقطع يده ومن قتل نفساً معصومة ـ لا يجوز سفك دمها ـ قتل بها وهكذا دواليك فلو لم يكن هناك حاكم يقيم الحدود لدبّت الفوضىٰ وانتشر الفساد ولم يعد يأمن الناس على دمائهم وأموالهم. . .

الخامس: وإصدار السهمان: أي توزيع بيت مال المسلمين على أهله وقد كان الإمام يوزع الأموال ويكنس مكانها ويغسله ويصلي فيه ركعات شكراً لله. . .

(فبادروا العلم من قبل تصويح نبته ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم من عند أهله). بعد أن تقدم منه نهيهم عن الركون إلى الجهل حثهم على طلب العلم وطلب منهم السرعة في تحصيله وذلك لأمرين:

الأول: قبل استشهاده وخروجه من بين أظهرهم وقد كنى عن ذلك بالنبت الذي

تبطل فائدته إذا يبس وتجف خضرته عندما يتعرض لليباس.

والثاني: إنه قال لهم: سارعوا في طلب العلم واستخرجوه من معادنه ومصادره ومقصوده نفسه الشريفة قبل أن تشتغلوا بفتنة بني أمية ومتاعبها وما يلحقكم منها فإنها لا تدع لكم وقتاً تتوجهون فيه نحو العلم والمعرفة...

(وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي). أمرهم أن ينهوا عن المنكر أي يزجروا أصحاب المنكرات بحسب مراتب النهي: من الإعراض عنهم أو الكلام معهم على اختلاف درجاته وقد يتوصل الأمر إلى الضرب فالجرح وقد بيّن لهم أفضل أنواع النهي عن المنكر وأرفع درجاته ألا وهو كون الناهي عن المنكر مما تناهى عنه وتركه ليكون قوله مؤثراً في غيره ويكون هو قدوة لمن سواه في حديثه وفعله ومن المعروف أن من نهى عن أمر وارتكبه لا يكون لنهيه أثر ملحوظ وإن وجب عليه النهي...

١٠٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يبين فضل الاسلام ويذكر الرسول الكريم ثم يلوم أصحابه

دين الاسلام

الحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ[١] الإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ[٢]، وَأَعَزَّ[٣] أَرْكَانَهُ[٤] عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً[٥] لِمَنْ عَلِقَهُ[٦]، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً[٧] لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ[٨] عَنْهُ، ونُوراً لِمَنْ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً[٩] لِمَنْ تَدَبَّرَ[١٠] وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ[١١]، وَتَبصِرَةً[١٢] لِمَنْ عَزَمَ[١٣]، وَعِبْرَةً لِمَنْ اتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّل، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً[١٤] لِمَنْ صَبَرَ. فَهُوَ أَبْلَجُ[١٥] الْمَنَاهِجِ[١٦] وَأَوْضَحُ الوَلاَئِجِ[١٧]، مُشْرَفُ[١٨] الْمَنَارِ[١٩]، مُشْرِقُ الجَوَادِّ[٢٠]، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ المِضْمَارِ[٢١]، رَفِيعُ الْغَايَةِ[٢٢]، جَامِعُ الحَلْبَةِ[٢٣]، مُتَنَافِسُ[٢٤] السُّبْقَةِ[٢٥]، شَرِيفُ الفُرْسَانِ. التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، والْمَوْتُ غايَتُهُ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، والْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، والْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

حَتَّى أَوْرَى[٢٦] قَبَساً لِقَابِس[٢٧]، وَأَنَارَ عَلَماً[٢٨] لِحَابِس[٢٩]، فَهُوَ أَمِينُكَ المَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ[٣٠] نِعْمَةً، وَرَسُولُكَ بِالحَقِّ رَحْمَةً. اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً[٣١] مِنْ عَدْلِكَ، واجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ! وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ[٣٢]، وَشَرِّفْ

عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ(٣٣)، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ(٣٤) والفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ(٣٥) غَيْرَ خَزَايا(٣٦)، وَلاَ نَادِمِينَ(٣٧)، وَلاَ نَاكِبِينَ(٣٨)، وَلاَ نَاكِثِينَ(٣٩)، وَلاَ ضَالِّينَ، وَلاَ مُضَلِّينَ، وَلاَ مَفْتُونِينَ.

قال الشريف الرضي: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم، إلا أننا كررناه ها هنا لما في الروايتين من الاختلاف.

ومنها في خطاب أصحابه

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إمَاؤُكُمْ(٤٠)، وَتُوصَلُ(٤١) بِهَا جِيرَانُكُمْ، وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ(٤٢) مَنْ لاَ يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً(٤٣)، وَلاَ لَكُمْ عَلَيْهِ إمْرَةٌ(٤٤). وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ! وَأَنْتُم لِنَقْضِ ذِمَمِ(٤٥) آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ(٤٦)! وَكَانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ(٤٧) مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ(٤٨)، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، وايْمُ اللهِ، لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!.

اللغة

١ ـ شرّع : سنّ وبين وأوضح.

٢ ـ ورده : من ورد الماء إذا قصده ودنى منه وبلغه وهو ضد الصدور.

٣ ـ أعز : من العزة وهي القوة والمنعة وهو خلاف الذل.

٤ ـ الاركان : جمع ركن الذي يقوم عليه الشيء، الأمر العظيم، لجانب الاقوى من الشيء.

٥ ـ أمناً : طمأنينة.
٦ ـ علقه : بكسر اللام تعلق به.
٧ ـ البرهان : الحجة والدليل.
٨ ـ خاصم : مخاصمة نازعه وجادله.
٩ ـ اللب : العقل الخالص من الشوائب أو ما ذكا من العقل.
١٠ ـ تدّبر : تفكر، ونظر في عواقب الأمور.
١١ ـ توسم : تفرس.
١٢ ـ تبصرة : يقال تبصّر الشيء استقصى النظر إليه وفي الشيء تأمل.
١٣ ـ عزم : الأمر عليه عقد ضميره على فعله.
١٤ ـ الجنة : الترس، الوقاية.
١٥ ـ الابلج : الواضح المشرق.
١٦ ـ المناهج : جمع منهج وهو الطريق الواضح.
١٧ ـ الولائج : جمع الوليجة الدخيلة والبطانة.
١٨ ـ المشرف : من أشرف إذا أطل عليه من مكان مرتفع.
١٩ ـ المنار : ما يوضع في الطريق للاهتداء إليه.
٢٠ ـ الجواد : بتشديد الدال جمع جادة وهي الطريق.
٢١ ـ المضمار : محل تضمير الخيل أو ترويضها أو زمانه أو نفسه.
٢٢ ـ الغاية : الراية المنصوبة.
٢٣ ـ الحلبة : خيل تجمع من مواضع متفرقة للسباق أو النصرة.
٢٤ ـ التنافس : التسابق.
٢٥ ـ السبقة : محركة ما يتراهن عليه المتسابقان.
٢٦ ـ أورى : أشعل وأوقد.
٢٧ ـ القبس : الشعلة من النار.
٢٨ ـ العلم : محركة ما يوضع في الطريق ليهتدى به.
٢٩ ـ الحابس : الواقف بالمكان تحيراً لم يدر الطريق.
٣٠ ـ بعيثك : مبعوثك.
٣١ ـ المقسم : النصيب والحظ.
٣٢ ـ النزل : بضمتين ما يهيأ للضيف من طعام.
٣٣ ـ الوسيلة : ما يتقرب به إلى الغير، المنزلة.
٣٤ ـ السناء : الشرف والرفعة.
٣٥ ـ الزمرة : الجماعة من الناس.

٣٦ ـ خزايا	:	جمع خزيان من الخزي وهو الذل والخجل استحياء.
٣٧ ـ ندم	:	تأسف وتحسر على ما فعل.
٣٨ ـ ناكبين	:	عن الطريق عادلين عنه.
٣٩ ـ نكث	:	العهد إذا نقضه.
٤٠ ـ الاماء	:	جمع أمة المملوكة والخادمة.
٤١ ـ الوصل	:	ضد القطع.
٤٢ ـ هابه	:	حذره وخافه.
٤٣ ـ السطوة	:	القهر والغلبة.
٤٤ ـ إمرة	:	إمارة.
٤٥ ـ الذمم	:	العهود والضمانات.
٤٦ ـ انف	:	استنكف.
٤٧ ـ مكنتم الظلمة	:	جعلتم لهم قدرة وقوة وسلطاناً.
٤٨ ـ الازمة	:	جمع زمام المقود.

الشرح

(الحمد لله الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده). حمد الله على تشريع الإسلام السهل في احكامه وقوانينه وتشريعاته، فمن قصده وأراد معرفته أدرك مناله بأيسر ما يكون وأسهل ما يكون وذلك لأنه دين يتوافق مع العقول وينسجم معها ولا يخالف السليم والصحيح منها ولذا نجد خطابات القرآن تنادي بالعقل كقوله تعالى: **﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ ﴿أفلا تعقلون﴾ ﴿أفلا تتذكرون..﴾** من هنا كان كل عاقل بمجرد أن يلتفت بعقله إلى هذا الدين يهتدي ويؤمن ويدخل في دين الله وقد قال رسول الله «جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء..».

(وأعزّ أركانه على من غالبه) فأصول الإسلام قوية متينة مبنية على حجج وبراهين لا تهدم ولا تغلب فمن أراد أن يغلبه أو يهزمه فلن يفلح ولن ينتصر...

(فجعله أمناً لمن علقه) من تعلق بالإسلام فآمن به فهو الأمان له في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب...

(وسلماً لمن دخله) فمن دخل الإسلام فهو في سلام لا يعلن عليه الحرب فيسلم في الدنيا ويسلم في الآخرة...

(وبرهاناً لمن تكلم به) فهو الحجة القاطعة على صحة كل قضية يريد أن يتكلم بها الإنسان. . .

(وشاهداً لمن خاصم عنه) من يدافع عن الإسلام فشهادة الإسلام قائمة منتصرة وحجته جاهزة حاضرة. . .

(ونوراً لمن استضاء به) من أراد الحقيقة فالإسلام يضيء له الدرب، يكشف له الظلمات ويرفع المبهمات ويضعه أمام الهدى والتقى. . .

(وفهماً لمن عقل) من وعى أحكام الإسلام وتشريعاته استطاع أن يصبح جيد الادراك بل يصبح في جودة الفكر والفهم في أعلى الدرجات. . .

(ولباً لمن تدبر) من تدبر الإسلام وفكّر فيه وفي تشريعاته تحول إلى صاحب عقل عظيم بل هو الذي يصنع العقول السليمة الصحيحة. . .

(وآية لمن توسم) الإسلام طريق به يستطيع الإنسان أن يدرك فراسته على حقيقتها. . .

(وتبصرة لمن عزم) من أراد فعل الخير فالإسلام هو الكاشف لهذا الخير والدال عليه. . .

(وعبرة لمن اتعظ) من أراد أن يتعظ فإنه عندما ينظر إلى ما جاء به الإسلام من العظات عندها يعتبر ويتعظ. . .

(ونجاة لمن صدّق) من آمن به وصدّق أحكامه نجا من النار ومن عذاب الملك الجبار. . .

(وثقه لمن توكل) فمن توكل على الله وإلتجأ إليه أصبح لديه ثقة بكل ما جاء به هذا الدين. . .

(وراحة لمن فوض) فمن فوض أمره لله وأيقن أنه هو الذي يدبر شؤونه فهذا قد إرتاح من الهموم والأحزان ومن كل طارق يطرقه. . .

(وجنة لمن صبر) فمن صبر على أحكام الإسلام وتعاليمه وصبر عما نهى عنه فإن ذلك وقاية له من النار وحاجزاً بينها وبينه. . .

(فهو أبلج المناهج) فهو أوضح الطرق وأسلمها إلى الحق وهو الله. . .

(وأوضح الولائج) فمداخله وأسراره ظاهرة بينة واضحة. . .

(مشرف المنار) فشعاراته واضحة ظاهرة تدعو الناس إلى الخير وتهديهم إلى سبل السلام. . .

(مشرق الجواد) فطرقه واضحة ظاهرة بمجرد أن يلتفت إليها الإنسان يهتدي. . .

(مضيء المصابيح) المصابيح هم أئمة الهدى وعلماء الدين من حيث إنهم ينيرون الدرب للسالكين أو يراد بالمصابيح أدلة الإسلام الكتاب والسنة. . .

(كريم المضمار رفيع الغاية جامع الحلبة متنافس السبقة شريف الفرسان). قالوا في تفسيرها: كأنه جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم وغايتها رفيعه عالية وحلبتها جامعة حاوية وسبقتها متنافس فيها وفرسانها أشراف.

ويمكن أن يراد بالمضمار هو الدنيا حيث فيها يبسط الإسلام سلطانه وتكون محل ارادته.

والغاية هي الوصول إلى رضا الله وهل هناك أرفع منها غاية والحلبة هي مجمع الناس يوم القيامة والنتيجة هي المسابقة والمنافسة على الجنة وأما اشراف الفرسان فهم العلماء الذين يتسابقون إلى طاعة الله وإدراك ما عنده.

(التصديق منهاجه) طريق الإسلام هو التصديق والإيمان الثابت في كل شيء ولذا نهى الله أن يمشي الإنسان خلف غير العلم قال تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾** فما لم يحصل العلم وهو الحقيقة الصادقة الكاشفة لا يعمل به. . .

(والصالحات مناره) الأعمال الصالحة هي التي تدل على إسلام الناس وإيمانهم. . .

(والموت غايته) فإن الموت هي غاية الحياة الدنيا ونهايتها وبه ينقطع التكليف. . .

(والدنيا مضماره) محل السباق والعمل وفيها يكون الامتحان. . .

(والقيامة حلبته) موضع اجتماع الناس ولقاءهم يوم القيامة حيث يجتمع الجميع للحساب. . .

(والجنة سبقته) الجنة هي النتيجة والجائزة التي يحصل عليها الناس وهي ميزان الربح والخسارة فمن ادركها فاز ومن فاتته فشل وهوى. . .

(حتى أورى قبساً لقابس وأنار علماً لحابس) في هذا الفصل يذكر النبي وفضله وبعض أوصافه الكريمة فالنبي أشعل الشعلة وعرضها لكل من أراد أن يأخذ منها وهو

كناية عن أنه أظهر الإسلام وأوضح معالمه فكل من أراد الهداية والخير عليه أن يأخذ منه ويقتدي به . . .

ونصب من أنوار الهداية ما يرفع حيرة المتحيرين ويزيل شكهم فالكتاب بين أيدينا وسنة النبي في متناول الجميع وسيرة المعصومين محفوظة وهذه كلها أعلام تهدي الخلق وترفع حيرتهم . . .

(فهو امينك المأمون) قد إئتمنته فكان المأمون الثقة على رسالتك وكلامك وما اردت إيصاله إلى الناس . . .

(وشهيدك يوم الدين) فهو الشاهد على خلقك بأنه قد بلغ الرسالة وأوصلها إليهم فيشهد للمطيع ويشهد على العاصي . . .

(وبعيثك نعمة) فأنت بعثته إلى خلقك نعمة لهم حيث يهديهم سبيل الحق ويأخذ بإيديهم إلى العدل . . .

(ورسولك بالحق رحمة) فأنت سبحانك أرسلته بالحق من الشرائع والأحكام رحمة للعالمين كما قلت له : **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** . . .

(اللهم أقسم له مقسماً من عدلك). دعا للنبي أن يعطيه الله نصيباً وافراً من عدله بأن يجعله في محل القرب منه وفي الدرجات السامية من الكمال والوصول إلى رضاه . . .

(وأجزه مضعفات الخير من فضلك). كذلك دعا للنبي أن يضاعف له فضله واحسانه أضعافاً مضاعفة فوق ما يستحق.

(اللهم أعل على بناء البانين بناءه) دعاء أن يرفع الله الإسلام ويجعله الظاهر على جميع الأديان لأن هذا ما بناه النبي وشيده وقد يراد به الدعاء لشخص النبي أن يرفع شأنه فوق كل أصحاب الشأن من الأنبياء فما دونهم . . .

(وأكرم لديك نزله) اللهم أكرمه أجلّ كرامة وأفضلها وأحسن إليه أجزل إحسان وأعلاه عند نزوله بك وحلوله عندك . . .

(وشرفّ عندك منزله) اجعله عندك في أشرف المنازل وأكرمها لديك فإنه مستحق لكل إجلال وإكرام.

(وآته الوسيلة) أعطه الوسيلة التي بها يكون إليك أقرب المقربين وعندك من المقبولين. . .

(وأعطه السناء والفضيلة) إجعله في أرفع منزلة وأتم فضيلة.

(واحشرنا في زمرته) اجعل مقامنا مع جماعته المخلصين الذين هم معه على الحق والهدى من الأئمة الطاهرين والعلماء العاملين والهداة الميامين.

(غير خزايا ولا نادمين) لا يلحقنا ذل وإهانة ولا ندم وأسف على ما فات ولا يكون ذلك إلا بمتابعته والسير على هداه. . .

(ولا ناكبين ولا ناكثين) لم ننحرف عن طريقه إلى طريق الضلال ولم ننكث عهده وما أخذه علينا من العمل بما جاء وشرّع. . .

(ولا ضالين ولا مضلين ولا مفتونين). ولا ضالين عن طريقك وصراطك ولا مضلين لأحد من عبادك ولا مفتونين عن دينك إلى غيره من الاباطيل والاضاليل. . .

(وقد بلغتم من كرامة الله تعالى لكم منزلة تكرم بها اماؤكم وتوصل بها جيرانكم). قالوا إن هذا الفصل مسوق لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى معاوية وجنده يغزوها ويفتك بأهلها. . .

فذكر أولاً فضل الإسلام عليهم وما جعله لهم من القوة والمنعة بقوله:

لقد بلغتم بالإسلام الذي هو من كرامة الله مرتبة رفيعة عظيمة تكرم بها اماؤكم وعبيدكم وخدمكم إكراماً لكم ولإسلامكم وحفظ جيرانكم بحيث لا يؤذى ولا يعتدى عليه بل يحفظ ويصان. . .

(ويعظمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده).(يحترمكم ويجل مقامكم من لا فضل لكم عليه في شرف أو حسب أو نسب ولا يد لكم عنده أي لم تتفضلوا عليه بعطية أو هدية أو كرامة وإنما كان كل ذلك بفضل الإسلام والإيمان. . .

(ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة ولا لكم عليه إمرة). يحسب حسابكم ويخافكم ويحذر منكم من لا يخاف شدتكم وبأسكم وليس لكم عليه سلطان، فإن هذه المهابة التي وضعها الله في صدور الناس لكم هي للإسلام وقوته وما يتمتع به المؤمنون من عقيدة راسخة تهون الدنيا وما فيها من أجلها ومن أجل أن تبقى عزيزة مصانة. . .

(وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون). بعد

ذكر نعم الله عليهم وبّخهم على تقصيرهم وتهاونهم في أمر الدين وبيّن لهم إنهم يرون عهود الله لا يوفى بها ومع ذلك لا يثورون ولا يتحركون بينما إذا أخذ آباؤهم عهداً على أحد ونقضه كانوا يثورون ويأنفون ويقومون لردّ الكرامة وإعادتها مع أن نقض عهود الله أحق أن يقام من أجلها وأولى من غيرها وهذا بيان لما أخذه الله من القيام في وجه معاوية الظالم الذي نقض العهود ومزق المواثيق وخرج على الإمام باغياً عليه مقاتلاً له بدون حق. . .

(وكانت أمور الله عليكم ترد وعنكم تصدر وإليكم ترجع). وهذه نعمة أخرى ضيعتموها وهي أمور الله من أحكامه وتشريعاته كانت تصدر من الرسول إليكم وكان الناس يأخذونها منكم وإليكم يرجعون عندما تتعقد عليهم بعض الأمور فتحلونها لهم.

وفي شرح المعتزلي: كانت الأحكام الشرعية إليكم ترد مني ومن تعليمي إياكم وتثقيفي لكم ثم تصدر عنكم إلى من تعلمونه إياها من اتباعكم وتلامذتكم ثم ترجع إليكم بأن يتعلمها بنوكم وأخوتكم من هؤلاء الاتباع والتلامذة.

(فمكنتم الظلمة من منزلتكم والقيتم إليهم أزمتكم وأسلمتم أمور الله في أيديهم). بعد أن بيّن لهم كيف كانوا في المراتب العليا من العلم والمعرفة والسطوة ذمهم من حيث تخلوا عن أماكنهم لأعدائهم وأصبحت الأمور بيد هؤلاء الظلمة العادلين عن الحق الجائرين عن قصد السبيل قد سلموهم أمور الله حينما مكنوا لهم في البلاد وأفسحوا لهم في ظلم العباد، لقد تهاونوا حتى أحتل معاوية رقعة واسعة من أرض الإسلام وأخذ وأصحابه يحتلون كرسي الزعامة والإمامة ويفتون بإسم الإسلام وينسبون إليه كل ما يوافق هواهم وترغب فيه شهواتهم ومن جملتها ما يذكره الإمام بقوله. . .

(يعملون بالشبهات ويسيرون في الشهوات). فهؤلاء الذين أسلمتم لهم الأمور ليسوا أصحاب دين لأنهم يعملون بالشبهات يستندون في تحليل الأمور وتحريمها إلى أدلة ليست صحيحة وإلى حجج سخيفة لم يوافق عليها الله ولم يأذن بها أو يجعلها حجة ودليلاً وأما مسيرتهم وطريقة حياتهم فإن شهواتهم هي القائدة لهم والموجهة كيف تكون رغبة الإنسان وشهوته تكون مسيرته وحركة حياته دون نظر إلى دين أو شرع مبين. . .

(وأيم الله لو فرقوكم تحت كل كوكب لجمعكم الله لشر يوم لهم). أقسم عليه السلام بالله أن هؤلاء الظلمة ـ وهم الأمويون ـ لو فرقوا أهل العراق في كل مكان وشتتوهم في بقاع الأرض ونواحيها لجمع الله شملهم ووّحد لقاءهم ليوم عظيم وشرّه على بني أمية جليل. .

وقد مارس بنو أمية سياسة التغريب والتبعيد فكانوا إذا خافوا من أحد أبعدوه عن داره ومجتمع قومه كما فعل عثمان بأبي ذر وصعصعة بن صوحان وكميل بن زياد وعمرو بن الحمق الخزاعي والاشتر النخغي . . .

ولكن الله صدق أخبار الإمام فاجتمع أهل العراق والمسلمون على عداوة الدولة الأموية والتقى رأيهم على ابادتها وزوال أهلها فكان أن خرج الدعاة إلى الرضا من آل محمد واستطاع هذا الشعار أن يزيل دولة الأمويين ويأتي العباسيون من بعدهم تحت هذا الشعار فيحرفونه لصالحهم ويستغلونه لمآربهم ويسرقونه من أهله ومن أحق الناس به وهم أهل البيت، وعلى كل حال فقد صدق إخبار الامام كما صدق في كل أخباره التي أخبر بها عن أمور غيبية،كانت بعدُ لم تقع فوقعت كم حدث له بإخباره عن كربلاء وقتل الحسين وصحبه وكما أخبر بقتل ميثم التمار ورشيد الهجري.

وكما أخبر في هذا المقام بأخبار الدولة الأموية وزوالها.

١٠٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في بعض أيام صفين

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ(١)، وَانْحِيَازَكُمْ(٢) عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ(٣) الجُفَاةُ(٤) الطَّغَامُ(٥)، وَأَعْرَابُ(٦) أَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ(٧) العَرَبِ، وَيَآفِيخُ(٨) الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ المُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ(٩) الأَعْظَمُ. وَلَقَدْ شَفَى(١٠) وَحَاوِحَ(١١) صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ(١٢) تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ(١٣) عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ، حَسّاً(١٤) بِالنِّصَالِ(١٥)، وَشَجْراً(١٦) بِالرِّمَاحِ(١٧)؛ تَرْكَبُ أُولاَهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الهِيمِ(١٨) المَطْرُودَةِ؛ تُرْمَىٰ عَنْ حِيَاضِهَا(١٩)؛ وَتُذَادُ(٢٠) عَنْ مَوَارِدِهَا(٢١)!.

اللغة

١ ـ الجولة	: من جال الفرس في الميدان إذا قطع جوانبه، وجال القوم جولة إذا انكشفوا ثم كروا.
٢ ـ انحيازكم	: ميلكم إلى الشيء ومنه أو متحيزاً إلى فئة أو مائلاً إليها.
٣ ـ تحوزكم	: من حزت الشيء إذا جمعته وضممته وحزته أيضاً غلبته.
٤ ـ الجفاة	: جمع جاف وهو الغليظ من الناس.
٥ ـ الطغام	: الأوغاد من الناس جمع وغد الأحمق الضعيف الرذيل.
٦ ـ الأعراب	: سكان البادية البعيدون عن التمدن والحضارة وعن الدين.
٧ ـ اللهاميم	: الجواد من الناس والخيل.
٨ ـ اليآفيخ	: جمع يأفوخ وهو معظم الشيء وأيضاً يراد به أعلى الرأس.

٩ ـ السنام	:	حدبة في ظهر البعير.
١٠ ـ شفى	:	الله فلاناً إذا أبرأه وأذهب مرضه.
١١ ـ الوحاوح	:	جمع الوحوحة صوت معه بحح يصدر عن المتألم.
١٢ ـ الآخرة	:	محركة آخر الأمر.
١٣ ـ تزيلونهم	:	تنحونهم وتكشفونهم عن مواقعهم.
١٤ ـ الحس	:	بفتح الحاء القتل.
١٥ ـ النصال	:	المباراة في رمي السهام.
١٦ ـ الشجر	:	كالضرب الطعن.
١٧ ـ الرماح	:	جمع رمح عود طويل في رأسه حربة.
١٨ ـ الهيم	:	بكسر الهاء الإبل العطاش.
١٩ ـ الحياض	:	جمع حوض مجتمع الماء.
٢٠ ـ تذاد	:	تُمنع.
٢١ ـ الموارد	:	جمع مورد موضع الورود، الطريق إلى الماء.

الشرح

(وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم تحوزكم الجفاة الطغام وأعراب أهل الشام). ذُكر أن هذه الخطبة من الإمام كانت على أثر انهزام ميمنة أهل العراق من قبل جند الشام ثم عودتها إلى موقعها بقيادة الأشتر الذي أعاد الكرة لها بعد أن كانت عليها...

يذكر الإمام أنه رأى هزيمتهم وتضعضع صفوفهم وما أصابهم من غلبة أهل الشام عليهم الذين وصفهم بالغلاظ اللئام الذين لا يرحمون ولا يعدلون وهذا منه يشبه التوبيخ لهم والتقريع لعملهم ووصف أهل الشام بالأعراب لأنهم لم يفقهوا من دين الله شيئاً ولم يقفوا على الحلال والحرام ولم يعرفوا الأمور على حقيقتها.

(وأنتم لهاميم العرب ويآفيخ الشرف والأنف المقدم والسنام الأعظم). رأيت ما وقعتم فيه وما أصابكم ولكن كيف يصيبكم ذلك؟ وأنتم سادات العرب وأجوادها وأعلى القوم والمقدمين منهم الذين لا يُرتقى إليكم ولا يعلى عليكم وهذا منه إثارة لنفوسهم وتحريكاً لهممهم ودفعاً لهم لكي يأبوا الهزيمة ويرفضوها ويجددوا العزيمة لعدم تكرار ما وقع مرة أخرى.

وقد شبههم باليآفيخ التي هي أعلى الرأس وبالأنف الذي هو موضع العزة والشرف والسنام لأنه أعلى ما في البعير.

(ولقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم). كان يغلي من الأسى ويحز في قلبه أن تهزم ميمنته ولكنه شُفي من ذلك وبرىء عندما عادت هذه الميمنة إلى موقعها وأخذت تثأر لنفسها ولهزيمتها فرآها ترد الصاع صاعين واللطمة بلطمتين فرح بعودتها إلى موقعها وتناولها لعدوها وإزالتهم عن مواقعهم كما أزالوها أولاً.

(حساً بالنصال وشجراً بالرماح تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتذاد عن مواردها). أعجبه من هذه الكتيبة عودتها إلى موقعها وكيفية تناولها لعدوها حيث كانت ضرباتها أبرد من الثلج على قلب الإمام وأطيب من العسل فوصفها بما رأى حيث قال تشجيعاً لهم وثناء عليهم: لقد استأصلتموهم بضرب السيوف وطعن الرماح وأضحت أولاهم المواجهة لكم تركب المتأخرة عنها وهي هاربة، شبههم بالإبل العطشى التي وردت على الماء ثم طردت عنه ورميت بالسهام ومنعت عن تناول وردها فإنها تتدافع يركب المتقدم منها المتأخر وكل يريد أن ينجو من ضربة سيف أو طعنة رمح...

١٠٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي من خطب الملاحم

الله تعالى

الحَمْدُ للهِ المُتَجَلِّي(١) لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ(٢)، وَالظَّاهِرِ(٣) لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ(٤). خَلَقَ الخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ(٥)، إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لَا تَلِيقُ(٦) إِلاَّ بِذَوِي الضَّمَائِرِ(٧) وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ(٨) عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ(٩)، وَأَحَاطَ(١٠) بِغُمُوضِ(١١) عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ(١٢).

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: .

النبي عليه السلام

اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ(١٣) الضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ(١٤) العَلْيَاءِ(١٥)، وَسُرَّةِ(١٦) البَطْحَاءِ(١٧)، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ الحِكْمَةِ.

فتنة بني أمية

ومنها: طَبِيبٌ دَوَّارٌ(١٨) بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ(١٩) مَرَاهِمَهُ(٢٠)، وَأَحْمَى(٢١) مَوَاسِمَهُ(٢٢)، يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ الحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ(٢٣)، وَآذَانٍ صُمٍّ(٢٤)، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ(٢٥)؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الحَيْرَةِ(٢٦)؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الحِكْمَةِ؛ وَلَمْ يَقْدَحُوا(٢٧) بِزِنَادِ(٢٧) العُلُومِ الثَّاقِبَةِ(٢٩)؛ فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَالأَنْعَامِ(٣٠) السَّائِمَةِ(٣١)، وَالصُّخُورِ القَاسِيَةِ.

قَدِ انْجَابَتِ(٣٢) السَّرَائِرُ(٣٣) لأَهْلِ البَصَائِرِ(٣٤)، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ(٣٥) الحَقِّ لِخَابِطِهَا(٣٦)، وَأَسْفَرَتِ(٣٧) السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ العَلاَمَةُ لِمتَوَسِّمِهَا(٣٨). مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ(٣٩)، وَنُسَّاكاً(٤٠) بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً(٤١) نُوَّماً، وَشُهُوداً(٤٢) غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ! رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَىٰ قُطْبِهَا(٤٣)، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا(٤٤)، تَكِيلُكُمْ(٤٥) بِصَاعِهَا(٤٦)، وَتَخْبِطُكُمْ(٤٧) بِبَاعِهَا(٤٨). قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ المِلَّةِ(٤٩)، قَائِمٌ عَلَىٰ الضِّلَّةِ(٥٠)؛ فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ(٥١) كَثُفَالَةِ القِدْرِ(٥٢)، أَوْ نُفَاضَةٌ(٥٣) كَنُفَاضَةِ العِكْمِ(٥٤)، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ(٥٥) الأَدِيمِ(٥٦)، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ(٥٧) الحَصِيدِ(٥٨)، وَتَسْتَخْلِصُ(٥٩) المُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلاَصَ الطَّيْرِ الحَبَّةَ البَطِينَةَ(٦٠) مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ(٦١) الحَبِّ.

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ المَذَاهِبُ(٦٢)، وَتَتِيهُ(٦٣) بِكُمُ الغَيَاهِبُ(٦٤) وَتَخْدَعُكُمُ(٦٥) الكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٦٦)؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ(٦٧) كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ(٦٨)، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ(٦٩)، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ(٧٠). وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ(٧١) أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ(٧٢)، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ(٧٣) لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الخَرَزَةِ(٧٤)، وَقَرَفَهُ(٧٥) قَرْفَ الصَّمْغَةِ(٧٦). فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ البَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الجَهْلُ مَرَاكِبَهُ وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ(٧٧)، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ(٧٨) الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ(٧٩) العَقُورِ(٨٠) وَهَدَرَ(٨١) فَنِيقُ(٨٢) البَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ(٨٣)، وَتَوَاخَىٰ(٨٤) النَّاسُ عَلَىٰ الفُجُورِ(٨٥)، وَتَهَاجَرُوا(٨٦) عَلَىٰ الدِّينِ، وَتَحَابُّوا(٨٧) عَلَىٰ الكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَىٰ الصِّدْقِ. فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ الوَلَدُ غَيْظاً(٨٨)، وَالمَطَرُ

قَيْظاً(٨٩)، وَتَفِيضُ(٩٠) اللِّئَامُ(٩١) فَيْضاً، وَتَغِيضُ(٩٢) الكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً؛ وَغَارَ(٩٣) الصِّدْقُ، وَفَاضَ(٩٤) الكَذِبُ، وَاسْتُعْمِلَتِ المَوَدَّةُ(٩٥) بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ(٩٦) النَّاسُ بِالقُلُوبِ، وَصَارَ الفُسُوقُ(٩٧) نَسَباً، وَالعَفَافُ(٩٨) عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ الفَرْوِ(١٠٠) مَقْلُوباً.

اللغة

١ ـ المتجلي : الظاهر المتكشف.
٢ ـ الخلق : الناس.
٣ ـ الظاهر : خلاف الباطن، البارز.
٤ ـ الحجة : البرهان والدليل.
٥ ـ الروية : النظر والتفكر في الأمور.
٦ ـ لا تليق : به لا تحسن له ولا تناسبه وليس أهلاً أن ينسب إليه.
٧ ـ الضمائر : جمع ضمير باطن الإنسان.
٨ ـ خرق : الثوب مزقه والبناء فتح فيه نافذة والخرق الثقبة والفرجة.
٩ ـ السُتُرات : جمع سترة ما يستتر به أياً كان.
١٠ ـ أحاط : أحدق به من جوانبه وأحاط بالأمر علماً أي أحدق به علمه من جميع جوانبه.
١١ ـ الغموض : الخفاء وغمض الكلام إذا خفى مأخذه ومعناه.
١٢ ـ السريرات : جمع سريرة وهو ما يكتم.
١٣ ـ المشكاة : كل كوة غير نافذة.
١٤ ـ الذؤابة : الناصية أو منبتها من الرأس.
١٥ ـ العلياء : كل مكان مشرف، رأس الجبل، السماء.
١٦ ـ السرة : ما تقطعه القابلة من الولد عند الولادة وسرة الوادي أفضل مواضعه.
١٧ ـ البطحاء : الأرض المنبسطة واختصت بوادي مكة.
١٨ ـ دوّار : كثير الدوران وهو الذي يطوف ولا يستقر.
١٩ ـ أحكم : أتقن.

٢٠ ـ المراهم : الأدوية للجروح .
٢١ ـ أحمى : الحديد أسخنه شديداً .
٢٢ ـ المواسم : جمع ميسم بكسر الميم وهو المكواة .
٢٣ ـ العمى : عدم البصر فيما من شأنه أن يبصر .
٢٤ ـ الصمم : مرض يمنع السمع .
٢٥ ـ البكم : الأبكم هو الذي ولد لا يقدر على الكلام .
٢٦ ـ الحيرة : عدم الاهتداء للشيء .
٢٧ ـ قدح : بالزنداستخرج النار منه .
٢٨ ـ الزناد : هو الآلة التي يستخرج بواسطتها النار .
٢٩ ـ الثاقبة : المضيئة إذا كانت للكواكب والمتقدة إذا كانت للنار .
٣٠ ـ الأنعام : جمع النعم الإبل وتطلق على البقر والغنم .
٣١ ـ السائمة : الراعية .
٣٢ ـ انجابت : انكشفت .
٣٣ ـ السرائر : جمع سريرة السر الذي يكتم، ما يسره الإنسان من أمره .
٣٤ ـ البصائر : جمع بصيرة العقل الفطنة وهي في الباطن كالبصر بالنسبة إلى الظاهر .
٣٥ ـ المحجة : وسط الطريق .
٣٦ ـ الخابط : السائر على غير هدى .
٣٧ ـ أسفرت : كشفت .
٣٨ ـ المتوسم : المتفرس .
٣٩ ـ الشبح : الشخص .
٤٠ ـ النساك : جمع ناسك العابد المتزهد .
٤١ ـ الإيقاظ : ضد النوم وأيقضه من نومه إذا نبهه منه واليقظ المتنبه للأمور .
٤٢ ـ الشهود : الحضور .
٤٣ ـ القطب : حديدة تدور عليها الرحى، ملاك الأمر ومداره الرئيس الذي تدور عليه الأمور .
٤٤ ـ شعب : جمع شُعبة وهو الفرع وأما الشّعْب فهي القبيلة العظيمة .
٤٥ ـ تكيلكم : تأخذكم للهلاك جملة كما يأخذ الكيال ما يكيله من الحب .
٤٦ ـ الصاع : وعاء يكال به .
٤٧ ـ تخبطكم : من الخبط وهو ضرب ورق الشجر حتى يسقط والبعير ضرب بيده .
٤٨ ـ الباع : قدر مد اليدين .
٤٩ ـ الملة : الطريقة والشريعة في الدين وملة الإسلام دينه .
٥٠ ـ الضلة : ضد الهدى .

٥١ ـ الثفالة	:	بالضم ما استقر تحت الشيء من كدره.
٥٢ ـ القِدر	:	إناء يطبخ فيه.
٥٣ ـ النفاضة	:	ما يسقط بالنفض.
٥٤ ـ العكم	:	العدل بالكسر.
٥٥ ـ عركه	:	دلكه بقوة.
٥٦ ـ الأديم	:	الجلد.
٥٧ ـ داس	:	الحنطة دقها ليخرج الحب منها.
٥٨ ـ الحصيد	:	المحصود.
٥٩ ـ تستخلص	:	تختار من خلص الماء من الكدر إذا صفا وخلّص الشيء ميّزه.
٦٠ ـ البطينة	:	السمينة.
٦١ ـ الهزيل	:	ضد البطين.
٦٢ ـ ذهب به	:	استصحبه وذهب معه.
٦٣ ـ تتيه	:	تتحير.
٦٤ ـ الغياهب	:	جمع الغيهب الظلمة.
٦٥ ـ تخدعكم	:	تمكر بكم وتحتال عليكم.
٦٦ ـ تؤفكون	:	من الإفك وهو الكذب.
٦٧ ـ الأجل	:	غاية الوقت.
٦٨ ـ الإياب	:	الرجوع.
٦٩ ـ ربانيكم	:	جمع ربي وهو المتأله، العارف بالله.
٧٠ ـ هتف به	:	صاح به.
٧١ ـ الرائد	:	الذي يتقدم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ.
٧٢ ـ الشمل	:	ما اجتمع من الأمر وجمع الله شملهم أي ما تشتت من أمرهم.
٧٣ ـ فلق	:	شق.
٧٤ ـ الخرزة	:	الجوهرة وما ينظم.
٧٥ ـ قرف	:	الشيء قرفته إذا قشرته.
٧٦ ـ الصمغة	:	ما ينحلب من الشجر.
٧٧ ـ الطاغية	:	الطغيان.
٧٨ ـ صال	:	حمل ووثب.
٧٩ ـ السبع	:	المفترس من الحيوان.
٨٠ ـ العقور	:	الذي يعقر أي يجرح، الضاري.
٨١ ـ هدر	:	إذا ردد الصوت في الحنجرة دون أن تخرج الشقشقة.
٨٢ ـ الفنيق	:	الفحل من الإبل.

٨٣ ـ الكظوم : الإمساك والسكوت.
٨٤ ـ تواخى : الناس صاروا اخوة.
٨٥ ـ الفجور : أصله الميل عن الصدق والقصد يستعمل في الزاني ومرتكب المعاصي.
٨٦ ـ تهاجروا : تقاطعوا.
٨٧ ـ تحابوا : حبّ بعضهم بعضاً.
٨٨ ـ الغيظ : الغضب، أو أشده وقيل سورته وأوله والغياظ الغم والمحنة.
٨٩ ـ القيظ : شدة الحر.
٩٠ ـ تفيض : تسيل وتجري.
٩١ ـ اللئام : جمع لئيم خلاف الكريم، المهان، الدنيء الأصل.
٩٢ ـ تغيض : من غاض الماء إذا غار في الأرض وجفت ينابيعه.
٩٣ ـ غار : الماء في الأرض ذهب.
٩٤ ـ فاض : كثر حتى سال.
٩٥ ـ المودة : المحبة.
٩٦ ـ تشاجر : الناس تنازعوا.
٩٧ ـ الفسوق : الخروج عن طريق الحق والصواب، الفجور.
٩٨ ـ العفاف : الإمتناع عما لا يحل، والعفة ترك الشهوات الدنيئة، الطهارة.
٩٩ ـ العجب : انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه.
١٠٠ ـ الفرو : جمعه فراء شيء كالجبة يبطّن من جلود بعض الحيوانات.

الشرح

(الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه). حمد الله الظاهر والواضح لخلقه بما خلق فإن الإنسان بل كل شيء يدرك وجود الله ويتحققه بهذا الخلق فهو السبب وهو العلة ولولا العلة لما وجد المعلول فمن وجود المعلول نقرأ وجود العلة وتقدمها عليه. . .

(والظاهر لقلوبهم بحجته). المنكشف لقلوب الخلق بما في الكون من براهين وأدلة على وجوده فالذرة الصغيرة تحكي وجوده وتنطق بتوحيده إنه لم تره العيون ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. . .

(خلق الخلق من غير رويّة إذ كانت الرويّات لا تليق إلا بذوي الضمائر وليس بذي

ضمير في نفسه). خلق الله الخلق بمجرد الإرادة وكلمة «كن» تعبير عن الإرادة التكوينية فلا يحتاج خلقه للخلق إلى أن يفكر ويدرس القضايا ويقف ليحلل كيفية الصنع ونتائجه وآثاره وفوائده بل بالتوجه كان ما يريد وعلل ذلك بأن الرويّة والتفكر في المقدمات واستخراج النتائج منها إنما يحسن بأصحاب الضمائر التي لها قلوب وحواس بدنية وجل سبحانه أن يكون كذلك وإلا لتحول إلى مركب ذي أجزاء يفتقر إليها ويبطل عندها أن يكون واجب الوجود. . .

(خرق علمه باطن غيب السترات وأحاط بغموض عقائد السريرات). نفذ علم الله في كل غائب ومستتر سواء كان في المستقبل أو فيما لا يرى وأحاط بما انعقد عليه السر من دقائق الأمور وصغيرها قال تعالى: **﴿وأحاط بكل شيء علما﴾** وقال: **﴿يعلم السر وأخفى﴾**.

(إختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء). هذا وصف للنبي وبيان لما فيه وما هو عليه، اختار الله محمداً من نفس الشجرة التي اختار منها الأنبياء، فالشجرة واحدة تفرعت إلى فروع متعددة كان منها إبراهيم وإسماعيل وكان منها محمد، وفي طهر الأصل وصفائه كان طهر الفرع وصفائه.

ومشكاة الضياء هم آل إبراهيم فإن محمداً منهم وهؤلاء قد سطع نور الأنبياء منهم كما يسطع النور من المشكاة فكان محمد نوراً من تلك الأنوار المنبعثة من تلك المشكاة.

(وذؤابة العلياء وسرة البطحاء). إنه من قريش أعلى الورى جبيناً وأشرفها أسرة وأرفعها مقاماً ومن أفضل بقاع الأرض حيث كان في وسط مكة وفي سهلها الذي يعد من أفخر أماكنها وأشرفها. . .

(ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة). فإن الأنبياء يكشفون برسالاتهم ظلمات الجهل والتخلف ولولاهم لعاشت البشرية حياة مظلمة استولى عليها الجهل وداسها الطغاة بأقدامهم فكانت أنوار النبوة تشع لتمحي الظلمات وتقضي على روح الجاهلية.

والأنبياء هم ينابيع الحكمة تتفجر عنهم العلوم وتتدفق لتروي القلوب الظمأى إلى الحق المتعطشة إلى العدل.

(طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي وآذان صم وألسنة بكم). أشار في هذا الفصل إلى نفسه وأطلق عليها لفظة الطبيب لأنه يعالج أمراض النفوس والقلوب كما يعالج الطبيب أمراض الأبدان. . .

طبيب يحمل مهنته معه بما عنده من العلوم وبما اتقن من الأدوية التي هي المواعظ والحكم وآيات الكتاب وسنة النبي المختار حمل أدويته واستعد بكل أجهزته التي بها يكون العلاج من مكواة وغيرها، إنه حملها كلها وأخذ يضع لكل داء حاجته من الدواء فمن مرض قلبه داواه بالذكر والموعظة والرجوع إلى الله وفتحه بما عنده من آثار النبوة وعبق الإمامة وعطر الإخلاص، ومن كانت آذانه صماء لا تسمع موعظة ولا تعي حكماً فتحها فجعلها تسمع وتعي وتعتبر بكل ما تسمع كما أن من كان أبكماً لا يتكلم بحق حوّل لسانه إلى أن ينطق بالحق ويقول الصدق وحلّ عقدته بذكر الله والعودة إليه. . .

(متتبع بدوائه موضع الغفلة ومواطن الحيرة). إنه يحمل الدواء ويبحث عن الداء فمن كان غافلاً عن آخرته وعما ينفعه أيقظه من غفلته ووعاه لما ينفعه ودلّه على موارد النجاة.

ومن كان في حيرة من أمره وفي نفسه شك وتردد من أمر الله أو شيء من أحكامه رفع حيرته وأنزل عليه برد اليقين وسقاه شراب التصديق فارتفعت الحيرة وزال الشك والتردد وحل محلها اليقين بالله وبما جاء به رسوله. . .

(لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة فهم في ذلك كالأنعام السائمة والصخور القاسية). هذا توبيخ للذين تخلفوا عن الاخذ منه إنهم لم يجنوا عن أنوار الحكمة التي تتفجر منه ولم يستفيدوا مما أناره لهم من الطرق والدروب ولم يجهدوا أنفسهم في استخراج العلوم الحقة المضيئة المفيدة التي تنفع البشرية وتساهم في رقيها وتقدمها. . .

ثم وصفهم أنهم كالأنعام المعلوفة التي اكتفت بشبعها دون أن تفكر بشيء من مصالحها وما ينفعها كما شبههم بالصخور القاسية التي لا تتأثر بشيء ولا يفتتها شيء. . .

(قد انجابت السرائر لأهل البصائر). انكشفت الأسرار لأهل الأفكار والفطنة وقالوا: إن الأسرار هي ما أضمره المعاندون للحق في إطفاء نور الله وهدم أركان الشريعة وقالوا: إن الأسرار هي ما انكشف له عليه السلام من استيلاء بني أمية على الحكم وظلمهم.

(ووضحت محجة الحق لخابطها). لقد ظهرت أعلام الشريعة ووضحت أحكام الدين فلا عذر للجاهلين السائرين على غير هدى لأن سيرهم عن شقاق وعناد بدون حجة وبرهان.

(وأسفرت الساعة عن وجهها). إقترب موعد القيامة وهذه معالمها قد برزت وأشرقت.

وقيل: إنه أراد بالساعة قيام الدولة الأموية وأن علاماتها قد ظهرت بظهور معاوية الذي يمثل وجه الأمويين. . .

(وظهرت العلامة لمتوسمها). بانت وانكشفت العلامة التي تدل على قرب الساعة أو قرب ظهور الدولة الأموية لمن تفرس ذلك وحكم بمقتضى حسه الداخلي وما عنده من قوة الفراسة.

(مالي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح). ذمهم لتناقض أحوالهم وعدم انسجامهم فهم يملكون الهياكل البشرية ولكن بدون عقل أو تفكير كالجمادات التي لا تحس ولا تفكر. . .

أو يتحولون إلى أرواح صافية بدون أجسام؛ والأرواح بنفسها لا فائدة فيها في قانون الحياة وليس لها مجال ولا دور في الدنيا كما هو الحال في الملائكة والشياطين.

(ونساكاً بلا صلاح). فهم عباد متهجدون ولكن بدون تقوى ولا إخلاص وعبادتهم لم تقترن بصلاح سرائرهم حتى تقع صحيحة وعلى وجهها الشرعي.

(وتجاراً بلا أرباح). أرادوا أن يتاجروا مع الله فيصلّون ويصومون ويعملون بعض الأعمال ولكنها بدون ثمرة ولا ربح لأنها لم تقع لوجه الله وتقرباً منه.

(وإيقاظاً نوماً). فهم أيقاظ ولكن لعدم انتفاعهم بيقظتهم فهم نائمون، يرون حركة الحياة ويرون ما يدبر لهم ولكنهم لا يحركون ساكناً ولا يدفعون ضيماً نيام عن مواجهة ما يجري. . .

(وشهوداً غيباً). إن الساحة أمامهم يرون ما يجري فيها وعليها ولكنهم لا يعدون العدة لمواجهتها فكأنهم غائبون عنها لا تبدو لهم آثار أو تظهر لهم أخبار.

(وناظرة عمياء). ينظرون بعيونهم المادية ولكن لا ينظرون بقلوبهم ليعتبروا من هذا النظر ويخططوا لما يجري فهم كالعمي. . .

(وسامعة صماء). فآلة السمع موجودة تسمع كل شيء ولكن لأنها لا تعتبر بما تسمع ولا تفكر فيه فكأنها صماء لا تسمع لأن فائدة السمع الاعتبار فمن لم يعتبر يسقط سماعه ويتحول إلى عدم.

(وناطقة بكماء راية ضلال قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها). هذا كلام منقطع عما سبقه يذكر فيه بعض ما يأتي به الزمان وأول ذلك أن تخرج راية ضلال، إنه شعار يراد من ورائه إضلال الناس والانحراف بهم قد اجتمعت على رئيسها ومحرك دورتها وقائد مسيرتها وبعد ذلك توزعت في كل النواحي والجهات والقبائل والناس. . .

(تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها). إشارة إلى ما ينالهم من ظلمها وجورها وأنها لن تتركهم أحراراً يفعلون ما يشاؤون بل تأخذهم بظلمها وتضربهم بأعظم ما عندها من قوة وقدرة.

(قائدها خارج من الملة قائم على الضلة). وهذا وصف لقائد هذه الفتنة فهو ليس على دين الإسلام في واقع الأمر وإن كان في الظاهر أنه منه وهو أيضاً ثابت مستمر على الضلال والانحراف لن ينزع عنه إلى العدل. . .

(فلا يبقى يومئذ منكم إلا ثفالة كثفالة القدر أو نفاضة كنفاضة العكم). عندما يحكم هذا الظالم ويمارس القهر والقتل فلن يبقى منكم يومها إلا ما لا خير فيه ولا ينتفع به من أراذلكم وهؤلاء لن يثوروا ولن يثأروا أو يبقى منكم بقايا قليلة وأثر يرمى دون فائدة فيه كما ترمى النفاضة من العدل. . .

(تعرككم عرك الأديم وتدوسكم دوس الحصيد وتستخلص المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبة البطينة من بين هزيل الحب). وهذا وصف لشدتها وما يطالهم منها إنها صورة رهيبة فكما يعرك الجلد عند الدبغ كذلك بشدتها وقسوتها تكون عليكم حتى تغيّر ألوانكم وتطالكم جميعاً. . .

كما أنها ستمارس عليكم المذلة والهوان وتدوسكم كما يداس الزرع لاستخراج الحب منه وستبحث عن المؤمن الملتزم الذي يشكل خطراً عليها ويهددها في مصالحها فيؤخذ من بين ما تبقى منكم لينفى من الأرض أو يقتل أو يسجن أو ينكل به ويكون عبرة لغيره وقد شبه استقصائهم وبحثهم عن المؤمن ببحث الطائر للحبة السمينة وأخذها من بين الضعاف من الحبوب، كناية عن اهتمامهم بأخذ المؤمنين ليخلصوا منهم ويطمئنوا بفقدهم.

(أين تذهب بكم المذاهب وتتيه بكم الغياهب وتخدعكم الكواذب). استفهام يراد به تقريعهم وتوبيخهم لعلهم إلى الحق يرجعون يقول لهم: أين تأخذكم المذاهب وهي الطرق المنحرفة عن الحق وكيف تأخذكم الظلمات وتتيه بكم فلا تهتدون إلى الهدى ولا

ينكشف عنكم الردى وكيف تخدعكم الآمال الكاذبة والدعاوى الباطلة فتتسارعون نحوها وتتسابقون إليها. . .

(ومن أين تؤتون وأنى تؤفكون). من أي جهة يأتيكم الباطل فيسيطر عليكم ويضلكم عن السبيل وكيف تصرفون عن قصد السبيل وعن الحق الواضح المبين.

(فلكل أجل كتاب ولكل غيبة إياب). قالوا: إن هذا الكلام منقطع عما قبله على عادة الشريف في التقاط أبلغ كلام الإمام وأن كل حكم مكتوب على الإنسان لا بد وأن يأتي وقته ولا بد لكل غائب من رجوع تحذيراً لهم عن غفلتهم واشتغالهم بأمور الدنيا فحسب وقال بعضهم: إنه متصل بما قبله وفسره بقوله: إن ما أخبرتكم من وقوع الفتن واقع في أجله وحينه لا محالة. . .

(فاستمعوا من ربانيكم وأحضروه قلوبكم). استمعوا إلى أقوال المتوجهين إلى الله المخلصين من علماء الأمة ولتحضر قلوبكم وتتوجه إلى كلامهم وتتفهمه وتعمل به ويريد بهذا الكلام نفسه الشريفة.

(واستيقظوا إن هتف بكم وليصدق رائد أهله). انتبهوا من غفلتكم وارجعوا إلى أنفسكم إذا صاح بكم ودعاكم لما يحييكم.

وأنتم رواد قومكم فكل واحد منكم إذا رجع إليهم ليصدق في نقل ما سمع وليحمل إليهم ما وعى من هذا الحديث. . .

(وليجمع شمله وليحضر ذهنه). أما أن يراد بقوله: وليجمع شمله أي يجمع أفكاره وعزائمه ولينظر في الأمور التي أقولها له.

أو يراد بجمع شمله أن يوحد صفه مع الآخرين ويجتمع معهم تحت لوائه.

وليحضر ذهنه أي يتوجه ولا يشتغل بما يواجهه من أمور الدنيا وإنما يتوجه إلى كلامه ويحلله ويعرف مغزاه. . .

(فلقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة وقرفه قرف الصمغة). لقد أوضح الإمام أمور الدين والشرع ولم يترك خافية عليهم إلا ودلّهم عليها وظهرت جلية أمامهم كما يظهر باطن الخرزة إذا انفلقت وانكسرت كما أنه ألقى إليهم كل ما ينفعهم ولم يدّخر عنهم شيئاً سواء كانت من أمور دينهم أو دنياهم وقيل: ما أخبرهم به من الفتن وشبه إلقاؤه لهذا الأمر بالصمغة إذا قشرها الشخص عن الشجرة فإنها لتماسكها تخرج كلها وتنقلع بأجمعها.

(فعند ذلك أخذ الباطل مآخذه وركب الجهل مراكبه). هذا من جملة أخباره بما يجرى بعده وأن الفتنة إذا جرت فعند ذلك يتمادى الباطل ويسرح ويمرح ويأخذ أوج عزه فينتشر بكل زاوية ومكان.

وأما الجهل فإنه يركب عقول الناس ويديرها كيف شاء ويفقد العلم دوره والمعرفة مكانتها وكيف يكون هذا المجتمع الذي يتحكم فيه الباطل على أيدي الجهال المتمكنين من القوة والقدرة...

(وعظمت الطاغية وقلت الداعية). استفحل أمر الفتنة التي عمّت وطغت على البلاد.

وفي المقابل قلت الفرقة الداعية إلى الله الراعية لحقوقه التي توجه الناس إليه وتردهم إلى رحابه.

(وصال الدهر صيال السبع العقور). وثب الدهر على الصالحين والضعفاء فجردهم من حقوقهم وسلبهم معيشتهم وأفقدهم لذة الحياة وطيبها بل قد يفقدهم حياتهم ووجودهم وهو كناية عن استبداد الظالمين وممارستهم الظالمة التي تقتل وتشرد وتسجن وقد شبّه ذلك بالحيوان المفترس الضاري...

(وهدر فنيق الباطل بعد كظوم). فبعد سكون الباطل وخموده وانعدام حركته ظهر من جديد وعلا صوته واستفحل أمره فإن الأجواء التي يعيش فيها الباطل ويصبح له يد يبطش بها هي تلك التي يتخاذل فيها الدعاة إلى الله ويكفون عن حمل رسالتهم وأداء أمانتهم...

(وتواخى الناس على الفجور). أصبح الفجور هو محور الأخوة فالفجار التقوا واجتمعوا على هذه الرذيلة وأننا نجد كيف يجتمع الفساق على حفلات الرقص والغناء والانحلال أكثر مما يجتمع الأخوة فيما بينهم وكم من شخص لا يجمعه مع آخر إلا هذه المناسبة الفاجرة الباطلة...

(وتهاجروا على الدين). افترقوا على الدين فهذا المتدين يقطع علاقته بغيره من الفساق خوف العدوى كما أن الفاسق يقطع علاقته بالمتدين لدينه وعدم مماشاته له في انحلاله...

(وتحابوا على الكذب وتباغضوا على الصدق). أحب بعضهم بعضاً لأن كل واحد منهم يكذب على الآخر في حديثه وفي مواعيده وفي حياته.

وتباغضوا على الصدق من حيث إن من يصدق منهم في أقواله وأفعاله لا يعجب الآخرين كما أنه لا يعجبه الآخرون فيقع البغض والكره فيما بينهم.

(فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً). فإذا كان ذلك الزمان تبدلت المقاييس وتحطمت الموازين وتحول الولد الذي من حقه أن يكون قرة عين لوالده تحول إلى محنة يغيظ بها أباه لأنه خالفه في مسيرته ولم يكمل شوطه واكتفى بنفسه.

(والمطر قيظاً). وهذا من خصائص ذلك الزمن النكد أن المطر الذي حقه أن ينزل في الشتاء وفي مواسم المنفعة يتحول لينزل في أيام الصيف وشدته فيفسد المزروعات ويصيبها بالتلف...

ويمكن أن يكون المراد بهذا الكلام أن يحل الحر محل المطر...

(وتفيض اللئام فيضاً). تكثر اللئام لأن الزمان سيىء فاسد فيكثر من هم على شاكلته.

(وتغيض الكرام غيضاً). تذهب الكرام وتقل لأن أجواء الفساد ستفسد الناس وتغريهم وتخرجهم عن دينهم فيقل الكرام في مقابل كثرة اللئام.

(وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً وسلاطينه سباعاً وأوساطه أكالاً وفقراؤه أمواتاً). في الزمن الفاسد يتحول الحاكم الظالم إلى سبع مفترس يبحث عن فريسته ويطاردها بمجرد أن يراها لا يرحم ضعفها ولا استعطافها قد انتُزعت الشفقة منه وفُقدت الرحمة من قلبه وتحول مَنْ حول هذا الحاكم الظالم إلى ذئاب همها أن تفترس من سواها وتنتزع اللقمة من فم غيرها.

ويتحول أوساط الناس إلى لقمة سائغة يتناولها الحاكم وزبانيته ومن حوله.

وأما الفقراء فلا تبحث عنهم ولا تسأل عن شأنهم لأنك لا تسمع لهم حساً فهم أموات في أثواب الأحياء.

وهذا تسلسل طبيعي ينعكس من قمة الهرم إلى أسفله.

فإذا جار الملك على من تحت يده ومن حوله جار هؤلاء على من دونهم وأكلوا ما تحت أيديهم وعندها يموت الفقراء ويفقدون الحياة...

(وغار الصدق). ذهب الصدق مع أيام العدل فلا تجد له أثراً يظهر في الناس.

(وفاض الكذب). أصبح الكذب منتشراً بين الناس يتداولونه بيسر وسهولة وبدون حرج أو عسر . . .

(واستعملت المودة باللسان). كما يقال: يعطيك من طرف اللسان حلاوة. . . لو قرأت لسانه لطربت وانشرحت يثني عليك ويمدحك ويطربك ولكن كل ذلك باللسان وأما قلبه فلم يعرف شيئاً من ذلك.

(وتشاجر الناس بالقلوب). في القلوب عداوة وقتال بل حقد دفين لا يكشفه إلا رب العالمين. . .

(وصار الفسوق نسباً). يصبح الفاسق صديقاً للفاسق وأخاً له من حيث يجمعهما الوصف وتوحد نظرتهما ما في العمق من فساد.

(والعفاف عجباً). يُتعجب من العفاف لقلته.

(ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً). طرحوا شعارات الإسلام واستغلوا أحكامه من أجل المصالح الخاصة ولم يطرحوها من أجل الإسلام وتحكيمه في الأمور والقضايا وكان من حق من طرح الشعار أن يحفظ المضمون ويراعيه ويعمل به. . .

أو إن الإسلام يراد به أن يدخل إلى القلب فيحول الإنسان من داخله ليصبح مسلماً ملتزماً وهؤلاء الناس أخذوا ظاهر الإسلام ولم يتدينوا به في قلوبهم ولم يلتزموا به في نفوسهم.

١٠٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في بيان قدرة الله وانفراده بالعظمة وأمر البعث

قدرة الله

كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ[١] لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَىٰ كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ[٢] كُلِّ مَلْهُوفٍ[٣]. مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ. لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ. لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ[٤]، وَلاَ اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلاَ يُفْلِتُكَ[٥] مَنْ أَخَذْتَ، وَلاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ[٦] قَضَائَكَ[٧]، وَلاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّىٰ[٨] عَنْ أَمْرِكَ. كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ[٩]. أَنْتَ الأَبَدُ[١٠] فَلاَ أَمَدَ[١١] لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَىٰ فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ[١٢]، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ. بِيَدِكَ نَاصِيَةُ[١٣] كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ[١٤]. سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ[١٥]! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَىٰ مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَة فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ[١٦] مَا نَرَىٰ مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ[١٧] فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الآخِرَةِ!.

الملائكة الكرام

ومنها: مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ؛ هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ[١٨]، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ[١٩]، وَلَمْ يُخْلَقُوا «مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[٢٠]»، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ[٢١] «رَيْبُ المَنُونِ[٢٢]»؛ وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا[٢٣] كُنْهَ[٢٤] مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا[٢٥] عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ.

عصيان الخلق

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ[٢٦] عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً[٢٧]: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَىٰ مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا، أَقْبَلُوا عَلَىٰ جِيفَةٍ[٢٨] قَدْ افْتَضَحُوا[٢٩] بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَىٰ حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى[٣٠] بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ[٣١] الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ[٣٢] عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا؛ لاَ يَنْزَجِرُ[٣٣] مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى المَأْخُوذِينَ عَلَى الغِرَّةِ[٣٤]، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ[٣٥] وَلاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ

سَكْرَةُ المَوْتِ(٣٦) وَحَسْرَةُ(٣٧) الفَوْتِ(٣٨)، فَفَتَرَتْ(٣٩) لَهَا أَطْرَافُهُمْ(٤٠)، وَتَغَيَّرَتْ(٤١) لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً(٤٢)، فَحِيلَ(٤٣) بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ(٤٤)، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ(٤٥) فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا(٤٦) وَمُشْتَبِهَاتِهَا(٤٧)، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ(٤٨) جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ المَهْنَأُ(٤٩) لِغَيْرِهِ، وَالعِبْءُ(٥٠) عَلَى ظَهْرِهِ، وَالمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ(٥١) بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ(٥٢) لَهُ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ(٥٣) بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ المَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ التِيَاطاً(٥٥) بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ(٥٦) فِي الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ(٥٧).

القيامة

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الخَلْقِ(٥٨) بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ(٥٩) السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا(٦٠)، وَأَرَجَّ(٦١) الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا(٦٢)، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ

بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِه وَمَخُوفَ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ(٦٣) لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ وَخَبَايَا(٦٤) الأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هؤُلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هؤُلاَءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ(٦٥) بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ(٦٦) النُّزَّالُ، وَلاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ(٦٨) الأَفْزَاعُ(٦٩)، وَلاَ تَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ(٧٠)، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ(٧١)، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ(٧٢) الأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ المَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ(٧٣) الأَيْدِيَ إِلَى الأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ(٧٤) بِالأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ(٧٥) القَطِرَانِ(٧٦)، وَمُقَطَّعَاتِ(٧٧) النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ(٧٨) وَلَجَبٌ(٧٩)، وَلَهَبٌ(٨٠) سَاطِعٌ(٨١)، وَقَصِيفٌ(٨٢) هَائِلٌ(٨٣)، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا وَلاَ يُفَادَى(٨٤) أَسِيرُهَا، وَلاَ تُفْصَمُ(٨٥) كُبُولُهَا(٨٦). لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى(٨٧).

زهد النبي

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا(٨٨) عَنْهُ اخْتِيَاراً، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا(٨٩) عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً(٩٠)، أَوْ يَرْجُو فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً(٩١)، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى الجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً.

أهل البيت

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ(٩٢) الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ المَلاَئِكَةِ(٩٣)

وَمَعَادِنُ العِلْمِ، وَيَنَابِيعُ الحُكْمِ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ.

اللغة

١ ـ خاشع : خاضع ذليل.
٢ ـ مفزع : ملجأ وفلان مفزع الناس أي ملجأهم.
٣ ـ الملهوف : المظلوم المضطر المستغيث المتحسر.
٤ ـ الوحشة : ضد الأنس، نفور القلب من الأشياء.
٥ ـ يفلت : يتخلّص.
٦ ـ سخط : غضب.
٧ ـ القضاء : الحكم.
٨ ـ تولى : عنه أعرض عنه وتركه.
٩ ـ شهادة : حضور.
١٠ ـ الأبد : الدائم.
١١ ـ الأمد : الغاية ومنتهى الشيء.
١٢ ـ لا محيص : لا خلاص ولا مهرب.
١٣ ـ الناصية : الشعر المسترسل في مقدمة الرأس أو منبت الشعر منها.
١٤ ـ النسمة : النفس.
١٥ ـ الشأن : العظيم من الأمور والأحوال.
١٦ ـ أهول : ما أعظم من هال الأمر فلاناً إذا أفزعه وعظم عليه.
١٧ ـ أسبغ النعمة : أوسعها وأتمها.
١٨ ـ الأصلاب : جمع صلب، فقرات عظم الظهر.
١٩ ـ الأرحام : جمع رحم مكان نمو الجنين من المرأة.
٢٠ ـ المهين : الحقير.
٢١ ـ تشّعبهم : تفرّقهم.
٢٢ ـ ريب المنون : المنون الدهر وريبه ما يكره من حوادثه.
٢٣ ـ عاينوا : رأوا الشيء بأعينهم.
٢٤ ـ كنه : الشيء حقيقته وأصله.
٢٥ ـ زروا : عليه استهزؤوا به وعابوا فعله.

٢٦ ـ البلاء : الامتحان والاختبار وقد يكون نعمة إذا فاز وقد يكون نقمة إذا فشل .
٢٧ ـ المأدبة : بضم الدال وفتحها ما يصنع من الطعام للمدعوين في عرس ونحوه .
٢٨ ـ الجيفة : جثة الميت المنتنة .
٢٩ ـ افتضحوا : كشفوا مساويهم .
٣٠ ـ أعشى : من العشى وهو مرض يصيب العين يمنع من الرؤية ليلاً وأعشى أي أعمى .
٣١ ـ خرقت : مزقت وخرق السهم الثوب إذا نفذ فيه .
٣٢ ـ ولهت : تحيرت من شدة الوجد .
٣٣ ـ ينزجر : يرتدع ويكف .
٣٤ ـ الغرة : بكسر الغين الغفلة .
٣٥ ـ الإقالة : الموافقة على نقض البيع ، وتقايلا إذا فسخا البيع .
٣٦ ـ سكرة الموت : شدته وغشيته .
٣٧ ـ الحسرة : التلهف .
٣٨ ـ الفوت : ما مضى ، ما ذهب وقت فعله .
٣٩ ـ فترت : سكنت .
٤٠ ـ الأطراف : النواحي وأطراف الإنسان رجليه ويديه ورأسه .
٤١ ـ تغيرت : تحولّت وتبدّلت .
٤٢ ـ الولوج : الدخول .
٤٣ ـ حيل : من حال حولاً وحؤولاً وحيلولة بينهما حجز واعترض .
٤٤ ـ اللب : العقل الخالص من الشوائب أو ما ذكا من العقل .
٤٥ ـ أغمض : عينيه أطبقهما فلم يعد يرى والمراد أنه لم يفرق بين حلال وحرام .
٤٦ ـ مصرحاتها : الظاهرة البينة .
٤٧ ـ المشتبهات : الأمور المشكلات والمشتبه المشكل والملتبس .
٤٨ ـ التبعات : جمع التبعة الإثم .
٤٩ ـ المهنأ : مصدر هنيء وهنؤ بالكسر والضم ومن الطعام ما سهل ولذ وطاب .
٥٠ ـ العبء : جمع أعباء الحمل والثقل .
٥١ ـ الرهون : الرهن وهو ما يوضع تأميناً للدين وعلقت رهونه استحكمت وعجز عن فكها .
٥٢ ـ أصحر : ظهر وبرز وأصله من أصحر القوم إذا ظهروا من مكامنهم إلى الصحراء .
٥٣ ـ الغبطة : تمني نعمةٍ على أن لا تحول عن صاحبها .
٥٤ ـ حازها : ضمها وجمعها إليه .

٥٥ ـ التياطاً : التصاقاً.
٥٦ ـ المخط : هو الخط سماه كذلك لرقته يعني اللحد.
٥٧ ـ زورته : زيارته.
٥٨ ـ الخلق : الناس.
٥٩ ـ أماد : حرّك من ماد يميد إذا تحرك.
٦٠ ـ فطرها : صدعها.
٦١ ـ أرج : زلزل.
٦٢ ـ أرجفها : أي جعلها راجفة مرتعدة متزلزلة.
٦٣ ـ ميزهم : فرز بعضهم عن بعض.
٦٤ ـ الخبايا : جمع خبيئة ما خبىء.
٦٥ ـ الإثابة : المجازاة وأثاب الرجل إثابة جازاه.
٦٦ ـ خلدهم : أدامهم وأبقاهم باستمرار.
٦٧ ـ لا يظعن : لا يرحل.
٦٨ ـ تنوبهم : تعرض عليهم وتعاودهم.
٦٩ ـ الأفزاع : جمع فزع وهو الخوف.
٧٠ ـ الأسقام : الأمراض.
٧١ ـ الأخطار : جمع خطر ما يشرف به على الهلكة.
٧٢ ـ تشخصهم : من أشخصه إذا أزعجه وأخرجه عن منزله.
٧٣ ـ الغلّ : الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه.
٧٤ ـ النواصي : مقدم الرأس أو شعره.
٧٥ ـ السرابيل : جمع سربال القميص.
٧٦ ـ القطران : مادة لزجة منتنة تطلى بها الإبل الجرباء.
٧٧ ـ المقطعات : بضم الميم الثياب القصار.
٧٨ ـ الكلب : الشدة.
٧٩ ـ اللجب : الصوت المرتفع.
٨٠ ـ اللهب : لسان النار.
٨١ ـ الساطع : المرتفع المنتشر.
٨٢ ـ القصيف : الصوت الشديد.
٨٣ ـ الهائل : المفزع ومن الأمور الذي عظم عليك.
٨٤ ـ لا يفادى : من الفدية ما يعطى عوض المفدي.
٨٥ ـ تفصم : تكسر.
٨٦ ـ كبولها : أغلالها.

٨٧ ـ يقضى : يُنتهى منه.
٨٨ ـ زواها : نحّاها، وقبضها.
٨٩ ـ الزينة : ما يتزين به وزينة الدنيا مقتنياتها وما فيها من مال وبنين.
٩٠ ـ الرياش : الثياب الفاخرة.
٩١ ـ المعذر : من بيّن للناس الحجة التي تلزمهم تبعاتها إن خالفوا.
٩٢ ـ المحط : المنزل.
٩٣ ـ مختلف الملائكة : بفتح اللام محل اختلافهم أي ورودهم واحداً بعد الآخر.

الشرح

(كل شيء خاشع له وكل شيء قائم به). كل مخلوقات الله خاشعة لله خاضعة له وخضوع كل شيء بحسبه لأنه العظيم القوي وما دونه الضعيف الحقير وأما قيام كل شيء به لأن كل ما عداه ممكن الوجود ويحتاج في أصل وجوده وكمال وجوده وإكمال وجوده إلى الله سبحانه وتعالى إما مباشرة أو بالواسطة ولو تخلّى عنه لحظة لانهار وانعدم.

(غنى كل فقير وعز كل ذليل). كل ما دون الله فهو فقير محتاج وبالله خرج من زاوية العدم إلى الوجود وبالله كان كل موجود وبالله كان غنى كل موجود.

كما أن الذليل الحقير المهين إذا آمن بالله واستقام كما أمر كان عزيزاً قوياً وكم من الضعفاء تحولوا إلى أعزة عندما نبذوا الأصنام والأهواء وتوجهوا لله واعتمدوا عليه فبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي أصبحوا بالله أعزة.

(وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف). بالله يصبح الضعيف قوياً، لأن هذا الضعيف إذا اتصل بالله اتصل بمصدر الوجود وبأصل كل موجود ومن آمن بالله فهو موصول العرى بأعظم قوة في العالم بل كل العالم في قبضته وتحت قدرته إن شاء فعل وإن شاء منع ومن هذا التصور يكبر الإنسان المتصل بالله ويقوى بل يتحدى العالم كله منفرداً عندما يدخل هذا الإيمان إلى قلبه كما تحداه إبراهيم الخليل فكان أمة برأسه يتحدى الطغاة والجبابرة لأنه يشعر باستمداد القوة من الله، القوة المطلقة في عالم الوجود الموجهة لكل ما فيه...

وكذلك فإلى الله يلجأ كل مكروب خائف مستغيث، فعندما تنقطع الأسباب وتنسد الأبواب ولم يعد في الوجود من يلجأ إليه عندها ومن أعمق أعماق هذا الإنسان

وبالاضطرار والقهر وبدون التفات وتنبُّه يصرخ المضطر بصوت كله رقة وعطف واستغاثة «يا الله» إنها الكلمة التي ينطقها الإنسان من أعمق شعوره ومن فطرته وأساس تكوينه «يا الله» حقيقة تنطوي عليها كل نفس تظهر قهراً عن كل الناس حتى الجاحدين لمضمونها والمنكرين لوجودها، حتى هؤلاء يرجعون إلى الله في كشف كربتهم وإزالة علتهم، يلتفت الإنسان لا شعورياً إلى القوة المطلقة القادرة على إغاثته فلا يجد غير الله يعينه وينجيه. . .

وهذا مضمون قوله تعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون**﴾ وقال تعالى: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾.

(**من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره**). هذا إشارة إلى عموم علمه وإنه كما يعلم كل ما يتكلم به الإنسان يعلم ما يسره ويكتمه ﴿**إنه يعلم السر وأخفى**﴾.

(**ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه**). إنه سبحانه الحاكم في الدنيا وفي الآخرة فمن عاش فالله هو رازقه وبه تقوم حياته ومن مات فإلى الله يرجع وإليه الحساب يجزي المطيع بالجنة والعاصي بالنار، وهذا رد لهذا الإنسان إلى حقيقته وأنه في كلا الدارين تحت عين الله. . .

(**لم ترك العيون فتخبر عنك بل كنت قبل الواصفين من خلقك**). تنزيه لله أن يقع تحت بصر لأن من يقع تحت الأبصار يكون محدوداً والمحدود ممكن محتاج إلى المكان والله منزه عن ذلك هو واجب الوجود ولكن إذا لم تره العيون فقد رأته القلوب بحقائق الإيمان. . .

بل كيف يخبر عنك الواصفون وأنت كنت قبل خلقهم أي الأصل في خلقهم والمنزه عن الجسمية التي هي من عوارض الإمكان. . .

(**لم تخلق الخلق لوحشة ولا استعملتهم لمنفعة**). هذا تنزيه لله عما يعتري المخلوقات من الناس فإن المتفرد منهم يستوحش فيطلب ما يؤنسه ويزيل وحشته والله سبحانه لا يتأثر بالكون وما فيه فلم يخلق ما خلق من أجل أن يرفع استيحاشه.

كما أنه لم يكلفهم بما كلفهم به من أجل أنه محتاج يريد أن ترجع المنفعة إليه بل هو غني بالذات وما كلفهم إلا لصالحهم وما ينفعهم. . .

(**ولا يسبقك من طلبت ولا يفلتك من أخذت**). من طلبته أدركته ولن يفوتك أخذه ومن أخذت لن يفلت منك ويهرب من بين يديك وهذا إشارة إلى كمال قدرته وهذا

مضمون ما نطق به الجن وصدقه القرآن في قولهم: ﴿**وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً**﴾[١].

(**ولا ينقص سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك**). المعصية لله لا تهدّ سلطانه ولا تؤثر في ملكه كما أن من أطاعه لا يزيد في ملكه ولا يقويه ويدعمه كما هو حال ملوك الدنيا الذين يتزلزل سلطانهم بعصيان الناس لهم وتمردهم عليهم ويقوى ويشتد كلما أطاعهم الناس والتفوا حولهم. . .

(**ولا يرد أمرك من سخط قضاءك ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك**). إذا أراد الله أمراً نفذ وإن لم يرضه العباد ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ لأن الله لا يفعل إلا لحكمة وله السلطة الكاملة على خلقه وسخطهم وعدم رضاهم فلضعفهم وجهلهم بمقام الربوبية. . .

كما أن من تولى عن طاعة الله وأمره لم يستغن عن عونه وحاجته إليه باعتبار إمكانه وحاجته والممكن المحتاج بحاجة دائماً إلى الغني الكريم بالذات.

(**كل سر عندك علانية وكل غيب عندك شهادة**). الأمور كلها منكشفة لله على مستوى واحد فليس هناك سر وآخر جهر وليس هناك غائب وآخر حاضر وذلك لأن علمه أحاط بكل شيء وهي كلها منكشفة لديه ﴿**إنه يعلم السر وأخفى**﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

(**أنت الأبد فلا أمد لك وأنت المنتهى فلا محيص عنك**). أنت الدائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك لأنه واجب الوجود الذي لا ينتهي كما أن الرجوع إليه فلا مهرب من لقائه ولا خلاص من عذابه قال تعالى: ﴿**إن إلى ربك المنتهى**﴾.

(**وأنت الموعد فلا منجى منك إلا إليك**). إليك يعود الخلق وهم على ميعاد معك يوم الحساب ولا ينجي من عذابك وعقابك إلا الرجوع إليك والتوبة من الذنوب وإصلاح ما فسد وطلب العفو والغفران منك قال تعالى: ﴿**إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم**﴾.

(**بيدك ناصية كل دابة وإليك مصير كل نسمة**). مخلوقاتك كلها تحت سلطانك وبيدك زمامها تفعل بها ما تشاء وكنى بالناصية عن قدرته عليها قال تعالى: ﴿**ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**﴾ قال الطبرسي في مجمع البيان: أي ما من حيوان يدب على

---

(١) سورة الجن آية/ ١٢.

وجه الأرض إلا وهو مالك لها يصرفها كيف يشاء ويقهرها وجعل الأخذ بالناصية كناية عن القهر والقدرة لأن من أخذ بناصية غيره فقد قهره وأذله. . .

وإلى الله مصير كل روح إليه سبحانه ترجع كل نفس فيجازيها على ما عملت ويحاسبها عما اقترفت. . .

(سبحانك ما أعظم شأنك). تنزيه لله يراد به التعجب من أمر الله وحكمه وأن أمره أعظم من أن يوصف أو يحد ويؤطر. . .

(سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك). ننزهك يا رب عن كل أمر يصغرك ونحن نرى خلقك ما أعظمه وأجله وأكبره وكيف يعدد العبد المحدود مخلوقاتك وهل يقدر على إحصائها بأنواعها وأفرادها ومشخصات كل فرد وتوجه كل فرد وطريقة كل فرد. . .

(وما أصغر كل عظيمة في جنب قدرتك). مهما عظم خلقك من سماوات و أرضين وبر وبحر وليل ونهار وما يدب على الأرض أو يطير في الجو كلها حقيرة صغيرة بالنسبة إلى قدرتك فإنها لا تحد ولا توصف.

(وما أهول ما نرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك). هذا تعجب من عظيم ما نشاهد ونرى من ملك الله وأنه كبير عظيم يقف الإنسان أمامه يمجد الله ويحمده ولكن مع كل عظمة ملكه فهو حقير أمام ما غاب من سلطانه الممتد إلى أعالي السماء مما هو مستور عنا تحت أستار القدرة وفي حجب العزة من بدايع ما في الملأ الأعلى ولعل بعض مشاهدات النبي في معراجه تدلل على هذه العظمة التي نقرأها في كل ما خفي في ملكوت الله. . .

(وما أسبغ نعمك في الدنيا وما أصغرها في نعم الآخرة). تعجب من سعة نعم الله على عباده في الدنيا بحيث شملت البر والفاجر وتناولت كل حاجات هذا الإنسان ولكن استصغرها بالنسبة إلى نعم الآخرة لأن نعم الدنيا محدودة بحدود الدنيا فحسب وأما نعم الآخرة فلا حدود لها ولا انتهاء وما لا حد له ولا انتهاء يصغر بالنسبة إليه ما يحد وينتهي وهذا ترغيب لنا في الآخرة لنسعى من أجل نعيمها وما فيها. . .

(من ملائكة أسكنتهم سماواتك ورفعتهم عن أرضك). يذكر الملائكة الذين مع قربهم من الله لم يؤدوا حقه ولم يعبدوه حق عبادته.

وإن من عظيم خلق الله ما خلق من ملائكة عظم قدرهم بأن جعل مسكنهم في السماء ورفعهم عن الأرض وطينتها تشريفاً لهم وتكريماً.

(هم أعلم خلقك بك وأخوفهم لك وأقربهم منك). هذه أوصاف كريمة للملائكة تجعلهم في المحل الأعلى وهي:

الأولى: إن الملائكة أعلم خلق الله بالله فقد وصلوا إلى مرحلة متقدمة في علمهم بالله ولم يصلوا إلى نهاية المعرفة.

الثانية: إن الملائكة أخوف خلق الله لله وهذا نتيجة المعرفة الصادقة فمن عرف قدرة الله خاف منه ولذا قال تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**. الثالثة: إن الملائكة أقرب خلق الله لله وهذا القرب ليس مكانياً وإنما تشريفياً ومرتبة على غيرهم لأن هذا أيضاً نتيجة علمهم بالله وخوفهم منه...

(لم يسكنوا الأصلاب ولم يضمنوا الأرحام ولم يخلقوا من ماء مهين ولم يتشعبهم ريب المنون). وهذه أوصاف بشرية ينفيها الإمام عن الملائكة.

فهم لم يستقروا في أصلاب الآباء ولم تحتويهم أرحام الأمهات ولم يخلقوا من ماء حقير - وهو مني الرجل - ولم يفرّق شملهم الموت كما يحدث لبني آدم.

(وإنهم على مكانهم منك ومنزلتهم عندك واستجماع أهوائهم فيك وكثرة طاعتهم لك وقلة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقروا أعمالهم ولزروا على أنفسهم ولعرفوا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك ولم يطيعوك حق طاعتك). يبيّن عليه السلام بعض خصائص الملائكة وأنهم على مكانتهم السامية القريبة من الله ومنزلتهم الرفيعة عنده والتقاء كل أهوائهم وتوجهاتهم في الله وكثرة طاعتهم له وقلة الغفلة عن أمر الله مع كل ذلك لو أدركوا حقائق ما خفي عنهم وما حجب عن أبصارهم ومعرفتهم لأدركوا حقارة أعمالهم وعابوا أنفسهم بهذه الطاعات القليلة وعرفوا عندها أنهم لم يعبدوه كما يستحق وإنما عبدوه على قدر معرفتهم ولم يطيعوه كما هو أهل وهذا منه تعليم لنا وتهذيب وحث على طاعة الله وأن لا يأخذنا العجب من بعض أعمال مطلوبة منا نؤديها...

(سبحانك خالقاً ومعبوداً بحسن بلائك عند خلقك). أنزهك يا رب عما لا يليق بك حالة كونك خالقاً للخلق ومعبوداً لهم دون شريك معك أو ند بسبب ما جعلت من البلاء والامتحان لخلقك فإنك أردت إيقافهم على الصالح والطالح والشقي والسعيد فاختبرتهم بما أردت من وجوه البلاء والامتحانات...

(خلقت داراً وجعلت فيها مأدبة: مشرباً ومطعماً وأزواجاً وخدماً وقصوراً وأنهاراً

وزروعاً وثماراً). أشار إلى الدار الآخرة وأن الله خلقها وجعل فيها مأدبة كريمة فيها ما تستلذ الأعين وتستطيب الأنفس وعدد من أصناف تلك النعم الممتدة فوق هذه المائدة المشروب من لبن وعسل مصفى، ومن المطعوم ما يهنأ به الآكل ويلتذ ومن الأزواج حور عين ومن المساكن قصور ومن مميزاتها أن فيها أنهاراً تجري من تحتها تسر الناظرين وزروع تبهج النظر وثمار طيبة الطعم. . .

(ثم أرسلت داعياً يدعو إليها فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغبتّ رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه اشتاقوا). خلق الله الدار الآخرة وجعل فيها مأدبة وأرسل رسله يدعون إليها فأجهدوا أنفسهم ليحملوا الناس على دخولها وقد كانت مشقات وأتعاب وألم وعذاب ولكن لسوء حظ هؤلاء الناس ولتعاستهم وشقائهم لم يستجيبوا للرسل ولم يقبلوا من الأنبياء وذهبت كل مرغباتهم أدراج الرياح وكل ما شوقوهم إليه فيها مما أعده الله هباء منثوراً لم يتأثروا بشيء منه ولم يستجيبوا للدعاة إلى الجنة ولم يقبلوا منهم دعوتهم.

(أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها). تركوا الآخرة ورفضوا دعوة الأنبياء إليها ولم يقبلوا منهم قولاً.

ثم أقبلوا على جيفة وهي الدنيا وما فيها وما أقبح هذه الصورة وما أصدقها على الدنيا وقد وصفتها جملة من الأحاديث بهذا الوصف المنفر المبعّد ولكن مع هذا ترى إقبال أهلها عليها وحبهم لها وتضحيتهم من أجلها. . .

إنها جيفة أقبل عليها الناس كل واحد يأخذ منها ما يقدر عليه قد افتضحوا بأكلها أي ظهرت معايبهم لذوي الأبصار والأفهام من حيث تكالبهم عليها وتقاتلهم للوصول إليها وبالدنيا تمتحن الرجال فعندما تأتي إليك وترفضها فأنت أنت، وأما إذا لم تقع بيدك، ولم تقدر عليها فليس لك كبير فضل إن زهدت فيها وابتعدت عنها. . .

وأما قوله واصطلحوا على حبها فهو كناية عن التوافق على محبتها فقد تراضى الناس أن يأخذ كل واحد منها ما يقع تحت يده منها دون أن ينكر عليه الآخر أو يردعه ويرده أو يعظه ويحذره. . .

(ومن عشق شيئاً أعشى بصره وأمرض قلبه). وهذه قاعدة عامة وكبرى كلية في كل المجالات، إنها الحقيقة السافرة التي كشفت القناع عن كل أمر، من أحب امرأة لم يعد يرى سواها. . يراها في أعلى مراتب الجمال وفي أسمى منازل الكمال ولا يقبل عليها حديثاً باطلاً ولا كلمة سوء وإن كانت حقاً. . ومن أحب المال فلا يعود يرى إلا بريقه ووسائل الوصول إليه وتتعطل عنده كل مواعظ الأنبياء وتزهيدهم فيها وفي رفضها. . .

ومن أحب الله لم يعد يرى أحداً معه واستولى حبه حتى وصل إلى شغاف القلب فلم يعد يبصر أحداً معه في الوجود. . .

وهذه الكبرى الكلية والقاعدة العامة تنطبق على من أحب الدنيا إنه لم يعد يرى شيئاً سواها فتغيب عن نظره الآخرة وما فيها وتختفي القيم والمثل وكل كرامة وشرف ويمرض قلبه من حيث لا يعود يفكر فيها وفي عواقبها وما ينتج عن العبودية لها. . .

(فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سميعة). تتعطل حواس المحب بل تنقل الأشياء على خلاف واقعها لصالح المحب فمن أحب شيئاً يرى فيه قمة الكمال وإن كان في الحضيض ويتحول القبح إلى جمال والاعتداء إلى اعتدال ويتحول ما يسمعه من حديث عنه إلى مناقب له وإن كان فيه مذمة وهذا مصداق ما يقوله الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

(قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها). فهذا العقل الذي هو حصن حصين والذي من عادته أن يمنع صاحبه من التردي والوقوع في المهالك والرذائل قد إنخرق وتمزق فقد خرقته الشهوات ومزقته ونفذت فيه من جهة إلى أخرى وبذلك فقد حصانته ومناعته وفقد بالتالي قيمته وما قيمة عقل تغلبه شهوة فرج أو شهوة بطن؟! وما قيمة عقل تغلبه شهوة ملك أو مال؟!.

وأما هذا القلب فقد أماتته الدنيا لم يعد يحمل القلب الذي يرق على الضعفاء والفقراء والمساكين وأهل الحاجة لقد مات الحس الداخلي في هذا القلب فلم يعد ينتفع به. . .

واستولى حب الدنيا على نفسه وتاه في حبه لها حتى عشقها فأضحى عبداً لها ولمن في يديه شيء منها فتراه يذل نفسه من أجل الحصول عليها، ويبيع كرامته وعزته كما يبيع وطنه وداره من أجل هذه الدنيا ويميل مع من تكون فهو مع هذا النظام الذي يوفر له الدنيا وإن كان من أفسد الأنظمة وأبعدها عن الله وقد يكون مع ذاك وهكذا دواليك ليس له ضوابط إلا الدنيا ومنافعها ومن أجلها تهون كل كرامة ومن أجل الوصول إليها تذوب كل فضيلة ومنقبة وكل قيم السماء ودعوات الأنبياء. . .

وقد مرّ علينا في حياتنا نماذج رهيبة ممن يميلون مع الدنيا ومع من تكون فهذا العالم الفذ الكبير يشتم فلاناً ثم يصير من أتباعه بل يكيل له المدح والثناء فتروح تفتش عن أسباب هذا الإنقلاب تدرك أنه كان يشتمه لأنه لم ينل من عطائه ولم يحصل على ما

حصل عليه غيره منه فليس شتمه وإهانته غضباً للدين وحفظاً لشريعة سيد المرسلين وإنما كان غضبه للدنيا ولمن حرمه شيئاً منها. . .

(لا ينزجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ). أمام المحب للدنيا والعاشق لها والمتطلع إلى ملذاتها تسقط كل زواجر الله التي بثها الله في كتبه وعلى ألسنة رسله كما أن كل المواعظ تفقد مفعولها وتتعطل وتسقط عن الاعتبار، يقفل على القلب وتتعطل أجهزة الاستقبال فيه فمهما بالغ الوعاظ والمرشدون ومهما بذلوا من قدرة وطاقة لحمله على الطاعة والابتعاد به عن المعصية لم يفلحوا بل ارتدت عليهم دعوتهم بالاستهزاء بهم والتصغير لشأنهم. . .

(وهو يرى المأخوذين على الغرة حيث لا إقالة ولا رجعة). الضمير يعود إلى عبد الدنيا والإمام هنا يشرح تفاصيل الموت ويبتدأ في هذا الفصل بهذه الالتفاتة الكريمة ويشرح فيها غفلة هذا الإنسان بأنه يرى من فاجأهم الموت فأخذهم إليه فقد كانوا في ريعان الشباب وكانوا يتطلعون إلى المستقبل بأمل عريض يرسمون خلاله الحياة التي ينشدون ويرغبون ولكنه الموت الذي هجم عليهم وهم في آمالهم فأخذهم وعندها فلا إقالة من عمل سيىء ولا رجوع إلى الدنيا كي يصلحوا ما أفسدوا ويرمموا ما خربوا. . .

(كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون). هجم عليهم الموت بتفاصيله وخصوصياته وقد كانوا يجهلون هذه التفاصيل والخصوصيات وما يلاقونه عندما يحل بساحتهم.

كما أنهم كانوا يأمنون إلى صحة أبدانهم وسلامتها وإلى أموالهم وكثرتها وكانوا لا يفكرون تفكير من يفارقها ولكن الآن بعد أن جاءهم الموت عرفوا الفراق لكل ما يحبون.

كما أن ما كانوا يوعدون فيه في الآخرة من العذاب والعقاب قد وصلوا إليه وأدركوه بل هم يعيشونه حقيقة تمارس عليهم. . .

(فغير موصوف ما نزل بهم: اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت). وكيف يصف الموت إلا من حل به أو تلقى أخباره عن النبي، إنه فوق الوصف اجتمعت على هذا العبد الآبق سكرة الموت أي آلامه وعذابه وحسرة الفوت حسرة ما فاته من الأعمال الصالحة التي ضيعها أو حسرة الترك للواجبات التي يتمنى لو أتى بها وامتثلها. . .

(ففترت لها أطرافهم وتغيرت لها ألوانهم ثم ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين

أحدهم وبين منطقه). فهذه الأعضاء من اليد والرجل والعين والأذن كانت قوية تملك الحركة ولكن عندما نزل بها الموت سكنت وتراخت ولم تعد تقوى على الحركة أو التحرك وأما ألوانهم التي كانت تزهر وكانت تحكي عن النعيم ونضرته هذه قد سحبت وتغيّرت عما كانت عليه إنها تنطق بعظيم ما حل بها ونزل بساحتها وهكذا تحرك الموت في جميع أجزاء البدن وابتدأ يغزو كل ناحية من هذا الجسم ويتغلغل في كل زاوية حتى بلغ الأمر أن امتنع المحتضر عن الكلام وتوقف عن الحديث ولم يعد يقدر على النطق مع كونه مالكاً لآلة النطق وأدواته. . .

(وإنه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله وبقاء من لبه). فالجسد بكامل أعضائه قائم تام، إنه مسجى بين أهله ينظر ببصره يقلبه في الحضور بين أبنائه وأزواجه وحفدته ويسمع بأذنه كل ما يتكلمون به ويتحدثون عنه في كمال العقل والفهم والوعي ولكنه مع ذلك لا ينطق ولا يتكلم وإنما يرى ويسمع فحسب. . .

(يفكر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره). هذه الساعات الأخيرة من الدنيا يرجع الإنسان فيها إلى نفسه ويعيد حساباته من جديد، إنها ساعات الاستحقاق يجب أن يدفع فاتورتها هذا المسجى على فراش الموت، إنه يفكر في أغلى ما عنده، يفكر في رصيده كيف ضيعه وأهدره. . . الآن وهو يلفظ أنفاسه يفكر في عمره الذي انقضى ومضى كيف أفناه في اللهو ومتع الدنيا وملذاتها فتأكل الحسرة قلبه ويتمنى أن يكون قد قدّم ليومه هذا ولما بعده. . .

وهذا الوقت الذي مضى من عمره أيام شبابه وكهولته وشيبته، كيف تصرّم ذلك الوقت وكيف لم يستفد منه لحياته الباقية. . إنها ساعات صعبة يستحضر الإنسان فيها عمره الماضي ليتمنى من خلال هذا الاستحضار لو أنه عمل لآخرته. . .

(ويتذكر أموالاً جمعها أغمض في مطالبها وأخذها من مصرحاتها ومشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها وأشرف على فراقها). وهذه أيضاً من جملة ما يستحضره المحتضر، إنه يلتفت إلى أمواله التي جمعها ولمّها دون أن يسأل عن مصدرها ككثيرين منا يهمهم المال يجمعونه من أي سبيل كان، من حلال أو حرام أو من موارد الشبهات لم يتحروا مصادره الشرعية بل اغمضوا أعينهم عنها. . هؤلاء سيأتي عليهم وقت يأسفون لكل قرش لم تتضح مصادره الشرعية، وستأكل الحسرة قلوبهم عندما تتقطع بهم الأسباب ولم يقدروا على إعادتها لأهلها، لقد لحقتهم آثارها من العذاب والعقاب وفارقوها لغيرهم يتمتعون بها. . .

(تبقى لمن وراءه ينعمون فيها ويتمتعون بها فيكون المهنأ لغيره والعبء على ظهره والمرء قد غلقت رهونه بها). وهذه حال الأغبياء في الدنيا إنهم يجمعون الأموال لا ينظرون إلى حلالها من حرامها بل ينظرون إلى ما تكدس عندهم منها وعندما تأتي ساعتهم وتقع منيتهم يفارقونها ويتخلون عنها للورثة فيكون الغرم عليهم حيث يعذبون بها وتنالهم النار بسببها بينما تأتي إلى الورثة حلالاً صافية لعدم علمهم بمصادرها فيأتون ويتمتعون ويتهنأون بها فالمهنأ لغيره والعقاب عليه وهل هناك أكثر تعاسة وغباء ممن يجمع لغيره ويعذب من أجل أن يوفر له الملذات والطيبات وقد كان باستطاعته أن يوفر لنفسه ولغيره ما يكون عن طريق الحلال. . .

لقد استحكمت تبعاتها فيه ولا يمكنه الخلاص من تلك الآثار، لقد لزمته وسيحارب على جمعها من غير طرقها المشروعة. . .

(فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره ويزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره ويتمنى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه). عند الموت تنكشف الدنيا على حقيقتها ويدرك هذا الإنسان ما كان يحذّره منها المرشدون والمبلغون، لقد وقف أمام الحقيقة عارية لا يحجبه عنها شيء، لقد وصلته الأنباء من قبل. . إنه سيفارق الأموال والدور والقصور والأهل والولد وسيدرك أن العمل الصالح الذي كان يحضه عليه أهل الخير هو الباقي النافع المفيد، سينكشف أمام بصره عند الموت كل شيء وسيعض يده ندامة ستأكل الحسرة قلبه على ما فرط في جنب الله وما عمل من حرام وارتكب من موبقات. . . سيعض يده حسرة وندامة على ما ظهر له من حقائق نافعة يتمنى لو قام بها ومن حقائق باطلة يتمنى لو اجتنبها، وسيدرك أن الذي كان يرغب فيه عندما كان على قيد الحياة من المال والجاه والمنصب قد زهد فيه الآن لأنه عرف أنه لن يدوم ولن يبقى وإنه سيفارقه. . . لقد زهد الآن وهو في ساعة الاحتضار زهد بكل ما كان يرغب فيه ويحبه ويتمناه في أيام عمره في الدنيا. . .

وكذلك يتمنى أن من كان يغبطه على الدنيا أو يحسده عليها قد أوتيها دونه ليناله ما ناله من ندم وحسرة وألم. . .

وهكذا أبناء الدنيا وكلنا من أبنائها لا ننتبه إلى أنفسنا وما ينفعها إلا بعد أن نقع على فراش الاحتضار عندها فقط تنكشف لنا الأمور وندرك الحقائق ونتمنى أن نكون قد هجرنا الدنيا وما فيها من متع زائلة فانية لا تدوم وتوجهنا إلى ما يبقى ويدوم. . .

(فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه وسمعه فصار بين أهله لا ينطق

بلسانه ولا يسمع بسمعه يردد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم). والموت يبتدأ بحركة بطيئة يسري كالمخدّر في جسد الإنسان ثم يشتد ويعنف حتى يبلغ درجة يمنعه عن الكلام وعن السمع فهو مطروح بين أهله لا ينطق بلسانه ولا يسمع منهم شيئاً، لقد تعطل لسانه كما تعطل سمعه، ولم يعد يملك إلا بصره ينقله بين الحضور يرى حركات شفاههم ولكن لا يسمع حديثهم ولا يفهم ما يقولون.

(ثم ازداد الموت التياطاً به فقُبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الروح من جسده فصار جيفة بين أهله). وهذه صورة تحكي آخر لحظات هذا الإنسان في الدنيا.. تحكي قصة الموت الذي أجهز على هذا المخلوق، إنه بقي يتغلغل في هذا الجسد ويسلب من كل عضو دوره وحركته وفاعليته حتى أتى على البصر فقبضه ومنعه من أداء دوره كما قبض سمعه من قبل ومنعه من أداء دوره وعندها خرجت الروح من الجسد... هذه الروح التي كانت تحرك هذا الجسد بطوله وعرضه قد خرجت منه فأصبح جيفة بين أهله ينفرون منها ويشمئزون من وجودها وإذا تأخرت عن المواراة قليلاً تخرج رائحتها فتزعج القريب والبعيد... إنها صورة تستدعى من هذا الإنسان أن لا يعطي هذا البدن كل همه ولا يبحث عن راحته ولذته إلا من خلال ما أمر الله أو أباح ولا يخرج عن ذلك تحت أي ظرف أو اضطرار...

(قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه لا يسعد باكياً ولا يجيب داعياً). فهذا الحبيب الذي كان يتمنى الحبيب رؤيته ويطلب القرب منه... هذا الأخ القريب الذي كان ينشر الأنس قبل لحظات هذا الولد الذي لا يقدر على فراقه والداه.. هذا الخليل الذي كان يذوب رقة لخليلته.. هؤلاء جميعاً تتبدل أحوالهم بعد الموت تبدل الأنس بالوحشة فلا يقدر أحد من الأحبة على البقاء مع حبيبه الذي مات.. إنه يخاف ويخشى منه وهو ميت... يبطل التفكير وتتعطل قوى العقل فيخاف من ميت حبيب فيتباعد عنه ويهرب منه...

وهذا الميت الذي كان يلبي من دعاه قبل قليل لم يعد يستجيب لأحد حتى لأعز الناس ومن كان أشدهم طوعاً له كما أنه لا يرفع دمعة مسكين عليه أو يجبر قلب يتيم له...

(ثم حملوه إلى مخط في الأرض فأسلموه فيه إلى عمله وانقطعوا عن زورته).
وهذه هي نهاية هذا المخلوق مع أهله وهذا غاية ما يقدمونه إليه، إنهم يحملون جنازته إلى مقره الأخير... إلى حفرة صغيرة حقيرة تداس بالأقدام وينظر إليها العابرون بدون مبالاة...

يحملونه إلى مقره ويتركونه إلى عمله وهنا يبرز دور العمل الصالح الذي كان يرغب فيه أو يزهد فيه. . . إنه وعمله يخضع لحكمه ويقبل ما يصدر عليه منه. . . فإن كان صالحاً آنسه وإن كان سيئاً استوحش منه. . . لقد تركه أهله إلى عمله وانقطعوا عن زيارته.

كانوا قبل وفاته يأمون داره ويقصدون جنابه ولكن الآن بعد أن غاب عن أعينهم وأضحى رهين القبور انقطعوا عن زيارته بل نسوه وغفلوا عنه. . .

(حتى إذا بلغ الكتاب أجله والأمر مقاديره وألحق آخر الخلق بأوله وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه). هذا الفصل في مقام ذكر يوم القيامة وحشر العباد ونشرهم وإثابتهم ومعاقبتهم.

فبعد أن مات الخلق ووصل الأمر الذي أراده الله وكتبه على عباده واجتمع الناس كلهم في القبور وأراد الله أن يبعثهم في خلق جديد، أراد لهم أن يحشرهم ويبعثهم ليحاسبهم عندها تبتدأ العمليات الصعبة على المخلوقات ويرون كيف تتجسد الآيات القرآنية التي كانت تحكي أحوال يوم القيامة وما يجري فيه وما يصيب الخلائق من بلاء ومصائب. . .

(أماد السماء وفطرها وأرجّ الأرض وأرجفها وقلع جبالها ونسفها ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته). وهذه أحداث يوم القيامة، إنها تأخذ بالقلب فتتركه يرتجف فزعاً وخوفاً لأنها على مستوى الكون كله. . . إنها هزة عنيفة يقلب فيها الكون بما فيه فهذه السماء ترتجف وتتزلزل وتتشقق قال تعالى: **﴿إذا السماء انفطرت﴾** أي تشققت وقال تعالى: **﴿يوم تمور السماء موراً﴾** أي تضطرب وتتحرك. . . فهذه السماء بسعتها وما فيها تضطرب وأما الأرض فإنها تضطرب وتتزلزل أيضاً ولم تعد تستقر وهذه الجبال التي كانت رواسي قد قلعت من أماكنها ونسفت من جذورها وانعدمت فلم يبق لها أثر قال تعالى: **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾** وقال تعالى: **﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا﴾** إنها تكسر بعضها بعضاً من مهابة الله وجلاله وخوفاً من عذابه وعقابه. . .

مشهد مرعب مخوف لو كان يملك هذا الإنسان عقلاً ووعياً. . .

(وأخرج من فيها فجددهم بعد إخلاقهم وجمعهم بعد تفرقهم ثم ميزهم لما يريده من مسألتهم عن خفايا الأعمال وجنايا الأفعال). وبعد انقلاب العالم وخرابه وبعد أن تتشقق السماء وتنفطر وبعد اضطراب الأرض وميدانها بعد كل ذلك يُخرج الله هذا

الإنسان من بطن الأرض فيعيده بعد أن بلي واندثر ويجدده ويجمعه بعد أن تفرقت أوصاله وأجزاؤه.

ثم بعد هذا الجمع للأعضاء ولمّ متفرقات هذا الإنسان يجمعهم جميعاً على صعيد واحد ويميز بينهم أي يفصل بينهم ليسألهم عما فعلوه في الخفاء وعما اجترموه من السيئات.

(وجعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره وخلدهم في داره حيث لا يظعن النزال ولا تتغيّر بهمّ الحال ولا تنوبهم الأفزاع ولا تنالهم الأسقام ولا تعرض لهم الأخطار ولا تشخصهم الأسفار). بهذا الحساب سينفصل المطيع عن العاصي والشقي عن السعيد سيُجعلون فريقين كما قال تعالى: **﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم..﴾**.

ولكل فريق حظه ونتيجة عمله.

فالفريق المطيع الملتزم الذي كان يخاف الله في الدنيا ويحسب حساب هذا اليوم ويعد له العدة هذا الفريق من الذين أنعم الله عليهم وأما الفريق الثاني فمن الذي أنتقم الله منهم...

والفريق المطيع في جوار الله مكانه أي في دار كرامته وهي الجنة يخلد فيها ويدوم لا يرحل عنها ولا يعتريهم ما يعتري أبناء الدنيا ولا يصيبهم شيء من الخوف أو الأمراض أن يتعرضون لهلاك أو تخرجهم الأسفار إلى طلب أمر يريدونه فيشق عليهم السفر ويزعجهم...

وهذا كله كان يصيب أبناء الدنيا فيرتفع عن المطيعين لله العاملين بأمره في الآخرة...

(وأما أهل المعصية فأنزلهم شر دار وغل الأيدي إلى الأعناق وقرن النواصي بالأقدام وألبسهم سرابيل القطران ومقطعات النيران في عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله في نار لها كلب ولجب، ولهب ساطع وقصيف هائل لا يظعن مقيمها ولا يفادى أسيرها ولا تفصم كبولها لا مدة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى). وهذه حالة أهل المعصية الأشقياء الذين انحرفوا عن الله وتمردوا على حكمه لقد كانت عاقبتهم شر عاقبة وقد ذكر لهم من العذاب ما فيه مزدجر ذكر لهم:

١ ـ نزولهم شر دار وهي جهنم وهل هناك أشر منها وأشد قساوة ولا يدخلها إلا الأشقياء.

٢ ـ غلت أيديهم إلى أعناقهم تذليلاً لهم وتحقيراً وعقاباً وعذاباً قال تعالى: ﴿**إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون..**﴾.

٣ ـ قرن النواصي بالأقدام فيجمع مقدم رأسه مع أقدامه في غل وهذا تعذيب له وتذليل قال تعالى: ﴿**يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذون بالنواصي والأقدام**﴾.

٤ ـ وبدل لباس الحرير الذي يلبسه أهل الجنة يلبس أهل النار ثياباً من قطران فإن هذه المادة السوداء ذات الريح المنتن يطلى بها بدنهم فتحرق الجلد.

قال تعالى: ﴿**وترى المجرمين يومئذٍ مقرنين بالأصفاد سرابيلهم من قطران**﴾.

قالوا: إن القطران ما يطلى به الإبل الجرباء فيحرق الجرب والجلد وفي النار يُطلى به العاصي فيصير كالقميص عليه ثم يرسل إلى النار ليكون أسرع في الإحراق وأشد في العذاب.

٥ ـ وكذلك ألبس أهل المعصية مقطعات النيران.

قال تعالى: ﴿**فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار**﴾.

قال ابن عباس: حين صاروا إلى جهنم لبسوا مقطعات النيران وهي الثياب القصار أو الثياب التي فصلّت لهم على القياس...

٦ ـ في عذاب قد اشتد حره وباب قد أطبق على أهله.

فالعذاب هناك شديد قوي لا يطيقه بشر قد انغلقت أبواب العذاب على أهلها فلا خروج لهم من دار الهوان ولا نجاة لهم من العذاب.

٧ ـ في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع وقصيف هائل.

أدخل هؤلاء المجرمون إلى نار شديدة قوية ذات حركة واضطراب ترعب قلوب من فيها ولها لهب يلمع وصوت يدوي ويعظم في قلوب من سمعه...

٨ ـ لا يظعن مقيمها ولا يفادى أسيرها.

فالإقامة في النار دائمة ليس هناك فترة استراحة أو هجرة لها إلى مكان آخر يخفف فيه العذاب كما أن من دفع فيها لا يدفع عنه فدية ويطلق سراحه بل هو أسير دائم وذلك

لأن هذا المخلوق كان بمقدوره أن يفدي نفسه وهو في دار الدنيا بما يقدمه من عمل صالح ولكن بعد أن انقطع التكليف بالموت فلا انفكاك له من الأسر ولا خروج له من العذاب.

٩ ـ ولا تفصم كبولها.

والقيود التي وضعت في عنق هذا الإنسان ويديه ورجليه لا تحل ولا تفك بل هي باقية مستمرة.

١٠ ـ لا مدة للدار فتفنى ولا أجل للقوم فيقضى.

وهذه مصيبة المصائب أنه ليس لهذه الدار وهي النار مدة فتفنى وتنتهي كما أنه ليس هناك وقت محدود يقضيه هذا الإنسان وينتهي منه بل بقاء دائم.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله.

(قد حقر الدنيا وصغرها وأهون بها وهونها). يصف النبي في زهده وإعراضه عن الدنيا وزينتها وقد وصفه بأنه حقّر الدنيا أي نظر إليها نظرة الاحتقار ـ والتشديد للتكثير ـ ومن حقّر أمراً أعرض عنه ولم يعطه من نفسه التفاتة أو انتباهاً، إنه يسقط من عينه ويغفل عنه بالكلية... كما أنه صغّرها ومن صغر أمراً لم يسأل عنه إذا فقده بل الكرام يترفعون عن صغار الأمور ومحقراتها ومن كان يعرف قيمة الجنة وكان نظره إليها إحتقر ما عداها مهما كان جليلاً وكبيراً...

كما أنه صلوات الله عليه قد استهان بالدنيا عند نفسه وهوّنها على غيره وذلك بأنه لم يعطها من نفسه شيئاً بل كان زارياً ومحتقراً لها فقد خرج منها دون أن يضع لبنة على لبنة وتحت يديه كل أموال الجزيرة.. وقد هوّنها على الناس حتى زهدهم فيها فتركوا التعلق بها بل طلقوها وباعوها بالآخرة...

(وعلم أن الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً). ما اختاره النبي كان موافقاً لإرادة الله وقد اختار الإعراض عن الدنيا وزينتها فقبضها الله عنه حباً له وتقديراً لمنزلته وعلواً لمقامه بينما بسطها لغيره احتقاراً له وتصغيراً لقدره لأنه صغير ينشد الصغار وما يكون فيه الصغار والدنيا لحقارتها وخستها وأنها دار لا تدوم بسطها لبعض الناس بينما أكرم نبيه بقبضها عنه.

وفي هذا الكلام العلوي عبرة لأهل الدين أن لا يكبروا أصحاب الدنيا الذين جاءتهم

بأموالها وكنوزها ومدخراتها فإنها لا تحمل الشرف ولا العزة ولا القرب من الله ولو كانت كذلك لبسطها الله لأصفى أصفيائه وأخلص أنبيائه. . .

وفي المقابل أن لا نحتقر من انزوت عنه الدنيا أو نجعل ذلك علامة لغضب الله عليه. . .

(فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً أو يرجو فيها مقاماً). الإعراض الحقيقي عن الشيء أن يُعرض القلب عنه بحيث تتحول نظرته القلبية إلى نظرة مجانبة بعيدة لا تنسجم معه فيجد النفور منه والبعد عنه.

بل لم يعد يخطر بباله شيء من الدنيا وما فيها وتتعلق نفسه بما عند الله وما يحققه من أعمال تقربه إليه ولذا يجب أن تغيب عن عينيه كل الأشياء التي يمكن أن تذكره بالدنيا أو تخطره ببعض ما فيها. . .

ثم علل كل ذلك لئلا يتخذ منها لباساً فاخراً ينسيه الآخرة أو يحول بينه وبين النظر إلى الله أو يرجو من خلال ما فيها أنه يقيم فيها فهو يغيّب عن عينيه ما يذكّره بها ويقطع الأسباب التي يمكن أن يتعلق بشيء منها.

(بلّغ عن ربه معذراً ونصح لأمته منذراً ودعا إلى الجنة مبشراً وخوف من النار محذراً). وهذه غاية البعثة وقد ذكر هذه الأسباب باعتبار قيامه صلوات الله عليه بها خير قيام فبلغ الأمانة وأدى الرسالة. . .

بلّغ عن ربه كل مراداته بحيث كان لله الحجة على الناس والعذر فيما لو عاقب من خالف وتمرد.

كما أنه نصح لأمته في كل ما يقربها من الله ويشدها إليه مخوفاً لها وواعظاً بكل ما يبعدها عن المعصية والتمرد. . .

كما أنه بشّر بالجنة لمن أطاع الله والتزم أمره ودعا الناس إليها وإلى دخولها وكونهم من أبنائها على عكس النار حيث خوفهم منها ومن عذابها وما فيها من شدة الألم وحذرهم منها ومما فيها من عذاب وآلام. . .

(نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم وينابيع الحكم، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة). هذه خصائص انفرد بها أهل البيت لم يشاركهم فيها أحد فهم شجرة النبوة فإن رسول الله منهم وفيهم

وعند هذا تقصر المناقب وتذوب الفضائل . .

وفي بيوتهم نزلت رسالة الإسلام حيث أنزل الله وحيه على نبيه فكان الإمام عنده ربيباً فنعم بهذه البركة الكريمة . .

وإلى بيوتهم تختلف الملائكة فهذا ينزل بالوحي وذلك ينزل للخدمة وذاك ينزل يطلب التوسل برسول الله وهكذا تختلف الملائكة هابطة صاعدة .

وهم معادن العلم وهذا مشهود لأهل البيت وكل من له أدنى اطلاع عرف أنهم قوم زقوا العلم زقاً ، شهد بذلك القريب والبعيد الموالي والمعادي ومن قلّب نظره في ذلك قرأ الحقيقة وعرف أنهم قوم اختصهم الله بالعلم على اختلاف أنواعه وتعدده .

كما أنهم ينابيع الحكم فهم يصدرون الأحكام وعندهم فصل الخصومات أو أن يكون المقصود أنهم مصدر العلوم وأهل الفهم وإدراك حقائق الأشياء ووضعها في موضعها لأن الحكمة تقتضي وضع الشيء في موضعه . . .

ثم أراد أن يجذب الناس إلى نفسه لأنه باب الهدى وعن طريقه يكون دخول الجنة فأشار إلى ذلك بقوله : ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة لأنه ينصر الحق ويحب أهل الحق ومن كان كذلك فإنه يتنظر الرحمة عندما يموت وينتقل إلى الله وهي الجنة .

كما أن عدو أهل البيت الذي حاربهم بيده أو بلسانه أو بقلبه أو بأي أسلوب كان ينتظر العقاب والعذاب بمجرد أن يموت وكذلك مبغض أهل البيت ينال العذاب والعقاب . . .

١١٠ ـ ومن خطبة له علية السلام

في أركان الدين

الاسلام

إنَّ أفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ[١] بَهَ المُتَوَسِّلُونَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، الإيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، والجِهادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإنَّهُ ذِرْوَةُ[٢] الإسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الإخْلَاصِ[٣] فَإنَّهَا الفِطْرَةُ[٤]، وإقَامُ الصَّلاَةِ فَإنَّهَا الْمِلَّةُ[٥]، وَإيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإنَّهَا فَرِيضَةٌ[٦] وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإنَّهُ جُنَّةٌ[٧] مِنَ العِقَابِ[٨]، وَحَجُّ الْبَيْتِ واعْتِمَارُهُ فَإنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ[١٠] الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإنَّهَا مَثْرَاةٌ[١١] فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأةٌ[١٢] فِي الأجَلِ[١٣]، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإنَّهَا تُكَفِّرُ[١٤] الْخَطِيئَةَ[١٥]، وَصَدَقَةُ العَلاَنِيَةِ فَإنَّها تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ. وَصَنَائِعُ[١٦] الْمَعْرُوفِ فَإنَّهَا تَقِي[١٧] مَصَارِعَ[١٨] الْهَوَانِ[١٩].

أفِيضُوا[٢٠] فِي ذِكْرِ اللهِ فَإنَّهُ أحْسَنُ الذِّكْرِ. وارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإنَّ وَعْدَهُ أصْدَقُ الْوَعْدِ. وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإنَّهُ أفْضَلُ الْهَدْيِ[٢١]. وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإنَّهَا أهْدَى[٢٢] السُّنَنِ[٢٣].

فضل القرآن

وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإنَهُ أحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، واسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإنَهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ. وَأحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإنَهُ أنْفَعُ الْقَصَصِ. وَإنَّ

العَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْجَائِرِ(٢٤) الَّذي لاَ يَسْتَفِيقُ(٢٥) مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، والْحَسْرَةُ(٢٦) لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ(٢٧).

اللغة

١ ـ توسل : إلى الله عمل عملاً تقرب به إليه تعالى.

٢ ـ الذروة : لكل شيء اعلاه.

٣ ـ كلمة الأخلاص : هي كلمة لا إله إلا الله.

٤ ـ الفطرة : الخلقة.

٥ ـ الملة : الدين، الطريقة والشريعة.

٦ ـ الفريضة : ما أوجبه الله وفرضه على عباده.

٧ ـ الجنة : بالضم كل ما وقى.

٨ ـ العقاب : الجزاء بالشر.

٩ ـ اعتمر : إذا زار البيت الحرام والعمرة أفعال مخصوصة يؤدي من قصد مكة.

١٠ ـ يرحضان : يغسلان من رحض الثوب إذا غسله.

١١ ـ المثراة : من ثرى المال إذا كثر ونمى وهذا مثراة أي تكثرة.

١٢ ـ المنسأة : التأخير.

١٣ ـ الأجل : جمعة آجال وقت الموت.

١٤ ـ تكفّر : تستر وتغطي والمقصود هنا إنها تسقط المعصية.

١٥ ـ الخطيئة : المعصية.

١٦ ـ الصنائع : مفردها صنيعة الإحسان.

١٧ ـ تقي : تدفع وتحمي.

١٨ ـ مصارع : جمع مصرع وهو موضع الصرع أي الطرح لأن صرعه أي طرحه على الأرض.

١٩ ـ الهوان : الذل.

٢٠ ـ افيضوا : اندفعوا.

٢١ ـ الهدي : السيرة والطريقة.

٢٢ ـ أهدى : أرشد.

٢٣ ـ السنن : الطرق.

٢٤ ـ الحائر : المتحير.

٢٥ ـ استفاق : من النوم استيقظ ومن سكره صحا.
٢٦ ـ الحسرة : التلهف.
٢٧ ـ ألوم : من اللوم وهو العذل التكدير بالكلام لآتيانه ما لا ينبغي...

الشرح

(إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله). يذكر عليه السلام أفضل ما يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ترغيباً لنا وبياناً لأهمية هذه الواجبات فيذكر أن الإيمان بالله هو أول شيء يجب أن يتقرب به العبد إلى الله لأنه الأساس الذي يشاد عليه غيره ويبني فوقه ما سواه فإن كل الأمور الأخرى متفرعة عنه ناشئة من وجوده..

والإيمان بالله عقيدة راسخة في القلب تنعكس على نفس هذا الإنسان وذات أبعاد في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإن هذا الإيمان بالله يستدعي أن يتكيّف الإنسان حسب البرنامج الألهي الذي يضعه له ويدعوه إليه وأما في الآخرة فيؤمن بكل ما أخبر به من جنة ونار وحساب وعقاب وغيرها...

والإيمان برسول الله فرع الإيمان بالله فإن من لم يؤمن بالمرسل لا يؤمنْ بالرسول.

ومن آمن بالرسول وجب أن يتلقى منه أحكام الله ومراداته ويعمل بها وينفذها فإن الرسول هو الواسطة بين الله والإنسان وهو الناقل لهذا الإنسان برنامجه الإلهي الذي يسعده في الدنيا والآخرة...

(والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام). الجهاد في سبيل الله قمة التكاليف الشرعية وأعظم الواجبات الإلهية ووصفه بالذروة وإنه أعلى ما في الإسلام لما فيه من تضحية وبذل وتقديم للنفس ولما فيه من عز للإسلام بحيث لولاه لتغلب الكفر على بلاد المسلمين ومُنع أهل الإسلام من القيام بواجباتهم وإداء ما لله عليهم وقد ظهرت فوائد الجهاد وثمراته بما قام به المسلمون من فتوحات شملت شرق الأرض وغربها وبما بسط الإسلام من حكمه على تلك البلاد بينما عاش المسلمون اليوم الذل والهوان بتركهم الجهاد واماتتهم لهذه الفريضة العظيمة...

(وكلمة الأخلاص فإنها الفطرة). وكلمة الأخلاص هي كلمة لا إله إلا الله فإن الله

خلق الإنسان وجعلها في أعماقه بحيث لو خلي ونفسه لأهتدى إلى الله ولم ينحرف عن الإيمان به وعن توحيده ولكن المجتمع المحيط به والعادات والتقاليد المحدقة به هي التي تضله عن هذه الحقيقة وتحرفه عنها وبهذا جاءت الأخبار.

ـ في كتاب المحاسن بإسناده عن زراره قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** قال: فطرهم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم...

ـ وفي الكافي بإسناده عن زراره عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه..».

(وإقام الصلاة فإنها الملة). وإقامَ الصلاة عبارة عن المداومة عليها وعدم التهاون بها وقد جعلها الدين والشريعة مع أنها جزئية من ذلك لأهميتها ودورها وأثرها في تصفية النفس وتنقيتها ولما فيها من صلة بين العبد وربه وبين العبد ومجتمعه.

وقد وردت الأحاديث بأن تاركها عن انكار لها يخرج عن ملة الإسلام.

ـ ففي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام(١) قال: جاء رجل إلى النبي(ص) فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: «لا تدع الصلاة متعمداً، فإن من تركها متعمداً فقد برئت منه ملة الإسلام».

ـ وعن أبي عبد الله عليه السلام(٢) عن أبيه عن جابر قال: قال رسول الله(ص): «ما بين الكفر والإيمان إلا ترك الصلاة»...

ـ وقال رسول الله(ص): «إن عمود الدين(٣) الصلاة وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم فإن صحّت نظر في عمله وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله»...

(وايتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة). ووجوب الزكاة من ضروريات الدين ومنكرها كافر وقد دل الكتاب الكريم والسنة الشريفة على وجوبها...

قال تعالى: **﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...﴾**. وقال سبحانه: **﴿وما امروا إلا ليعبدوا(٤) الله مخلصين له الدين ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾**. وقوله

(١ ـ ٢) الوسائل كتاب الصلاة باب ١١ من أبواب أعداد الفرائض.
(٣) الوسائل كتاب الصلاة باب ٨ من أبواب أعداد الفرائض.
(٤) سورة البينة آية/ ٥.

تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها..﴾. ـ قال الصادق عليه السلام: لما نزلت آية[١] الزكاة ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ في شهر رمضان فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة(إلى أن قال) ثم لم يتعرض لشيء من أموالهم حتى حال عليهم الحول في قابل فصاموا وأفطروا فأمر صلى الله عليه وسلم مناديه فنادى في المسلمين: أيها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلاتكم ثم وجه عمال الصدقة وعمال الطسوق.

ـ وعن أبي جعفر عليه السلام قال:[٢] ما من عبد منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب وهو قول الله عز وجل: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾.. يعني ما بخلوا به من الزكاة...

والزكاة فريضة إلهية واجبة على الأغنياء تؤخذ منهم وترد على الفقراء وفي هذا التشريع من التكافل الاجتماعي ما يجعل الجسد الإسلامي وحدة متكاملة يحس الغني من خلالها بواجبه نحو الفقراء كما يشعر الفقير أنه في عين الله ونظر الأغنياء...

والزكاة واجب مالي يكفي لسد عوز الفقراء بحيث يرتفع الفقر من المجتمع وقد قدرها الله بقدر حاجة الفقراء تكفيهم وترفع عوزهم وما نراه من الفقر إنما هو نتيجة منع الأغنياء هذا الحق وبخلهم به.

ـ قال الإمام أبي عبد الله عليه السلام: وفي حديث: إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل ولكن أوتوا من منع من منعهم حقهم لا مما فرض الله لهم ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير[٣]...

ـ وقال الصادق عليه السلام: إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي فقيراً محتاجاً ولا ستغنى بما فرض الله له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله[٤].

(١) الوسائل كتاب الزكاة باب ١.
(٢) الوسائل كتاب الزكاة باب ٣.
(٣ ـ ٤) وسائل الشيعة كتاب الزكاة باب ١.

وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بترك التسبيح في ذلك اليوم وإن أحب الناس إلى الله تعالى اسخاهم كفاً واسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله.

ما تجب فيه الزكاة. تجب الزكاة في تسعة أشياء حددّها النبي(ص) في الحديث الشريف عن الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت آية الزكاة ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ في شهر رمضان فأمر رسول الله مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة، ففرض الله عليكم من الذهب والفضة والإبل والبقر والغنم والحنطة والشعير والتمر والزبيب... وفي حديث الإمام الرضا أيضاً يحدد الزكاة في تسعة أشياء قال عليه السلام: الزكاة على تسعة أشياء على الحنطة والشعير والتمر والزبيب والإبل والبقر والغنم والذهب والفضة...

نصب الزكاة. ومن المعروف أنه ليس كل من ملك شيئاً من هذه الأموال يجب عليه الزكاة بل إذا بلغت قدراً معيناً حدده الشارع ونحن سنذكر ذلك بشيء من الاختصار ونكتفي بالعناوين العامة...

حدّد الشارع النصاب كما يلي:.

في الإبل اثنا عشر نصاباً.

١ ـ ٥ ـ خمسة منها كل واحد خمس من الإبل وفي كل واحد من النصب شاة بمعنى أنه لا يجب فيما دون خمس.

٦ ـ ست وعشرون ففيها بنت مخاض.

٧ ـ ست وثلاثون وفيها بنت لبون.

٨ ـ ست وأربعون وفيها حقة.

٩ ـ إحدى وستون فجذعة.

١٠ ـ ست وسبعون ففيها بنتا لبون.

١١ ـ إحدى وتسعون وفيها حقتان.

١٢ ـ مائة وإحدى وعشرون ففي كل خمسين حقة وكل أربعين بنت لبون.

وفي البقر.

١ ـ إذا بلغت ثلاثين فتبيع أو تبيعة.

٢ ـ أربعون مسنة.

نصب الغنم. للغنم خمسة نصب.

١ ـ أربعون فشاة.

٢ ـ مائة وإحدى وعشرون فشاتان.

٣ ـ مائتان وواحدة ثلاث.

٤ ـ ثلاثماية وواحدة أربع.

٥ ـ إذا بلغت أربعماية وأزيد ففي كل ماية شاة.

شروط للأنعام.

يشترط في الأنعام حتى يجب الزكاة فيها.

١ ـ السوم وهو الرعي أي يجب أن لا تكون قد علفت من مال المالك بل ترعى من البرية.

٢ ـ يشترط أن لا تكون عوامل أي لا يستعملها صاحبها في الحراثة وما أشبة ذلك.

٣ ـ الحول بأن يمر عليها حول كامل وهي في ملك صاحبها.

نصب الذهب والفضة.

١ ـ عشرون ديناراً من الذهب وهو النصاب الأول.

٢ ـ ثم أربعة دنانير فلا شيء فيما دون العشرين.

والمخرج ربع العشر.

وأما في الفضة.

١ ـ ما ئتا درهم فلا يجب فيما دون ذلك.

٢ ـ ثم أربعون درهماً.

والمخرج أيضاً ربع العشر.

ويشترط في النقدين.

١ ـ يشترط في النقدين بلوغ كل منهما النصاب.

٢ ـ أن يكون مسكوكاً صالحاً للمعاملة به.

٣ ـ أن تبقى عند المالك حولاً كاملاً.

نصب الغلات. يشترط في وجوب الزكاة فيها أمران.

١ ـ بلوغ النصاب وتقدر في زماننا بثمانمائة وسبعة وأربعين كيلو تقريباً.

٢ ـ الملك في وقت تعلق الوجوب سواء كان بالزرع أم بالشراء.

مقدار الزكاة. المقدار الواجب اخراجه في زكاة الغلات العشر إذا سقى سيحاً أو بماء السماء.

ونصف العشر إذا سقى بالدلاء والماكينات والنواعير.

فوائد الزكاة وآثارها. للزكاة آثار جمة وفوائد متعددة لو فكر الإنسان في بعضها لكانت كافية في دفعه إلى ادائها والقيام بها وأهم هذه الآثار هي: .

١ ـ أن في اخراج الزكاة طاعة لله وامتثالاً لأمره وبها يخرج الإنسان عن دائرة التمرد والعصيان إلى خط الطاعة والإيمان.

٢ ـ في الزكاة سد حاجة الفقراء والأيتام والأرامل والمساكين...

٣ ـ إن في الزكاة تحصين المال عن التلف وفي ذلك يقول الصادق عليه السلام: «وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق إنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة» وقال موسى بن جعفر عليهما السلام: حصنوا أموالكم بالزكاة.

٤ ـ إنها تذكر الأغنياء بحال الفقراء فيتذكرون نعمة الله عليهم ويقومون بإداء هذا الشكر حيث أن الله الذي ضيق على الفقراء قادر على أن يضيق على الأغنياء ويبتليهم بالفقر.

٥ ـ إن إداء الزكاة تعوّد النفس على الكرم والسخاء ـ وتنفي الشح والبخل ـ وهي صفة يحبها الله ويريدها الإسلام.

قال النبي(ص): «من أدى ما افترض الله عليه فهو أسخى الناس».

٦ ـ إن في إداء الزكاة نماء للمال.

٧ ـ في بعض الروايات أنها لا تقبل صلاة إذا لم تؤد الزكاة.

قال رسول الله(ص): «ثمانية لا تقبل منهم صلاة مانع الزكاة»...

٨ ـ إن المال غير المزكى ملعون على لسان رسول الله ﷺ ففي الحديث عن جعفر بن محمد عن أبيه أن النبي(ص) قال لأصحابه يوماً «ملعون كل مال لا يزكى».

٩ ـ إن في منع الزكاة منع الأرض خيراتها وبركاتها قال رسول الله(ص): «إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها».

(وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب). وصوم شهر رمضان من الواجبات الضرورية التي نص عليها الكتاب والسنة.

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا[1] كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**. وقال تعالى.

﴿شهر رمضان الذي أنزل[2] فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾.

وأما السنة فأخبارها كثيرة.

منها ما ورد عن رسول الله قال: «شهر رمضان فرض الله عليكم صيامه فمن صامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن شهر رمضان فريضة من فرائض الله عز وجل.

ـ وقال رسول الله (ص): «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج والولاية».

(١ ـ ٢) البقرة/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

فوجوب صيام شهر رمضان من ضروريات الدين ويعلم بوجوبه كل فرد مسلم حتى الأطفال الصغار. . .

وما ورد في كلام الإمام يتوافق مع ما ورد عن النبي (ص) في حق شهر رمضان وإن صيامه وقاية من العذاب والعقاب.

قال رسول الله (ص): «الصوم[١] جنة من النار».

وفي حديث آخر: «والصيام جنة العبد المؤمن يوم القيامة كما يقي أحدكم سلاحه في الدنيا.

(وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب). والحج والعمرة واجبان على المستطيع ووجوبهما مما تعرفه الأمة وتعمل به.

قال تعالى: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾. وفي تفسير ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: هما مفروضان.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع لأن الله عز وجل يقول: ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ وإنما انزلت العمرة بالمدينة يقول الراوي قلت له: فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ايجزي ذلك عنه؟.

قال: نعم.

وأما كونهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب أي يزيلانه ويمحوان أثره فهذا مما جاءت به الأخبار ووردت به الروايات.

قال الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: حجوا واعتمروا تصح أبدانكم وتتسع ارزاقكم وتكفون مؤنات عيالكم.

وقال: الحاج مغفور له وموجوب له الجنة ومستأنف له العمل ومحفوظ في أهله وماله.

(وصلة الرحم فإنها مثراة في المال ومنسأة في الأجل). اوصى الله بصلة الرحم وحث عليها فقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من**[٢] **نفس واحدة**

(١) وسائل الشيعة كتاب الصوم باب ١ من أبواب الصوم المندوب.

(٢) سورة النساء آية/ ١.

وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾. والأرحام مفهوم عرفي يدركه الناس وينطبق على الآباء والأبناء والأعمام والأخوال وأولادهم ومن يعده العرف من الأقارب القريبين. . .

قال رسول الله(ص):

«أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة فإن ذلك من الدين».

وقد ورد في بعض الأحاديث ذكر آثارها وما يترتب عليها كما في كلام الإمام.

فقد قال رسول الله(ص): «من سره أن يمد الله في عمره وأن يبسط له في رزقه فليصل رحمه فإن الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق تقول: يا رب صل من وصلني واقطع من قطعني. .».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام:

صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسيء في الأجل.

وأما كونها مثراة في المال وتطيل الأجل فلأن الأرحام إذا توافقوا والتقوا فكروا في مصالح بعضهم وأعانوا بعضهم وبذلك ترتفع الحاجة وتنمو الأموال وأما إنها تطيل الأعمار فلأن من أراد الأعتداء ارتدع وكف لقوة الأرحام وتكاتفهم هذا بحسب الظاهر. . .

والحقيقة التي يجب أن نذهب إليها أن علم ذلك يترك لأهله فطالما صدر ذلك عنهم والله لا يُحد قدرته شيء وهو قادر على تحقيق ذلك.

(وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة). وصدقة السر أقرب للتقوى ويتحقق فيها الاخلاص أكثر من غيرها ولذا تمحى بها الخطيئة ويكفر بها عن الذنوب وقد جاء في الروايات ما يدل على ذلك.

ـ قال رسول الله(ص): «صدقة السر تطفي غضب الرب[1] تبارك وتعالى».

ـ وعن أبي جعفر الباقر[2] عليه السلام قال: صدقة السر تطفي غضب الرب وتطفي

(١ ـ ٢) وسائل الشيعة كتاب الزكاة باب ١٤ من أبواب الصدقة.

الخطيئة كما يطفي الماء النار.

ـ وقال الباقر عليه السلام: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل[١] إلا ظله(إلى أن قال) ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله.

(وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء). والصدقة بنفسها مستحبة لأنها تخرج من قلب يعيش مع الفقراء وأصحاب الحاجة ويحس هذا القلب بوشائج الرحم بين الإنسان وأخيه الإنسان.. صدقة قليلة تعبر عن عمق الشعور مع هذا الفقير وتواسيه قدر استطاعتها، إنها نفس طيبة تقدر ظروف الآخرين وتتعاون معهم بل تعاونهم قدر استطاعتها وقد ورد في الروايات الحث على الصدقة.

قال رسول الله(ص): «الصدقة تدفع ميتة السوء».

قال رسول الله(ص): إن الله لا إله إلا هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة والحرق والغرق والهدم والجنون وعدّ سبعين باباً من السوء».

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الصدقة لتدفع سبعين بلية من بلايا الدنيا مع ميتة السوء إن صاحبها لا يموت ميتة السوء أبداً مع ما يدخر لصاحبها في الآخرة.

(وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان). وصنائع المعروف هي الأمور الطيبة التي يعملها الإنسان مع غيره كإعانته ومساعدته وتعليمه وإرشاده وهدايته إلى ما فيه منافعه ودفع السوء عنه وما فيه مضرة عليه وغيرها...

وكونها تدفع ميتة الهوان لأن النفوس بطبيعتها مجبولة على حب من أحسن إليها فتكون هذه اليد التي له عند الناس هي التي تدافع عنه وترد كل من يريد به سوءاً أو أن المصنوع لهم هذا المعروف يمطرونه بالدعاء فيدفع الله عنه بدعائهم السوء وميتة الهوان...

وقد ورد في الروايات أن صنائع المعروف تقي مصارع الهوان.

ـ ففي الرواية عن أبي جعفر عليه السلام يقول: إن[٢] صنائع المعروف تدفع مصارع السوء.

(افيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر). ذكر المحبوب محبوب وهل هناك أحب

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الزكاة باب ١٤ من أبواب الصدقة.

(٢) الوسائل كتاب الأمر بالمعروف باب ١ من أبواب المعروف.

من الله؟ إليه ينتهي الحب ومنه يصدر وعنه يتفرع وكل حب لا يكون منه أو لا يصل إليه فهو خاسر فاشل. . .

ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره بل أخذ يردده على لسانه وإن كان فاقد الوعي وفي سكرات الموت، لقد تمكن من قلبه فلم يستطع أن يكتمه لسانه فجهر به وأصحر وأعلن. . .

وذكر الله أحسن الذكر لأنه الذكر الذي يبقى ويدوم وغيره يفنى ويموت. . .

لأنه ذكر الله والله إليه تتجه القلوب والأبصار وبه تطمئن القلوب وترتاح النفوس ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

وقد ورد الأمر بذكر الله.

قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة ١٥٢]. وقال مادحاً قوماً: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ [آل عمران ١٩١]. وقال آمراً رسوله: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والأبكار﴾ [آل عمران ٤١]. وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله عز وجل قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً إن الله عز وجل يقول: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. .﴾. ويستحب ذكر الله في كل مجلس.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله عز وجل ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة.

كما يستحب ذكر الله لمن أراد أن يخرج من المجلس وعند الملتقى.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل إذا أراد أن يقوم من مجلسه: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ويستحب ذكر الله في السر وفي النفس.

كما أنه يستحب ذكر الله إذا غفل الناس عن ذلك.

(وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد). ترغيب للناس فيما وعد الله فيه المتقين وقد وعدهم بالجنة وما فيها كما قال تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون[1]

---

(١) سورة الرعد آية/ ٣٥.

من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقو وعقبى الكافرين النار﴾. قال تعالى: ﴿وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين﴾ [آل عمران ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ [ق ٣١]. وقال تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ [الطور ١٧]. وإذا كانت هذه الوعود مما يرغب فيها العقلاء وكانت صادرة عن الله الذي لا يخلف الميعاد فعلى المؤمن أن يرغب فيها ويطلبها ويبذل قصارى جهده في تحصيلها. . .

(وأقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى). لأن رسول الله(ص) اكمل الخلق وأشرفهم فإن سلوكه أشرف السلوك في المنطق والحركة والنظرة والتصرف وقد كان أباً رحيماً يبحث عما ينفع الناس ويهديهم وكان في الدرجة العليا في السلوك بين الناس حتى نظراته كان يقسّمها بين جلسائه وزواره. . .

(واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن). أمر للمسلمين أن يعملوا بسنة رسول الله لأن فيها الهدى بل لأنها أهدى من كل سنة أخرى. . وسنة النبي تتجسد في ثلاثة أمور.

الأول: قوله الصادر عنه كأمره بالصلاة والصيام وصلة الرحم وإعانة الفقير.

الثاني: في فعله فلو تصدق لعلمنا حسن ذلك وكان التصدق من الأمور المرغوبة ولو امتنع عن أمر لعلمنا عدم حسنه. . .

الثالث: تقريرة وهو عبارة عن سكوته عن فعل يقوم به بعض المسلمين فإنه بسكوته نستكشف جواز ذلك. . .

والنبي باعتباره معصوم مسدّد من قبل السماء لا يعصي ولا يخطيء فإن سيرته أهدى من كل سيرة وسنته أهدى من كل سنّة من حيث توصل صاحبها إلى الحق والعدل وتأخذ بيده إلى مرضاة الله وطاعته. . وقد أمرنا الله باتباعه وطاعته فقال تعالى: ﴿ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. . ﴾.

(وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث). وسمى القرآن حديثاً اتباعاً لقوله تعالى: ﴿نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ وهذا ترغيب في القراءة ومحو للأمية فإن من أحسن تعـلُم القرآن قدر على قراءة ما سواه وكان هذا التعلُم بداية لفهمه والعمل به. . .

(وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب) تفهموا القرآن بعد قراءته فإنه ينعش القلوب ويحرك الجوارح ويضع الإنسان في خط الله. . فكما أن الربيع هو أجمل فصول السنة وفيه تتفتح الأزهار وتخرج من أكمامها ويكتسي الكون بحلة خضراء جميلة كذلك القرآن

بالنسبة إلى النفس إذا فهمت ما فيه فإنها تتحرك في حالة انتعاش وسرور وتعلو في سماء الفضيلة والعدل. . .

(**واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور**). وهذا من قوله تعالى: **﴿وننّزل من القرآن ما هو[1] شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**. فإن من طلب الشفاء بالقرآن شفي وعوفي من مرض النفاق والحسد وكل الرذائل المضرة بالإيمان.

(**واحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص**). وهذا من قوله تعالى[2]: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾**. . . وحسن التلاوة وخصوصاً في بعض صورها فإنها تدخل إلى عمق القلب ويشعر الإنسان معها بالرقة والخشوع والإنابة والاستكانة، وكم من آية يقرأها الإنسان ويرددها فلا يتأثر بها وإذا به في بعض الأحيان يقرأها آخرون فتحرك فيه الحس الداخلي فيخشع ويخضع ويتعظ ويعتبر. . .

(**وإن العالِم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم**). سوّى أولاً بين العالم التارك لعلمه وبين الجاهل لأنهما سواء في الانحراف والضلال والخروج عن قصد السبيل فإن العالم إذا لم يعمل بعلمه فكأنه جاهل من حيث هذه الجهة. . .

ثم جعل العالم التارك لعلمه أخس من الجاهل لوجوه ثلاثة.

١ ـ إن الحجة على العالم أعظم منها على الجاهل لأن ذاك يعرف وهذا لا يعرف وإذا كان للجاهل أن يعتذر بعدم المعرفة فليس للعالم مثل هذا الاعتذار.

٢ ـ الحسرة له ألزم لأن من يعلم طرق الخير ثم لا يفعلها يتألم لفواتها ويتحسر على ضياعها بينما الجاهل لعدم علمه بذلك يبقى جهله سداً دون هذه الحسرة لأنه لا يشعر بفوات شيء منه.

٣ ـ إن العالم التارك لعلمه عند الله أشد لومـاً لأن عدم عمله لتمرده واصراره على المعصية وهو أشد قبحاً ممن لا يعرف أصل ذلك الفعل ودواعيه وما وراءه.

وقد وردت الأخبار الكثيرة في ذم العالم التارك لعلمه كما وردت الأخبار بحسرته يوم القيامة ولومه لنفسه. . .

---

(١) سورة الإسراء آية/ ٨٢.

(٢) سورة القصص آية/ ٣.

١ ـ عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال في كلام له: «العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة».

٢ ـ وعن أبي عبد الله(ع) قال مخاطباً أحد أصحابه واسمه حفص: يا حفص يغفر الله للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

١١١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذم الدنيا

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ[١] بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ[٢] بِالقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا[٣]، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا[٤]. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ[٥] زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ[٦] بَائِدَةٌ[٧]، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ[٨]. لاَ تَعْدُو[٩] ـ إِذَا تَنَاهَتْ[١٠] إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[١١] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾. لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً[١٣]، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلاَّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً وَلَمْ تَطُلَّهُ[١٤] فِيهَا دِيمَةُ[١٥] رَخَاءٍ[١٦]، إِلاَّ هَتَنَتْ[١٧] عَلَيْهِ مُزْنَةُ[١٨] بَلاَءٍ! وَحَرِيٌّ[١٩] إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً[٢٠]، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ[٢١] وَاحْلَوْلَى[٢٢]، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى[٢٣]! لاَ يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا[٢٤] رَغَباً[٢٥]، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ[٢٦] مِنْ نَوَائِبِهَا[٢٧] تَعَباً! وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ[٢٨] خَوْفٍ! غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا[٢٩] إِلاَّ التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ! وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ[٣٠]، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ،

وَذِي أُبَّهَةٍ(٣١) قَدْ جعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ(٣٢) قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً! سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ(٣٣)، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ(٣٤)، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ(٣٥)، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ(٣٦)، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ(٣٧)، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ(٣٨)! حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ(٣٩)! مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا(٤٠) مَنْكُوبٌ(٤١)، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ(٤٢)! أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً(٤٣)، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا(٤٤) عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ(٤٥). فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ(٤٦)، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ(٤٧) بِالْقَوَادِحِ(٤٨)، وَأَوْهَقَتْهُمْ(٤٩) بِالْقَوَارِعِ(٥٠)، وَضَعْضَعَتْهُمْ(٥١) بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ(٥٢) لِلْمَنَاخِرِ(٥٣)، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ(٥٤)، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ «رَيْبَ الْمَنُونِ(٥٥)». فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا(٥٦)، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا(٥٧)، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ(٥٨)، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ الضَّنْكَ(٥٩)، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلاَّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ النَّدَامَةَ! أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ(٦٠) مِنْهَا! فَاعْلَمُوا ـ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا، وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً»: حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً، وَأُنْزِلُوا الأَجْدَاثَ(٦١) فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ(٦٢) أَجْنَانٌ(٦٣)، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ(٦٤) جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً(٦٥). إِنْ جِيدُوا(٦٦) لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا(٦٧) لَمْ يَقْنَطُوا(٦٨). جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ،

وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ(٦٩)، وَجُهَلاَءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ. لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاؤُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ البَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْداً عَلَيْنَا، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

اللغة

١ ـ حُفّت : أُحيطت.
٢ ـ راقت : صفت وراقه الشيء الفلاني أعجبه وسره.
٣ ـ حبرتها : سرورها.
٤ ـ الفجعة : الرزيئة.
٥ ـ حائلة : متغيرة.
٦ ـ نافدة : فانية.
٧ ـ بائدة : هالكة.
٨ ـ غوّالة : مهلكة.
٩ ـ لا تعدو : لا تتجاوز.
١٠ ـ تناهت : بلغت ووصلت.
١١ ـ الهشيم : اليابس المتكسر من النبات.
١٢ ـ تذروه : تطيره وتنسفه.
١٣ ـ العبرة : بفتح العين الدمعة وقيل هي قبل أن تفيض.
١٤ ـ تطله : من الطل وهو المطر الخفيف.
١٥ ـ الديمة : مطر يدوم بدون برق ولا رعد.
١٦ ـ الرخاء : السعة.
١٧ ـ هتنت : انصبت.
١٨ ـ المزنة : القطعة من السحاب ذي الماء أو الأبيض منه.
١٩ ـ حري : جدير وخليق.

٢٠ ـ متنكرة	:	متغيرة من حال تسره إلى حال يكرهها .
٢١ ـ أعذوذب	:	صار عذبا .
٢٢ ـ إحلولى	:	صار حلواً .
٢٣ ـ أوبى	:	صار كثير الوباء والوباء مرض معد .
٢٤ ـ الغضارة	:	طيب العيش، السعة .
٢٥ ـ الرغب	:	بالتحريك المرغوب ورغبت في الأمر إذا أردته .
٢٦ ـ أرهقته	:	أغشته إياه .
٢٧ ـ النوائب	:	جمع نائبة النازلة والمصيبة .
٢٨ ـ القوادم	:	للطير هي مقدم ريش جوانحه وهي أربعة عشر ريشة .
٢٩ ـ الأزواد	:	جمع زاد ما يتخذ من الطعام للسفر .
٣٠ ـ يوبقه	:	يهلكه .
٣١ ـ الأُبهة	:	العظمة والكِبْر .
٣٢ ـ النخوة	:	بفتح النون الإفتخار .
٣٣ ـ دُوّل	:	بضم الدال وفتح الواو المشددة المتحول .
٣٤ ـ رنق	:	بفتح فكسر كدر .
٣٥ ـ الأجاج	:	المالح .
٣٦ ـ صبر	:	بكسر الباء عصارة شجر مر أو نفس الشجر .
٣٧ ـ سمام	:	جمع سم مثلث السين .
٣٨ ـ رمام	:	بكسر الراء جمع رمة بالضم وهي القطعة البالية من الحبل .
٣٩ ـ السقم	:	المرض .
٤٠ ـ موفورها	:	صاحب الوفر وهي الثروة .
٤١ ـ المنكوب	:	المصاب .
٤٢ ـ المحروب	:	المسلوب للمال .
٤٣ ـ العديد	:	كثير العدد .
٤٤ ـ ظعنوا	:	رحلوا .
٤٥ ـ الظهر القاطع	:	ما يركب من الدواب لقطع الطريق .
٤٦ ـ الفدية	:	الفداء مقدار من المال يدفع من أجل تحرير الأسرى .
٤٧ ـ أرهقتهم	:	غشيتهم وغطتهم .
٤٨ ـ القوادح	:	جمع قادح آفة تظهر في الشجر وصدوع تظهر في الأسنان .
٤٩ ـ أوهقتهم	:	من الوهق بفتح الهاء حبل تشد به قائمة الدابة .
٥٠ ـ القوارع	:	المحن والدواهي .
٥١ ـ ضعضعتهم	:	ذللتهم .

٥٢ ـ عفرتهم	:	من العفر وهو التراب.
٥٣ ـ المناخر	:	الأنوف.
٥٤ ـ المناسم	:	جمع منسم خف البعير.
٥٥ ـ ريب المنون	:	طوارق الدهر.
٥٦ ـ دان لها	:	خضع وذل، أطاع.
٥٧ ـ أخلد إليها	:	ركن إليها.
٥٨ ـ السغب	:	الجوع.
٥٩ ـ الضنك	:	الضيق.
٦٠ ـ الوجل	:	الخوف.
٦١ ـ الأجداث	:	القبور.
٦٢ ـ الصفيح	:	الحجارة وفي الأصل وجه كل شيء عريض.
٦٣ ـ الأجنان	:	جمع جنين ـ بالتحريك ـ القبر.
٦٤ ـ الرفات	:	العظام البالية.
٦٥ ـ المندبة	:	الندب على الميت وهو تعداد محاسنه.
٦٦ ـ جيدوا	:	مطروا أي جادت عليهم السماء بالمطر.
٦٧ ـ قحطوا	:	من القحط وهو الجدب.
٦٨ ـ القنوط	:	اليأس.
٦٩ ـ الأضغان	:	الأحقاد.

الشرح

(أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة وراقت بالقليل وتحلت بالآمال وتزينت بالغرور). حذر عليه السلام من الدنيا وقال لنا: تنبهوا إليها وإلى خطرها وذكر بعض أوصافها التي يمكن أن تكون هي الأسباب الداعية لنا إلى الإقدام عليها وتناولها.. إنه يضع لنا بعض المفردات التي يمكن أن تدفعنا في مهاوي الإنحراف وقد ذكر لنا منها أوصاف.

الأولى: «إنها حلوة خضرة» فطعمها حلو طيب ترغب فيه النفس وتستلذه وكذلك خضرة نضرة تسر الناظرين ويقال: إن ذكره عليه السلام لهذين الوصفين لأكثرية تأديتهما إلى النفس والإلتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواس...

الثانية: «حفت بالشهوات» فالشهوات محيطة بهذه الدنيا شهوة المال والجاه والسلطان والأولاد وغيرها والقوي هو الذي يكسر هذا الستار المضروب ويطيع الله فيما أمر . . .

(وتحببت بالعاجلة). جعلت الناس يحبونها بما فيها من ملذات عاجلة ترغب فيها النفس من مأكل ومشرب وجنس فهي كالمرأة المتحببة بمالها وجمالها . . .

(وراقت بالقليل). أعجبت الناس بهذا القدر القليل الذي فيها . . فما قيمة المال فيها مقابل الآخرة وما قيمة الطعام مقابل طعام الآخرة وما قيمة القصور مقابل الجنان في الآخرة وما قيمة الخدم والحشم مقابل الولدان والخدم في الآخرة؟! .

(وتحلت بالآمال). تزينت لأهلها بما يؤملون منها وهي آمال باطلة غير مستقرة يؤمل الإنسان بحسب صحته أنه يعيش وكأنه مخلد فيها فيعمل بمقتضى هذا الأمل وإذا بالموت يأتيه فيرديه . . .

(وتزينت بالغرور). أظهرت زينتها بما فيها من مال وجاه ونعيم ولكنها زينة باطلة لعدم دوامها وبقائها بل هي كالظل يختفي بسرعة .

(لا تدوم حبرتها). لا تدوم مسراتها ولا تستقر ملذاتها وأي سرور يستقر ومن لطائف ما قرأت أن يزيد بن عبد الملك عندما أفضت إليه الخلافة قالت له زوجته: يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شيء قال: نعم قالت: وما هو قال: حبابة ـ وهي مغنية كان يحبها قبل الخلافة ـ فاشترتها له وهو لا يعلم وزينتها وأجلستها[1] من وراء ستر لها ثم قالت: يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شيء قال: أوما أعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت: ها أنت وحبابة وتركته وإياها فحظيت عنده وغلبت في عقله . . وإنه قال يوماً: إن بعض الناس يقولون: إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر وإني أريد أن أكذبهم في ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى مع حبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره فبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبابة حبة رمان وهي تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً . . .

(ولا تؤمن فجعتها). فمصائبها ورزاياها على أهبة الإستعداد بينما الإنسان في عرس وإذا به ينتقل إلى مأتم وبينما هو في سرور وإذا به ينتقل إلى حزن.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ج ١ ص ٧١.

(غرارة ضرارة). فهي كثيرة الغرور بما تظهر من أمور تعجب الناس وهي كثيرة الضرر لهم لأنها تجرهم إلى النار بملذاتها المؤقتة وتفوّت عليهم المنافع الحقيقية في الآخرة...

(حائلة زائلة). إنها متغيرة من حال إلى حال لا تستقر ونحن نرى تغير الدنيا وتحولاتها فبينما هو اليوم في الملك والسلطان وإذا به يطارد غداً ولا ترى له قرار وبينما هو اليوم في صحة جيدة إذ به غداً طريح الفراش يصرخ ويشتكي وهكذا... وهي أيضاً زائلة لا بقاء لها تمضي بسرعة وتنقضي على عجل...

(نافذة بائدة). إنها تنتهي إلى مدة مضروبة لها لا تتجاوزها وهي هالكة لا خلود لها ولا دوام...

(أكّالة غوالة). فهي تأكل الناس وتبتلعهم وهي تهلكهم ولا تبقي منهم أحداً فعلى كثرة ما تدفع الأرحام تبتلع الأرض.

(لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾). لا تتجاوز الدنيا بما فيها عند الراغبين فيها والراضين بها والمتمنين لها أن تكون أكثر مما ضربه الله لها مثلاً في القرآن من أنها تعجبهم وتزهر في عيونهم وتروقهم محاسنها ثم عن قليل تزول عنهم وتنزوي عن ساحتهم، وتتحول إلى غيرهم... فحال من أعجبتهم وحلت في أعينهم كحال الزرع الأخضر النضر يأتي عليه الزمن فيصيبه اليباس ثم يتحطم وتنسفه الريح في الفضاء والدنيا هكذا تعجب أشخاصاً وتروق لهم ثم تنزوي عنهم وتتخلى عن رغباتهم...

(لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة). وهذه حال الدنيا بعد السرور يأتي الحزن وبعد العرس والفرح يأتي المأتم والحزن.

(ولم يلق في سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً). لم يتناول من خيرها شيئاً إلا جاءته بشر بعده وتعبيره بالبطن للسراء لأن من يلقى صاحبه بالبشر والسرور يلقاه بوجهه وعبر بالظهر للضراء لأن من يلقى عدوه بشر أو باشمئزاز وكراهية يعطيه ظهره...

وتعبيره بالظهر والبطن يمكن أن يشير إلى قرب السراء من الضراء وأنهما متلاصقان لا يفصل بينهما حاجز...

(ولم تطله فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء). لم تعطه قليلاً من العيش

الرغيد والسعة والجاه إلا وأعقبت ذلك ضيقاً وغماً ومطاردة وعبّر عن الخير الذي يصيبه من الدنيا بالمطر الخفيف القليل ومقابل ذلك سقوط الشدة والبلاء عليه بالغيوم ذي الأمطار الكثيرة. . .

(وحرّي إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة). وجدير بها وهو ان طبعها أنها إذا انتصرت لإنسان وأعزته ورفعت مقامه صباحاً أن تهزمه في آخر النهار وتتغير عليه وكم من نجاح باهر وفرته له الحياة صباحاً لم يأت المساء إلا وأعقبته هزيمة مرة وغصّة مؤلمة. . .

(وإن جانب منها إعذوذب وإحلولى أمّر منها جانب فأوبى). إذا صفت من جانب الصحة وتمتع بها فإنها من جانب المادة والمال يذوق حرارة الحاجة والفقر. .، وإن صفت من جانب الأولاد فكانوا صالحين تعكرت من جهة الجيران والخلان فكانوا متهتكين غير ملتزمين. . .

(لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً). لم ينل الإنسان من نعيمها ما يرغب فيه ويريده إلا حملته وأغشته من نوائبها ومصائبها التعب والمشقة. . .

(ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف). بينما هو مساء في أمن ودعة إذ به يصبح في معرض الخوف والفزع إشارة لكثرة تقلبها وسرعته وتعبيره بجناح أمن لما في الجناح من العز والأمن بينما القوادم وهي ريش مقدم الجناح لأنها دقيقة والراكب عليها في معرض الخطر أتى به.

(غرارة غرور ما فيها فانية فان من عليها). إنها تغر الإنسان كثيراً يراها كل أمنيته وغاية نظره لأنها تزينت له ولبست أجمل حللها فغرته وكذلك كل ما فيها من جمال ومال وشباب وأولاد وزينة كلها تغر هذا الإنسان وتدفعه إلى حبها والسير ورائها ظناً منه أنها تبقى له ويدوم لها ولكنها فانية ويفنى من عليها ولا يبقى أحد سوى وجه الله العزيز القهار. . .

(لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى). نفي لكل زاد يتصور الإنسان أنه يتزود منه في الدنيا إلا زاد التقوى. . فالمال لا يبقى والجاه يزول والأولاد يموتون والسلطان ينقضي نعم لا يبقى ولا يفيد الإنسان وينفعه إلا التقوى المتجسدة بالقيام بالواجبات الشرعية وترك المحرمات الإلهية. . .

(من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل عنه). هذه معادلة مغايرة لما عند الناس، إنها معادلة تنسف ما تسالم عليه الناس

وتوافقوا. . إنها تقول ـ وكما هي الحقيقة ـ: إن من يكثر جمع ما في الدنيا يهلكه ويرديه في الآخرة لأنه إن كان من حلال ففيه حساب وإن كان من حرام كان فيه العذاب وبعد هذا أيضاً يفارقه ويجعل في نفسه حسرة. وبعبارة أخرى من جمع من حطامها زاد حمله فأعجزه وهذا عكس المخف الذي يقلل من الجمع من حطامها فإنه يأمن من غوائلها ومن العقاب عليها. . .

(**كم من واثق بها قد فجعته**). كثيرون هم الذين وثقوا بالدنيا وظنوا أنها لا تتحول عنهم ولا تغدر بهم فإذا بها تصيبهم في أنفسهم وفي أعز ما عندهم. . .

(**وذي طمأنينة إليها قد صرعته**). اطمأن إليها وارتاح إلى نعيمها فإذا به صريعاً مع الموتى أو في مشروعهم وعلى قائمتهم. . .

(**وذي أبهة)قد جعلته حقيراً**). كان صاحب عظمة وفخامة على رأس السلطة فإذا بانقلاب عسكري يطيح به ويجعله في أذل مكان وأحقره وكم ينقل لنا التاريخ عن نادي الملوك المخلوعين وكم يذكر لنا من ملوك قد تسكعوا على الأبواب يستجدون لقمة العيش بعد ذلك العز والأبهة والعظمة. . .

(**وذي نخوة قد ردته ذليلاً**). قد كان يفتخر على الأقران ويثور من أجل الكرامة فإذا به يعود ذليلاً حقيراً لا يملك ماء وجهه. . .

(**سلطانها دول**). تتنقل من يد إلى يد سبحانه يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين فالسوقة ربما صار ملكاً والملك ربما صار سوقة. . .

(**وعيشها رنق**).

عيشها متكدر لا صفاء فيه وكما قال الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريدها   صفـواً مـن الأقـذار والأكـدار

(**وعذبها أجاج**). السائغ من شرابها والصافي منه ما لح مرّ لا يكاد يستساغ.

(**وحلوها صبر**). الحلو منها والطيب مرّ المذاق كالصبر وهو نبات يعرف بشدة مرارته. . .

(**وغذاؤها سمام**). طعامها سم قاتل قالوا: كنى بها عن لذاتها بالغذاء وأن الإنهماك في ذلك موجب للهلاك في الآخرة. . .

(**وأسبابها رمام**). أسباب الدنيا بالية فتسقط الأولاد والأموال ولا تنفع أو تشفع كما

قال تعالى: **﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾** هذا إذا لم يكونوا صالحين أتقياء. . .

(حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم). هذا الحي الذي يتحرك ويملأ الدنيا بنظرياته ويشغل العالم بما يعمل ويفكر إنه سيموت، بل يحمل موته في طيات حياته وكل يوم يمر عليه يقترب فيه من آخرته. . .

وهذا السليم الصحيح في معرض المرض والشيخوخة مرض العقل والجسد. . هذا المعافى تقعده جرثومة صغيرة لا ترى بالعين المجردة. . . إنه يحمل سقمه في عافيته. . .

(ملكها مسلوب). كل ما تملكه ستتخلى عنه إما تنتزعه منك الأيام بنكباتها ومصائبها وإما ستتخلى عنه للوراث وعلى كل حال لن يدوم لك ولن تدوم مالكاً له.

(وعزيزها مغلوب). هذا العزيز الذي كان يحمي ساحته ويدفع عن كرامته فهو أمام الموت مغلوب مقهور.

(وموفورها منكوب). صاحب المال الكثير مصاب بماله إما ينكبه الدهر بأن يصاب بالفلس والعوز بعد الغنى كما نشاهد في بعض الناس وإما يُنكب بنفسه فيتخلى عما يملك لغيره. . .

(وجارها محروب). أي جار الدنيا مسلوب منه ما يملك لأنها لا تحفظ الجوار ولا ترعى حق الدار. . .

(ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً وأبقى آثاراً وأبعد آمالاً وأعد عديداً وأكثف جنوداً). استفهام استنكاري لهؤلاء الذين يعيشون معه أن يكون مثلهم كمثل من تقدمهم ولم يعتبروا بهم ولم يأخذوا الدروس مما مرّ عليهم.

ذكّرهم ببعض خصائص من مضى ومع ذلك لم تنفعهم تلك الذكرى فلقد كان من قبلهم أطول أعماراً والقرآن يحكي عمر نوح ومدة إقامته في قومه بقوله: **﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾**[1]. وقد كانوا أبقى آثاراً وتلك الشواهد أمامنا كأهرامات مصر وقلعة بعلبك وغيرهما. . .

وكانوا أبعد أمالاً لأن طول العمر يستدعي طول الأمل كما هو الغالب.

---

(١) سورة العنكبوت آية/ ١٤.

وكانوا أعد عديداً أي أكثر عدداً.

وكانوا أكثف جنداً فإن الرعية كلها جنود بأمرة السلطان.. ومَنْ يخرج عن إرادة فرعون إذا وجهه إلى القتال؟!.

(تعبدوا للدنيا أي تعبد وآثروها أي إيثار). فإن أولئك الماضين أصحاب تلك الخصائص قد أذلوا أنفسهم للدنيا وما فيها وتوجهوا إليها بكل جهودهم حتى أضحت معبودة عندهم.

وكذلك قدموها على الآخرة ورجحوا كفتها على ما عند الله ولكنها لم تبق لهم ولم يبقوا لها.

(ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلّغ ولا ظهر قاطع). فبعد هذا التعبد منهم للدنيا وإيثارهم لها على الآخرة تركوها ورحلوا عنها مكرهين بغير زاد يشبعهم منها أو يكفيهم ولا وسيلة يقطعون بها هذا الطريق الصعب إلى الآخرة.. إنهم رحلوا عنها ولم يكن لهم من الطاعات والقربات ما يكتفون به في الآخرة أو يعينهم على تذليل الصعوبات في هذا الطريق الذي يبتدأ بالموت وينتهي بالنار أو الجنة...

(فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية أو أعانتهم بمعونة أو أحسنت لهم صحبة). وهذا استفهام إنكاري ثاني لتشديد الأمر عليهم لعلهم يتنبهون ومن غفلتهم يستيقظون...

هل وصل إلى أسماعكم أن الدنيا تكرمت عليهم وقدمت من نفسها فدية لهم تفديهم بها من الموت وتدفع عنهم سطوته أو أنها قدمت لهم معونة على التغلب عليه أو على دفعه أو أحسنت لهم صحبة بأن سألت عنهم واهتمت بهم على حد اهتمام الأصحاب ببعضهم، إنه لم يكن شيء من ذلك وفي هذا أكبر اعتبار...

(بل أرهقتهم بالقوادح وأوهقتهم بالقوارع). بعد أن نفى عن الدنيا كل مساعدة لمن أحبها وآثرها أراد أن يقرر ويثبت أنها عكس ذلك فعلت إنها أغشت أهلها بالشدائد وأثقلتهم بها هذا إذا كانت لفظة الفوادح بالفاء وأما إذا كانت بالقاف فمعناه غشيتهم بالأمراض الصعبة المستعصية على الطب.

وكذلك أضعفتهم بالمحن والدواهي وحبستهم فيها فلا يكادون يفكون أنفسهم...

(وضعضعتهم بالنوائب وعفرتهم للمناخر). أذلتهم بالمصائب التي صبتها عليهم

ومرغتهم بالتراب حتى أنوفهم أي أذلتهم إلى منتهى الذل . . .

(ووطئتهم بالمناسم وأعانت عليهم ريب المنون). داستهم بأخفافها وأعانت عليهم حوادث الدهر ومصائبه.

(فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها وأخلد إليها حين ظعنوا عنها لفراق الأبد). فمن ذل لها وأطاعها واستسلم لحكمها وقدمها على الآخرة تنكرت له وأدبرت عنه وتغيرت عليه وكأنها لا تعرفه ولم تتعرف عليه فقد تغيرت عليهم حينما رحلوا عنها إلى الآخرة وفارقوها إلى اللالقاء . . .

(وهل زودتهم إلا السغب أو أحلتهم إلا الضنك). إنها لم تزودهم إلا بالجوع فهي لم تنفعهم بشيء وإنما حرمتهم التقوى التي هي خير الزاد حيث غفلوا عنها بوعود الدنيا الكاذبة ولم تنزلهم إلا في ضيق القبور والحال أنهم بحاجة إلى كل فسحة ترتاح لها النفوس . . .

(أو نورت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة). جعلت لهم الظلمة تحل محل النور ولم يحصلوا في النهاية إلا على الحسرة والندم على ما اعتمدوا عليه منها . . .

(أفهذه تؤثرون أم إليها تطمئنون أم عليها تحرصون). بعد أن بيّن معايب الدنيا وأفعالها وما جنته على من أحبها وآثرها أنكر عليهم بصيغة الإستفهام لتكون أقوى وأقرب للقبول . أفهل هذه الدنيا هي التي تقدمونها على الآخرة وهي التي تسكنون إليها وتتمسكون بها ولا تقبلون عنها بدلاً وعنها متحولا .

(فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل منها). إنها دار شؤم وتعاسة لمن اطمأن إليها ووثق بها وهي كذلك لمن لم يخف منها ويحسب لها ألف حساب وحساب لأنها ستر ديه وتقتله وتوصله إلى النار . . .

أما من أتهمها بمعاداته وإضلاله والانحراف به وخاف منها ومن غوائلها فهذه نعم الدار لأنه يتخذها طريقاً إلى الآخرة ويعمل فيها لسعادته الدائمة . . .

(فاعلموا ـ وأنتم تعلمون ـ بأنكم تاركوها وظاعنون عنها). اعلموا وأنتم على معرفة وعلم بما أقول، أقول لكم: إنكم تاركوها لغيركم وراحلون عنها إلى الدار الآخرة وإذا علم الإنسان بذلك لا يأسف على ما يتركه(بل يأخذ بالاستعداد لما يقدم عليه . . .

(واتعظوا فيها بالذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً وانزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً). لفت أنظارهم إلى من تقدم قبلهم ليعتبروا

بهم فقد اعتد هؤلاء الأوائل بقوتهم وعددهم وعدتهم كما قصّ الله أقوالهم في التنزيل حيث قال: **﴿وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾**[1] ولكن مع هذه القوة ماتوا وحملوا على أكتاف الرجال ولم يتمتعوا بعدها بما تمتع به الأحياء وقد عدّ جملة منها أفقدتهم صفة الأحياء: .

أ ـ إنهم وإن حملوا على أكتاف الرجال فلا يدعون ركباناً لأنهم أموات كالجمادات.

ب ـ إنهم وإن نزلوا الأجداث فلا يسمون ضيوفاً والعادة الجارية عند العرب أن من نزل منزلاً سمي ضيفاً.

(وجعل لهم من الصفيح أجنان ومن التراب أكفان ومن الرفات جيران فهم جيرة لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً ولا يبالون مندبة). وهذه نهاية هذا الإنسان وخاتمة مطافه فإلى القبور مصيره وفيها مستقرهم يجعل لهم من الصخور قبور تسترهم ومن التراب أكفان تواريهم إما لأن التراب يغطيهم وإما لأنهم يصبحون تراباً.

وبدل جيران الدنيا الذين كانت لهم مواصفات الأحياء من التزوار ودفع الضيم والإستجابة للدعوة وغيرها من الحالات فهؤلاء الجيران ليس لهم أي شيء من هذه الصفات ويذكر بعض ذلك:

أ ـ فقد تجاورت العظام البالية فهذا قبر قد فني من فيه إلا عظام يجاور مثله بالقرب منه. . .

ب ـ إنهم لا يلبون من دعاهم إلى أمر وليمة أو فرح أو حزن.

ج ـ إنهم لا يدفعون ظلماً طال أحداً من الناس بل لا يدفعون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم.

د ـ إنهم لا يكترثون ولا يتأثرون بالنوح على الأموات وندبهم شأن الأحياء الذين تأخذهم الرقة فيتأثرون عاطفياً ويتعاطفون مع الحالات النفسية التي يعيشها النادبون. . .

(إن جيدوا لم يفرحوا وإن قحطوا لم يقنطوا جميع وهم آحاد وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون وقريبون لا يتقاربون حلماء قد ذهبت أضغانهم وجهلاء قد ماتت أحقادهم لا يخشى فجعهم ولا يرجى دفعهم). لا يزال ينفي عنهم صفات الأحياء وهذه جملة مما نفي:

---

(١) سورة فصلت آية/ ١٥.

هـ ـ إن أمطروا وأخصبت الأرض لم يفرحوا وإن أجدبت الأرض ومنعت السماء خيرها لم يدب اليأس إلى قلوبهم كما هو شأن الأحياء الذين يتغيرون بتغير الأحوال والظروف. . .

و ـ إنهم في حال اجتماعهم على صعيد واحد في مقبرة واحدة لكنهم منفردون كل واحد مستقل عن الآخر منفرد عنه.

ز ـ مع كونهم جيران متقاربون في السكن والمكان ولكنهم متباعدون عن بعضهم لأن الإتصال بينهم منقطع والعلاقات غير موصولة.

ح ـ إنهم على قرب ديارهم من بعضها ليست بينهم زيارات كما هي عادة الأحياء.

ط ـ إنهم بالرغم من قرب بعضهم لبعض لا يقترب أحد من أحد فهذه الأشبار التي تفصلهم عن بعضهم لا تحد ولا تعد ولا يقدر أحد على قطع مسافاتها. . .

ي ـ وصفهم بالحلماء الذين ماتت أحقادهم تنزيلاً لهم هذه المنزلة وإن كانوا أمواتاً لفقد الموضوع من أصله وكذلك نزلهم منزلة الجهلاء من حيث إن أحقادهم قد ماتت بموتهم.

ك ـ باعتبار أنهم فقدوا الحياة فلا يخاف منهم ضرر يصل إليك كما أنك لا ترجو منهم دفعاً عنك لأمر تكرهه أو دفاعاً عنك في موقف. . .

(استبدلوا بظهر الأرض بطناً وبالسعة ضيقاً). كانوا يعيشون على ظهر الأرض يتحركون فيها كانت لهم بساطاً مريحاً فتحولوا عنها إلى باطنها إلى قبر في أحشاء الأرض تدوسه الأقدام وتسفي عليه الرياح التراب. . .

ووجه الأرض بكل سعتها كانت لهذا الميت يتحرك فيها أين يشاء وفي أي زمان يشاء فاستبدل ذلك كله بضيق القبر ومساحته الصغيرة.

(وبالأهل غربة وبالنور ظلمة). استبدلوا عن الأهل والعشيرة غربة القبر فانفردوا فيه وتخلت عنهم معارفهم ومن لهم بهم صلة. . .

كما أنهم استبدلوا ما كانوا يتمتعون به من نور النهار أو نور السراج ظلمة القبر ووحشته.

(فجاؤوها كما فارقوها، حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا

فاعلين﴾). فجاؤوا إلى الدنيا حفاة عراة كما أنهم فارقوها وخرجوا منها كذلك حفاة عراة قال تعالى: **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم...﴾**[1]. قال الطبرسي في تفسيره **﴿فرادى﴾** أي وحداناً لا مال لكم ولا خول ولا ولد ولا حشم.

وفي قوله: **﴿كما خلقناكم أول مرة﴾** أي كما خلقناكم في بطون أمهاتكم فلا ناصر لكم ولا معين عن الجبائي وقيل معناه ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله إنه قال: تحشرون حفاة عراة عزلاً.

ثم أخبر أنهم يخرجون عن الدنيا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة فإن كانت الأعمال صالحة فإلى روح وريحان وجنة نعيم وإن كانت الأعمال طالحة فإلى نار وعذاب الجحيم وعلى كل حال إنه الخلود المؤبد إما في الجنة وإما في النار، إنها دار باقية لا يتحول عنها الإنسان ولا يخرج منها.

ثم استشهد عليه السلام بهذه الآية الكريمة **﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾** إشارة إلى البعث والحساب وأن الله الذي خلق الإنسان من اللاشيء قادر على إحيائه بعد الموت وإعادته للحساب...

---

(١) سورة الأنعام آية/ ٩٤.

١١٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

ذكر فيها ملك الموت وتوفية النفس وعجز الخلق عن وصف الله

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى(١) أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الجَنِينَ(٢) فِي بَطْنِ أُمِّهِ! أَيَلِجُ(٣) عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا(٤) أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا(٥)؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!.

اللغة

١ ـ التوفي : الإماتة وقبض الأرواح.

٢ ـ الجنين : الولد في بطن أمه.

٣ ـ ولج : دخل.

٤ ـ الجوارح : الأعضاء.

٥ ـ الأحشاء : ما في البطن من الأمعاء وغيرها.

الشرح

(هل تحس به إذا دخل منزلاً؟ أم هل تراه إذا توفى أحداً، بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه أيلج عليه من بعض جوارحها أم الروح أجابته بإذن ربها، أم هو ساكن معه في أحشائها، كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله). قالوا: إن هذا الكلام منه عليه السلام ملتقط من جملة كلام له كان قد خطب به في معرض توحيد الله وتنزيهه عن

اطلاع العقول على كنه ذاته وخصائص صفاته وقد قدم ليبيّن عجز المخلوق عن إدراك قضية من مخلوق مثله فكيف يدرك ذات الله وصفاته ثم خلص إلى تنزيه الله الذي هو خالق الخلق جميعاً.

تحدث عن ملك الموت الموكل بقبض الأرواح واستفهم على سبيل الإنكار قائلاً هل تحس بهذا الملك إذا دخل منزلاً لقبض روح صاحبه كلا فلا يقع تحت واحدة من الحواس فلا يحس ولا يشم ولا يذاق وكذلك لا تراه العيون.

وهناك أعظم من هذه كيف يتوفى الجنين في بطن أمه وقد حصر وفاة الجنين بأمر من ثلاثة: .

١ ـ إما أن يلج عليه لقبض روحه من بعض جوارحها وهذا على فرض أن يكون خارجاً عنها وبعيداً عنها.

٢ ـ وإما أن يكون قد أعطي سلطة الأمر والنهي وفرض الله على الأرواح الإستجابة له فهو يأمر الروح بالخروج من الجسد فتذعن وتستجيب له. وهذا أيضاً على فرض أن يكون خارجاً وبعيداً عنها.

٣ ـ وإما أن نفرضه في داخل الأحشاء ويعيش مع الجنين فهو يتولى قبض روحه بإذن ربه.

قال ابن أبي الحديد وهذه القسمة من الإمام لهذه الحالة لا يمكن الزيادة عليها ولو قسمها واضع المنطق لما زاد.

وهذا القول منه حط لمقام الإمامة وعدم علم بمرتبتها السامية الشريفة وما واضع علم المنطق إلا بشر تفوق ببعض ما أعطاه الله فكيف بمن أعطاه الله كل معقول وجعله أسمى العقول ومصحح العقول. . .

ثم خلص عليه السلام إلى القضية الأساسية والمحور الذي من أجله ساق هذه المقدمة ليقول: كيف يصف إلهه ويعرف هويته من يجهل معرفة بعض مخلوقاته وخصائص بعض موجوداته. . .، فمن كان في هذه عاجز فهو في معرفة الله وصفاته أعجز وأعيا.

١١٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذم الدنيا

وَأُحذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ[١]، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ[٢]. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ[٣] عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ[٤] بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ[٥] وَشَرُّهَا عَتِيدٌ[٦]. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ[٧]، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ[٨] البِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ.

وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ المَوْتِ آذانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ. إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ[٩] أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا[١٠] بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآجَالِ[١١]، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلاَ تَوَازَرُونَ[١٢] وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ[١٣] وَلاَ تَوَادُّونَ[١٤]. مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِاليَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ الكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ[١٥] اليَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ[١٦] مِنْهَا

عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلاَّ مَخَافَةَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ العَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً(١٧) عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَى سَيِّدِهِ.

اللغة

١ ـ منزل قلعة : بضم القاف المكان الذي لا يثبت فيه صاحبه ويقال مجلس قلعة إذا كان أصحابه يحتاجون إلى القيام عنه مرة بعد أخرى.

٢ ـ النجعة : بضم النون طلب الكلأ في موضعه.

٣ ـ هانت : ذلت.

٤ ـ يضن : يبخل.

٥ ـ زهيد : قليل.

٦ ـ العتيد : الحاضر، المهيأ المعدّ.

٧ ـ ينفد : يفني.

٨ ـ نقض البناء : هدّه وهدمه.

٩ ـ المقت : البغض.

١٠ ـ اغتبطوا : فرحوا.

١١ ـ الآجال : أوقات الموت.

١٢ ـ لا توازرون : لا تتعاونون.

١٣ ـ لا تباذلون : لا يبذل بعضكم لبعض أي لا يجود ويعطي.

١٤ ـ ولا توادون : وهو الحب أي لا يادل بعضكم بعضاً الحب.

١٥ ـ يقلقكم : يزعجكم.

١٦ ـ زوي : الشيء عن فلان نُحي ومنع منه.

١٧ ـ اللعقة : بضم اللام اسم لما يلعق أي يؤكل بالأصبع أو بالملعقة.

الشرح

(وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة وليست بدار نجعة). اهتم الإمام بالدنيا كثيراً وذكرها في خطبه ولكن اهتمامه بها وذكره لها كان من باب التحذير منها والهروب من

حبالها ورفضها ورفض ما يتعلق بها وقد بذل قصارى جهده في سبيل أن يدفع الناس عنها والتوجه بهم نحو الآخرة وهذه الخطبة الشريفة إحدى تلك العينات من كلامه فقد حذّر الناس منها وبيّن أنها دار لا يستقر فيها المقيم بل دائماً على جناح سفر وهذه قائمة الأجداد والأحباب لم يبق منهم فيها أحد قد خرجوا منها وسنخرج نحن أيضاً كما خرجوا فهي ليست دار إقامة واستقرار ولا دار كلأ ومرعى ومأكل ومشرب ولذة وسرور. . .

(قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها). جعلت الغرور زينة لها ثم بهذه الزينة غرت الناس وخدعتهم عن أهدافهم الأساسية وبعبارة بعض الشرا ح حاكت شباك الصيد واصطادت كثيرين. . .

(دار هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرها وحياتها بموتها وحلوها بمرها). دار الدنيا بالنسبة إلى الآخرة دار هانت على ربها ومن هوانها أنك تجد الحلال مخلوط بالحرام فإلى جانب الماء مدامة وإلى جانب الطيب خبيث وإلى جانب الخير شر فمقابل إكرام اليتيم هناك من يهينه وإلى جانب العناية بالفقير هناك من يقهره، وإلى جانب الحياة موت والحلو مرّ فلا صفاء فيها كما هو الحال في الآخرة فهناك أمن وأمان وهنا تعب وأحزان وهناك نعيم دائم وهنا عذاب متواصل والفرق كبير والشقة واسعة. . .

(لم يصفها الله تعالى لأوليائه ولم يضن بها على أعدائه). أولياء الله الذين أخلصوا له واعتمدوا عليه وتوجهوا نحوه وكانوا أحق الناس أن يُعتنى بهم لم يجعلها صافية لهم وكيف صفت وتلك مسيرتهم شاهدة على أنهم من أشد الناس تعباً وجهاداً فيها فقد كانت حركتهم مملوءة بالعذاب فهذا تاريخ الأنبياء كله مسيرة عذاب وإيذاء فإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وجميع الأنبياء جاهدوا بأنفسهم وقدموا ما يملكون من أجل الله ودينه وقد اكتفوا منها بما يسد الرمق ويحفظ عليهم الحياة وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «ما أوذي نبي كما أوذيت» فقد جاع وربط حجر المجاعة على بطنه. . .

وفي المقابل كانت الدنيا قد أقبلت على الطغاة والمنحرفين ومن ادعى الربوبية واستعبد الناس واستذلهم والشاهد على ذلك فرعون وقارون ونمرود وغيرهم وهذا من هوانها على الله وأنه سبحانه لم يجعلها لأوليائه لزوالها وفنائها وعدم بقائها بينما جعلها للكافرين يتمتعون بها أياماً قليلة يساقون بعدها إلى عذاب الجحيم. . .

(خيرها زهيد وشرها عتيد). خيرها قليل ودليل قلته قلة المؤمنين العاملين بهذا الخير بينما شرها حاضر في متناول الناس ولذا ترى الأشرار أكثر. . .

(وجمعها ينفد). كل ما فيها إلى الفناء والهلاك قال تعالى: **﴿لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه﴾**.

(وملكها يسلب). فهذه الأرض تداولتها السلاطين ولم تستقر عليها يد إلا إلى مدة لتنتقل إلى يد أخرى أما بالغلبة أو بالموت وإذا شئت فاضرب بنظرك إلى ما تملك كم من يد وضعت عليها وكم من يد قبل يدك تقدمت عليها . . .

(وعامرها يخرب). فالبناء المشيد والقصر المرمري الجميل سيندك ويتهدم ولا يبقى منه إلا أطلال يمر عليها الناس ويتذكرون أربابها ومن عاش فيها.

(فما خير دار تنقض نقض البناء وعمر يفنى فيها فناء الزاد ومدة تنقطع انقطاع السير). تقليل لأهميتها واستصغار لها بصيغة الإنكار وأنه لا خير في دار الدنيا التي يتهدم منها حجر إثر حجر ويسقط من عمرانها واحد بعد آخر فهذه الحضارات تتساقط وهذه المدنيات تتساقط وهذه المدن والبلدان تزول عن خريطة الوجود.

وأما الأعمار فهي باستمرار يأكلها الليل والنهار ويأتي على أصحابها الزمان.

وأما مدة البقاء في الدنيا فإنها تنتهي كما تنتهي المسافة التي يقطعها المسافر ويتوقف عندها.

(اجعلوا ما افترض الله عليكم من طلبكم واسألوه من أداء حقه ما سألكم). اجعلوا من جملة ما تطلبونه من الله ما افترض عليكم من واجبات وحقوق لأن هذه الواجبات المفترضة إذا تحولت إلى أمور مطلوبة للعبد أضحت محبوبة له ومرغوبة فيجدّ فيها ويحافظ عليها ويحفظها وكذلك اسألوا الله أن يعينكم على ما أمركم به وطلبه منكم.

ونكتة المقابلة بين اسألوه ما سألكم على حد قوله تعالى: **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** لأجل المقابلة بين اللفظين وفيه ما فيه من الحسن والبديع.

(واسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم). احسبوا لذلك القادم حسابه وأعدوا له عدته واعملوا له ولما بعده واقصدوا الأماكن التي تذكركم بالموت كمجالس الوعظ والمقابر والمصحات التي تجبر الإنسان على التفكير في الموت فإنها محطات يتزود الإنسان منها للآخرة ويتذكر الموت قبل حلوله بساحته وقبل أن يأتي دوره . . .

(إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ويشتد حزنهم وإن فرحوا ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا). ذكر بعض أوصاف هذا الصنف من الناس الطيبين لعلهم يرغبون في الإقتداء بهم ويمشون على سيرتهم . . .

إنهم الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة وقد وصفهم بأن قلوبهم تبكي خوفاً من الله وشوقاً إليه وإن ضحكوا أمام الناس وفي وجوههم والعمدة على القلب ماذا يحمل وما ينوي وأما معاملة الناس ومجاراتهم فأمر آخر.

وكذلك يشتد حزنهم على ما يفوتهم من الطاعات أو على بعض التقصير وإن فرحوا ظاهراً ببعض الأعمال الطيبة التي يمارسونها ويقومون بها. . .

وكذلك يبغضون أنفسهم لأنها الأمارة بالسوء المضلة لهم عن مستقيم الطريق فلا يتركون لها الأمر ولا يسمحون لها أن توردهم النار وإن اغتبطهم الناس على ما أنعم الله به عليهم. . .

(قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال وحضرتكم كواذب الآمال فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة والعاجلة أذهب بكم من الآجلة). وهذا عيب حاضر عند الكثيرين حيث يغيب عن قلوبهم ذكر الموت فتسقط كل الإستعدادات له وكل ما يسهله عند نزوله ويخفف من وطأته عند حلوله.

بل على العكس من ذلك حضرت في القلوب الآمال الكاذبة المتمثلة بالشباب والصحة والمال وظنوا أن هذه ستدوم لهم وتبقى فسعوا من أجلها فقطعوا الأرحام واعتدوا على العباد وأفسدوا بمالهم ما قدروا عليه.

ومن هنا صارت الدنيا أولى بكم وصارت توجهكم كيف شاءت وصرتم لها تابعين خادمين على عكس الآخرة التي أضحت عندكم شيئاً ثانوياً لا تنظرون إليها إلا في مرحلة متأخرة وبقليل من الإهتمام. . .

لقد أخذتكم الدنيا أكثر مما أخذتكم الآخرة أي استولت عليكم الدنيا أكثر من استيلاء الآخرة عليكم.

(وإنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر). وهذا بيان لوحدة المسلمين وأنهم أخوة في دين الله قال تعالى: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** وبمقتضى هذه الوحدة أن تتوحد الجهود وتتلاقى الأفكار وتتحد الأهداف وتتكاتف الأيدي ويجتمع المسلمون على مصالحهم وما ينفعهم ولكن ما يحصل من التفرقة بينهم إنما هو نتيجة فساد القلوب والضمائر. . .

فإن هذه الضمائر مريضة بمرض الحسد والبغي والاستعلاء مرض التعصب وحب «الأنا» التي سحقت في سبيل تحقيقها وذاتها كل نفيس وعزيز وقد ذكر الإمام نتيجة هذا

الفساد في السرائر والضمائر فقال:

(فلا توازرون ولا تناصحون ولا تباذلون ولا توادون). لا يعين أحدكم الآخر ولا ينصحه ولا يبذل له ما يحتاج أو يحب وكذلك الأخ الآخر يتعامل مع أخيه ويقابله بالمثل ومن هنا تزداد الفرقة بين المسلمين وتتسع هوة الخلاف فإن المسلم إذا وجد يداً حانية عليه تمتد إليه لتعينه على الحياة ومصاعبها ترتاح نفسه ويستقر قلبه ويحاول أن يرد الجميل بمثله أو بأحسن منه أما إذا وجد البعد عنه والتخلي عن حل مشاكله فإنه يشعر بوحدته في الوجود ويتعامل مع الآخرين معاملة الأعداء...

وقد فرض الإسلام للمسلمين حقوقاً.. كل فرد له على أخيه حق يجب أن يؤديه.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المسلم أخو المسلم لا يظلمه[1] ولا يخذله ولا يخونه ويحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف، والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل، رحماء بينكم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وعن المعلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: له سبع حقوق واجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ولم يكن لله فيه نصيب. قلت له: جعلت فداك وما هي؟ قال: يا معلى إني عليك شفيق أخاف أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل. قلت: لا قوة إلا بالله. قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

والحق الثاني: أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره.

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته.

والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ ولا تلبس ويعرى.

والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه وتصنع طعامه وتمهد فراشه.

والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته وإذا

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الحج/ أحكام العشرة باب ١٢٢.

علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألها ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك. . .

(ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه). حالة كثيرين منا يطير من الفرح إذا أدرك قليلاً من الدنيا مجرد أن يدرك منصباً أو يجمع ثروة أو يعلو نجمه السياسي أو الإجتماعي تراه لا يكاد يصدق نفسه وفي مقابل ذلك لو خسر الكثير من الآخرة. . خسر المنزلة الرفيعة. . مرافقة الأخيار والأبرار والأنبياء. . أو خسر بعض الأعمال الطيبة من صلاة وصيام ومساعدة للفقراء تراه لا يهتم لشيء من ذلك ولا يتأثر لحرمانه منه. . .

(ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوي منها عنكم كأنها دار مقامكم وكأن متاعها باق عليكم). وهذه صورة تتحرك أمامنا وقد نكون بعض أفرادها. . صورة هذا الإنسان الذي يتملكه الإزعاج ويتبين في وجهه التأثر والشكوى. . صورة إنسان فاته شيء من حطام هذه الدنيا. . لم يدرك أمنيته. . لم يحقق غايته. . . خسرت بعض صفقاته. . . لم يوفق في مسعاه. . . تراه لهذا اليسير يضج بالشكوى ويرتفع صوته بالتأثر وكأن ما فاته سيبقى له ويدوم ولم يعرف أنه حتى لو أدركه وحرص عليه لن يدوم ولن يبقى. . .

(وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا مخافة أن يستقبله بمثله).
وهذا عيب يمارسه الكثيرون لا يرضاه الإسلام لنا: وهو أننا لا نواجه أخانا بعيوبه. . بل نتركها فيه دون أن ننبهه إليها وندّله عليها وما ذلك إلا خوفاً منه أن يواجهنا بعيوبنا ويدلنا عليها، وهذا خلاف ما يريد الإسلام فقد جاء «رحم الله من أهدى إليّ عيوبي» لأن العيوب أقذار وأمراض قد لا يراها صاحبها فعلى الأخ الذي رآها أن يدل أخاه عليها وهكذا كل أخ يشكل مرآة لأخيه يريه عيوبه من أجل أن يتطهر من آفاتها ويتنزه عنها وعن أوساخها وقد كان الصالحون يتعاهدون فيما بينهم أن يشير كل منهم على الآخر بما عنده من العيوب ويدل كل واحد منهم على عيوب الآخر فيتقبل الصالح رأي الآخر بكل رضى ويقدم له الشكر ويجزيه خيراً. . .

(قد تصافيتم على رفض الآجل وحب العاجل وصار دين أحدكم لعقة على لسانه صنيع من قد فرغ من عمله وأحرز رضى سيده). وهذا عيب آخر إنهم اتفقوا على رفض الآخرة وما فيها كما اتفقوا على حب الدنيا وما فيها كما قال تعالى: **﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾** وتحوّل الدين إلى كلمة يتداولونها على رؤوس

ألسنتهم ليس عندهم من الدين حقيقة أو عقيدة أو عمل وهذا ما نجده عند أكثر التجار وأصحاب المصالح الذين ليس لهم من الدين حظ إلا الحلف بالله وبالأنبياء والمقدسات من أجل أرباح صفقاتهم واكتساب أرباحهم. . .

وفعلهم هذا يشبه فعل العبد الذي قام بما أمره به سيده فنفذه كما أراد والتشبيه للاشتراك في الترك والإعراض عن العمل. . .

١١٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها مواعظ للناس

الحَمْدُ للهِ الوَاصِلِ الحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلاَئِهِ[١]، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ[٢]. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هذِهِ النُّفُوسِ البِطَاءِ[٣] عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، السِّرَاعِ[٤] إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ[٥]. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ[٦] الغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَى المَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاَصُهُ الشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ القَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ العَمَلَ. لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ.

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا المَعَاذُ[٧]: زَادٌ مُبْلِغٌ[٨]، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا[٩] خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ[١٠] أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ[١١] هَوَاجِرَهُمْ[١٢]؛ فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ[١٣]، وَالرِّيَّ[١٤] بِالظَّمَإِ؛ وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ فَبَادَرُوا العَمَلَ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ فَلاَحَظُوا الأَجَلَ. ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ[١٥]، وَغِيَرٍ[١٦] وَعِبَرٍ[١٧]؛ فَمِنَ الفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ[١٨]، لاَ تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلاَ تُؤْسَى[١٩]

جِراحُهُ. يَرْمِي الحَيَّ بِالمَوْتِ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ[٢٠]، وَالنَّاجِيَ بِالعَطَبِ[٢١]. آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ[٢٢]. وَمِنَ العَنَاءِ أَنَّ المَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخرُجُ إِلَى اللهِ تَعَالَى لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ! وَمِنْ غِيَرِهَا[٢٣] أَنَّكَ تَرَى المَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالمَغْبُوطَ[٢٤] مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ[٢٥]، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ المَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا! وَأَظْمَأَ رِيَّهَا! وَأَضْحَى فَيْئَهَا[٢٦]! لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ. فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَقْرَبَ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ لانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!.

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ العِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الغَيْبِ الخَبَرُ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا: فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ. وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا[٢٧] مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالعَمَلِ، فَلاَ يَكُونَنَّ المَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ المَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخِلَ[٢٨] اليَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا العَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ[٢٩] الأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ العُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ. مَا فَاتَ اليَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ العُمُرِ لَمْ يُرْجَ اليَوْمَ

رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الجَائِي، وَاليَأْسُ مَعَ المَاضِي. «فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

اللغة

١ ـ آلائه	:	نعمه.
٢ ـ بلائه	:	أصل البلاء الاختبار ويطلق على المصيبة وعلى ما يوجب الغم.
٣ ـ البطاء	:	بطيئة ضد السراع.
٤ ـ السراع	:	جمع سريعة.
٥ ـ المغادر	:	من غادره إذا تركه ورحل عنه.
٦ ـ عاين	:	الأمر رآه بعينه ويقيناً.
٧ ـ المعاذ	:	الملاذ.
٨ ـ زاد مبلغ	:	زاد كافي.
٩ ـ وعاها	:	حفظها وفهمها.
١٠ ـ حمت	:	منعت.
١١ ـ أظمأت	:	من الظمأ العطش أو شدته.
١٢ ـ الهواجر	:	جمع هاجرة شدة حر النهار.
١٣ ـ النصب	:	التعب.
١٤ ـ الري	:	بالكسر الاسم من روى إذا شرب حتى شبع.
١٥ ـ العناء	:	التعب.
١٦ ـ الغير	:	التقلبات وغير الدهر أحداثه وتقلباته.
١٧ ـ العبر	:	العظات.
١٨ ـ أوتر القوس	:	جعل لها وتراً أو شد الوتر منها.
١٩ ـ تؤسي	:	تداوي.
٢٠ ـ السقم	:	المرض.
٢١ ـ العطب	:	الهلاك وعطب الفرس إذا انكسر.
٢٢ ـ لا ينقع	:	لا يروي.
٢٣ ـ الغير	:	بكسر الغاء وفتح الراء التقلبات.
٢٤ ـ المغبوط	:	من الغبطة وهي المسرة وحسن الحال تمني ما عند الغير من النعمة دون زوالها عنه.

٢٥ ـ زلّ : سقط أو مر سريعاً.
٢٦ ـ الفيء : الظل.
٢٧ ـ ذروا : اتركوا.
٢٨ ـ دخل : كفرح خالطه فساد الأوهام.
٢٩ ـ البغتة : الفجأة.

الشرح

(الحمد لله الواصل الحمد بالنعم والنعم بالشكر). ابتدأ بحمد الله باعتبارين أنه واصل الحمد بالنعم أي موجب الحمد عليها وآمر به عند حصولها.

والثاني وصله الشكر بالنعم باعتبار زيادتها بالشكر كما قال تعالى: **﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾**.

(نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه). وهذا أدب رفيع من الإنسان نحو الله... أدب العبد الذي اعترف بحكمة الله وعدله وأن كل ما عنده خير ومن أجل صالح هذا الإنسان لا يفعل شيئاً إلا لحكمة تعود بالنفع لهذا المخلوق وبهذا الفهم تتحول المصائب والبلايا إلى أن تكون مصدر نفع ومن أجل مصالحه، وتتغير النقمة لتكون نعمة يجب شكرها...

«الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه» حقيقة تسالم عليها المتدينون انطلاقاً من عقيدتهم بالله وأن كل أفعاله لحكمة تعود لصالح هذا الإنسان...

وربما اكتشف هذا العبد بعد مدة سر هذا البلاء فأذعن بهذه الحقيقة وربما لم ينكشف السر ولكن تبقى حقيقة النفع في البلاء موجودة أيضاً.

(ونستعينه على هذه النفوس البطاء عما أمرت به السراع إلى ما نهيت عنه). طلب من الله الإعانة وعلمنا أن نطلب أيضاً الإعانة على هذه النفوس البطيئة إلى الإقامة بما أمرت من صلاة وصيام وحج وأداء الواجبات لأن هذه الأمور خلاف طبع الإنسان من جهة ولأن فيها مشقة على النفس التي تحب الراحة واللذة ومن طبيعة هذه النفس أيضاً أنها تسارع إلى ما نهيت عنه وتبادر إلى القيام به لأنه يلائمها ويوافق مزاجها...

(ونستغفره مما أحاط به علمه وأحصاه كتابه علم غير قاصر وكتاب غير مغادر).

بعد الحمد على النعم نستغفر الله على الذنوب التي أحاط بها علم الله وأحصاها كتابه فإن علمه لا يفوته أمر بل هو يعلم السر وأخفى وأما كتابه فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. . .

وهذا الاستغفار على ما أحاط به علمه عبارة عن الاستغفار من جميع الذنوب لأنه سبحانه يعلم كل شيء. . .

(ونؤمن به إيمان من عاين الغيوب ووقف على الموعود إيماناً نفى اخلاصه الشرك ويقينه الشك). وهذه مرتبة عليا من الإيمان مرتبة الحس بحيث يتحول الغيب إلى أمر مشاهد وحقيقة واقعة ويكون الموعود من الجنة أو من النار وما فيهما قد أدركهما وأحس بهما ومثل هذا الإيمان ينفي الشرك بالله لأن من عاين الغيوب ووقف على المحجوب أدرك أن لا إله إلا هو وبطبيعة الحال يكون يقينه هذا نافياً لكل شك فيه أو خلل يعيشه في نفسه.

(ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله شهادتين تصعدان القول وترفعان العمل لا يخف ميزان توضعان فيه ولا يثقل ميزان ترفعان عنه). الشهادتان: لا إله إلا الله محمد رسول الله أصغر شعار لأعظم مضمون بهما تتحقق العبودية لله وبهما يرفض كل طاغوت يعبد من دون الله وهما ميزان القبول والرفض لكل عمل. . بدونهما تسقط الأعمال ولا تقبل بل ترد إلى أصحابها وتضرب بها وجوههم وبهما يقبل كل عمل وتكونان مدخلاً لكل أمر. . .

شهادتان تُصعدان القول كما قال تعالى: **﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**. بهما تثقل الموازين وتكثر الحسنات لأن بهما تقبل الأعمال وعن طريقهما يكون رضا الرحمن وبدونهما يخف الميزان وترفض الأعمال وخفة الميزان عبارة عن عدم قبول الأعمال وأنه لا حسنات توزن على عكس قبولها فإنها توزَن وتثقل الميزان. . .

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاذ زاد مبلغ ومعاذ منجح دعا إليها أسمع داع ووعاها خير واعٍ فأسمع داعيها وفاز واعيها). وصل عليه السلام إلى مراده وهذا هو بيت القصيد: الأمر بتقوى الله التي تعني اجتناب المحرمات والقيام بالواجبات وتقوى الله هي الزاد إلى الآخرة قال تعالى: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى. . .﴾** وبهذه التقوى يكون الاعتصام بالله والنجاة من النار.

إنها ـ تقوى ـ نعم الزاد الموصل لصاحبها إلى الجنة والبالغ بها إلى الدرجات العلى وأنها ملجأ منجح لصاحبها وواصل بها إلى غاياته العظمى. . دعا إليها أسمع داعٍ

وهو الله حيث بلغّها إلى الناس عبر الأنبياء وأوصلها إلى كل الناس فوعاها وفهمها خير واعٍ وهم الأنبياء ويمكن أن يكون خير من أسمعها النبي وخير من وعاها هو الإمام فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ أنها أذن علي. . . وداعيها أسمع كل الناس ونجح من فهمها وعمل بها. . .

(عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم فأخذوا الراحة بالنصب والري بالظمأ واستقربوا الأجل فبادروا العمل وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل). ذكر عليه السلام آثار التقوى عند الزاهدين وقد تمثلت في عدة مجالات من حياتهم:

أ ـ إن هذه التقوى منعت أولياء الله عن ارتكاب محارم الله فكل أمر محظور في الشريعة امتنعوا عنه وكل أمر واجب قاموا به.

ب ـ إن قلوبهم التي في صدورهم قد عاش فيها الخوف من الله ومن عذابه وعقابه فهم دائماً يعيشون حالة استنفار في مواجهة المعصية خوفاً من الله. . .

وهذه التقوى التي حمت أولياءه محارمه وألزمت قلوبهم مخافته ظهرت آثارها أيضاً في سلوكهم فقد تحولت لياليهم إلى سهر مع الله يخلون أنفسهم لعبادته تهجداً واجتهاداً وتعبداً.

وأما نهارهم وفي أشد أوقات الحر والشدة فهم صيام وما أجمل هذاالإسناد وألطفه «أسهرت لياليهم وأظمأت هواجرهم» من حيث أسند السهر إلى الليالي والظمأ إلى الهواجر لأن الفعل فيهما أسند إليهما والعرب تقول: «نهاره صائم وليله قائم».

ثم إن نتيجة ذلك أنهم أخذوا الراحة في الآخرة بتعب الدنيا والري وهو الشبع من الماء بعطش الدنيا من جراء الصوم واستقربوا الموت فبادروا إلى العمل لما بعده. وكذبوا الأمل الذي كان يمنّيهم ويغريهم بطول العمر وبالصحة والمال فلاحظوا أوقات أعمارهم وأنها تنقضي بسرعة فأسرعوا في فعل الخير والأعمال الطيبة.

(ثم إن الدنيا دار فناء وعناء وغير وعبر). ثم ذكر بعض أوصاف الدنيا تنفيراً منها ولأجل الحذر منها ومن غرورها فبيّن أولاً أنها دار فناء وبيّن فناءها بقوله: .

(فمن الفناء أن الدهر موتر قوسه لا تخطىء سهامه ولا تؤسى جراحه يرمي الحي بالموت والصحيح بالسقم والناجي بالعطب، آكل لا يشبع وشارب لا ينقع). ومن الفناء أن الدهر هيأ عدة قتاله وأدوات حربه وجهزها لإطلاقها نحو غريمه ـ هذا الإنسان ـ فهو

يرمي ويصيب كل من رماه فيقتله وإذا جرحه لا دواء له بل يعلّ ويستمر به المرض حتى يموت. . .

ومن جملة أفعاله أن هذا الكائن الحي الذي يتحرك وكله حركة يرميه بالموت فإذا هو جثة هامدة فالصحيح السليم المعافى الذي يعتد بقوته ويفخر بعزيمته يرميه بالمرض بجرثومة صغيرة لا ترى بالعين المجردة فإذا به عليل مريض يتقلب على الفراش يستغيث ويستنجد. . .

وهذا الناجي الذي قطع شوط الحياة يدركه بالهلاك فيرديه. . .

إنه دهر آكل للبشر يبتلع كل مَنْ وُلد وشارب دماء البشر لا يروى أبداً. . .

(ومن العناء أن المرء يجمع ما لا يأكل ويبني ما لا يسكن ثم يخرج إلى الله تعالى لا مالاً حمل ولا بناء نقل). هذه سيئة أخرى من سيئات الدنيا يعيشها الإنسان ولا يتنبه إلى مخاطرها. . إنه يعيش العناء وهو التعب فيها فتراه يكد ليجمع ما لا يأكل ففي حين تكفيه حفنة من حنطة إذ به يكدس من القوت والأموال ما يكفيه لسنة إن لم يكن لسنوات ويبني ما لا يدوم له السكن فيه والإقامة أو ما يزيد على حاجته ثم يخرج من الدنيا إلى الله بدون شيء منها فالأموال التي جمعها ليأكل بها ويدخرها لوقت الحاجة تركها محلها وتخلى عنها والبناء الذي شيده. . هذا القصر الذي أتعب نفسه في عمارته تركه لم يقدر على نقله إلى الآخرة فهل استفاد إلا التعب في الدنيا والشقاء فيها والنصب. . .

(ومن غيرها أنك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً ليس ذلك إلا نعيماً زل وبؤساً نزل). فمن تقلبات الدنيا ونكباتها وتغير أحوالها أنك تجد المرحوم فيها وهو الإنسان الذي كان يترحم عليه الناس لفقره ومسكنته هذا بعينه يغتني ويثري فيصبح مغبوطاً تفرح له الناس وتتمنى حاله وما هو فيه.

وقد ينعكس الأمر فمن كان غنياً ثرياً يغبطه الناس على حاله ويتمنون أن يكونوا كما هو هذا هو قد يصبح فقيراً مسكيناً يترحم عليه الناس فهذا قد نزل البؤس في ساحته والنعيم ولىّ مسرعاً عنه.

(ومن عبرها أن المرء يشرف على أمله فيقتطعه حضور أجله فلا أمل يدرك ولا مؤمل يترك). وهذا عيب رابع للدنيا يذكره الإمام أن الإنسان يرسم لآماله طرقاً لبلوغها والوصول إليها ويبقى يعمل حتى يكاد يدرك ما أمله وفي تلك اللحظات التي يشرف بها لبلوغ أمله إذ بالموت يأتيه فتزول الآمال وتسقط ويتهدم ذلك البناء الذي كان يرسمه بل

المؤمل نفسه وهو هذا الإنسان يموت فلا الأمل أدرك ولا المؤمل بقي. . .

(فسبحان الله ما أعز سرورها وأظمأ ريّها وأضحى فيئها لا جاء يرد ولا ماض يرتد).
تعجب عليه السلام من قلة سرور الدنيا لكثرة ما بها من الأحزان فإن سرورها يغر الإنسان فيظن أنه يدوم له فإذا به بعد لحظات وقد يكون في أوقات السرور يأتي الحزن والمصاب. . .

ومراده «ما أظمأ ريها» يعني الشرب منها مهما كان كثيراً فإنه يزيد الشارب ظمأ كماء البحر كلما شرب منه ازداد عطشاً وهكذا طالب الدنيا فإنه لا يشبع منها ولا يدرك غايته بل كلما أدرك منها أمراً ازدادت رغبته فيما فيها وهكذا تزداد شهيته ولا يبلغ أمنيته. . .

وقوله «أضحى فيئها» يعني راحتها صعبة متعبة فكيف بضحاها. . .

ثم نعى الحياة والأحياء بأن الموت إذا جاء لا يرده أحد وأن من مات لا يرتد إلى الدنيا فالحي مطلوب للموت والموت مدركه. . والميت لا يرجع مهما كانت المحاولات. . .

(فسبحان الله ما أقرب الحي من الميت للحاقه به وأبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه). ثم تعجب ثانياً من هذا الأمر الذي هو قرب الأحياء من الأموات قرب زمان لأنهم يمشون إلى المكان الذي استقر فيه الأموات.

بينما الأموات أبعد شيء عن الأحياء لأنهم لا يقدرون على العودة إليهم، فالحي يتحرك نحو الميت ومن تحرك نحو شيء أدركه وأما الميت فهو جامد في مكانه لا يتحرك فهو أبعد ما يكون على مكان الحي واللقاء به. . .

(إنه ليس شيء بشر من الشر إلا عقابه وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه). إن شر الشر العقاب على الشر وخير الخير الثواب على الخير، أو يراد أن شر الشر في الدنيا أعظم منه عقابه في الآخرة وأن خير الخير في الدنيا خير منه ثوابه في الآخرة لأن ثواب الآخرة وعذابها أعظم من كل شرور الدنيا وخيرها. . .

(وكل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه فليكفكم من العيان السماع ومن الغيب الخبر). كل أمر من أمور الدنيا سمعت به وبأوصافه يكون أعظم مما لو رأيته وهذا أمر مشاهد بالوجدان فربما وصف لك عالم بالنبوغ والذكاء المفرط فإذا اجتمعت فيه بان لك الأمر جلياً وأنه لا يتمتع بكل ما قيل عنه

وربما وصفت لك امرأة بالجمال والدلال وإذا بها لا تتمتع بما وصفت وإنما تتمتع بجزء منه. . .

وأما أمور الآخرة فالامر عكس ذلك وخلافه فكل أمر وُصف لك منها أو فيها يكون أقل من العيان لأن الحس البشري يتصور أوصاف الجنة والآخرة بمستوى أوصاف الدنيا وأشيائها التي تمر عليه في حياته فيحملها على أوصاف الآخرة وهذا أمر دون الحقيقة فيكون الوصف دون العيان. . .

ثم أمرهم بالإكتفاء من العيان والرؤية في دار الدنيا بالسماع من الأنبياء والأئمة ومن الآخرة التي هي غيب محجوب بالخبر المنقول عنهم - فإنهم صادقون - والخبر عنها دون الحقيقة بدون شك لأن العبارة لا تقدر أن تحمل الحقيقة ونحن لا نقدر على تصور أمر خارج عما نحس به ونعيشه. . .

(واعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر). وهذه معادلة إلهية وقاعدة إسلامية ينظر فيها إلى الآخرة وأن كل ما نقص من الدنيا وكانت به تزاد الآخرة فهو خير مما ينقص من الآخرة ويزاد في الدنيا وعلة ذلك أن ما يزاد في الآخرة يبقى ويدوم بعكس زيادة الدنيا فإنه مؤقت ومحدود والعقل يحكم بأهمية ما يبقى وتقديمه على غيره ومن ذلك أن تربح أجر الصدقة أو الزكاة أو الخمس في الآخرة وإن كانت أموالك تنقص أرقامها قليلاً وعلى عكس ذلك ما لو ربحت بمعاملة ربوية وزادت أموالك في الدنيا وخسرت من رصيدك في الآخرة فإن العاقل يقدم ما يبقى على ما يفنى ويقدم الآخرة ويسعى لزيادة ربحها على الدنيا وما فيها من الربح. . .

ثم قال: كم من منقوص في الدنيا رابح في الآخرة وكم من رابح في الدنيا ومزيد له خاسر في الآخرة وهذا ترغيب في الآخرة وفي العمل لها وتقديمها على الدنيا وما فيها. . .

(إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم فذروا ما قل لما كثر وما ضاق لما اتسع). هذا البيان حث على الآخرة وأنه طالما دائرة المحللات أوسع من دائرة المحرمات فعلى العاقل أن يختار ما فيه نجاته طالما له فيه سعة ولقد جاز لنا تناول الواجب والمباح والمستحب والمكروه وهذه لها دوائر واسعة وافرة بينما الحرام ليس له إلا دائرة واحدة محصورة في أفراد كالزنا وشرب الخمر وما أشبههما والإنسان يدع ما قل من المحرمات لما كثر واتسع من غيرها من المحللات.

(قد تكفل لكم بالرزق وأمرتم بالعمل فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله مع أنه والله لقد اعترض الشك ودخل اليقين حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم وكأن الذي قد فرض عليكم قد وضع عنكم). إن الله قد تكفل لكل نفس برزقها فقال تعالى: **﴿إن الله هو الرزاق﴾** وقال: **﴿رزقكم في السماء وما توعدون...﴾** ونحن إنما أمرنا بالعمل وتهيئة الأسباب وعلى الله بعد ذلك النجاح ثم نهانا عن التوجه إلى ما هو مضمون وترك ما هو مفروض فإذا كان الرزق مضمون والواجب عليّ فقط السعي فإذا قمت بذلك فقد قمت بالمطلوب ولا يجوز الحرص أكثر من هذا وراء الرزق وهذا على عكس ما أنا مأمور به من الواجبات فإن عليّ أن أسعى وراءها وأنفذها ولا أهمل شيئاً منها...

ثم أقسم أنه دخل الشك إلى القلوب فزلزل اليقين بأمر الله ووعده وما أخذه على نفسه فصار ما هو مضمون من الرزق كأننا مأمورون بتحصيله وما فرض علينا من الواجبات والأسباب قد وضع عنه...

(فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل). أسرعوا إلى تنفيذ ما افترض الله عليكم وخافوا أن يفاجأكم الموت فتنقطع الأعمال...

(فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من الرزق رجي غداً زيادته وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته الرجاء مع الجائي واليأس مع الماضي «فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»). دعوة إلى المحافظة على عمر هذا الإنسان وأن لا يذهب هدراً بدون فائدة بل يجب أن يؤدي فيه ما وجب عليه بدون تسويف أو تأخير فإن لكل ساعة عملها ولكل لحظة ما يشغلها والعمر هو رأس مال الإنسان الذي لا يعوّض ومن فاته يوم لا يقدر على إعادته وذلك عكس المال فإنه إذا لم يقدر على تحصيل دينار اليوم يمكن أن يحصل عليه غداً وإذا خسر اليوم ديناراً يمكن أن يعوّضه غداً.

ومن هنا كان ما يمكن مجيئه والحصول عليه من المال يرجى ويؤمل أن يدركه طالبه وأما ما مضى من العمر فاليأس كل اليأس في تحصيله فكل يوم مضى وانقضى لا يمكن رده أو الاستفادة منه.

ثم أمر عليه السلام في خاتمة الخطبة الشريفة بتقوى الله حق تقاته أي كما يجب بترك المحرمات وفعل الواجبات...

١١٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الاستسقاء[١]

اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ[٢] جِبالُنَا، وَاغْبَرَّتْ[٣] أَرْضُنَا، وَهَامَتْ[٤] دوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا[٥]، وَعَجَّتْ[٦] عَجِيجَ الثَّكَالَى[٧] عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا[٨]، وَالحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا[٩]! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ[١٠] الآنَّةِ[١١]، وَحَنِينَ الحَانَّةِ[١٢]! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا[١٣]، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا[١٤]! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ[١٥] عَلَيْنَا حَدَابِيرُ[١٦] السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ[١٧] الجُودِ[١٨]، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ[١٩]، وَالبَلَاغَ[٢٠] لِلْمُلْتَمِسِ[٢١]. نَدْعُوكَ حِينَ قَنِطَ[٢٢] الأَنَامُ، وَمُنِعَ الغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ[٢٣]، أَلَّا تُؤَاخِذَنَا[٢٤] بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا[٢٥] بِذُنُوبِنَا. وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ المُنْبَعِقِ[٢٦]، وَالرَّبِيعِ المُغْدِقِ[٢٧]، وَالنَّبَاتِ المُونِقِ[٢٨]، سَحّاً[٢٩] وَابِلاً[٣٠]، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً[٣١]، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً[٣٢] فَرْعُهَا، نَاضِراً[٣٣] وَرَقُهَا تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا المَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ! اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا[٣٤]، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا[٣٥]، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا[٣٦]، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا[٣٧] أَقَاصِينَا[٣٨]، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا[٣٩]؛ مِنْ بَرَكَاتِكَ الوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ المُرْمِلَةِ[٤٠]، وَوَحْشِكَ

الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً(٤١)، مِدْرَاراً(٤٢) هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ(٤٣) مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ(٤٤) الْقَطْرُ(٤٥) مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا(٤٦)، وَلاَ جَهَامٍ(٤٧) عَارِضُهَا(٤٨)، وَلاَ قَزَعٍ(٤٩) رَبَابُهَا(٥٠)، وَلاَ شَفَّانٍ(٥١) ذِهَابُهَا(٥٢)، حَتَّى يُخْصِبَ(٥٣) لإِمْرَاعِهَا(٥٤) الْمُجْدِبُونَ(٥٥)، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ(٥٦)، فَإِنَّكَ «تُنْزِلُ الْغَيْثَ(٥٧) مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب

قال السيد الشريف، رضي الله عنه؛ قوله عليه السلام: (انْصَاحَتْ جِبَالُنَا) أي تشقّقت مِنَ المُحُولِ، يُقَالُ: انصَاحَ الثَّوْبُ إِذَا انْشَقَّ. ويُقَال أيضاً: انْصَاحَ النَّبْتُ وَصَاحَ وَصَوَّحَ إذا جَفَّ وَيَبِسَ؛ كُلُّهُ بمعنىً. وقوله: (وَهَامَتْ دَوَابُّنَا) أيّ عَطِشَتْ، وَالهُيَامُ: العَطَشُ. وَقَوْلُهُ: (حَدَابِيرُ السِّنين) جمع حِدبار وهي الناقة التي أنضاها السَّيْرُ، فشبّه بها السنة التي فشا فيها الجَدْبُ، قال ذو الرّمّة:

حَـدَابِيـرُ مَـا تَنْفَـكُّ إِلاَّ مُنَـاخَـةً ... عَلَى الخَسْفِ أَوْ نَـرْمِي بِهَـا بَلَـداً قَفْـراً

وقوله: (وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُهَا)، القَزَعُ: القِطَعُ الصِّغَارُ المُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ. وقوله: (وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا) فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: وَلاَ ذَاتَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا. وَالشَّفَّانِ: الرِّيحُ البارِدَةُ، والذِّهَابُ: الأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ. فَحَذَفَ (ذَاتَ) لِعِلْمِ السَّامعِ بِهِ.

اللغة

١ ـ الاستسقاء : طلب السقي أي الشرب.
٢ ـ انصاحت : تشققت، جفت، يبست.
٣ ـ اغبرت : صارت غباراً أو أصابها ذلك.
٤ ـ هامت : أصلها تحيرت وذهب على وجهها وفسرها الشريف بالعطش.
٥ ـ المرابض : جمع مربض وهو مبرك الغنم.
٦ ـ عجت : صاحت ورفعت صوتها.

٧ ـ الثكالى : جمع ثكلى من فقدت ولدها.
٨ ـ المراتع : أماكن الخصب والسعة.
٩ ـ الموارد : أماكن الشرب.
١٠ ـ الأنين : التأوه.
١١ ـ الآنة : الشاة.
١٢ ـ الحانة : الناقة.
١٣ ـ المذاهب : المسالك.
١٤ ـ الموالج : المداخل من ولج إذا دخل.
١٥ ـ اعتكرت : اختلطت وازدحمت.
١٦ ـ الحدابير : جمع حدبار الناقة التي أنضاها السير شبه السنة التي فشى فيها الجدب.
١٧ ـ المخايل : جمع مخيلة للسحابة التي ترجى المطر.
١٨ ـ الجود : المطر.
١٩ ـ المبتئس : الذي مسته البأساء وهي الضراء.
٢٠ ـ البلاغ : الكفاية.
٢١ ـ الملتمس : الطالب.
٢٢ ـ قنط : يئس.
٢٣ ـ السّوام : جمع سائمة وهي البهيمة الراعية من الإبل والغنم.
٢٤ ـ لا تؤاخذنا : لا تعاقبنا.
٢٥ ـ لا تأخذنا بذنوبنا : لا تستأصلنا وتقضي علينا بسبب ذنوبنا.
٢٦ ـ المنبعق : المنفرج بالمطر.
٢٧ ـ المغدق : من أغدق يقال: أغدق المطر إذا كثر ماؤه.
٢٨ ـ المونق : الحسن المعجب.
٢٩ ـ السح : الصب والسيلان من فوق.
٣٠ ـ الوابل : الشديد من المطر الضخم القطر.
٣١ ـ مريعة : خصيبة.
٣٢ ـ ثامراً : مثمراً.
٣٣ ـ الناضر : الناعم الحسن الجميل.
٣٤ ـ النجاد : المرتفع من الأرض.
٣٥ ـ الوهاد : المنخفض من الأرض.
٣٦ ـ الجناب : الناحية.
٣٧ ـ تندى : تنتفع.

٣٨ ـ الأقاصي : البلاد البعيدة.
٣٩ ـ الضواحي : النواحي القريبة.
٤٠ ـ المرملة : الفقيرة.
٤١ ـ المخضلة : من أخضله إذا بلّه.
٤٢ ـ المدرار : الغزير السيلان.
٤٣ ـ الودق : المطر.
٤٤ ـ يحفز : يدفع بشدة.
٤٥ ـ القطر : حبات المطر.
٤٦ ـ البرق الخلب : ما يطمعك من البرق بالمطر ولا مطر معه.
٤٧ ـ الجهام : السحاب الذي لا مطر فيه.
٤٨ ـ العارض : ما يعرض من السحاب في الأفق.
٤٩ ـ الرباب : السحاب الأبيض.
٥٠ ـ القزع : قطع من السحاب متفرقة.
٥١ ـ الشفان : الريح الباردة.
٥٢ ـ الذهاب : الأمطار اللينة.
٥٣ ـ أخصب : المكان أصابه الخصب وهو عبارة عن كثرة العشب والخير فيه.
٥٤ ـ أمرع : أخصب.
٥٥ ـ المجدبون : الممحلون من الجدب وهو المحل.
٥٦ ـ المسنتون : الجائعون، المقحطون.
٥٧ ـ الغيث : المطر.

الشرح

(اللهم قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا). هذه الخطبة المباركة خطب بها الإمام في صلاة الاستسقاء وقد قلت في شرح دعاء الإمام زين العابدين الذي دعاه في صلاة الاستسقاء من الصحيفة السجادية قلت ما نصه:

عند الشدائد وفي الأزمات... عندما تمنع السماء قطرها والأرض خيرها... عندما تضيق بهذا الإنسان الحياة مع رحبها وسعتها ويتعذر عليه القوت وضروريات العيش، عندها يتصل بالله قهراً عنه.. يرفع إليه يديه بالدعاء.. يبتهل... يتضرع... يستغيث... يناجي... يطلب من الله بحرارة وصدق أن يرحمه ويرزقه ويدر عليه من

عطائه وخيره وفيض وجوده. . . وعندما يرى الله صدق العبد وصحة توجهه إليه. . . عندما يرى ذله ومسكنته يرسل أبواب رحمته من كرمه. . . يرسل السماء عليه مدراراً ويأمر الأرض أن تخرج له كنوزها فتدب الحياة في الأموات وينتعش ميت البلاد، إنها رحمة الله وقدرته تتجسد في صلاة الاستسقاء. . .

صلاة الاستسقاء: . صلاة الاستسقاء صلاة يطلب بها أن يرسل الله المطر على قوم أجدبوا وضاقت بهم سبل الحياة. . . عندما تشح السماء بعطائها فتمنع قطرها يتوجه هذا الإنسان بهذه الصلاة إلى الله فتنفتح أبواب الرحمة الإلهية فينزل الغيث وتروى العباد والبلاد والحيوانات والبهائم وتعود لهم الحياة. . .

وكيفيتها كما يذكرها الفقهاء موجزاً:

١ ـ أن يتوب الناس عن المعاصي والآثام ويردوا المظالم إلى أهلها.

٢ ـ صوم ثلاثة أيام يكون ثالثها يوم الإثنين.

٣ ـ يخرجون في اليوم الثالث إلى الصحراء وإن كانوا بمكة فإلى المسجد الحرام حفاة ونعالهم في أيديهم بسكينة ووقار متخشعين مستغفرين.

٤ ـ يخرجون الشيوخ والصبيان والبهائم وأهل الزهد والصلاح.

٥ ـ يفرقون بين الأمهات والأولاد.

٦ ـ ويقولون بدل الآذان: الصلاة ثلاثاً.

٧ ـ يصلي الإمام بالناس ركعتين يقرأ في الأولى بعد الحمد سورة جهراً ثم يكبّر أربع تكبيرات يقنت عقيب كل تكبيرة ويدعو في القنوت بالاستغفار وطلب الغيث وإنزال الرحمة ثم يكبّر السادسة ويركع ويسجد بعدها سجدتين ثم يقوم إلى الركعة الثانية فيفعل مثلما فعل في الأولى إلا أن التكبيرات فيها أربع.

فإذا فرغ من الصلاة يصعد المنبر ويحوّل رداءه فيجعل الذي على يمينه على يساره والذي على يساره على يمينه ثم يخطب بخطبتين.

ثم يستقبل القبلة فيكبّر مائة مرة رافعاً بها صوته.

ثم يلتفت إلى يمينه فيسبّح الله مائة مرة رافعاً بها صوته.

ثم يلتفت إلى يساره فيهلل الله مائة مرة رافعاً بها صوته.

ثم يستقبل الناس بوجهه فيحمد الله مائة مرة رافعاً بها صوته والناس يتابعونه في الأذكار دون الالتفات إلى الجهات فإن سقوا وإلا عادوا ثانياً وثالثاً وإن أفطروا فبصوم مستأنف. . .

قد يقال: كيف يتم إنزال المطر بالدعاء؟! وهل هذا إلا وهم لا أساس له؟. . .

نقول: إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء إذا أراد أمراً قال له: كن فيكون.

فربما جعل نزول المطر متوقفاً على الدعاء ويكون الدعاءسبباً غير منظور لدى الناس إلا الخاصة منهم. . .

والأمور بيد الله فكما ينزله في الشتاء ينزله في الصيف. . .

التجربة: ويروي التاريخ والأحاديث كما أن سيرة المسلمين قائمة على هذه الصلاة وأنهم قد استسقوا بالنبي واستسقى المسلمون بعد وفاته بأهل بيته. . .

(اللهم قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا). هذه حالات من البؤس والشقاء والضيق والعناء يمر بها المسلمون والإمام يضعها بين يدي الله وهو عالم بها ولكن شكوى إليه يرفعها المحتاجون وشرح حال لمن يعلم بالحال زيادة في التذلل والخضوع. . .

لقد جفت رؤوس جبالنا وتشققت من قلة الماء ويبس نبتها وأما الأرض فللجدب الذي نالها قد اغبرت كثر غبارها أو أصبحت غبراء لعدم النباتافيها. . .

(وهامت دوابنا وتحيرت في مرابضها وعجت عجيج الثكالى على أولادها وملت التردد في مراتعها والحنين إلى مواردها). فالأرض تحكي جدبها وتشتكي وهذه البهائم بحركتها أيضاً تحكي وتشتكي وما أجمل أن يتوسل الإنسان بهذه الحيوانات ويضمها إلى قائمة المتوسلين بهم فإنها خرساء لا تملك الاحتجاج على الإنسان وتمرده على الله وعصيانه له. . . إنها حالة الدواب التي تحيرت من العطش فراحت على وجوهها تحكي عطشها ومن حركاتها فإنها ضجت وارتفعت أصواتها تستغيث وتطلب الغيث كالثكلى وهي الأم المفجوعة بولدها يعلو صوتها فكذلك تصرخ هذه الدواب في عطش وألم تستنجد بالله أن ينزل عليها المطر.

إنها ملت التردد إلى أماكنها التي كان فيها الكلأ لأنها أماكن قاحلة فقد قصدتها فلم تجد فيها عرقاً أخضراً يؤكل وكذلك أماكن شربها التي كانت ترتوي منها قد ملتها أيضاً لأنها جفّت.

(اللهم فارحم أنين الآنة وحنين الحانة، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها وأنينها في موالجها). بعد شرح حال الدواب ومعاناتها وما يمر عليها جاء دور الاستغاثة بالله... بهذا النداء وبما فيه من الرقة والعطف اللهم فارحم أنين الآنة من الشياه وحنين الحانة من النوق اللهم ارحم حيرتها في مسالك سيرها حيث فقدت توازنها ولم تعد تعرف كيف تتحرك في طرقها وارحم تأوهها في أماكن دخولها.

وقدم عليه السلام ذكر الدواب لأنها أقرب إلى الرحمة وفي الحديث: لولا أطفال رضع وشيوخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً...

(اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين واخلفتنا مخايل الجود فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس). اللهم خرجنا إليك وما أجمل هذا الخروج وأجمل منه أن يخرج إليه في أيام العافية والرخاء...

اللهم خرجنا إليك حين تكررت علينا السنون المجدبة القاسية الماحلة الهزيلة التي أكلت الشحم واللحم وقد أخلفت ظنوننا السحب التي كانت تمطرنا وتنزل علينا قطرها...

فأنت يا رب الرجاء الذي يتطلع إليه من أصابه البؤس ومسته الضراء والشقاء.

وبك يا رب يبلغ الطالب حاجته ويصل إلى بغيته...

(ندعوك حين قنط الأنام ومنع الغمام وهلك السوام ألا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا). نتوجه إليك يا رب بالدعاء في وقت صعب جداً إنه وقت يئس فيه الناس من رحمتك ومنع الغمام المطر وهلكت المواشي التي تعيش ببرك وعطائك، ندعوك يا رب ألا تعاقبنا على سوء أعمالنا وقبائح ما عندنا ولا تقضي علينا بما ارتكبنا وعملنا من الآثام.

وهذا يدل على أن الأعمال القبيحة تمنع قطر السماء وترفع البركة والرحمة وتنزل العقاب والعذاب.

(وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق والربيع المغدق والنبات المونق سحاً وابلاً تحيي به ما قد مات وترد به ما قد فات). بعد أن دعا الله أن لا يعاقبنا بذنوبنا أو يأخذنا بها دعاه أن يبسط رحمته المتمثلة بالغيوم التي ينفجر منها الماء ويخرج لنا الربيع المثمر بالخير والنبات المعجب للعين المؤنس للنفس...

اللهم اجعله مطراً شديداً قوياً تحي به ما قد مات من الأرض وترد به ما قد فات من زرع ونبات وشجر. . .

(اللهم سقياً منك محيية مروية تامة عامة طيبة مباركة هنيئة مريعة، زاكياً نبتها ثامراً فرعها ناضراً ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك). دعا الله أن تكون هذه السقية منه فيها حياة لكل ما قد مات من أرض خربت من جراء القحط، راوية لكل شيء يحتاج إلى ري، تامة غير ناقصة عامة لجميع البلاد طيبة لا أذية فيها تعطي الخير والبركة خصيبة واسعة ينمو نبتها التي أخرجته مثمراً فرعها ناضراً أي ذا بهجة وحسن وبالجملة تشد بها قوة الضعيف حتى يتغلب على ضعفه وفقره وتحي بها ما قد مات من البلاد. . .

(اللهم سقياً منك تعشب بها نجادنا وتجري بها وهادنا ويخصب بها جنابنا وتقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا وتندى بها أقاصينا وتستعين بها ضواحينا). سأل الله أن يجعلها سقياً منه تكتسي بها المرتفعات بالعشب والخضرة وتجري بها الوديان وجوانب بلاده، تخصب وتعطي خيرات كثيرة وكذلك تزداد ثمارنا وتكثر خيراتها. . .

سقياً تعيش بها مواشينا من بقر وغنم وإبل وغيرها وتنتفع بها أطراف بلادنا البعيدة وتكون عوناً لمن حولنا من البلاد والنواحي. . .

(من بركاتك الواسعة وعطاياك الجزيلة على بريتك المرملة ووحشك المهملة). اللهم اجعلها سقياً من بركاتك الواسعة وما أكثر بركاتك على بريتك واجعلها من عطاياك الكبيرة وكل عطاياك كبيرة على من بريت وخلقت من خلقك الفقير الذي تمرغ في الرمل من الحاجة ووحشك الذي يعيش في البراري يتنظر كرمك وجودك. . .

(وأنزل علينا سماء مخضلة مدراراً هاطلة يدافع الودق منها الودق ويحفز القطر منها القطر). أنزل علينا يا رب سحابة مملؤة بالمطر تتساقط بقوة وغزارة وتتدافع بكثرة وشدة.

(غير خلب برقها). أكد المعنى السابق بأن لا يكون برقها ناشفاً دون مطر.

(ولا جهام عارضها). ولا تجعل سحابها المعترض في الأفق بدون مطر. . .

(ولا قزع ربابها ولا شفان ذهابها). لا تجعل سحابها أبيض متفرقاً لا خير فيه ولا تجعل أمطارها اللينة ذات ريح باردة مضرة بالزرع.

(حتى يخصب لإمراعها المجدبون ويحيا ببركتها المسنتون فإنك تنزل الغيث من

بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد). حتى تعطي الأرض خيراتها لأهل الجدب ويحيا من أصابهم القحط ببركتها.

ثم قرأ الآية ودعا بها رجاءً للإجابة وأن الله هو الذي ينزل المطر بعد ما يئس الناس منه وينشر رحمته على العباد وهو ولي عباده والمتولي لشؤونهم ومعرفة مصالحهم وهو المستحق لكل حمد...

١١٦ - ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينصح أصحابه

أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الحَقِّ وَشَاهِداً عَلَى الخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ[١] وَلاَ مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ[٢] وَلاَ مُعَذِّرٍ[٣] إِمَامُ مَنِ اتَّقَى، وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى.

ومنها: وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنكُمْ غَيْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ[٤] تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ[٥] عَلَى أَنْفُسِكُمْ، ولَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا وَلاَ خَالِفَ[٦] عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ[٧] كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ[٨] عَنكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللهِ مَيَامِينُ[٩] الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ[١٠] الحِلْمِ، مَقَاوِيلُ[١١] بِالحَقِّ، مَتَارِيكُ[١٢] لِلْبَغْيِ[١٣]. مَضَوْا قُدُماً[١٤] عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا[١٥] عَلَى المَحَجَّةِ[١٦]، فَظَفِرُوا بِالعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالكَرَامَةِ البَارِدَةِ[١٧]. أَمَا وَاللهِ، لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلاَمُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ[١٨] المَيَّالُ[١٩]؛ يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ[٢٠]، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ، إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ[٢١]!.

قال الشريف: الوَذَحَةُ: الخُنْفِسَاءُ. وهذا القول يومىء به إلى الحجاج، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

اللغة

١ ـ الواني : المتثاقل الكال الفاتر.
٢ ـ واهن : ضعيف.
٣ ـ المعذر : بالتشديد من يعتذر ولا يثبت له عذر.
٤ ـ الصعدات : جمع الصعد وهو جمع الصعيد وجه الأرض أو الطريق.
٥ ـ الالتدام : ضرب النساء صدورهن أو وجوههن للنياحة.
٦ ـ الخالف : من تخلفه في غيابك على مالك وأهلك.
٧ ـ همت : شغلت وأهمني الأمر أحزنني.
٨ ـ تاه عن فلان رأيه : أي عزب وضل.
٩ ـ ميامين : جمع ميمون المبارك ورأي ميمون أي مبارك.
١٠ ـ مراجيح : من رجح إذا مال بغيره إذا وزن بغيره كان أوزن.
١١ ـ مقاويل : جمع مقوال من يحسن القول.
١٢ ـ متاريك : جمع متراك المبالغ في الترك.
١٣ ـ البغي : الظلم والتعدي.
١٤ ـ القدم : بضم القاف والدال سابقين.
١٥ ـ أوجفوا : أسرعوا.
١٦ ـ المحجة : الطريق المستقيمة الواضحة.
١٧ ـ الكرامة الباردة : الهنية.
١٨ ـ الذيال : التائه المتبختر، من جر ثوبه على الأرض تيهاً.
١٩ ـ الميال : الظالم.
٢٠ ـ الخضرة : بفتح الخاء وكسر الضاد الزرع والبقلة الخضراء.
٢١ ـ الوذحة : الخنفساء.

الشرح

(أرسله داعياً إلى الحق وشاهداً على الخلق فبلّغ رسالات ربه غير وان ولا مقصر وجاهد في الله أعداءه غير واهن ولا معذر إمام من اتقى وبصر من اهتدى). ابتدأ عليه السلام بذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وذكر بعض أوصافه الكريمة فقال: إن الله أرسله رسولاً داعياً إلى الحق وهو الإسلام وما في تعاليمه من خير وأخلاق...

وكذلك جعله شاهداً على الخلق كما قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً...**﴾[١] فهو يشهد على من عصى وتمرد ويشهد لمن أطاع وامتثل.

ورسول الله بلّغ رسالات الله لم يتباطأ أو يتهاون أو يقصر في شيء من ذلك.

وجاهد في الله أعداء الله من مشركين ونصارى ويهود واستطاع بعزيمته المحمدية أن يدك عروش الطغاة والظالمين غير واهن بدون ضعف منه وبدون أن يترك لأحد عذراً يعتذر به عن كفره أو تقصيره فقد أتاهم بالبينات والمعجزات وقطع بها أعذار كل من أراد أن يعتذر بعدم وصول الحجة إليه...

إنه إمام من اتقى فقد كان القدوة والأسوة التي يقتدى بها أفضل الناس وهم الأتقياء وكان لهم أسوة يتأسون به ويمشون على طريقته.

إنه بصر من اهتدى من أراد الهداية فإنه ببركة النبي وبتعاليمه يرى الحياة على حقيقتها كما يرى الآخرة ويدرك أمامه ما ينفع مما يضر...

(ولو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذاً لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم وتلتدمون على أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها ولهمت كل امرىء منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها). إنه عليه السلام كان يعيش بين أهل الكوفة ويقرأ مستقبلهم الرهيب وما ينتظرهم من المحن ويحل بهم من المصائب...

إنه يعلم ما انطوى عن الناس علمه، يعلم نهايتهم التعيسة في الآخرة التي رسموها بأيديهم من حيث أهملوا وضيعوا وتوانوا وتكاسلوا وتركوا الجهاد وما فيه عزهم وكرامتهم...

يقول لهم لو تعلمون ما أعلم مما هو مطوي عنكم علمه لخرجتم على وجوهكم في الطرقات تبكون على أعمالكم السيئة القبيحة لأن الله سيحاسبكم عليها، ولخرجتم وأنتم تلطمون على صدوركم حزناً وجزعاً من شدة المصيبة ولتركتم أموالكم التي هي حبيبة عندكم وأثيرة لديكم تركتموها بدون حارس يحرسها أو إنسان يخلفكم عليها في إدارتها وحفظها ولكان كل فرد منكم يهتم بنفسه وينظر ما ينفعها ويترك ما لا ينفعه ولا يفيده...

إن أهل العراق غفلوا عن المستقبل واشتغلوا بالقيل والقال، لم يطيعوا الإمام فيما أمر وقد أمر بما يصلحهم وينفعهم ولكنهم أبوا وتمردوا...

---

(١) سورة الأحزاب آية/ ٤٥.

(ولكنكم نسيتم ما ذكرتم وأمنتم ما حذرتم فتاه عنكم رأيكم وتشتت عليكم أمركم). فهناك تذكير لكم وتحذير تذكير بما ينتظركم إن توحدتم والتزمتم بما أراد الله وتحذير لكم من معصيته وعدم التزامكم بما أمر وعدم طاعته في العمل والإقدام على دحر الطواغيت والظالمين.

ولكن أعقبكم عدم التذكر والنسيان أن ضل عنكم رأيكم الصائب ولم تهتدوا إلى الأمر الصحيح السليم المنقذ لكم من السقوط في مهاوي المهالك...

(ولوددت أن الله فرق بيني وبينكم وألحقني بمن هو أحق بي منكم قوم والله ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحق متاريك للبغي مضوا قدماً على الطريقة وأوجفوا على المحجة فظفروا بالعقبى الدائمة والكرامة الباردة). تمنى عليه السلام وأطلق ما تمناه في وجوههم.. إنها نفثة خرجت من قلب المعاناة التي يعيشها ومن واقع التمرد الذي يمارسه أهل العراق عليه... إنه تمنى لو أن الله فرق بينه وبينهم وكم تكون الأذية حتى يتمنى فراقهم والبعد عنهم...

إنه تمنى فراقهم وتمنى أن يلحقه الله بقوم أحق به منهم لم يذكرهم بأسمائهم وإنما ذكرهم بأوصافهم وإن انطبقت هذه الأوصاف على ثلة طاهرة تقدمت عليه واستشهدت بين يديه وصفاتهم هي:

أ ـ قوم ميامين الرأي: أصحاب رأي مبارك صائب مستقيم.

ب ـ قوم مراجيح الحلم: فأحلامهم وعقولهم راجحة إذا ارتأت أمراً كان الحق معها...

ج ـ قوم مقاويل بالحق: منطقهم الحق لا يتكلمون بالباطل.

د ـ قوم متاريك للبغي: إنهم لا يدنون من الظلم أبداً ولا يتجاوزون المرسوم بحال...

هـ ـ قوم مضوا قدماً على الطريقة: قوم ساروا على الطريقة الصحيحة قديماً أو قوم تقدموا علينا ساروا على الطريقة الصحيحة والسليمة...

و ـ قوم أوجفوا على المحجة: أي أسرعوا في مسيرهم على الطريقة الواضحة حباً بها ورغبة بما فيها.

وكانت العاقبة لهذه الثلة الطاهرة التي تمنى وجوده معها إنهم أدركوا الآخرة السعيدة وهي الجنة وما فيها من نعيم خالدين فيها...

(أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذيال الميال يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم إيه: أبا وذحة).

أخبار بالغيب. وهذه رؤية علوية وأخبار بالغيب علمه رسول الله ما يجري عليه وما سيجري بعده... وهذا النبأ يخبر به أهل العراق ويقسم بالله أنه سيتولى عليهم غلام ثقيف وهو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تولى على العراق ووصفه بالتجبر والظلم وأنه سيقضي على ما هم فيه من القوة والأبهة والعظمة وما يتمتعون به من ثراء ونعيم كما أنه سيذلهم ويقضي على شرفهم وعزتهم وقد نقلت كتب التاريخ والسير عن هذا الطاغية ما تقشعر منه الأبدان ويكاد لا يُصدق ما ينقل لغرابته وبشاعته من حيث لا ترتكبه نفس بشرية على الإطلاق ولا يمكن أن يتصور في حق إنسان.

ثم قال له: زد وهات ولقّبه أبا وذحة وهي في الأصل اسم للبعر الملتصق بشعر الشاة وقيل اسم للخنفساء ووجه تسميته بذلك يمكن أن يكون تحقيراً له وتصغيراً على عادة العرب من حيث تكني الإنسان إذا أرادت تحقيره بما يستحقر كما تكنيه بما يكون مظنة التعظيم إذا أرادت تعظيمه.

وقيل لأن الخنفساء قرصته بيده فمات منها وقيل لأنه كان مثفاراً وكان يمسك الخنفساء حية ليشفي بحركتها في الموضع حكاكه وقالوا غير هذا...

١١٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

يوبخ البخلاء بالمال والنفس

فَلاَ أمْوَالَ بَذَلْتُمُوها(١) لِلَّذِي رزَقَها، وَلاَ أنْفُسَ خَاطَرْتُمْ(٢) بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا. تَكْرُمُونَ(٣) بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ تُكْرِمُون اللهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ!.

اللغة

١ ـ بذل الشيء : اعطاه وجاد به.

٢ ـ خاطرتم : ارتكبتم ما فيه خطر وهلاك.

٣ ـ تكرمون : من كرم الشي إذا عز ونفس.

الشرح

(فلا أموال بذلتموها للذي رزقها ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها). ذمهم بهذين الوصفين القبيحين.

فالأموال التي هي من الله والتي هي ملك له والتي من فضله كانت بأيديكم كان حقها أن تصرف فيما أمر وأراد من اعانة عباد الله وسد عوزهم ورفع حاجتهم... من أجل مصالح الأمة وما ينفعها ويفيدها.. هذه الأموال قد بخلتم بها عن الله وفي سبيله ولم تبذلوها لمستحقيها... وهذه الأنفس التي خلقها الله والتي بقاؤها واستمرارها بيد الله من حقكم أن تجاهدوا فيها من أجله فلماذا تبخلون بها عمن هو أحق بها منكم فلا الأموال بذلتم ولا بالأنفس جاهدتم.

(تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده). أنتم بالله وبما أعطاكم وخولكم يكرمكم الناس ويحترمونكم فلماذا لا تكرمون الله وتحترمونه في عباده بأن تقدموا لهم يد المساعدة والعون.

وبعبارة أخرى: الناس يطيعونكم ويجلونكم لأجل الله فلماذا لا تجلون الله وتطيعونه في الناس...

(فاعتبروا بنزولكم منازل من كان قبلكم وانقطاعكم عن اوصل أخوانكم). ذكرهم بنهايتهم التي هي نهاية من كان قبلهم من الأمم والشعوب.. إنها حفرة صغيرة حقيرة تدوسها الأقدام... حفرة نزلها المتقدمون وسننزل فيها نحن كما نزلوا... وبها تتفكك العرى الملتحمة وتنقطع الخيوط الموصولة...

ينفصل الأب عن الابن والأخ عن أخيه والقريب عن قريبه وفي هذا عبرة للعودة إلى الله والرجوع إليه وأن يكون الإنسان سخياً كريماً مالاً ونفساً في طاعة الله ومرضاته...

١١٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

في الصالحين من أصحابه

أَنْتُمُ الأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجُنَنُ(١) يَوْمَ الْبَأْسِ(٢)، والْبِطَانَةُ(٣) دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ(٤)، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحةٍ(٥) خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ(٦)، فَوَاللهِ إِنِّي لأَوْلَى النَّاسَ بَالنَّاسِ!.

اللغة

١ ـ الجنن : بضم جمع جنة أيضاً بالضم وهي الوقاية وما يستتر به.
٢ ـ البأس : الشدة.
٣ ـ البطانة : للرجل خاصته وأصحاب سره.
٤ ـ المدبر : من أعطى دبره، الهارب.
٥ ـ المناصحة : أن ينصح كل واحد الآخر والنصح هو إخلاص المودة، الموعظة.
٦ ـ الريب : الشك.

الشرح

(أنتم الأنصار على الحق والإخوان في الدين والجنن يوم البأس والبطانة دون الناس). وجه الإمام هذا الكلام إلى أصحابه بعد انتصاره في معركة الجمل حيث ابدوا شجاعة فائقة ففي يوم واحد تم له ما أراد وكسب المعركة وهزم الله الناكثين.. مدحهم ليشد من عزيمتهم ويقويهم على إكمال المسير فقال لهم: أنتم الأنصار على الدين

تدفعون عنه وتقاتلون من أجله وهذا أفضل الجهاد وأعظمه وهو الجهاد الذي يستحق أن يبذل الناس من أجله كل شيء. . . ووصفهم بإخوة الدين تمشياً مع قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون أخوة﴾** أخوة عقيدة وإيمان. . .

ووصفهم بأنهم الدروع الواقيه يوم الشدة والبأس وفي اشتداد الخطوب والأزمات لأنهم يدفعون عن الحق ويدافعون عنه. . .

وجعلهم من خواصّه وأهل سره زيادة لهم في القرب والعطف والحب وإنهم شركاء له في كل قرار وفي كل نصر. . .

(بكم أضرب المدبر وارجو طاعة المقبل). أنتم اليد التي أضرب بها من أدبر عن الحق وتولى عن الجماعة وأراد أن يفكك عرى الوحدة ويوهن قوة هذا الدين وأرجو بكم طاعة المقبل أي من كان في صفوفنا ضعيف العقيدة يعيش القلق يتربص الأوقات ليفر هذا إذا رآكم متفقين متوحدين صادقين صحاح القلوب سالمي النوايا فإنه يرغب في البقاء ويكمل المسير معنا إلى النهاية.

(فاعينوني بمناصحة خلية من الغش سليمة من الريب فوالله إني لأولى الناس بالناس). بعد أن ذكرهم بما تقدم من الأوصاف الكريمة طلب منهم أن يساعدوه بالنصيحة الخالية من الغش الصادقة السليمة من الشك فيه وفي أحقيته بالخلافة ثم أقسم إنه أولى الناس وأحقهم بإمامة الناس لأنه أعلمهم بأمر الله وأقدرهم على إقامة حكم الله وقد شهد الرسول بذلك فيما ورد عنه من النصوص التي عينت علياً خليفة بعده وإنه أولى الناس بالناس وبهذا شهد واقع حاله ولسان مقاله.

١١٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملياً

فقال عليه السلام: مَا بَالُكُمْ أَمُخْرِسُونَ[١] أَنْتُمْ؟ فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك.

فقال عليه السلام: مَا بَالُكُمْ[٢]! لاَ سُدِّدْتُمْ[٣] لِرُشْدٍ[٤]! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ[٥]! أَفِي مِثْلِ هذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ[٦]، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالمِصْرَ وَبَيْتَ الْمَالَ وَجِبَايَةَ[٧] الأَرْضِ، والْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمين، والنَّظَرَ فِي حُقُوق الْمُطَالِبينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ[٨] أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ[٩] تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ[١٠] فِي الْجَفِيرِ[١١] الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا[١٢]، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ[١٣] مَدَارُهَا[١٤]، واضْطَرَبَ ثِفَالُهَا[١٥]. هذَا لَعَمْرُ اللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ. وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ ـ وَلَو قَدْ حُمَّ[١٦] لِي لِقَاؤُهُ ـ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي[١٧] ثُمَّ شَخَصْتُ[١٨] عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ، طَعَّانِينَ[١٩] عَيَّابِينَ[٢٠]، حَيَّادِينَ[٢١] رَوَّاغِينَ[٢٢]، إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ[٢٣] فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ. لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!.

اللغة

١ ـ أمخرسون : من الخرس وهو انعقاد اللسان عن الكلام.
٢ ـ ما بالكم : ما شأنكم.
٣ ـ السداد : الصواب.
٤ ـ الرشد : الإستقامة على طريق الحق.
٥ ـ القصد : استقامة الطريق، الاعتدال.
٦ ـ البأس : الشدة والشجاعة.
٧ ـ الجباية : للخراج جمعه وجبي الماء في الحوض إذا جمعه فيه.
٨ ـ الكتيبة : قطعة من الجيش.
٩ ـ انقلقل : اتحرك.
١٠ ـ القدح : السهم وقيل هو قبل أن يراش.
١١ ـ الحفير : الكنانة وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة.
١٢ ـ قطب الرحى : حديدة في الطبق الأسفل من الرحى يدور عليها الطبق الأعلى.
١٣ ـ استحار : اضطرب ولم يستقم.
١٤ ـ المدار : للشي ما يدور عليه.
١٥ ـ الثفال : بكسر الثاء جلد يبسط ويوضع عليه الرحا فوقه فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.
١٦ ـ حمّ : قدّر.
١٧ ـ الركاب : الابل.
١٨ ـ الشخوص : الخروج.
١٩ ـ طعانين : شتامين، تقدحون بالناس وتعيبونهم.
٢٠ ـ عيابين : تنسبون الناس إلى العيب.
٢١ ـ حيادين : تميلون عن الحق.
٢٢ ـ رواغين : مكارين حيالين.
٢٣ ـ لا غناء : لا نفع.

الشرح

(ما بالكم امخرسون انتم). هذا الكلام قاله عليه السلام عندما أخذ معاوية يشن الغارات على أطراف البلاد التي يحكمها الإمام فكان يحث جنده على الخروج ويحضهم

على الجهاد فقال لهم ذلك في يوم ما فسكتوا جميعاً طويلاً فقال لهم: هل أصابكم الخرس وتعطلت ألسنتكم عن الجواب.

فقالوا عندها إن سرت سرنا معك فقد ربطوا مسيرهم بمسيره فعندها وبخهم لهذا الرأي الفقير الذي لم يعهده قائد من جنده ولن يعهده التاريخ إلا من بني إسرائيل الذين قالوا لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا.

ثم بين فساد رأيهم وضلال قولهم قائلاً.

(ما بالكم لا سددتم لرشد ولا هديتم لقصد أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج). استفهم مستنكراً عليهم طلبهم وصدره بالدعاء عليهم ـ وليس لبيان حالهم كما قال بعضهم ـ دعا عليهم بأن لا يوفقوا لصواب ولا يهتدوا للخير لأن طلبهم هذا لم يقع في موقعه وليس فيه من الصواب أدنى درجاته.

أفي مثل هذا ينبغي أن أخرج أي لا يجوز لي أن أخرج لأن معاوية يرسل كتائبه لغزو اطرافكم فيجب أن تقابلوهم وتردوهم وهل كان من شأن الإمام أن يخرج خلف كل حملة يرسلها معاوية ويجلس قادة الجند والناس لا يخرجون إلا معه...

ثم بين فساد رأيهم بقوله.

(وإنما يخرج في مثل هذا رجل ممن ارضاه من شجعانكم وذوي بأسكم). يجب أن يخرج لملاقاة ما يرسله معاوية من جند لغزوكم رجل يقع موضع الرضا عندي بأن يكون أميناً ثقةً صاحب خبرة شجاعاً ذا قوة وشدة يدفع جند معاوية ويطاردهم وينكل بهم لأن هذه الحملات الصغيرة لا تستدعي من خليفة المسلمين أن يواجهها بنفسه طالما يستطيع بعض قادته مع جنود الإسلام مواجهتها وردها وتأديب أهلها...

(ولا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين). هذه هي الأمور التي تستوجب عدم خروجه لكتائب معاوية التي وجهها لغزو بعض أطراف حكمه.

١ ـ إن هناك الجنود الذين يحتاجون إلى رعاية ويجب أن يكون نظر الإمام باستمرار إليهم في التدريب والعناية والبحث عن مصالحهم وما يقوي شوكتهم ويشد عزيمتهم وهذا لا يتأتى إذا كان الإمام بعيداً عنهم...

٢ ـ كيف يترك عاصمة الحكم ومن يدبر أمور الحكم ويضبط الناس ويمنع الفوضى...

٣ ـ إن بيت مال المسلمين يجب أن يوزع على المستحقين وأصحاب الحاجة والعوز وكل من له حق فيه فمن هو الذي يتولى ذلك إذا خرج ولو خرج لأفسد ذلك.

٤ ـ جباية الأرض فإذا خرج من يتسلم ضريبة الأرض ونتاجها وما فرض عليها؟!.

٥ ـ إنه لو خرج فمن يقضي بين المسلمين وقد كان مسجد الكوفة هو قاعة المحكمة التي يجري فيها القضاء فإذا خرج تعطل القضاء ومن هنا نستفيد إنه لم يكن يطمئن إلى القضاة في زمانه وفي بعض الروايات إنه اشترط على شريح القاضي أن لا يمضي قضاءه إلا بعد مشاورته...

٦ ـ إنه عليه السلام كان ينظر في قضايا المطالبين بحقهم أو رفع الظلم عنهم.

فهذه الأمور تتعطل وتوجب الفوضى والاضطراب إذا خرج الإمام لملاحقة العصابات التي شكلها معاوية وأرسلها إلى غزو أطراف البلاد التي هي تحت حكم الإمام...

(**ثم أخرج في كتيبة اتبع أخرى اتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ**). هل أخرج في كتيبة من الجيش أبحث عن الغارة وأين أصبحت واتنقل وراءها من مكان إلى آخر في اضطراب وعدم استقرار إن مثل هذه الغارة تحتاج إلى شجاع مع فرقة تطاردها وتلاحقها.. وقالوا إنه عليه السلام شبه نفسه في اضطراب الحال والإنفصال عن الجند والاعوان بالقدح ـ السهم ـ الذي لا يكون حوله قداح تمنعه من الاستقرار وقال بعضهم: شبه خروجه معهم بالقدح في الجفير ووجه الشبه إنه كان قد نفذ الجيش وأراد أن يجهز من بقي من الناس في كتيبة أخرى فشبه نفسه في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدم أكابر الجماعة وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل وفي العرف يقال للشريف إذا مشى في حاجة ينوب فيها من هو دونه وترك المهام التي لا تقوم إلا به: ترك المهم الفلاني ومشى يتقلقل على كذا...

(**وإنما أنا قطب الرحا تدور عليّ وأنا بمكاني فإذا فارقته استحار مدارها واضطرب ثفالها هذا لعمر الله الرأي السوء**). أشار إلى مقامه ومركزه وإنه القطب الذي تدور عليه الأمور، منه تصدر وإليه ترد وهو جامع ادارات الدولة وبيده الحل والعقد.. والخليفة هو مدار حركة الدولة بنظره تجري الأمور وعلى يديه تمضي وبرأيه تسير الجيوش وتخاض الحروب وتنتصر الأمة فيجب أن يبقى في مكانه يخطط ويرسم للدولة سياستها وحركتها ويراقب الحياة بكل تشعباتها فيسعى من أجل صالح الدين وصالح المسلمين وأشار إلى إنه إذا خرج من مركزه اضطربت الحركة ودبت الفوضى وساد الهرج

والمرج ولم يعد هناك من تماسك في البناء ثم أشار إلى فساد رأيهم وإنه رأي سوء قبيح ليس عليه غبار من الصحة. . .

(والله لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو - ولو قد حُمّ لي لقاؤه - لقربتُ ركابي ثم شخصت عنكم فلا اطلبكم ما اختلف جنوب وشمال). وهذه نفثة مصدور وآهة محزون تخرج الكلمات مبللة بالدموع ممزوجة بالالم من العمق الحزين تنطلق ويقسم علي وهو صادق إنه لولا رجاء الشهادة عند لقاء العدو لو قدر له لقاؤه لركب راحلته وخرج عنهم ولم يعد إليهم ما تحرك الهواء وما عاش الأحياء. . إنها معاناة شديدة تمنى فراقهم وعدم العود إليهم ما هب النسيم.

(طعانين عيابين حيادين رواغين) وصفهم بهذه الاوصاف التي تنزه عنها المؤمنون المجاهدون الذين يتحركون في خط الله واضعين رضاه أقصى امنيتهم وغاية هدفهم. . إنهم يطعنون في المؤمنين يجرحونهم بالسنتهم عيابين يذكرون عيوب الناس ويتفكهون بها، حيادين عن الحق مجانبين له رواغين أصحاب حيل ومكر وهي اوصاف قبيحة لا يعيشها مجتمع إلاّ ضل أو طائفة إلا فسدت. . .

(إنه لا غناء في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم).

لم نغلب من قلة: ليس العبرة بالكثرة وضخامة الرقم إنما العبرة باجتماع القلوب وتوحدها قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة[1] بإذن الله﴾ فالاساس للأنتصار هو اللقاء الفكري والقلبي واجتماع الكلمة ووحدة الشمل وإنني أنظر اليوم إلى هذه الأمة الممزقة الموزعة التي لم تجتمع على كلمة واحدة ولم تلتقي على أهم هدف مقدس فهذه القدس الشريفة وهذه فلسطين السليبة تباع اليوم في مؤتمر مدريد وتسلم مفاتيح الأرض المقدسة إلى حكام اسرائيل تحت رعاية الظلم الدولي التي تقوده امريكا أم الجرائم ورأس الأفعى. . .

أكتب هذه الكلمات في يوم الأربعاء الواقع في الثلاثين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٩١ المصادف ٢٢ ربيع ثاني من سنة ١٤١٢ هجري حيث يعقد ما يسمى بمؤتمر السلام في الشرق الأوسط في هذه الليلة الآثمة التي التقى فيها العالم على ظلم الشعب المسلم واغتصاب الأرض المقدسة. . إنها مؤامرة وليست مؤتمراً. .إنه استسلام وليس سلاماً إننا لا نشكو من قلة بل هناك كثرة فائضة. . نشكو من الفرقة والتمزق والانحلال. . نشكو فقد القائد الذي يجمع الأمة ويوحد صفوفها ويدخل المعركة بإسم الإسلام. . . إن اليهود بضع ملاين اجتمعت كلمتهم على رأي واحد والتقوا على إقامة

---

(١) سورة البقرة آية/ ٢٤٩.

وطن يهودي لهم على أرض فلسطين فعملوا من أجل هدفهم وسخروا العالم من أجل تحقيق رغبتهم وقد نجحوا في غياب الأمة وتسلط حكام السوء علينا. . . لقد فرقنا الاستعمار وزرع في كل شبر دولة نصب عليها ملكاً غاصباً أو حاكماً جائراً ينفذ ما يريد بدون اعتراض أو استفهام. . .

لقد تداعت الأنظمة العربية إلى مدريد ومدريد هي الأندلس التي حكمها الإسلام وأسس عليها دولته في الغرب تداعى الحكام العرب إلى الأندلس ذليلين خانعين نسوا أن هذه الأرض ـ مدريد ـ هي أرض الإسلام لقد اختار لهم العدو المكان ليقول لهم اقرؤا الفاتحة عن روح فلسطين كما قرأتم الفاتحة من قبل عن روح الأندلس التي أصبحت الآن مدريد والتي يعقد مؤتمركم على أرضها. . .

بدون حياء تداعت الوفود العربية. . . وكلهم يعلمون أن اليهود لن يردوا لهم القدس ولن يتنازلوا عن شبر واحد من أرض فلسطين. . .

إنني أصرخ في الأمة. . في رجالاتها العظام. . في ابنائها في كل طفل صغير في كل جنين يتحرك في بطن أمه. . في كل نطفة ستصبح انساناً. . اصيح وأصرخ لا تقبلوا الصلح مع اليهود. . ارفضوه. . إنه محرم في شرع الله وفي دين الله. . .

كما إنني أصرخ في وجوه العاهرين من التجار. . أصحاب العروش. . الحكام. . الرؤساء. . القادة. . السياسين. . اصرخ وأقول كلمة الحق: كفوا عن بيع الكرامة. . فإنها أغلى ما في الأمة. . إنها وصمة عار. . خيانة. . ذل. . إهانة. .لكم وللزمن الذي تعيشون فيه. . كفوا وتوقفوا واتركوا الأمة تدخل المعركة من باب الإسلام فستجدون النصر لكم والهزيمة لعدوكم أنني أكتب هذه الكلمات من قلب جريح مملوء بالأسى ينظر إلى الوضع الحاضر فلا يرى إلا بصيص نور يحمله القائد المدخر الإمام المنتظر. . .

(لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك من استقام فإلى الجنة ومن زلّ فإلى النار). أوضح أنه بيّن لهم طريق الحق وما يسعدهم ولشدة عنايته بهم فكأنه حملهم عليه ولهذا لا يهلك بعد هذا البيان الواضح والرؤية لطريق الحق السليم إلا من أراد أن يهلك باختياره وحريته وعن علم ومعرفة.

ثم أعطى القاعدة العامة: من استقام على الطريق الواضح الذي بينه فعمل بمقتضى القواعد فإلى الجنة نهايته وأكرم بها من دار وأما من زل عن هذا الطريق الواضح وانحرف عنه وتنكب السير عنه فمصيره إلى النار وبئس القرار. . .

١٢٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

يذكر فضله ويعظ الناس

تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ، وَإِتْمَامَ العِدَاتِ[١]، وَتَمَامَ الكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ البَيْتِ ـ أَبْوَابُ الحُكْمِ وَضِيَاءُ الأَمْرِ. أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ[٢] قَاصِدَةٌ[٣]. مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ[٤]، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ[٥]، «وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ[٦]». وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ[٧] فَعَازِبُهُ[٨] عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ[٩]. وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا[١٠] بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا[١١] حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ[١٢]. أَلاَ وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ.

اللغة

١ ـ العدات : جمع عدة الوعد.
٢ ـ السبل : الطرق.
٣ ـ قاصدة : مستقيمة.
٤ ـ غنم : استفاد وانتفع.
٥ ـ الذخائر : جمع ذخيرة ما يخبأ لوقت الحاجة.
٦ ـ تبلى فيه السرائر : تختبر.
٧ ـ اللب : العقل.
٨ ـ عازبه : غائبه وعزب الشيء إذا غاب.
٩ ـ عوز الشيء : كفرح أي لم يوجد وأعوزه الدهر إذا أفقره.

١٠ ـ القعر : عمق الشيء ونهاية أسفله.
١١ ـ الحلية : بكسر الحاء جمع حلى بالكسر والضم ما يزيّن به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة.
١٢ ـ الصديد : القيح المختلط بالدم.

الشرح

(تالله لقد علمت تبليغ الرسالات وإتمام العدات وتمام الكلمات).

(تالله لقد علمت تبليغ الرسالات) أقسم بالله أنه قد تعلم أداء الرسالات التي أنيطت به وكلف بها، لقد تعلمها من النبي حينما كلفه أداء سورة براءة في الحج وقال: لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني وتعلم منه كيف يبلغ بعد وفاته وكذلك هو بلغها إلى الأئمة من ولده.

ومراده بإتمام العدات أي إنجاز ما يعد به دون خلف فيه قال ابن أبي الحديد وفيه إشارة إلى قوله تعالى: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾** وباتفاق المفسرين أنها نزلت في علي وحمزة وجعفر.

ويمكن أن يراد بذلك أنه الذي ينجز عدات رسول الله ويفي بها حيث كانت الوصية إليه بذلك وقد وفى في ذلك...

وأما مراده بتمام الكلمات فهي معرفته بكل ما يتعلق بكلام الله تفسيراً وتأويلاً ونزولاً وناسخاً ومنسوخاً وغير ذلك وقال ابن أبي الحديد في شرحه: وخلاصة هذا أقسم بالله أنه قد علم ـ أو علّم ـ على اختلاف الروايتين أداء الشرائع إلى المكلفين والحكم بينهم بما أنزل الله وعلم مواعيد رسول الله التي وعد بها فمنها ما هو وعد لواحد من الناس بأمر نحو أن يقول له: سأعطيك كذا ومنها ما هو وعد بأمر يحدث كأخبار الملاحم والأمور المتجددة. وعلم تمام كلمات الله تعالى، أي تأويلها وبيانها الذي يتم به لأن في كلامه تعالى المجمل الذي لا يستغنى عن متمم ومبين يوضحه...

(وعندنا ـ أهل البيت ـ أبواب الحكم وضياء الأمر). أشار إلى فضيلة أهل البيت واختصاصهم بهذه الصفات دون غيرهم من الأمة فهم أبواب الحكم أي فصل الخصومات وحكم الناس وإدارة سياستهم وترتيب أمورهم هذا إذا كانت بالضم وأما إذا

كانت بكسر الحاء فعندهم الحكم والمواعظ وإرشاد الناس وكلا الوجهين جاريين في حق أهل البيت وهم أهل ذلك وأحق الناس به.

وأما مراده بضياء الأمر يعني أنهم بعلومهم يكشفون للناس الطريق ويهدونهم إلى الحق والعدل.

وقيل: إن مراده «بضياء الأمر» يعني العقليات والعقائد.

وقيل: إن مراده «بالأمر» إما الولاية كما كنى به عنها كثيراً في أخبار أهل البيت عليهم السلام وفي قوله تعالى: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ والضياء حينئذٍ بمعناه الحقيقي أي عندنا نور الإمامة والولاية.

(ألا وأن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة من أخذ بها لحق وغنم ومن وقف عنها ضل وندم). أشارإلى أن قواعد الدين وقوانينه واحدة وطرقه مستقيمة وهي عند أهل البيت وكل ما ورد عنهم يصدّق بعضه البعض ينطقون عن لسان واحد ويتكلمون بلهجة واحدة من أخذ بهذه الشرائع الواردة عنهم لحق بالإسلام وبأهل الإيمان والسابقة وربح الدنيا والآخرة ومن وقف عنها ولم يأخذ بها ضل عن الطريق وانحرف عن العدل والحق ويوم القيامة يندم ولات ساعة مندم لأن الأمور انقضت وسقطت الأعمال وجاء دور الحساب...

(اعملوا ليوم تذخر له الذخائر وتبلى فيه السرائر). أمرهم بالعمل ليوم القيامة والحساب فإنه يوم رهيب يحتاج الإنسان فيه إلى عمل صالح يدخره لأهواله ومصاعبه وخير ما يدخر الإنسان الإيمان بالله وبرسوله وبأهل بيت رسول الله ثم العمل الصالح المتجسد بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه إنه يوم يكشف فيه عن الضمائر وما كان يسره الإنسان ويخفيه...

(ومن لا ينفعه حاضر لبه فعازبه عنه أعجز وغائبه أعوز). من لم ينتفع بعقله وهو يمتلكه فإنه يسقط الإنتفاع والفائدة في حال غيابه وعدم حضوره لشدائد الموت وأهواله...

وقيل: إن من لم يكن له من نفسه رادع وزاجر فمن البعيد أن ينزجر ويرتدع بعقل غيره وموعظته، وقيل غير ذلك...

(واتقوا ناراً حرها شديد وقعرها بعيد وحليتها حديد وشرابها صديد). بعد أن حثهم على العمل الصالح حذرهم من النار وذكر بعض أوصافها الرهيبة التي تقشعر لها

الجلود فحرها شديد لا يقوى عليه بشر وقعرها أي عمقها بعيد فمن سقط فيه لا يقدر على الخروج منه وحليتها أي ما يتزين به هناك أغلال وقيود من حديد بدل الأساور من الذهب والفضة لأهل الجنة وأما شرابها فقيح مخلوط بالدم لا يستطيع الإنسان تذوقه ولا ينفع في رفع الظمأ أو يدفع العطش. . .

(**ألا وإن اللسان الصالح يجعله الله تعالى للمرء في الناس خير له من المال يورثه من لا يحمده**). أشار عليهم بأمر يبقى لهم ولأبنائهم عزه ألا)وهو حديث الناس بالخير لهم ومدحهم وذكرهم بالفضائل والكرم فإن الذكر الجميل الذي يتناقله الناس ويرونه لبعضهم خير من المال الذي يورثه المرء لأبنائه لأنه لا يخرج عنهم ولا يعرف به غيرهم، وذكر حاتم في جوده يعيش في العالم وتتناقله الركبان وقصصه تتلى في كل مكان وقد كان غيره كثيرون يملكون أكثر مما يملك فلما ماتوا مات ذكرهم. . والإنسان إذا نجح في القرب من الله وتفوق في طاعته وبلغ الدرجات الرفيعة عنده يخلد ذكره وتتناقل أحاديثه الناس بكل خير. . .

١٢١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

بعد ليلة الهرير

وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال:

هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ العُقْدَةَ(١)! أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى المَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ(٢) قَوَّمْتُكُمْ(٣)، وَإِنْ أَبَيْتُمْ(٤) تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الوُثْقَى، وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي(٥)، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا(٦) مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ(٧)، وَكَلَّتِ(٨) النَّزَعَةُ(٩) بِأَشْطَانِ(١٠) الرَّكِيِّ(١١)! أَيْنَ القَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَؤُوا القُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا(١٢) إِلَى الجِهَادِ فَوَلِهُوا(١٣) وَلَهَ اللِّقَاحِ(١٤) إِلَى أَوْلاَدِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا(١٥)، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً(١٦)، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجا. لاَ يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ، وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ المَوْتَى. مُرْهُ(١٧) العُيُونِ مِنَ البُكَاءِ، خُمْصُ البُطُونِ(١٨) مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ(١٩) الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ. عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الخَاشِعِينَ. أُولئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ. فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الأَيْدِيَ عَلَى فِرَاقِهِمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي(٢٠) لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالجَمَاعَةِ الفُرْقَةَ، وَبِالفُرْقَةِ الفِتْنَةَ. فَاصْدِفُوا(٢١) عَنْ

نَزَغَاتِه(٢٢) وَنَفَثَاتِه(٢٣)، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْهِمْ، وَاعْقِلُوهَا(٢٤) عَلَى أَنْفُسِكُمْ.

اللغة

١ ـ العقدة : بالضم الحزم والرأي السديد.
٢ ـ الأعوج : الملتوي، غير المستقيم.
٣ ـ قومتكم : عدلتكم ورفعت اعوجاجكم.
٤ ـ أبيتم : رفضتم.
٥ ـ الداء : العلة والمرض.
٦ ـ الضلع : الميل والهوى.
٧ ـ الداء الدوي : الداء الشديد.
٨ ـ كلّت : ضعفت.
٩ ـ النزعة : جمع نازع وهو الذي يستقي الماء.
١٠ ـ الأشطان : جمع الشطن وهو الحبل.
١١ ـ الركي : جمع الركية وهي البئر.
١٢ ـ هيجوا : من هاج إذا ثار وانبعث.
١٣ ـ ولهوا : من الوله وهو شدة الحب وقيل: هو حتى يذهب العقل.
١٤ ـ اللقاح : جمع لقوح وهي الناقة.
١٥ ـ الأغماد : جمع غمد جفن السيف.
١٦ ـ الزحف : إلى الشيء هو المشي نحوه.
١٧ ـ مُره : جمع أمره إذا فسدت عينه.
١٨ ـ خمص البطون : ضوامرها.
١٩ ـ الذبول : يقال ذبل الورد إذا قلّت نضارته وذهب ماؤه.
٢٠ ـ يسني : يسهل.
٢١ ـ أصدفوا : أعرضوا.
٢٢ ـ نزعات الشيطان : وساوسه.
٢٣ ـ نفثات الشيطان : ما ينفث به وينفُث بالضم أو الكسر أي يخيل ويسحر.
٢٤ ـ أعقلوها : إحبسوها، وألزموها.

الشرح

(هذا جزاء من ترك العقدة أما والله لو أني حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتكم وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى). هذا الكلام منه عليه السلام كان على أثر التحكيم وذلك أن معاوية عندما أيقن بالهزيمة في صفين بعد ليلة الهرير استشار عمرو بن العاص فأشار عليه برفع المصاحف وطلبوا منهم التحكيم إلى القرآن وعلم الإمام أنها خدعة وأصر على أصحابه أن يتابعوا القتال حتى النصر ولكنهم اختلفوا فيما بينهم وخرج الخوارج وأعلنوا التوقف عن الحرب ودعوا الإمام إلى قبول التحكيم مهددين قائلين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فاضطر الإمام إلى القبول كرهاً لا رغبة وكتبت الصحيفة وقرأها الأشعث بن قيس فقامت عندها الخوارج أصحابه بالأمس الذين أجبروه على التحكيم رفضوا التحكيم ونادوا لا حكم إلا لله ليس الحكم لك يا علي ولا لمعاوية ثم كفّروا الإمام وطلبوا منه أن يتوب عن التحكيم كما تابوا قائلين: قد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين وقد بان لنا خطأنا فرجعنا إلى الله وتبنا فارجع أنت وتب إلى الله كما تبنا.

فقال عليه السلام: ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع أليس الله قد قال: أوفوا بالعقود وأبى أن يرجع شاهداً على نفسه بالكفر وأبت الخوارج إلا تكفيره.

وفي هذه الأجواء قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟.

فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة أي جزاء من ترك الحزم والأخذ بالقوة والإصرار على ما كنت أراه من إكمال الحرب وعدم قبول التحكيم ولكن كما قلنا اضطر إلى ذلك تحت قهر الخوارج وحكمهم.

ثم بين موقفه يومها وكيف يجب أن يتعامل معهم، فأقسم أنه لو حملهم وألزمهم بما كان يرتئي من الحرب التي يكرهونها ولم يرضوا بها وفيها الخير الكثير لكانوا بين أمرين إما أنّ يستجيبوا له ويقبلوا منه ويحاربوا عدوه معه فيكونوا قد اهتدوا، وإما أن يميلوا ويترددوا فكان يقعد لهم على الطريق المستقيم بما يملك من نصيحة وإرشاد وإن أبوا ورفضوا وأصروا على البقاء على مواقفهم اضطر أن يستعين عليهم بشيعته ومن يرى رأيه ثم يقول: لو كنت فعلت ذلك لكان هو الرأي الصائب والعمل الصحيح. . .

(ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها). استدرك عليه السلام على ما بيّن من الرأي الصائب الصحيح الذي كان يجب أن يفعله رافعاً عن نفسه ما يمكن أن يُظَن أنه قد أخطأ فيه قائلاً: لقد كان هذا رأياً صائباً لو كان لي من يطيعني فيه ويعمل بموجبه وأستعين به على فعله ولكن بمن كنت أستعين عليكم وإلى من أرجع في ذلك.

إما أن أرجع إليكم وأنتم على ما أنتم عليه من الشقاق والخلاف والنزاع وعدم الإتفاق في الرأي وأما الغائبون عني من شيعتي وأصحاب الولاء فإلى أن يصلوا إليَّ يكون العدو قد بلغ مقصده مني إذن فلم يبق لي من يعاونني على رأي الصحيح الصائب إلا أنتم بأن أستعين ببعضكم على البعض الآخر وأقاتل بعضكم ببعضكم الآخر وفي هذا أكون كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها وهذا مثل مفاده: لا تستخرج الشوكة الناشبة في رجلك بشوكة مثلها فإن إحداهما في القوة والضعف كالأخرى فكما أن الأولى انكسرت في رجلك فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر وتحتاج إلى شوكة ثالثة وهكذا لا ينتفع بالشوك قط لاستخراج شبيهتها والمقصود أنه كيف يستعين ببعضهم على البعض الآخر وهو يحمل هواه وطباعه ورأيه . . .

(اللهم قد ملّت أطباء هذا الداء الدوي وكلّت النزعة بأشطان الركي). اشتكى إلى الله وأقرّ بالعجز فهو الطبيب الحاذق الذي يعرف الداء والدواء ولكنهم أصيبوا بداء شديد لا يمكن الشفاء منه إنه داء الجهل والتمرد والعصيان الذي أعياه وأسقط ما في يده. . . وقد كان الإمام هو طبيب القلوب لمن يستعمل وصفته ودواؤه ولكن أصحابه كانوا لا يقبلون منه رأيه بل يردون عليه أقبح رد ويخالفونه شر مخالفة حتى وصل به الأمر أن دعى عليهم وتمنى لو يصرفه معاوية بهم صرف الدرهم بالدينار فيأخذ عشرة ويعطيه واحداً من أهل الشام وتمنى فراقهم واستبداله خير منهم. . . وقال: لقد ملأتم قلبي قيحاً. . . وقال: لقد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملوني وقال: بالأمس كنت أميراً واليوم أصبحت مأموراً. . وقال: الرعية تخاف ظلم ولاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي إلى غيرها من الكلمات التي تعبر عن مدى الأسى والغم وما يكابده من ألم وحسرة. . .

وكذلك شبه نفسه بالعجز عن إنقاذهم وردهم إلى الصواب وإلى ما فيه مصلحتهم بمن ينزع من البئر بالحبل ماء ولا يقدر على الإرواء للعطاشى فإنه يكلّ ويمّل ولا يؤدي المطلوب أو يصل إلى هدفه وكذلك هو يحاول استخراجهم من هوة الضلال والانحراف ولكنهم لا يستجيبون له ولا يقبلون منه فيقر بالعجز ويصاب بالملل. . .

(أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرؤوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها وسلبوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك وبعض نجا لا يبشرون بالأحياء ولا يعزون عن الموتى). ثم تأسف على اخوان له قد فقدهم من الصحابة كسلمان وعمار وأبي ذر وحمزة وجعفر وغيرهم وفي هذا التحسر والتأسف ازدراء لهم بأنهم ليست لهم أوصافهم.

وقد ذكر الإمام أوصاف اخوانه الذين تقدموا بأوصاف المسلم المستسلم لله وهي أوصاف رفيعة كريمة وهي: .

أ ـ إنهم دعوا إلى الإسلام فقبلوه: وهذا دليل طيب نفوسهم وإذعانهم للحق.

ب ـ وقرؤوا القرآن فأحكموه: وهذا أيضاً من علامات إيمانهم فإنهم أتقنوا قراءة القرآن وعملوا به وبما ورد في نصوصه.

ج ـ هيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها: أي عندما يثارون إلى الجهاد وقتال الأعداء يكون لهم عشق وحب لما أثيروا إليه كحب النياق الحلوب لأولادها فهم أبناء الحرب وشجعانها لا يتوقفون ولا يفرون.

إنهم أخرجوا السيوف من أجفانها ولن ترجع إلا مروية من دماء الأعداء وأخذوا على العدو أطراف الأرض فضيقوا عليه الحركة حيث إنهم زاحفين زحفاً منظماً في صفوف تتبع صفوفاً، وبقوا على ذلك حتى هلك بعضهم ونجا بعض كما قال تعالى: **﴿منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا..﴾** وهذا منه عليه السلام توبيخ لهم وأنهم ليسوا كذلك...

د ـ ومن صفاتهم أنهم لا يفرحون بمن سلم ولا يعزون بمن مات لأن من سلم ينتظر الشهادة ومن مات فاز بإحدى الحسنين وهي غاية المجاهد وأمنيته...

وقيل: إنهم لتجردهم للجهاد والعبادة لا يهنىء بعضهم بعضاً إذا ولد له ولد ولا يعزيه إذا مات له عزيز.

(مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين أولئك اخواني الذاهبون فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم). وهذه أوصافهم التي تحكي صدق إيمانهم وإخلاصهم وشدة تعلقهم بالله.. إذا نظرت إليهم أخبرك مظهرهم عن مخبرهم وكان

واقع حالهم أقوى من مقالهم. . . تقرأ في صورهم حكاية الأتقياء والأولياء والصالحين الأبرار.

انظر إلى عيونهم تراها من البكاء من خشية الله فسدت أو كادت. . . إنها الدمعة الصادقة في جوف الليل يجمعها البكـاؤون ليوم عظيم. . . دمعة الخوف من الله صاحبها في ظل الله وصاحبها لا تبكي عينه يوم تبكي العيون. . . وأما بطونهم فهي ضامرة من الصيام يقضون أيامهم في عبادة الصوم فلا ترى عليهم ضخامة الأجسام كما هي حال أبدان أهل الدنيا الذين يعيشون من أجل بطونهم وتهمهم أكثر من كرامتهم ودينهم وفي الحديث: «إن الله يبغض الحبر السمين» والصوم جنة من النار وفي الحديث: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به فمن صام اليوم ذاق لذة صيامه في الدنيا وفي الآخرة. . .

ووصف شفاههم بالذبول لكثرة دعائهم فهي ناشفة يابسة فمع الصوم ذكر الله الدائم المستمر لا يفترون عنه مدة يقظتهم.

وأما ألوانهم فهي صفراء قد تغيرت من السهر والتهجد والتعبد فهم في قيام وركوع وسجود يقضون ليلهم في العبادة على خلاف أهل زماننا الذين يقضون لياليهم في السهر على التلفزيون وفي البارات وعلى أدوات اللهو وفي حفلات الباطل وشتان بين الاثنين لقد فرّقت بينهما الأهداف فكانت الطرق مختلفة. . .

ومن سيماهم أن «على وجوههم غبرة الخاشعين» فهناك سمات تبدو لكل ناظر. . . سمات الخاشعين في سكونهم وفي خوفهم من الله إنهم يشعرون بالرقابة الإلهية في كل لحظة من لحظات حياتهم وعلى أساسها يعيشون الدقة في أعمالهم والجودة في كل حركاتهم والالتزام بالتقوى في كل مجالات حياتهم وكم من شخص عندما نظرت إليه وعظك برؤيته وبحاله وأثر فيك كأبلغ خطيب وأفصح متكلم بل يخرس الخطباء والمتكلمون أمام هيبة بعض الأفراد وقدسيتهم. . .

ثم بعد هذه الأوصاف نسبهم إلى الاخوة إنهم اخواني الذين تقدموا علينا والذين سبقونا إلى الشهادة فمن الحق لنا ولنا كل الحق أن نتطلع إليهم بشوق ونتلهف لرؤيتهم فإنهم أملنا ورمزنا الذين يعز نظيرهم ونفقد شبيههم وهذا جدير بنا أن نتأسف عليهم وعلى فراقهم ونعض الأيدي حسرة على فراقهم وعدم وجود أمثالهم معنا. . .

(إن الشيطان يسني لكم طرقه ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة وبالفرقة الفتنة، فاصدفوا عن نزغاته ونفثاته واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليهم

واعقلوها على أنفسكم). أراد أن يرجع بهم إلى مصدر حديثهم ومن وراءه... إنه الشيطان الذي يسهل طرقه إلى الناس بالإغراء والتزين للمعصية حتى يرتكبها الإنسان، إنه يحاول عن رغبة في حل دين المرء فيعمد إلى كل واجب عليه يهوّنه في نظره ويخفف أثره حتى إذا ارتكبه فتح له الأبواب الأخرى التي يصل منها إلى ما بقي من الواجبات ومن تلك الأمور التي يريدها الشيطان ويحاول جهده في الوصول إليها وتحقيقها هي تمزيق الناس وتفريقهم... إنه يقلق ويضج إن رأى اثنين مجتمعين على رأي واحد فلذا يريد أن يبدلهم بالجماعة فرقة وإذا تفرق الناس دبت الفتنة وعمت الفوضى وساد الهرج والمرج والفساد...

وبعد هذا أمرهم أن يعرضوا عن وساوسه وتخيلاته وما يمكن أن يزينه للمرء فإنه لا يهدي إلى خير ولا يسدد إلى رشاد...

ثم في النهاية دعاهم إلى قبول النصيحة ممن أهداها إليهم فإن الناصح أمين... يشير بالمصلحة فعلى العاقل أن يأخذها ويستفيد منها...

١٢٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون
على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فقَالوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ قَالَ: فَامْتَازُوا[١] فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاً مِنْكُمْ بِكَلامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا[٢] عَنِ الكَلاَمِ، وَأَنْصِتُوا[٣] لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ[٤] شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِكَلاَمٍ طَوِيل، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ المَصَاحِفُ حِيلَةً وَغِيلَةً[٥]، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا[٦] وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ القَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ[٧] عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ[٨]، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ[٩]: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هذِهِ الفَعْلَةُ[١٠]، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا. وَاللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا[١١] مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلاَ حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا. وَوَاللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ، وَإِنَّ الكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ: فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ القَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى

الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً، وَمُضِيًّا عَلَى الحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ(١٢) الجِرَاحِ. وَلكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ(١٣) وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ(١٤) يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا(١٥)، وَنَتَدَانَى(١٦) بِهَا إِلَى البَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا.

اللغة

١ ـ امتازوا : انفردوا وافترقوا.
٢ ـ أمسك : عن الكلام سكت وعن الأمر كف عنه وامتنع.
٣ ـ انصتوا : اسكتوا واستمعوا.
٤ ـ نشد : الضالة طلبها وبحث عنها وناشده الله والرحم سأله بالله والرحم.
٥ ـ الغيلة : الخداع.
٦ ـ استقالونا : طلبوا الإقالة وهي الصفح أو رفع ما كانوا عليه وفسخه.
٧ ـ التنفيس : التفريج.
٨ ـ النواجذ : مفرده ناجذ أقصى الأضراس.
٩ ـ نعق : صوّت.
١٠ ـ الفعلة : بالفتح المرة من الفعل.
١١ ـ أبيت : رفضت.
١٢ ـ المضض : الألم.
١٣ ـ الزيغ : الإنحراف والاعوجاج.
١٤ ـ الخصلة : إصابة الغرض، الخلة، وهنا يراد بها الوسيلة.
١٥ ـ لم الشعث : جمع الشمل.
١٦ ـ نتدانى : نتقارب.

الشرح

(أكلكم شهد معنا صفين؟ فقالوا: منا من شهد ومنا من لم يشهد. قال: فامتازوا فرقتين فليكن من شهد صفين فرقة ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلم كلاً منكم بكلامه ونادى الناس فقال: أمسكوا عن الكلام وانصتوا لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليَّ فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها ثم كلمهم عليه السلام بكلام طويل من جملته أن قال عليه السلام). بعد أن أجبر الخوارج علياً على التحكيم أنكروا عليه ذلك وكفروه ثم لم يكتفوا بالخلاف معه في الرأي بل راحوا إلى منابذته وأصروا على قتاله واتخذوا منه موقف العداء الذي لا يقل عن موقفهم من معاوية ولذا اجتمعوا في أحد معسكراتهم منكرين عليه التحكيم والإمام أزاء هذه الأمور كان يقف منهم موقف المحاور يبيّن لهم خطأهم سابقاً وخطأهم الآن... إنهم أصحاب رؤية قاصرة لا يدركون خطأهم إلا بعد حين وعندما يدركونه يحملون الناس على الرأي الجديد لا يقبلون حواراً وإن قبلوه بان عليهم العجز والعي ومع ذلك على إصرار أشد في مواقف كلها خطأ... والإمام يستفهم منهم بعد أن التقى فيهم في معسكرهم وملتقى جمعهم هل كلكم حضر معنا صفين فقالوا: منا من حضر ومنا من لم يحضر فأراد أن يقسمهم فرقتين ليكلم كل واحدة بما يناسبها فافترقوا ثم أخذ يكلمهم وكان من جملة كلامه لهم قوله:

(ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة اخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان وأوله رحمة وآخره ندامة فأقيموا على شأنكم والزموا طريقتكم وعضوا على الجهاد بنواجذكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أجيب أضل وإن ترك ذل). بيّن عليه السلام كيف كانت حالتهم عندما رفعت المصاحف بخدعة عمرو بن العاص حيلة ومكراً وكيف واجهوا الإمام بهذا المنطق قالوا له: إنهم إخواننا وأهل دعوتنا أخوة الإسلام بيننا وبينهم وهم وإيانا أهل ملة واحدة وقد أبطلوا الحرب ورفعوا أيديهم عنها واطمأنوا إلى كتاب الله وأرادوا أن يحكمّوه فيما وقع بيننا وبينهم وقد قلتم: إن الرأي قبول ما قبلوا والتوسعة عليهم في ذلك...

هذه كانت حجتهم وملخصها أن جبهة معاوية قد رجعت إلى حكم الله في كتابه فيجب أن نقبل بحكم الكتاب...

ورد الإمام عليهم مقرراً لهم خطأهم وما قاله لهم...

قال لهم: إن هذا الأمر الذي ظاهره إيمان من حيث القبول بحكم القرآن ولكن في عمقه يحمل الظلم والإعتداء لأنهم أرادوا أن يخدعوكم ويحتالوا عليكم وقلت لكم: هذا أمر أوله رحمة منكم وعطف أو رحمة من حيث توقف القتال ولكن في آخره ندامة لأنه سيتبين لكم كذبهم ومكرهم وأن التوقف عن الحرب ليست لصالحكم ولا لصالح الإسلام. . .

ثم نبههم إلى أنه قال لهم: استمروا على ما أنتم عليه من الحرب واستمروا على القتال وأصروا على متابعته مهما كانت الظروف ولا تلتفتوا إلى من صرخ بوقف القتال ونادى بالسكون والتوقف وقلت لكم: إن هذا الذي رفع صوته بوقف القتال إن أجيب إلى ما طلب فقد أضل غيره كما وقع لكم الآن وإن ترك ولم يستجب له ذل وهان وخضع. . .

(وقد كانت هذه الفعلة وقد رأيتكم أعطيتموها والله لئن أبيتها ما وجبت عليّ فريضتها ولا حملني الله ذنبها ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع وإن الكتاب لمعي ما فارقته مذ صحبته). لقد كانت هذه الحكومة ورأيت إتفاقكم عليها بل ـ إن الخوارج ألزموا الإمام بقبولها ـ.

ثم أقسم بالله أنه إذا رفضها ولم يقبلها لما وجبت عليه ولما وجب العمل بها ولا تتبعه آثارها لو أكمل المعركة حتى نهايتها ومهما كانت نتائجها وإن قبل بها ورضيها فإنه صاحب الحق الذي يجب اتباعه والسير خلفه ثم برهن على ذلك بأن الكتاب معه حيث يقول: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾** والإمام يحب أي يبحث عن المصلحة الإسلامية العليا فقد يرتيء للمصلحة الإسلامة أن يقبل بالحكومة وقد يرفض ذلك ويكمل القتال حتى النهاية، وفي ختام الفصل بيّن تلازم الكتاب معه وملازمته للكتاب وأنه لم يفارق العمل به منذ نزوله على رسول الله حيث كان الإمام إلى جنبه يعاضده ويسانده ويقوي دعوته. . .

وحاصل هذا الفصل أن الحق على الخوارج الذين قبلوا بالحكومة وفرضوها على غيرهم وأما الإمام فهو بالخيار بين قبولها ورفضها تبعاً للمصلحة الإسلامية فله كل العذر وليس لهم أي عذر عندما قبلوا بها ثم أرادوا الآن أن يرفضوها. . .

(فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق وتسليماً للأمر وصبراً على مضض الجراح). هذا بيان لما كان عليه المسلمون من قوة العقيدة التي تخطوا على أساسها أواصر القرابة وصلة الدم وملكت عليهم شعورهم وعواطفهم التي

كانت تحكمهم وتحكم جميع الناس. . . لقد كانوا مع رسول الله يجاهدون أقرب الناس لهم وأعزهم عليهم فالمعركة بين الإسلام والشرك وبين الحق والباطل فكان الأبناء مع النبي والآباء مع المشركين وعندما تدور المعركة ربما نالت الابن بسيف الأب وربما انعكس الأمر وهكذا انقسمت القرابات وأخذت السيوف من الآباء والأبناء والقرابات ومع ذلك كانت كل مصيبة تحدث أو نازلة تقع تزيد إيماننا وتقوي عقيدتنا وتدفعنا إلى إكمال الشوط في طريق الحق وتسليم الأمر لله وحده إنها تزيدنا صبراً على ألم الجراح لما في ذلك من تقوية للدين وإعزاز له ونصرة للحق. . .

إنها دعوة منه وبيان. . . بيان حال المسلمين وجهادهم وصبرهم ودعوة منه لهم إلى متابعته لأنه يمثل الرسول في القيادة وهو خليفته الذي يجب إطاعته. . .

(ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها). لئن كانت المعركة في زمن رسول الله بين الإسلام والكفر فإن ما وقع في الجمل وصفين كانت بين أهل القبلة التي تجمعهم كلمة التوحيد ظاهراً والتي على أساسها جرت المناكح والمواريث وحفظت الدماء والأموال والفروج. . .

إننا نقاتلهم على ما دخلوا فيه من الإنحراف والإلتواء وعدم الإستقامة. . . نقاتلهم لأنهم دخلوا في شبهة ألقاها إليهم معاوية وعمرو بن العاص وهي شبهة الإقتصاص لعثمان من قتلته وهذه دعوة ضُلل القوم على أساسها ودخلت عليهم الشبهة وهكذا كان معاوية وعمرو يسعيان لتمكين الشبهة في أذهان الناس ومن كان عنده مسكة من دين أو بقية من عقل يغرونه بالمال أو المنصب أو يضغطون عليه بشتى السبل ومختلف الطرق. . .

لقد بيّن أن العامة من أهل الشام لا يملكون رؤية صحيحة عما يجري وليس لهم معرفة صحيحة بدوافع الحرب وأسبابها فلعل هذه الحكومة نتوصل من خلالها إلى صيغة توحدنا جميعاً ونقترب من بعضنا. . . لعل ما بقي من أثر العقيدة يجمعنا ويوّحد صفوفنا فإن توفقنا إلى ذلك كانت هذه رغبتنا وغاية أملنا وما نسعى إليه وإلا فالحرب متى أردتها وقعت. . .

١٢٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله لأصحابه في ساحة الحرب بصفين

وَأَيُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ(١) مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ(٢) عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً(٣) فَلْيَذُبَّ(٤) عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ(٥) الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ المَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ(٦) لاَ يَفُوتُهُ المُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ الهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ المَوْتِ القَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ(٨) عَلَى الفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!.

ومنه: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ(٩) الضِّبَابِ(١٠): لاَ تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلاَ تَمْنَعُونَ ضَيْماً(١١). قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ(١٢)، وَالهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ(١٣).

اللغة

١ ـ أحس	:	علم ووجد.
٢ ـ رباطة الجأش	:	قوة القلب وشدته.
٣ ـ الفشل	:	الجبن والضعف.
٤ ـ فليذب	:	فليدفع.
٥ ـ النجدة	:	الشجاعة.
٦ ـ الحثيث	:	السريع.

٧ ـ فات : الأمر مضى وذهب وقته وفاته الشيء جاوزه.
٨ ـ الميتة : هيئة الميت يقال: مات فلان ميتة حسنة.
٩ ـ الكشيش : الصوت يشوبه خور مثل الخشخشة وكشيش الأفعى صوتها من جلدها.
١٠ ـ الضباب : بكسر الضاد جمع ضب دابة برية معروفة.
١١ ـ الضيم : الظلم.
١٢ ـ المقتحم : الذي يرمي نفسه بالشدة والمشقة، من يندفع بدون روية.
١٣ ـ المتلوم : المتوقف والمتباطىء.

الشرح

(وأي امرىء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فضل بها عليه كما يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله). وصية إلى أبطال الحرب وشجعان القتال أن يكون عندهم نخوة إسلامية في هذا الموضع المهم فأي فرد منهم يشعر أن به قوة قلب وشجاعة وإقدام عند لقاء العدو ورأى أخاه إلى جانبه قد تقاعس أو تأخر أو استسلم لحالة نفسية من الجبن فإن عليه أن يدفع عنه عدوه وينافح عنه بالظبا دفاعه عن نفسه بفضل هذه الشجاعة التي أعطاها الله وكما لو كان هو المطلوب.

ثم ذكّر الشجعان بهذه النعمة الإلهية التي يتمتعون بها وأن الله لو شاء لجعلهم كأصحاب الفشل أو لو شاء لجعل أصحاب الفشل مثلهم أصحاب نجدة وشجاعة وفي كلتا الحالتين تكون هذه النعمة على الشجعان مما يستحق الشكر ومن شكرها أن يدفع الشجاع عن أخيه إذا وجد منه جبناً أو تردداً...

(إن الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب إن أكرم الموت القتل والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله). هوّن عليهم القتل في سبيل الله بذكر الموت الذي يطلب الناس سريعاً فإن هذا الموت يمشي نحو الإنسان منذ أن يسقط من بطن أمه إلى الأرض ويبقى يسير نحوه بسرعة وفي كل يوم يقطع مرحلة لا يستطيع المستقر في بيته والساكن فيه بدون حرب وقتال أن يدفعه عن نفسه كما لا يقدر الهارب منه أن يعجزه أو يمتنع عنه...

ثم أعطى كبرى كلية وذكر أظهر مصاديقها فقال: إن أكرم الموت القتل، فإذا كان لا بد من الموت وهو دائر بين الموت الطبيعي الذي يأتي إلى الإنسان ولا يكون لهذا الإنسان فيه حرية الاختيار وبين القتل في ساحات الجهاد ومن أجل هدف إنساني شريف فإن القتل الذي يختاره الإنسان ويسعى إليه أكرم عند الله وأفضل من الموت الطبيعي لأن ذلك يتجسد فيه القرب من الله وطلب مرضاته والجهاد في سبيله . . .

ثم ذكر صغرى تلك الكبرى ترغيباً لهم وحثاً على الجهاد والنزال فأقسم بالله وهو الصادق بدون قسم أنه يختار ألف ضربة في سبيل الله يقتل بها أهون عليه من ميتة على الفراش في غير طاعة الله . . .

ألف مرة يموت كل مرة بضربة سيف أهون عليه من الموت على الفراش في غيرطاعة الله لأن في تلك أجر وثواب وفي هذه وزر وعقاب.

وأما كونها أهون فهذه حالة علوية لا يرتقي إليها إلا بعض أفراد الأمة الذين يخلصون لله ويتجردون من كل ما سواه . . .

ويعجبني ابن أبي الحديد في قوله: «وليست النفوس كلها من جوهر واحد ولا الطباع والأمزجة كل من نوع واحد، وهذه خاصية توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده في الأوقات المتطاولة والدهور المتباعدة وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان فإن التواريخ من قبل الطوفان مجهولة عندنا أن أحداً أعطى من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرب على السلم والموت على الحياة والموت الذي كان يطلبه ويؤثره هو القتل بالسيف لا الموت على الفراش . . .».

(وكأني أنظر إليكم تكشون كشيش الضباب لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً، قد خليتم والطريق فالنجاة للمقتحم والهلكة للمتلوم). وبّخ أصحابه وقرّعهم بهذا الكلام العنيف وربما كان هذا من أخباره بما يجري عليهم فيقول: كأني أنظر إليكم تزدحمون وأنتم هاربون وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي اعتراكم فهي أشبه شيء بأصوات الضباب المجتمعة أو أن المراد بيان حالهم من الإزدحام حال الهزيمة ثم أكد جبنهم وفشلهم وما هم فيه من الإنهيار أنهم لا يأخذون حقاً لهم من أيدي الغاصبين والظالمين ولا يرفعون ظلما حاق بالمؤمنين والمستضعفين وهم منهم وهذا منتهى الهزيمة النفسية والإنهيار والتقاعس وما الحياة وما قيمتها إن خلت من أحد هذين الأمرين أخذ حق أو دفع باطل . . .

ثم قال لهم: قد وقفتم على الطريق الصحيح والسليم الموصل إلى العز وإلى الجنة ودللتم على طريق النصر والنجاة وهي أن تقتحموا الحرب وتدخلوا في أعماقها بقلب شجاع ورأي حازم وأما إذا ترددتم وأحجمتم وتوقفتم عن القتال فالموت والهلاك لكم والذل والعار وبعد ذلك النار. . .

١٢٤ - ومن كلام له عليه السلام

في حث أصحابه على القتال

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ[١]، وَأَخِّرُوا الحَاسِرَ[٢]، وَعَضُّوا[٣] عَلَى الأَضْرَاس[٤]، فَإِنَّهُ أَنْبَى[٥] لِلسُّيُوفِ عَنِ الهَامِ[٦]؛ وَالْتَوُوا[٧] فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ[٨] لِلأَسِنَّةِ[٩]؛ وَغُضُّوا الأَبْصَارَ[١٠] فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ[١١]، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ[١٢] لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ[١٣] فَلاَ تُمِيلُوهَا وَلاَ تُخِلُّوهَا، وَلاَ تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالمَانِعِينَ الذِّمَارَ[١٤] مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الحَقَائِقِ[١٥] هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ[١٦] بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا[١٧]: حِفَافَيْهَا[١٨]، وَوَرَاءَهَا، وَأَمَامَهَا؛ لاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلاَ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأَ[١٩] امْرُؤٌ قِرْنَهُ[٢٠]، وَآسَى[٢١] أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ[٢٢] قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ. وَايْمَ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ العَاجِلَةِ، لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ[٢٣] العَرَبِ، وَالسَّنَامُ[٢٤] الأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الفِرَارِ مَوْجِدَةَ[٢٥] اللهِ، وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ، وَالعَارَ البَاقِيَ. وَإِنَّ الفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. مَنِ الرَّائِحُ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ[٢٦] يَرِدُ المَاءَ؟ الجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ العَوَالِي[٢٧]! اليَوْمَ تُبْلَى[٢٨] الأَخْبَارُ! وَاللهِ لأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ. اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الحَقَّ فَافْضُضْ[٢٩] جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ[٣٠] بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ[٣١]

دِرَاكٍ[٣٢]: يَخْرُجُ مِنْهُمُ النَّسِيمُ[٣٣]، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ[٣٤] الهَامَ، وَيُطِيحُ[٣٥] العِظَامَ، وَيُنْدِرُ[٣٦] السَّوَاعِدَ وَالأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالمَنَاسِرِ[٣٧] تَتْبَعُهَا المَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا[٣٨] بِالكَتَائِبِ[٣٩] تَقْفُوهَا[٤٠] الحَلَائِبُ[٤١]؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الخَمِيسَ[٤٢] يَتْلُوهُ الخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ[٤٣] الخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ[٤٤]، وَبِأَعْنَانِ[٤٥] مَسَارِبِهِمْ[٤٦] وَمَسَارِحِهِمْ[٤٧].

قال السيد الشريف: أقول: الدَّعْقُ: الدَّقُّ، أيْ تَدُقُّ الخُيُولُ بِحَوَافِرِها أَرْضَهُمْ. وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ: مُتَقَابِلاَتُهَا. ويقال: مَنَازِلُ بَنِي فُلانٍ تَتَنَاحَرُ، أي تَتَقَابَلُ.

اللغة

١ ـ الدارع	:	لابس الدرع.
٢ ـ الحاسر	:	الذي لا درع عليه ولا مغفر.
٣ ـ العض	:	الأخذ بالأسنان.
٤ ـ الأضراس	:	الأسنان الأربعة في مؤخرة الفم.
٥ ـ أنبى	:	من نبا السيف إذا كلّ وارتد ولم يمض.
٦ ـ الهام	:	جمع هامة الرأس.
٧ ـ التووا	:	إنعطفوا وأميلوا جانبكم.
٨ ـ أمور	:	أشد فعلاً للمور وهو الحركة والاضطراب.
٩ ـ الأسنة	:	مفردها سنان نصل الرمح.
١٠ ـ غض بصره	:	كفّه وكسره.
١١ ـ رباطة الجأش	:	قوة القلب وشدته.
١٢ ـ أطرد	:	أبعد وأنفى.
١٣ ـ الراية	:	علم الجيش، العلامة المنصوبة لكي يراها الناس.
١٤ ـ الذمار	:	بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه.
١٥ ـ الحقائق	:	جمع حاقة النازلة الشديدة.
١٦ ـ يحفون	:	بالرايات يستديرون حولها.
١٧ ـ يكتنفونها	:	يحيطون بها.

١٨ ـ حفافيها : جانبيها.
١٩ ـ أجزأ : كفى.
٢٠ ـ القرن : بالكسر الكفو والنظير.
٢١ ـ آسى : أخاه أي جعله أسوة نفسه فيه.
٢٢ ـ لم يكل : لم يترك.
٢٣ ـ اللهاميم : جمع لهموم السيد الجواد من الناس والخيل.
٢٤ ـ السنام : حدبة في ظهر البعير.
٢٥ ـ موجدة الله : غضبه وسخطه.
٢٦ ـ الظمأ : العطش.
٢٧ ـ العوالي : الرماح.
٢٨ ـ تبلى : تمتحن وتختبر.
٢٩ ـ فضّ : الله جمعهم فرّقهم.
٣٠ ـ أبسلته : أسلمته إلى الهلكة.
٣١ ـ الطعن : الضرب وطعنه بالرمح ضربه حتى نفذ.
٣٢ ـ دراك : متتابع متوال.
٣٣ ـ النسيم : النفس.
٣٤ ـ يفلق : يشق.
٣٥ ـ يطيح : العظام يسقطها وطاح الشيء سقط أو هلك.
٣٦ ـ يندر : السواعد يسقطها.
٣٧ ـ المناسر : جمع منسر بكسر السين وفتح الميم قطعة من الجيش تكون أمام الجيش الأعظم.
٣٨ ـ يرجموا : يغزوا.
٣٩ ـ الكتائب : جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش.
٤٠ ـ إقتفى : أثر فلان تبعه.
٤١ ـ الحلائب : جمع حلبة الجماعة تجتمع من كل صوب للنصرة.
٤٢ ـ الخميس : الجيش سمي بذلك لأنه خمس فرق.
٤٣ ـ تدعق : تدق.
٤٤ ـ نواحر أرضهم : متقابلاتها.
٤٥ ـ أعنان الشيء : أطرافه ونواحيه.
٤٦ ـ المسارب : المراعي.
٤٧ ـ المسارح : وهي المراعي واحدتها مسرحة.

الشرح

(فقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام والتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل). هذه تعاليم قتالية وأحكام حربية يرسم الإمام صورتها لجنده فيقول قدموا الدارع وهو الذي يلبس الدرع فهذا حقه أن يكون في المواجهة وفي الصفوف الأولى للهجوم أو الدفاع لأن شدة الحرب تقع على المهاجم أو على خط الدفاع الأول فيجب أن يكون محصناً وحصن المقاتل أن يكون لابساً درعاً واقية له من الضربة بينما الحاسر أمرهم أن يؤخروه إلى الخلف إلى الخطوط الخلفية حيث يحتمي بالدارع . . .

ثم أمرهم بأن يعضوا على الأضراس إما لأن العض عليها يصّلب جمجمة الرأس فلا يأخذ السيف منها مأخذه كما يأخذه من المسترخي وهذا يظهر من كلام الإمام وإما أن يراد شدة الحنق والغضب على الأعداء كما يفعل الغاضب الحانق على عدوه . . .

وأمرهم أن يميلوا مع الرمح عندما يرسلونه نحو العدو أو أمر لهم عندما يطلق عليهم الرمح أن يميلوا لينعطف وينزلق فلا ينفذ.

وأمرهم بغض الأبصار أي كفها عن التطلع نحو ما يجري من دماء وما يقع من أشلاء فإن الإنسان يتأثر بما يرى وهذا ينعكس على نفسه فربما ينهزم أو يفر فلو لم ير ذلك بقي على قوة قلبه وشجاعته وعلى إقدامه ومثابرته في الجهاد وهذا أمر مدرك بالوجدان يحس به كل إنسان.

وأمرهم أن يقللوا من الكلام لأن كثرته دليل الفشل ويكون مطمعاً للعدو ومن عادة الجبان كثرة صياحه وعلو صوته وعادة الشجاع سكونه وقلة كلامه لثقته بنفسه واطمئنانه إلى انتزاع النصر . . .

(ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم والمانعين الذمار منكم فإن الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفّون براياتهم ويكتنفونها حفافيها ووراءها وأمامها لا يتأخرون عنها ولا يتقدمون عليها فيفردوها). الراية هي علم الجيش وهي رمز الصمود والقوة فطالما هي قائمة شامخة مرتفعة فمعنى ذلك أن المجاهدين بأحسن حال، وأما إذا وقعت فمعنى ذلك الهزيمة والإنكسار ولذا كان لها من الأهمية أكبر الأثر المعنوي في نفوس المقاتلين ويمكن أن نشبهها بالإتصالات اللاسلكية

في زماننا هذا فكما أنه لو انقطع الإتصال بين القيادة وبين الكتائب والجيوش تضطرب الأحوال وتسود الفوضى ولا يعود المنقطع يملك الثقة بنفسه ولا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يعمل هكذا يمكن أن تكون الراية في القديم. . . كانت دليل القوة والبقاء واستمرارية المعركة ومن هنا يركز الإمام عليها فيقول لهم: لا تتركوها تميل لأن ميلانها يجعل العدو يظن فيكم الاضطراب والفوضى فيقوى عليكم ويندفع نحوكم هذا من جهة وأيضاً تغيب عن نظر عساكركم فتهون قوتهم ولا يدرون وجهتهم وأيضاً لا تفردوها فإن العدو إذا استفردها إقتحم عليها. . .

وأمر أن تكون بأيدي الشجعان الذين لا يخافون الموت ولا يرهبون الأعداء وبأيدي المانعين للذمار الذين يحفظون الحرمات ولا يسلمونها إلا بالموت فهؤلاء هم الصابرون الذين يتحملون الشدائد القوية التي تنزل في الحروب، هؤلاء الصابرون هم الذين يلتفون براياتهم والرايات لها حقوق ومن حقوقها أن يجتمع حولها أهل النجدة والشجاعة ويحيطون بها من جميع جوانبها من اليمين واليسار والأمام والخلف لا يتأخرون عنها فيسلمونها للأعداء ولا يتقدمون عليها فيتركونها منفردة تطمع بها الأعداء بل هم معها وحولها ومن جميع جوانبها.

(أجزأ امرؤ قرنه وآسى أخاه بنفسه ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن أخيه). أجزأ فعل ماضي يراد به الأمر فليكف كل إنسان نظيره وليكن مقابله يقهره.

وآسى فعل ماضي أيضاً يراد به الأمر بالمواساة للأخ بالنفس وذلك أن لا يترك خصمه إلى أخيه فيجتمع عليه خصمان فيكون قد ساعد على قتل أخيه وهذا أمر محرم ولذا لا يجوز الفرار لما في ذلك من تقوية للكفر وهزيمة للمسلمين. . .

(وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم إن في الفرار موجدة الله والذل اللازم والعار الباقي وإن الفار لغير مزيد في عمره ولا محجوز بينه وبين يومه). أقسم عليه السلام أن من يفر من سيوف الدنيا في الحرب والجهاد وينكل عن مقارعة الأبطال حباً بالحياة وطلباً للسلامة فإن سيوف الآخرة ستطاله ولن يسلم منها لأن في فراره معصية كبيرة تدخله النار وهذا ما صرح به النبي والأئمة في أحاديثهم.

ثم وصفهم بأوصاف تجعلهم يرفضون الفرار ويأنفونه لأنفسهم فوصفهم أنهم سادات العرب وأهل الشرف والمجد والمنزلة الرفيعة.

ثم عاد إلى ذكر عيوب الفرار وقبائحه.

فذكر أن في الفرار غضب الله وسخطه لما فيه من توهين للإسلام يقول الإمام الرضا عليه السلام: حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن[١] في الدين والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة وترك نصرتهم على الأعداء. . . إلى أن يقول: وما يكون في ذلك من السبي والقتل وإبطال دين الله عز وجل وغيره من الفساد. . .

وذكر أيضاً أن في الفرار الذل اللازم من حيث غلبة العدو وضعف المسلمين من جهة ومن حيث إن في الفرار معصية ومرتكب الحرام ذليل في نظر الإسلام والمسلمين. . .

وأيضاً في الفرار العار الباقي في الأعقاب وهذا شر ميراث يتركه الآباء للأبناء.

وأخيراً فإن الفار لا يزاد في عمره ولو ساعة واحدة لأن الأعمار بيد الله هو الذي قدر لكل واحد عمراً معيناً لا يتجاوزه ولا يتقدمه فكم من بطل خاض الحروب سلم وكم من فارٍ من المعركة مات وهو في أوقات شبابه.

والفرار لا يمنع حلول الأجل بل كما قال تعالى: **﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. . ﴾**.

(**من الرائح إلى الله كالظمآن يرد الماء؟**). استفهام على سبيل العرض ومفاده أيكم يذهب إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء فيروي غليله ويدرك مطلوبه. . .

(**الجنة تحت أطراف العوالي**). ففي كل طعنة رمح ينفتح باب إلى الجنة يدخل منه المجاهدون، إن أطراف الرماح مفاتيح الجنة ففي الحديث عن رسول الله قال: الخير كله في السيف وتحت ظل السيف ولا يقيم الناس إلا السيف والسيوف مقاليد الجنة والنار[٢].

(**اليوم تبلى الأخبار**). في المعركة تختبر السرائر ويعرف ما في الضمائر، يعرف الصادق من المنافق والشجاع من الجبان وصاحب البصيرة من الأعمى وكما يقال: «عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان» والمعركة هي محل الاختبار.

(**والله لأنا أشوق إلى لقائهم منهم إلى ديارهم**). فهؤلاء الأعداء من أهل الشام خرجوا من ديارهم وهم في شوق إليها وإلى العودة إلى أهلهم وأبنائهم وإني إلى لقائهم في ساحات الحرب والقتال أشد شوقاً منهم إلى ديارهم وهذا ترغيب في قتالهم وحث

(١) وسائل الشيعة كتاب الجهاد باب ٢٩.

(٢) وسائل الشيعة كتاب الجهاد باب ١ حديث ١.

على جهادهم من حيث إنه يقاتل في سبيل الله وعلى المجاهد أن يرغب في عبادة الله ومنها جهاد الأعداء. . .

(اللهم فإن ردوا الحق فافضض جماعتهم وشتت كلمتهم وأبسلهم بخطاياهم). وهذا دعاء على أهل الشام إن ردوا الحق ورفضوه ولم يقبلوا بحكم الله أن يفرق جماعتهم ويرمي الاختلاف بينهم حتى لا يتفقوا على رأي واحد وهذا من أهم العوامل التي تؤدي إلى الهزيمة وكذلك دعا عليهم أن يأخذهم الله بذنوبهم ويهلكهم ويقضي عليهم. . .

(إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك يخرج منهم النسيم وضرب يفلق الهام ويطيح العظام ويندر السواعد والأقدام). أظهر موقف أهل الشام أنهم سيبقون على إصرارهم على الباطل ويراد بهذا الكلام حث أصحابه على الإستعداد للقتال وأن هؤلاء القوم لن يتحولوا عما هم عليه إلا بطعن متتابع لسعته يخرج منه الريح وضرب يشق الرؤوس ويرمي بالعظام والسواعد والأقدام، إنهم يحتاجون إلى شراسة في القتال يرون من خلالها الأشلاء ممزقة والأوصال مقطعة فعندها يتحولون عن عنادهم وإصرارهم على الباطل.

(وحتى يرموا بالمناسر تتبعها المناسر ويرجموا بالكتائب تقفوها الحلائب وحتى يجر ببلادهم الخميس يتلوه الخميس). لا يزال يتحدث عن أهل الشام وأنهم لن يزولوا عن مواقفهم الضالة إلا بأن تجتمع عليهم كل القوى المسلحة وبجميع قطاعاتها وعلى اختلاف وظائفها ومهامها فالمناسر التي هي طلائع الجيوش لا بد وأن تتوالى عليهم وتقصدهم ليشعروا بضخامة الجيش ثم يغزوا بالكتائب التي هي قطع من الجيش تأتي بعدها ما يجتمع من كل مكان ويقصدهم في بلادهم أيضاً الجيش المعبر عنه بالخميس تتلوه الجيوش وسمى الجيش بالخميس لأنه مؤلف من خمس فرق: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة.

(وحتى تدعق الخيول في نواحر أرضهم وبأعنان مساربهم ومسارحهم). ويبقى القتال حق تتزاحم الخيول في أواسط أرضهم وفي قلب بلادهم وتصل إلى أطراف مراعيهم فتضيق عليهم الخناق وعندها فقط تتغير مواقفهم ويرضخون لحكم الله وما أراد منهم. . .

١٢٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

في التحكيم
وذلك بعد سماعه لأمر الحكمين

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا القُرْآنَ. هذَا القُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ[١]، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ[٢]. وَإِنَّمْ يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا القَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا القُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الفَرِيقَ المُتَوَلِّيَ[٣] عَنْ كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ فَرَدُّهُ إِلَى اللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاَهُمْ بِهَا. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً[٤] فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذلِكَ لِيَتَبَيَّنَ[٥] الجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ العَالِمُ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هذِهِ الهُدْنَةِ[٦] أَمْرَ هذِهِ الأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا[٧]، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الحَقِّ، وَتَنْقَادَ لأَوَّلِ الغَيِّ[٨]. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْ كَانَ العَمَلُ بِالحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ـ وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ[٩] ـ مِنَ البَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ[١٠] بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى[١١] عَنِ الحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ[١٢] بِالجَوْرِ لا يَعْدِلُونَ[١٣] بِهِ، جُفَاةٍ[١٤] عَنِ الكِتَابِ، نُكُبٍ[١٥] عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ[١٦] يُعْلَقُ بِهَا، وَلاَ زَوَافِرِ[١٧] عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ[١٨] نَارِ الحَرْبِ أَنْتُمْ! أُفٍّ[١٩] لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ

مِنْكُمْ بَرْحاً[٢٠]، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ[٢١]!.

اللغة

١ ـ دفتا المصحف : جانباه اللذان يكتنفانه.

٢ ـ الترجمان : بفتح التاء وضم الجيم هو مفسر اللغة بلسان أخر.

٣ ـ تولى عنه : أعرض عنه وتركه.

٤ ـ الأجل : الوقت المضروب المعين.

٥ ـ تبين الأمر : ظهر ووضح.

٦ ـ الهدنة : وقف الحرب إلى حين..

٧ ـ الأكظام : جمع كظم محركة مخرج النفس.

٨ ـ الغي : الضلال.

٩ ـ كرثه : الغم إشتد عليه.

١٠ ـ يتاه : من تاه إذا تحيّر.

١١ ـ حيارى : مفرده حيران من ضل الطريق ولم يهتد، جهل وجه الصواب.

١٢ ـ موزعين : من أوزعه أي أغراه ورب أوزعني أي ألهمني.

١٣ ـ لا يعدلون به : لا يستبدلونه بالعدل.

١٤ ـ جفاة : جمع جاف النابي عن الشيء والمرتفع عنه.

١٥ ـ نُكب : جمع ناكب الحائد عن الطريق التارك له.

١٦ ـ الوثيقة : الثقة وما أنتم بوثيقة أي لستم عروة وثيقة.

١٧ ـ الزوافر : العشيرة والأنصار.

١٨ ـ الحشاش : جمع حاش من حش النار إذا أوقدها.

١٩ ـ أفّ : له وعليه أي قذراً له وأفٍّ اسم فعل بمعنى أتضجر.

٢٠ ـ البرح : الشدة والأذى.

٢١ ـ النجاء : المناجاة.

الشرح

(إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن هذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال) هذا الكلام من الإمام

كان في مقام الرد على الخوارج الذين أنكروا عليه التحكيم وكانوا قد قالوا حكّمت الرجال في دين الله ـ يعني عمراً وأبا موسى ـ فأجابهم الإمام بأجوبة عديدة وحاورهم كثيراً وكان من جملة ما قاله لهم هذه الكلمات التي تقنع كل ذي لب وترّد كل ذي شبهة. . .

إنا لم نحكّم الرجال لأن معنى تحكيم الرجال هو تفويض الأمر إليهم ليحكموا بما يرون بحسب أنظارهم بقطع النظر عن الكتاب والسنة ومصادر التشريع وإنّا لم نفعل ذلك بل حكّمنا كتاب الله وهو مكتوب محفوظ بين الدفتين ليس له لسان يتكلم به عن المراد، فالآية التي تقرأها تحتاج إلى من يشرحها ويفسرها ويبيّن المراد منها إذ ربما كان له أكثر من معنى وأكثر من وجه وربما دلت الآية على معنى آخر غير ما يترائى لك فالقرآن حمّال ذو وجوه ولا بد له من ترجمان يكشف المراد منه ويفسره ويبيّن مدلوله وإنما يتولى ذلك الرجال الذين يقومون بالكشف عن مدلوله وبيان المراد منه.

(ولما دعانا القوم إلى أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وتعالى وقد قال الله سبحانه: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ فرده إلى الله أن نحكم بكتابه ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به وإن حكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن أحق الناس وأولاهم بها) بيان منه لقبول التحكيم وأنه إنما استجاب للقوم لوجود النزاع ومع وجود النزاع فلا بدّ من الرجوع إلى الله ورسوله ولم يكن له أن يترك ذلك أو لا يعمل به وقد قال سبحانه: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾** والرد إلى الله أن نحكم بكتابه والرد إلى الرسول أن نحكم بسنته وهذا الأمر مما يوافقنا ومما نريده ولم يكن القتال إلاّ من أجل أن يحكم القرآن والرسول فإذا حكم الحكمان بحكم الله وحكم رسوله فنحن امعهما وإلا فلا طاعة لهما ولا يقبل حكمهما. . .

أخذ عليه السلام على الحكمين أن يحكما بالصدق والحق والعدل في كتاب الله وسنة نبيه بأن ينظرا فيهما. . وبالبداهة الحكم من القرآن لصالح الإمام لأن معاوية ومن معه بغاة والله سبحانه يقول: **﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. . .﴾**.

وأما السنة فلأن من خرج على إمام العدل وأراد أن يضرب وحدة المسلمين وجب قتاله وعلى هذا إن حكم الحكمان بالصدق وهذا هو الصدق قبلنا بحكمهما وإلا فلا يقبل قولهما بل يرد عليهما ويضرب به وجهيهما. . .

(وأما قولكم: لم جعلت بينك وبينهم أجلاً في التحكيم فإنما فعلت ذلك ليتبين

الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبيّن الحق وتنقاد لأول الغي) وهذا أيضاً جواب للخوارج الذين قالوا لم عيّنت أجلاً للتحكيم فكان في الوثيقة «وأجل الموادعة سنة كاملة فإن أحب الحكمان أن يعجّلا الحكم عجلاه. . » فكان تعيين الوقت من أجل أن يتبين الجاهل أي يعرف الحقيقة خلال هذه الفترة التي تتوقف فيها الحرب فيعود إلى عقله ويثوب إلى رشده ويفكر بهدؤ فلعله يصل إلى الحق وكذلك من أجل أن يتثبت العالم أي يطمئن إلى الحق الذي هو عليه فيكمل الشوط على يقين مما يجاهد من أجله. . .

وكذلك كان الأجل المعين رجاء أن تصلح هذه الأمة في مدة هذه الهدنة التي يتوقف فيها القتال فيترك لها المجال في النظر في أمرها وما يصلحها ولا يؤخذ عليها الطريق إلى الهدى والرجوع إلى الحق إذ لو لم نقبل بالهدنة وتعيين الأجل نكون قد ضيقنا عليها ومنعنا بعض الناس من العودة إلى الحق وتركناه مع راية الضلال والإنحراف. . .

وبعبارة أخرى: إن الإمام يعيش مع الحق والعدل ولذا لا يترك فرصة لأحد يستطيع العودة إليهما إلا ويوفرها له. . همه أن ينقذ هذا الإنسان مما هو فيه من ضلال فلذا يؤقت للهدنة لعل أصحاب النفوس الطيبة ترجع عن ضلالها.

(إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه ـ وإن نقصه وكرثه ـ من الباطل وإن جرّ إليه فائدة وزاده) أراد أن يجذبهم إلى الحق فبيّن لهم أن أفضل الناس عند الله من كان الحق عنده آثر وأحب إليه من الباطل وإن كان الحق يجر عليه شدة في البدن أو نقصاناً في المال لأنه من القيم المعنوية التي تسقط أمامها المنافع والفوائد التي يمكن أن يوفرها الباطل وما الدنيا وقيمتها إن خلت من الحق وأهله. . .

(فأين يتاه بكم ومن أين أتيتم) إستفهم متعجباً منهم وهو العالم بهم قائلاً كيف تذهبون هذه المذاهب الباطلة التي تخرجكم عن الحق وتدخلكم في الباطل.

ومن أين أتيتم من أي جهة أتاكم الشيطان حتى استطاع أن يدخل عليكم ويحرفكم عن الاستقامة ومن المعلوم أنه جاءهم من الغباء واللاوعي ومحدودية الفكر والنظر. . .

(استعدوا إلى قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه وموزعين بالجور لا يعدلون به جفاة عن الكتاب نكب عن الطريق) أمرهم بالاستعداد لحرب معاوية وجماعته ورغبهم في ذلك بذكر صفات أعدائهم التي توجب قتالهم فوصفهم:

أ ـ إنهم قوم حيارى عن الحق تائهون عنه لا يهتدون إليه.

ب ـ إنهم قوم مولعون بالظلم لا يعدلون عنه إلى الحق والعدل أو لا يعدلون به غيره فهو آثر عندهم من كل أمر آخر.

ج ـ إنهم جفاة عن الكتاب أي بعيدين عنه لا يقبلون حكمه ولا يعملون بما جاء فيه.

د ـ إنهم تركوا طريق الحق والعدل وابتعدوا عنه إلى طريق الباطل والظلم.

(ما أنتم بوثيقة يعلق بها ولا زوافر عز يعتصم إليها لبئس حشاش نار الحرب أنتم أف لكم لقد لقيت منكم برحاً يوماً أناديكم ويوماً أناجيكم فلا أحرار صدق عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء) بعد أن ذكر أصحاب معاوية وأوصافهم التي يستحقون عليها القتال ومن أجلها القتل توجه إلى أصحابه مؤنباً لهم على عدم استجابتهم له وقد وبخهم بعدة أمور كل أمر في نفسه عيب كبير: .

أ ـ ما أنتم بوثيقة يعلق بها أي لا يعتمد عليكم ولستم بعروة وثقى ينجو من تعلق بها.

ب ـ ولا زوافر عز يعتصم إليها لستم أنصاراً يعتمد عليكم أو يعتز بكم من التجأ إليكم. . .

ج ـ لبئس حشاش نار الحرب أنتم بئس الموقدون للحرب فلا تؤدونها حقها ولا تصمدون لها. . .

(أف لكم لقد لقيت منكم برحاً) تأفف منهم وتذمر لما لاقاه منهم إنه لقي الشدائد والقساوة.

(يوماً أناديكم) إلى الجهاد والخروج إلى قتال الأعداء.

(ويوماً ناجيكم) وفي اليوم الآخر أناجيكم أسر إليكم بالخطط الحربية وبما يكسب النصر.

(فلا أحرار صدق عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء) فعند النداء للحرب لا تصدقون النداء أي لا تستجيبون أو تلبون النداء ولستم بإخوان ثقة في الحديث إنكم لا تحفظون الأسرار بل تفشونها إلى الأعداء. . .

١٢٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما عوتب على التسوية في العطاء

أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْر بِالجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْه! وَاللهِ لاَ أَطُورُ[١] بِهِ مَا سَمَرَ[٢] سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ[٣] نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ المَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا المَالُ مَالُ اللهِ! أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ المَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاس وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ. وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلاَ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ[٤]. فَإِنْ زَلَّتْ[٥] بِهِ النَّعْلُ[٦] يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلأَمُ خَدِينٍ[٧]!.

اللغة

١ ـ **لا أطور به** : من طار يطور إذا حام حول الشيء أي لا أمر به ولا أقاربه.

٢ ـ **السمر** : الليل وحديثه وقولهم لا أفعله ما سمر سمير أي مدى الدهر.

٣ ـ **أمّ** : قصد.

٤ ـ **الود** : الحب.

٥ ـ **زلت** : إنزلقت وسقطت.

٦ ـ **النعل** : الحذاء، وما وقيت به القدم من الأرض.

٧ ـ **الخدين** : الصديق.

الشرح

(أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً) كانت سيرة الإمام أنه يسوّي في العطاء بين جميع المسلمين

فهو يعطي بالتساوي الأبيض والأسود والعربي والعجمي والمولى والعبد والمهاجر والأنصاري وعلى هذا كانت سيرة النبي ومنه أخذ الإمام هذا الحكم وقد كان أبو بكر على هذه السيرة ولكن لما تولى عمر الخلافة فاوت فيما بين الناس في العطاء فكان يقدم المهاجر على الأنصاري والعربي على العجمي وأهل السابقة على غيرهم وعلى هذا درج عثمان فعندما ولي الإمام الخلافة ساوى بين الناس فعوتب على هذا التساوي الذي خالف فيه سنة عمر وعثمان فقال هذه الكلام العادل الصريح في التساوي. . .

أتأمرون أن أطلب النصر بالجور أي أفاوت في العطاء ليرضى عني المهاجرون والأنصار وأصحاب السابقة بالظلم الذي لا يجوز. . . إنه لا يجوز أن يطلب رضا الناس بغضب الله ولا يجوز أن يبحث الإنسان عن موقع يثبت به كرسيه على حساب المسلمين ومن تولى أمرهم. . .

إن سيرة النبي في الصدقات معروفة حيث كان يسوّي بين الناس ويعطيهم أعطياتهم بدون تفاوت وكذلك سار الإمام وإن اختلفت سيرة الخلفاء الذين تقدموه فهذا عمر يخالف أبا بكر وبأيهما يأخذ المسلم وكل يدعي أنه على الصواب وأن الحق معه؟! كلا إن الحق مع النبي وسيرته وسنته وقد كانت قائمة على التساوي وكذلك تبعه الإمام في سيرته. . . والإمام يحلف أنه لا يفعل ذلك ولا يرتكبه ما سمر سمير أي مدى الدهر وما أم نجم نجماً أي دائماً لأن النجوم تدور في أفلاك بعضها. . .

(لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال المسلمين) لو كان المال لعلي لسوّى بين الناس في العطاء وذلك ينبع من شعوره بمساواة الناس بعضهم لبعض وأنهم مسلمون تجمعهم العقيدة فيجب أن يتساووا في العطاء وإذا كان من تفاوت في بعض الأمور أو في الإيمان فهذا يعود إلى الله فهو الذي يثيب في الآخرة عليه وهو الذي يحرم الثواب. . .

فإذا كان المال لعلي كان لا بد له أن ينهج هذا السبيل فبطريق أولى أن يكون كذلك إذا كان المال للمسلمين فإنه يجب أن يوزّع عليهم بالتساوي لأنه لهم ولا يجوز إعطاء ما يملكه زيد إلى غيره فيكون ظلماً وعدواناً. .

(ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله) بيّن عليه السلام مفاسد إعطاء المال لغير مستحقه ووضعه في غير محله:

١ ـ إنه تبذير إن أُعطي لغير أهله وغير مستحقيه وإسراف إن أعطي المستحقين أكثر

مما لهم وكلا الأمرين قبيح مذموم قال تعالى: ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾ وقال تعالى: ﴿**إنه لا يحب المسرفين**. . ﴾.

٢ ـ إن إعطاء المال في غير حقه يرفع صاحبه في الدنيا من حيث تثني عليه الناس وتطيع أمره وتلتف حوله ولكن هذا المال بعينه يضعه ويذلّه وينزله دركات الجحيم وفي ذلك ذل كبير. . . وكذلك هذا المال يكرمه عند الناس من حيث يحترمونه ويجلونه ويرتفع مقامه في نظرهم ولكنه عند الله مهان ذليل لأنه وضعه في غير مستحقيه. . .

(ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل وألأم خدين) نبه عليه السلام على خطأ وضع المال في غير محله وأنَّ أثر ذلك يظهر في الدنيا فإن من يضع المال في غير أهله حرمه الله شكرهم فلا يعترفون له بجميل لأنهم يدركون قبح تصرفه في أعماقهم ويعدلون في حبهم إلى غيره من حيث يرونه المؤهل لمقامه وفضلاً عن ذلك إذا عثر في الدنيا فاحتاج إلى معونتهم تخلوا عنه وتنكروا له وكانوا من أبعد الناس وأشدهم عليه. . . إنَّ تحببه لهم بالمال يقابله التخلي عنه لو عثر أو وقع لأن صداقتهم له لم تكن لله وإنما لأجل المال وقد فارقه ففارقوه. . .

١٢٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه يبين بعض أحكام الدين ويكشف للخوارج الشبهة
وينقض حكم الحكمين

فَإِنْ أَبَيْتُمْ(١) إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهُ وَآلِهِ، بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ(٢) تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ(٣) وَالسُّقْمِ(٤)، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ(٥) الزَّانِيَ الْمُحصَنَ(٦)، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ(٧) الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ(٨)، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ(٩) مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ(١٠)! وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ(١١) يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ(١٢) يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ(١٣) الأَوْسَطُ فَالزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ(١٤) فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ!.

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هذَا الشِّعَارِ(١٥) فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هذِهِ، فَإِنَّمَا حُكِّمَ

الحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا القُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ القُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الافْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا القُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لاَ أَبَا لَكُمْ - بُجْراً[١٦]، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ[١٧] عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لبَّسْتُهُ[١٨] عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ[١٩] عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا القُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الحُكُومَةِ بِالعَدْلِ، والصَّمْدِ[٢٠] لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

اللغة

١ - أبيتم : رفضتم وامتنعتم.
٢ - العواتق : جمع العاتق ما بين المنكب والعنق.
٣ - البرء : الصحة.
٤ - السقم : المرض.
٥ - الرجم : حد شرعي للزاني المحصن بموجبه يرجم حتى يموت.
٦ - المحصن : المتزوج.
٧ - الجلد : هو الضرب وهو حد شرعي لارتكاب بعض المحرمات.
٨ - الفيء : الغنيمة.
٩ - السهم : النصيب.
١٠ - ضرب به تيهه : حيّره وجعله تائهاً.
١١ - أفرط : تعدى الحد المفروض.
١٢ - فرّط : قصّر عما هو مطلوب ضد أفرط.
١٣ - النمط : الطريقة والمذهب والنوع من الشيء، الجماعة من الناس أمرهم واحد.
١٤ - السواد الأعظم : الجماعة.
١٥ - الشعار : علامة القوم في الحرب.
١٦ - البجر : بالضم الأمر العظيم، الشر.
١٧ - ختلتكم : خدعتكم.

١٨ ـ لبّس الأمر : خلطه حتى لا يعرف.
١٩ ـ الملأ : أشراف الناس ووجهاؤهم الذين يرجع إليهم.
٢٠ ـ الصمد : القصد.

الشرح

(فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت فلما تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي) رفض الخوارج التحكيم بعد أن أجبروا أمير المؤمنين عليه ولمْ يكتفوا بالرفض بل عدوه من الذنوب الكبيرة التي توجب الكفر على مذهبهم في الكبائر ومن ثم حكموا بكفر كل من قبل التحكيم ومن هذا المنطلق ذهبوا إلى أن الدار دار كفر لا يجوز الكف عن أحد من أهلها فاستعرضوا من مروا فيه فقتلوا الشيوخ والنساء والصبيان والأطفال حتى البهائم ولما رأى الإمام فعلهم حاورهم وأراد أن يلزمهم الحجة فلعل من يعود إلى الحق أو يرجع إلى الصواب ابتدأ بردّهم وبيان خطئهم في فعلهم بأن قال: إن التحكيم ليس بضلال ولا كفر كما تقدم الدليل عليه من قوله: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله. . .﴾** وبعد هذا قد أخذنا على الحكمين أن يحكما بالحق وإلا فلا ملزم يلزمنا بقولهما. . .

ولكن على فرض أنكم لم تقتنعوا بكل الأدلة والبراهين السابقة وبقيتم على ظنكم أنني أخطأت وضللت فلماذا تخطئون أمة محمد كلها بضلالي وخطئي وتأخذونهم بذنوبي وهذا خلاف قول القرآن: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى. . .﴾**.

(سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله) وهكذا كانت سيرتهم حملوا سيوفهم وشحذوها واستعدوا للقتال وراحوا يقتلون بها المذنب والمطيع حتى من لم يكلفه الله كالأطفال.

ثم بيّن لهم بسيرة الرسول كيف أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإسلام إلى الكفر بارتكابها وذلك أن الزاني المحصن ـ وهو المتزوج ـ إذا زنا فإنه رجمه ولكن صلى عليه بعد الرجم صلاة الأموات الإسلامية ثم ورث أهله ماله وهذا يدلّل على أن مرتكب الكبيرة يبقى على الإسلام وإن وجب قتله فلماذا أنتم تخالفون سنة رسول الله وما عليه المسلمون. . .

(وقتل القاتل وورّث ميراثه أهله) وهذا حجة ثانية من سيرة النبي وهي أن من قتل

مؤمناً عامداً يقاد منه ورسول الله قتله ومع ذلك ورث أهله ماله بل وصلى عليه ودفنه في مقابر المسلمين لأنه بارتكابه المعصية الكبيرة لا يخرج من الإسلام.

(وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسَّم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج اسماءهم من بين أهله) وهذان دليلان أيضاً على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر فهذا السارق التي ثبتت السرقة في حقه على الوجه الشرعي وكذلك الزاني غير المحصن ـ من لم يكن له زوجة قادر على وطئها ـ فقد قطع يد الأول وجلد الثاني ومع هذه العقوبة أعطاهما سهمهما من الغنيمة ومن بيت مال المسلمين وكل ما يستحقان من حقوق وهذا دليل على أنهما لا يزالان في خانة المسلمين ولم يخرجا عن الإسلام.

وأيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله أجاز لهما نكاح المسلمات فلو كانا في زمرة الكفار وكانت معصيتهما تخرجهما عن الإسلام لم يبح النبي لهما نكاح المسلمات لأن الكافر لا يجوز له في شرع الإسلام أن ينكح مسلمة فهذا الأمر من النبي دليل آخر على أنهما لا يزالان في الإسلام، فالعقوبة وإقامة حق الله شيء وتكفيرهما شيء آخر لا يرتبط بالكبيرة. . .

(ثم أنتم شرار الناس) وصفهم بأنهم شرار الناس لعقائدهم الفاسدة التي لا ترتبط بالإسلام ثم لأعمالهم الشنيعة التي لا يرتكبها الكفار.

(ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه) فأنتم شرار الناس ومن أضله الشيطان ضلالاً بعيداً وحيّره في فكره وسلوكه فهو لا يدري كيف يسير ولا أين يتوجه.

(وسيهلك فيّ صنفان: محب مفط يذهب به الحب إلى غير الحق ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فالزموه، والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة) وهذا من جملة أخباره بالغيب التي تلقاها عن النبي وهو أنه سيهلك في علي اثنان المحب الغالي الذي يرفع الإمام إلى مستوى الآلهة كما هو الحال عند الغلاة فإنهم لما رأوا منه ما لا يقدر عليه البشر لم تستطع عقولهم إدراجه في خانة البشر فرفعوه إلى منزلة الله جل وعلا. . وهذا حب مفرط يقود صاحبه إلى النار وبئس القرار وهناك في المقابل من أفرط في بغضه حتى كفّره كما هو حال الخوارج لعنهم الله.

ثم أشار إلى أن خير الناس هو الحد الأوسط الذي يخرج عن طرفي الإفراط

والتفريط فلا يجعل علياً إلهاً ولا يسلبه حقه وما هو فيه وهذا هو ما عليه الشيعة الإثنا عشرية فإنهم يوحدون الله ولا يجعلون معه شريكاً ولا نداً ولا شبيهاً ﴿**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**﴾.

وإنهم يذهبون إلى أن الخلافة بعد رسول الله إلى الإمام علي ومن بعده إلى الأئمة من ولده آخرهم محمد بن الحسن المنتظر وبهذا جاء الخبر عن النبي فهم بشر ولكن قادة البشر وأكملهم على الإطلاق. . .

ثم أمر بلزوم الجماعة وما عليه عامة الناس وأشار إلى أن الله بقوته الكبيرة مع الجماعة يحفظها ويسددها ويوفقها للخير.

كما أنه نهى عن الفرقة والاختلاف والتشرذم لما في ذلك من الضعف والوهن والإنحلال.

(فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه) من يخرج عن الجماعة وينفرد يقوى عليه الشيطان ويغريه ويغويه ويوسوس له بما يضر ثم يكون ضعيفاً أمام الأعداء هزيلاً لا يقوى على مواجهة أحد. وشبهه بالشاة المنفردة عن القطيع التي هربت من الراعي ومن القطيع فإنها من نصيب الذئب يفترسها ثم لشدة رغبته في الوحدة دعا إلى قتل من ينادي بشعار الفرقة والاختلاف الذي دعا إليه الخوارج ودعا إلى قتله حتى لو كان من أقرب الناس إليه أو لو كان هو نفسه وحاشاه. . .

(فإنما حكّم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحياؤه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه فإن جرنا القرآن إليهم اتبعناهم وإن جرهم إلينا اتبعونا) هذا بيان لمعذوريته في قبول التحكيم وأنه لم يحكم الرجال وإنما حكّم القرآن ولكن بما أنه صامت فيحتاج إلى من يفسره ويبيّن المراد منه وقد كان الشرط الأساسي على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وما أحياه القرآن هو الاجتماع والوحدة في ظل الخليفة الشرعي الذي انعقدت له الخلافة وإماتته هو الافتراق والبغي والبعد عن الخليفة الشرعي ومن هنا تنزلاً ومجاراة للقوم قال: إن جرنا القرآن إليهم فنحن معهم ونتبعهم وإن جرهم إلينا يجب أن يتبعونا ومن الواضح أن القرآن يقول: ﴿**فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾ ومن الواضح بغي معاوية وجماعته وكيف شقوا عصا الطاعة وخرجوا عن الجماعة. . .

(فلم آت ـ لا أبا لكم ـ بجراً ولا ختلتكم عن أمركم ولا لبسته عليكم إنما اجتمع

رأي ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن فتاها عنه وتركا الحق وهما يبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثناؤنا عليهما ـ في الحكومة بالعدل والصمد للحق ـ سوء رأيهما وجور حكمهما) اعتذر لنفسه بأنه لم يأت شراً ولا خدعهم عن رأيهم ولا زينه لهم بحيث يرغبون فيه يعني لم يروّج للتحكيم ولم يرغب فيه بل كان رأيه عليه السلام متابعة القتال حتى نهاية المعركة. . .

ثم بين لهم أن وجهاءهم وزعماءهم وأصحاب الكلمة منهم هم الذين اختاروا للتحكيم عمراً وأبا موسى وكان الإمام يرفض الأشعري ويقول: إنه ليس لي بثقة ولكنهم فرضوه فاضطر الإمام إلى أن يشترط على الحكمين أن يحكما بالعدل والحق وإلا فلا حكم لهما فكان هذا الاستثناء معذراً له ولكل من معه أن يرفضوا حكمهما الظالم الجائر. . . إنهما تعديا القرآن وخالفا الحق عمداً وعن علم واتبعا هواهما وما ترغب به نفسيهما فكان الاستثناء في محله حيث سبق سوء رأيهما وظلم ما حكما به وذهبا إليه. . .

وبعبارة أخرى: أُخذ على الحكمين أن يحكما بالحق والعدل فلم يحكما به بل حكما بالهوى والجور فسقط حكمهما لسقوط ما اشترط عليهما. . .

١٢٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة

يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلاَ لَجَبٌ(١)، وَلاَ قَعْقَعَةُ(٢) لُجُم(٣)، وَلاَ حَمْحَمَةُ(٤) خَيْلٍ. يُثِيرُونَ(٥) الأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ(٦).

قال الشريف: يومىء بذلك إلى صاحب الزّنج.

ثم قال عليه السلام: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ(٧) العَامِرَةِ، وَالدُّورِ المُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ(٨) كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ(٩) كَخَرَاطِيمِ الفِيَلَةِ، مِنْ أُولئِكَ الَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ(١٠) قَتِيلُهُمْ، وَلاَ يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُّ(١١) الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا.

منه في وصف الأتراك

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ(١٢) المُطَرَّقَةُ(١٣)»، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ(١٤) وَالدِّيبَاجَ(١٥)، وَيَعْتَقِبُونَ(١٦) الخَيْلَ العِتَاقَ(١٧). وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ(١٨) حَتَّى يَمْشِيَ المَجْرُوحُ عَلَى المَقْتُولِ، وَيَكُونَ المُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ المَأْسُورِ!.

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام، وقال للرجل، وكان كلبياً:.

يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا

عِلْمُ الغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ[٢٠]، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ[٢١]، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. . .﴾ الآية، فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ[٢٢] أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً[٢٣]، أَوْ فِي الجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فِهذَا عِلْمُ الغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَمَا سِوَى ذلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ[٢٤] عَلَيْهِ جَوَانِحِي[٢٥].

اللغة

١ ـ اللجب : محركة الجلبة والصياح.
٢ ـ اللجم : جمع لجام حديد توضع في فم الفرس لضبطها.
٣ ـ قعقعة اللجم : ما يسمع من أصوات اللجم بين أسنان الخيل.
٤ ـ حمحم : الفرس ردد صوته في طلب علف أو إذا رأى من يأنس به.
٥ ـ يثيرون : الأرض يحركون فيرتفع غبارها.
٦ ـ النعام : جمع نعامة حيوان معروف بعنقه الطويل وريشه الناعم.
٧ ـ السكك : جمع سكة الطريق المستوي.
٨ ـ أجنحة الدور : رواشنها.
٩ ـ الخراطيم : الميازيب تطلى بالقار.
١٠ ـ الندب : البكاء على الميت وتعداد مناقبه.
١١ ـ كب : فلاناً على وجهه تركه ولم يلتفت إليه وكب الإناء قلبه على رأسه.
١٢ ـ المجان : بفتح الميم وتشديد النون جمع المجن بكسر الميم الترس.
١٣ ـ مطرقة : وضع بعضها فوق بعض حتى صارت طبقتين أو أكثر.
١٤ ـ السرق : محركة الحرير أو الحرير الأبيض خاصة.
١٥ ـ الديباج : جمعها ديابج وديابيج الثوب الذي سداه ولحمته حرير.
١٦ ـ يعتقبون : يحتبسون ويرتبطون من اعتقب السلعة إذا حبسها ليقبض ثمنها.

١٧ ـ عتاق الخيل : كرائمها.
١٨ ـ استحرار القتل : شدته.
١٩ ـ المفلت : الهارب.
٢٠ ـ الغيث : المطر.
٢١ ـ الأرحام : من الرحم مكان نمو الجنين.
٢٢ ـ السخي : الكريم.
٢٣ ـ وعى الخطاب : فهمه وحفظه.
٢٤ ـ اضطم الشيء : جمعه إلى نفسه.
٢٥ ـ الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر.

الشرح

(يا أحنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام) هذا الكلام من الإمام كان في البصرة بعد وقعة الجمل وقد خاطب به الأحنف بن قيس صاحب الحلم والعقل يخبره فيه كما قال الشريف الرضي بصاحب الزنج ويصف أتباعه وجنده بهذه الأوصاف التي هي على خلاف عادة الجيوش.

ففي حال يسير الجيش ينتشر الغبار ويرتفع نتيجة كثرتهم وخيلهم وهؤلاء لا يكون لهم غبار بل يتحركون ولا غبار لهم ولا صياح يعلو منهم أو صراخ ولا أصوات اللجم حيث لا خيل عندهم يلجمونها أو ترتفع أصواتها.

إنهم يمشون بأقدامهم حفاة وإذا ساروا أثاروا الأرض خفيفاً لأن أقدامهم كأقدام النعام عريضة متى يضعونها ينبعث الغبار.

(ويل لسكككم العامرة والدور المزخرفة التي لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة من أولئك الذين لا يندب قتيلهم ولا يفقد غائبهم أنا كاب الدنيا لوجهها وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها) بيّن عليه السلام ما ينال البصرة من جراء خروج صاحب الزنج وكأنه عليه السلام يتأسف عليها ويريد أن يبيّن ما يلحقها بطرقها الحلوة الجميلة العامرة بأهلها وبما فيها وتلك القصور المزينة وهذا يدل على أن البصرة كانت مدينة عامرة وأهلها أغنياء وقد كانت كذلك فإنها من أغنى بلاد الرافدين وكان يعبر عنها وعن الكوفة «السوادين» لكثرة زرعهما وخضارهما ونضرة ما تنتجا وتعطيا. . .

يذكر عليه السلام تلك الدور المزخرفة التي لها رواشن (برندات) كأجنحة النسور لظهورها وقوتها ولها ميازيب مطلاة بالقير ظاهرة إلى الخارج كخراطيم الفيلة.

ثم بيّن بعض صفات أتباع صاحب الزنج وأنهم قوم لا يندب قتيلهم إما لأنهم غرباء ليس لهم أهل يندبونهم وإما لأنهم لا يبالون بالموت وكذلك لا يفقد غائبهم أي لا يسأل عنه لكثرتهم أو لعدم قريب لهم يسأل عنهم ويهتم بهم. . .

وبيّن عليه السلام قيمة الدنيا عنده فإنه قد تركها وأهملها وأنه يقدرها بحقها وناظر إليها بمقدار ما تستحق ومن المعروف أن علياً طلقها واستهان بها وهجرها ولم يلتفت إليها.

(كأني أراهم قوماً «كأن وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق والديباج ويعتقبون الخيل العتاق ويكون هناك استحرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت أقل من المأسور) قالوا: إن هذا إخبار منه بخروج التتار وذكر بعض أوصافهم وما ينال البلاد والعباد منهم. إنهم قوم وجوههم كالتروس الخشنة لاستدارتها وعظمها وخشونتها وغلظتها يلبسون الحرير والثياب الفاخرة ويحبسون الخيل لأنفسهم لا يسمحون بها لغيرهم وأما ما يجري على أيديهم فهناك شلالات الدم بحيث يمشي المجروح على الميت دون أن يلتفت إليه أو يخشى منه أو يمد يده إليه ليدفنه ويكون الهارب أقل من المأسور فهم لا يسمحون لأعدائهم بالهروب لأنهم لا يتركون لهم فرصة لذلك بل يأسرونهم ثم يعرضونهم للقتل.

(يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت. . .﴾ الآية فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد ومن يكون في النار حطباً أو في الجنان للنبيين مرافقاً. فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي).

كلام في علم الغيب.

عندما أخبر الإمام بهذه الأخبار وبيّن هذه الحوادث لم يستطع هذا الرجل الكلبي إلا أن يفهم هذه الأخبار على أنها علم الغيب الذي هو من مختصات الله فلذا تعجب من الإمام وقال له: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فما كان من الإمام إلا أن ابتسم

حمداً لله على هذه النعمة وشكراً له ثم أخذ في تقسيم علم الغيب إلى قسمين: .

القسم الأول: هو الذي انحصر في الله وهي هذه الأمور الخمسة: .

أ ـ علم الساعة وأنها متى تقوم القيامة.

ب ـ هو ينزل الغيث كمية وكيفية وفي أي مكان وأي زمان.

ج ـ يعلم ما في أرحام النساء من ذكر أو أنثى أسود أو أبيض قصير أو طويل جميل أو دميم شقي أو سعيد، سخي أو بخيل وإلى غيرها من الصفات. . .

د ـ ماذا يكسب هذا الإنسان غداً من خير أو شر كثير أو قليل، في أي زمان ومكان.

هـ ـ أين تكون وفاة هذا الإنسان فهو من علم الغيب أيضاً. . .

القسم الثاني من الغيب: هو جزء من العلم عرّفه الله لنبيه وأطلعه عليه وبدوره قام النبي بإبلاغه للإمام وإفهامه إياه وقد بلغه إياه النبي ودعا له أن يحفظه ويفهمه فكان الإمام أصدق صورة تحكي النبي وتنقل عنه كل خصوصية وكل حقيقة وقد قال المفسرون عندما فسروا قوله تعالى: **﴿وتعيها أذن واعية﴾** قالوا: إنها إذن علي وقد قال النبي يومها: إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي فقال علي عليه السلام: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى. فقد نقلها الطبري في تفسيره ج ٢٩ ص ٣٥ والزمخشري في الكشاف عند تفسيره للآية وكذلك الرازي في التفسير الكبير والهيثمي في مجمعه والسيوطي في الدر المنثور.

ترجمة الأحنف بن قيس.

الأحنف واسمه الضحاك(١) وقيل صخر بن حصين التميمي السعدي أبو بحر والأحنف لقب له.

أسلم في حياة النبي ولم يره وجاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا له وكان سيداً شريفاً مطاعاًمؤمناً عظيم اللسان وكان يضرب بحلمه المثل وله أخبار في حلمه سارت بها الركبان.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٧.

قال الحاكم: هو الذي فتح مرو الروذ وكان الحسن وابن سيرين في جيشه وهو الذي افتتح سمرقند وغيرها من البلاد.

توفي الأحنف بالكوفة وصلى عليه مصعب بن الزبير ومشى في جنازته قيل أنه توفي سنة سبع وستين وقيل غير ذلك عن سبعين سنة.

١٢٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذكر المكاييل والموازين

عِبَادَ اللهِ، إِنَّكُمْ ـ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هذِهِ الدُّنْيَا ـ أَثْوِيَاءُ[١] مُؤَجَّلُونَ[٢]، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ[٤]: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ[٥] مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ الخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَلاَ الشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلاَ الشَّيْطَانُ فِي هَلاَكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً. فَهذَا أَوَانُ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ[٦]، وَعَمَّتْ[٧] مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ[٨] فَرِيسَتُهُ[٩]. اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ[١٠] فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ البُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً[١٢]، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ المَوَاعِظِ وَقْراً[١٣]! أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ المُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالمُتَنَزِّهُونَ[١٤] فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا[١٥] جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالعَاجِلَةِ المُنَغِّصَةِ[١٦]، وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لاَ تَلْتَقِي إِلاَّ بِذَمِّهِمْ[١٨] الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً[١٩] عَنْ ذِكْرِهِمْ! «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!» «ظَهَرَ الفَسَادُ»، فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ[٢٠]، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لاَ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللهُ الآمِرِينَ بِالمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ المُنْكَرِ العَامِلِينَ بِهِ!.

اللغة

١ ـ أثوياء : جمع ثوي الضيف.
٢ ـ مؤجلون : مؤخرون.
٣ ـ مدينون : مقرضون من الدين وهو القرض.
٤ ـ مقتضون : جمع مقتضى أي مطالب.
٥ ـ الدائب : المجد الدائم على العمل.
٦ ـ العدة : جمعها عدد الاستعداد، ما أعد لحوادث الدهر من مال وسلاح.
٧ ـ عمت : شملت.
٨ ـ المكيدة : الحيلة.
٩ ـ أمكنت : سهلت.
١٠ ـ الفريسة : ما يصطاده الأسد ونحوه.
١١ ـ يكابد : من الكبد وهي المشقة والشدة والصعوبة.
١٢ ـ الوفر : المال الكثير.
١٣ ـ الوقر : الثقل في الأذن، الصمم.
١٤ ـ المتنزهون : المبتعدون عن المكروه، المترفعون عن الدنايا.
١٥ ـ ظعنوا : رحلوا.
١٦ ـ المنغصة : من نغص عيشه أي كدّره.
١٧ ـ الحثالة : الرديء من كل شيء.
١٨ ـ الذم : خلاف المدح ذكر الأمور المعيبة.
١٩ ـ ذهاباً : عن ذكرهم أي ترفعاً وفلان يذهب بنفسه عن كذا أي يرفعها.
٢٠ ـ دار القدس : الجنة.

الشرح

(عباد الله إنكم ـ وما تأملون من هذه الدنيا ـ أثوياء مؤجلون ومدينون مقتضون أجل منقوص وعمل محفوظ فرب دائب مضيّع ورب كادح خاسر) قال الشريف: إن هذه الخطبة خطبها الإمام في ذكر المكاييل والموازين...

ابتدأ عليه السلام بذم الدنيا وذكر بعض معايبها حتى يخفف الناس من الإقبال عليها والتهالك على ما فيها وافتتح كلامه بتذكيرهم أنهم عباد الله وما أجمل هذه العبودية إذا

صدقت من قبل العبد إنكم أنتم وما تأملون من هذه الدنيا من أموال وعقار وأولاد وأزواج ضيوف إلى وقت معلوم وأجل محدود لأن الضيف على جناح سرعة في الخروج والرحيل.

وكذلك مدينون مقتضون أي مطالبون بما عليكم من حقوق وواجبات فما أعطيتم من الدنيا مطالبون به ومسؤولون عنه.

ثم أراد أن يدفعهم إلى عدم التسويف وإلى الإخلاص في العمل والإجادة فيه فقال: أجل منقوص أي أن هذا الأجل الذي أجلتموه سابقاً يتآكل شيئاً فشيئاً بمرور الليل والنهار وأما العمل فهو محفوظ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى وإذا كان كذلك فلا بدّ من إصلاحه والإخلاص فيه لله...

ونبه بقوله: «رب دائب مضيّع وربّ كادح خاسر» إلى أن العامل المجدّ في عمله يجب أن يسعى ليكون عمله مقبولاً فلا تضيع جهوده أدراج الرياح وذلك برفع الموانع ومعرفة ما يفسده فهذا الذي يستمر على ورد معين من الإذكار أو التسبيح أو غيرها ولكنه يأخذه العجب فإن هذه الأعمال تسقط ولا يعود لها فائدة ويكون عمله فاسداً وهذا المصلي المؤدي لواجباته إذا لم تكن على الوجه الشرعي تتبخر كلها وتذهب سدى وهكذا لا بد من معرفة المعبود وما يُعبد به والطريق إليه...

(وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً ولا الشر فيه إلا إقبالاً ولا الشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا أوان قويت عدته وعمت مكيدته وأمكنت فريسته) يحكي الإمام واقع زمانه الذي يعيش فيه أنه زمان نكد يختفي فيه الخير أو يتراجع عن مواقع الحياة وفي نفوس الأحياء فمساعدة الناس وإعانتهم ونشر الفضيلة وإقامة أحكام الله كلها تكاد تختفي بينما الشر والعصيان والتمرد وقتل الناس وهتك الحرمات تنتشر وتتوسع وتجد لها في قلوب الناس أفسح مكان... وبطبيعة الحال إذا انزوى الخير أو ارتفع لا بد للشر أن يتمدد وينتشر.

إنه زمان سوء ازداد طمع الشيطان في إضلال الناس وجرّهم إلى الهلاك لأن الشيطان يقوى إذا كان الزمن فاسداً فإذا انتشر الإنحلال والفوضى وهتك الحرمات فهذه كلها أبواب يدخل منها الخبيث ليهلك هذا الإنسان ويضله عن مستقيم الطريق.

ثم ذكر أن هذا الوقت الذي هذه صفاته أوان قويت فيه عدة الشيطان فالملاهي والفتن والفرقة والاختلاف والاختلاط كلها تحت سلطانه وأمره وما شئت فعدّد.

وقد انتشرت حيله في كل مكان وشملت من لا يُظن في حقهم ذلك فرب تقي في

نظر الناس أشد إجراماً من مجرم عند الله لأن الشيطان استطاع أن يدخل إليه من باب الرياء والعجب وغيرها. . .

وأما هذا الإنسان الضال فقد وقع فريسة سهلة سهّل نفسه للشيطان ليأخذها وأعانه عليها لأنه عاش في أجواء موبؤة ومحيط فاسد فسرى الوباء والفساد إلى نفسه، عاش بين الفاسدين فسهّل دخول الشيطان إليه. . .

(اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً أو غنياً بدل نعمة الله كفراً أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً أو متمرداً كأن بأذنيه عن سمع المواعظ وقرا).

علامات فساد الزمان.

وهذه عيّنات من فساد الزمان يضعها الإمام بين يدي الإنسان فإنه يعيشها على أرض الواقع ويتحرك فيها أربابها أمام أنظارنا. . .

اضرب بطرفك وما أجمل هذا التعبير وأفصحه حيث شئت من الناس أي واحد تضع يدك عليه تجده واحداً من أربعة.

فإنك لا تجد إلا فقيراً يعيش التعب والنصب والمشقات. . . فقير متعب يبحث عن لقمة يسد بها رمقه ويكفي بها عائلته. . فقير قد أضرّ به الإملاق فهو لا يحصل على قوته إلا بالعذاب والهوان. . .

فقير وما أكثر الفقراء في بلاد الله، إنهم الكثرة الغالبة التي حُرمت حقها في الكسب والعطاء. . . حرمها الظالمون من خيرات الأرض وعطائها. . .

إنه الفقير الذي ينام على صراخ أطفاله من الجوع ويستيقظ على النغمة نفسها أيضاً.

وفي مقابل هذا الفقير لا تجد إلا غنياً بدل نعمة الله كفراً. . . فهذا الغني هو الذي سرق حق الفقير أو منعه منه إنك تجده قد بدل نعمة الله كفراً. . . غيّر هذه النعمة واستبدلها بالكفر. . . كان من حقه أن يشكر الله عليها فيضعها في محلها فإذا به يعصيه فيها ويتمرد عليه بها. . . يحوّل نعمة الله إلى سلاح يحارب به الله. . . في الفساد. . . في الرشوة ـ في قطع الأرحام ـ في الفتنة، في ظلم العباد. . .

أو أنك لا تجد إلا بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفرا.

وهذا هو البخيل الذي اتخذ البخل بحق الله وسيلة لزيادة ثروته وتضخيم رصيده وما أكثرهم اليوم ولو أن غنياً واحداً من أغنياء المسلمين أطاع ربه وأدى ما عليه من الحقوق الشرعية المالية من الخمس والزكاة لسد عوز مئات العوائل التي تعيش على التسول وجمع النفايات. . . .

وأقول واحداً من أثرياء المسلمين لأن في المسلمين أغنياء بخلاء على أهل دينهم كرماء على الغرباء من الكفار والمستعمرين وهذه ملكة بريطانية تزور الكويت والإمارات فيتبارى مشايخ النفط في الكرم فهذا يهديها سيفاً من ذهب وذاك نخلة من الذهب تحمل تمراً من اللؤلؤ وهذه الملكة بنفسها تزور أمريكا وعندما تصل إلى مجلس الشيوخ في تكساس ـ إحدى ولايات أمريكا ـ يُقدم لها جزمة ـ كوي بوي ـ وقد صورتها الجرائد وهي تقدم لها الجزمة كما صورت هدية العرب. . . فانظر كيف تبدد الثروة الإسلامية بالأيدي العربية وانظر كيف تحفظ ثروة أميركا فإنا لله وإنا إليه راجعون من قوم تسلطوا على رقاب الناس ظلماً وعدواناً وبغير حق. . .

والرابع أو متمرداً كأن في أذنيه عن سمع المواعظ وقراً فهذا هو الذي عصى الله وتمرد على أحكامه وخالف أمره تنصحه وتعظه فلا يسمع ولا يتأثر وهل هناك أقسى من قلب لا تحركه موعظة أو أشقى من إنسان يرى الحق فلا يتبعه. . .

(أين أخياركم وصلحاؤكم وأين أحراركم وسمحاؤكم وأين المتورعون في مكاسبهم والمتنزهون في مذاهبهم أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة) استفهم عليه السلام على نحو التعليم لهم والتنبيه إلى ما صار إليه خيارهم الذين يسارعون في الأعمال الطيبة والحسنات والخيرات وصلحاؤهم الذين عاشوا مع الله في كل أوامره ونواهيه وكذلك أحرارهم الذين لم يعبدوا غير الله ولم يتوجهوا لأحد غيره وكذلك استفهم عن سمحاؤهم الذين يغضون عن السيئة ويتجاوزون عن هفوات الناس معهم. . .

واستفهم عن المتورعين في مكاسبهم الذين يجتنبون ما فيه مظنة الحرام وشبهته وكذلك عن المتنزهين في مذاهبهم الذين يبتعدون عن طرق الحرام وما يمكن أن يفضي إلى الحرام.

استفهم عليه السلام عن هؤلاء جميعاً ثم أجاب تقريراً بأنهم جميعاً قد رحلوا عن الدنيا الذليلة والعاجلة التي تمر كالبرق ليس فيها ما يهنأ فيه الإنسان أو يرتاح.

(وهل خُلقتم إلا في حثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان استصغاراً لقدرهم وذهاباً عن

ذكرهم «فإنا لله وإنا إليه راجعون» ظهر الفساد فلا منكر مغيّر ولا زاجر مزدجر) لم يبق في زمانكم إلا بقايا من أوغاد الناس وأراذلهم بحيث يترفع المتكلم عن ذكرهم فلا تنطق الشفتان في الحديث عنهم ترفعاً عن ذكرهم واحتقاراً لهم واستصغاراً لشأنهم إنها مصيبة عظمى وداهية كبرى «إنا لله وإنا إليه راجعون» ظهرت المنكرات وشاعت فلا منكر للمنكر مغيّر له إما لعدم القيام به أصلاً أو لعدم كفاية من يقوم به أو لعدم تأثيره في القلوب القاسية الجامدة وليس في الناس من زاجر عن القبيح ومنزجر هو عنه . . .

(أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه وتكونوا أعز أوليائه عنده هيهات! لا يخدع الله عن جنته ولا تنال مرضاته إلا بطاعته لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به) استفهم عليه السلام مستنكراً عليهم أمراً يريدونه وهم ليسوا من أهله . . . إنهم يريدون الجنة ومجاورة أولياء الله وأنبياءه ويكونون من أعز أوليائه عنده هكذا يريدون ولكنه يستبعد ذلك عنهم بهيهات ما تطلبون ما أبعده عنكم لأن الله لا يخدع عن جنته فالجنة تريد الصدق مع الله والوفاء له والامتثال لأمره . . . الجنة تريد الالتزام . . . تريد منكم أن تبيعوا الله نفوسكم وأموالكم فإذا ظننتم أن الله لا يعلم سركم ولا يعلم خداعكم فهذا أمر أخطأتم فيه وجانبتم الصواب فإن الجنة لا تنال إلا بما يرضي الله ولا رضا لله إلا بطاعته في أوامره ونواهيه . . .

ثم لعن الآمرين بالمعروف التاركين له لأنهم يعيشون العصيان في أنفسهم ولا يطيعون الله فيها . . . كما أنه لعن الناهين عن المنكر العاملين به لأنهم عصاة .

وكأن هذا إشارة منه إلى وجود هذين الصنفين في المخاطبين . . .

١٣٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

لأبي ذر رحمه الله لما أخرج إلى الربذة

يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ، فَارْجُ(١) مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ القَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، ومَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غداً، وَالأَكْثَرُ حُسَّداً. وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً(٢)، ثُمَّ اتَّقَى اللهَ، لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لاَ يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ الحَقُّ، وَلاَ يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ البَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ(٣) مِنْهَا لأَمَّنُوكَ(٤).

اللغة

١ ـ أرج : فعل أمر من رجا ضد يئس وهو الأمل.
٢ ـ الرتق : ضد الفتق الإلتئام والوصل.
٣ ـ قرضت : منها قطعت منها قطعة.
٤ ـ أمّنوك : سلموك ولم يؤذوك.

الشرح

(يا أبا ذر إنك غضبت لله فارج من غضبت له إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فاترك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً) هذه الكلمات

المباركة كانت في وداع صحابي عظيم قالها الإمام تسلية له وبياناً للحقيقة والتاريخ. . . أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله أمر عثمان بنفيه إلى الربذة بعد أن كان قد نفاه إلى الشام أولاً وعاد منها إلى المدينة. . . فخرج أبو ذر ولم يجرؤ أحد من الناس أن يخرج لتوديعه وتشييعه حيث حرّم عثمان تشييعه وتوديعه إلا ما كان من الإمام علي والحسن والحسين وعقيل وعمار فلما أراد أن يودعه الإمام بلسم جراحه بهذه الكلمات المعبرة عن الحقيقة.

يا أبا ذر إنك غضبت لله حيث كان أبو ذر لسان الفقراء بل لسان الإسلام الذي يرتفع بكلمة الحق منددأ بمظالم عثمان وأعماله التي تتنافى وعدالة الإسلام فقد كان عثمان يوزع بيت مال المسلمين كما يحب ويرغب، يصل هذا يحابي ذلك يصانع الثالث وهكذا دون ضوابط تحكمه أو قوانين تلجم تصرفاته فكان أبو ذر إزاء هذا العمل الباطل يصرخ في وجه عثمان ويقود الثورة ضده معلناً ظلمه وسوء تصرفه. . .

فكان غضبه ليس لنفسه بل لله وإذا كان الغضب لله فيجب أن يكون الرجاء من الله وبهذا التفكير كان يتحرك أبو ذر وعليه سار وإلى أهدافه كان يقصد. . .

ثم بين السبب في نفيه إن) القوم ـ عثمان ـ ومن حوله من الأمويين والمنتفعين والانتهازيين خافوك على دنياهم لأن تحركك يحرك معه الجماهير المظلومة وهذه لا ترحم كما جرى فيما بعد بحق عثمان. . خافوك على كراسيهم وعروشهم خافوك على الامتيازات التي انفردوا بها دون بقية الناس فصرختك أمام الناس تكشف عوراتهم وتجردهم من ثيابهم فهم قد خافوك على دنياهم وأما أنت فقد خفتهم على دينك. . . صرختك كانت في سبيل الدين. . . خوفاً من التشويه والتدنيس وخوفاً من التحريف. . . أنت خفتهم على عقيدتك أن يمسخوها ويقتلوا العدل فيها. . . خفتهم أن يمزقوا الحق ويقتلوا روح الإسلام. . .

فاترك في أيديهم ما خافوك عليه من دنياهم. . . إنك لن تقدر أن تسلبهم دنياهم وتردهم إلى موقعهم فاتركهم إذن وشأنهم واهرب أنت بما خفتهم عليه من دينك، فإذا استطعت أن تهرب بدينك وتحفظه وتحتفظ به سالماً فقد بلغت أمنيتك. . . اهرب بدينك. . .

ثم طمأن القلب الجريح باستغنائه عما منعوه منه من الدنيا واستأثروا به لأنفسهم وحاجتهم إلى ما منعهم من دينه فهم إلى دينه أحوج منه إلى دنياهم وستعلم من الرابح غداً يوم القيامة إنه صاحب الدين وستعلم من الأكثر حسداً وهو صاحب الدين يكثر حساده. . .

(ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك) أراد الإمام أن يزرع الثقة في نفس أبي ذر فقال له: لو أن السماوات والأرضين أطبقت على عبد وكان في تقوى من الله لجعل الله له منهما مخرجاً.

ثم أراد تثبيته على الحق فنهاه عن الاستيناس بغير الحق الذي هو عليه والذي اختاره ولا يستوحش إلا من الباطل الذي عليه غيره. . .

وفي الختام علل معاداة القوم له بعدم انسجامه معهم في سلوكهم نحو الدنيا فهو لم يشاركهم فيها ولو قبل دنياهم وسكت عنهم وعن انحرافهم لو أنه شاركهم هذه الدنيا وخاض فيها كما خاضوا لارتاح من الإزعاج والتهجير وأمن عذابهم وما يلاقيه منهم من أذى. . .

ترجمة أبي ذر الغفاري.

جندب بن جنادة الغفاري أحد صحابة النبي العظام الذين لهم قدم صدق في الإسلام ومن أوائل من أسلم فقد ذكروا أنه كان رُبع الإسلام حيث كان رابع أربعة أسلموا وكان أحد الأركان الأربعة الذين ثبتوا على الولاء لعلي وقد أثنى عليه علماؤنا ومدحوه بما هو أهل له ولا نرى بعد أحاديث النبي في حقه وفضله كلام ولذا نقتصر بذكر بعض ما ورد فيه.

روى الخاص والعام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ما أظلت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: في أمتي أبو ذر شبيه عيسى بن مريم في زهده وبعضهم يرويه: من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر.

سئل الإمام علي عليه السلام عن أبي ذر فقال: ذاك رجل وعى علماً عجز عنه الناس ثم أوكأ عليه ولم يخرج شيء منه. . .

محنة أبي ذر.

لما رأى أبو ذر أفعال عثمان وانحرافاته من إعطاء المال لبني أمية ومنعها عن المسلمين وتقريب الأمويين منه وتوليتهم على بلاد المسلمين دون كفاءة ومن تعطيله الحدود وغير ذلك من المنكرات أخذ أبو ذر على نفسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر فأخذ يقرأ على الناس قوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ ورفع ذلك إلى عثمان فنهاه فلم ينته وفي يوم قام عثمان فقال: أيجوز للإمام أن يأخذ شيئاً من المال قرضاً فإذا أيسر قضى فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا وتكرر حديث أبي ذر الذي يحمل على عثمان ويفضحه بأعماله القبيحة فعندها سيره إلى معاوية في الشام.

أبو ذر في الشام.

دخل أبو ذر الشام فرأى معاوية أشد انحرافاً من عثمان وأقوى خطراً... رأى كسرى العرب في إسرافه وانحرافه... رأى أموراً غريبة لم يعهدها من قبل فلم يكف ولم يسكت بل كان ينكر على معاوية مخالفاته وظلمه وإسرافه.

ولما بنى معاوية الخضراء بدمشق قال له أبو ذر: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهي الإسراف.

وكان يقول وهو بالشام: لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وآله إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.

تكرر من أبي ذر مهاجمة معاوية على انحرافه فاستدعاه معاوية قهراً عنه وعنفه بما لا يليق بمسلم فكيف يليق بصحابي جليل من أصحاب رسول الله أمثال الغفاري العظيم ولكنه الظلم الأموي المتجسد في الحاكم وولاته وقد قابل أبو ذر معاوية بما يليق به حيث روى له ما سمعه بحقه من النبي قائلاً له: ما أنا بعدو لله ولا لرسوله بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر ولقد لعنك رسول الله ودعا عليك مرات أن لا تشبع.

فلما سمع معاوية منه ذلك حبسه وكتب إلى عثمان بأمره فكتب إليه عثمان أن يحمله إليه، فحمله معاوية من الشام إلى المدينة على شارف ليس عليه إلا قتب حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد.

فلما وصل إلى المدينة ودخل على عثمان تهدده بالقتل ودارت حوارات طويلة لم يثن أبو ذر هامته فيها بل كان يروي أمام عثمان قول النبي: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دخلا» ولما يئس عثمان من أبي ذر وأنه لن يستطيع أن يسكت الصوت الثائر قرّر نفيه من المدينة إلى مكان ليس فيه جليس أو أنيس.

النفي الأخير.

حظر عثمان على الناس مجالسة أبي ذر أو الحديث معه وبقي كذلك حتى قرر أن ينفيه إلى الربذة فنفاه إليها وعندما أراد الخروج لم يخرج لتوديعه إلا أهل البيت لأن عثمان منع تشييعه وذهب أبو ذر ضحية التمرد الأموي والإرتداد عن الدين من الطغمة الحاكمة.

وبقي أبو ذر هناك حتى مات غريباً فريداً وصلى عليه مالك الأشتر وقيل ابن مسعود... مات أبو ذر غريباً عن وطنه مهجراً منه فريداً ولكنه أضحى الراية التي ترفع في وجوه الحكام الفاسقين والولاة الضالين فرحمه الله من عالم شهيد...

١٣١ ـ ومن كلام له عليه السلام

وفيه يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ المُخْتَلِفَةُ، وَالقُلُوبُ المُتَشَتِّتَةُ[١]، الشَّاهِدَةُ[٢] أَبْدَانُهُمْ[٣]، وَالغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ[٤] عَلى الحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنفِرُونَ[٥] عَنْهُ نُفُورَ المِعْزَى[٦] مِنْ وَعْوَعَةِ[٧] الأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ[٨] العَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ[٩] اعْوِجَاجَ[١٠] الحَقِّ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً[١١] فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ الْتِمَاسَ[١٢] شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ[١٣] الحُطَامِ[١٤]، وَلَكِنْ لِنَرِدَ المَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ المَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ المُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ[١٥]، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ بِالصَّلاَةِ.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الوَالِي عَلَى الفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ[١٦] وَالأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ المُسْلِمِينَ البَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ[١٧]، وَلاَ الجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الجَافِي[١٨] فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الحَائِفُ[١٩] لِلدُّوَلِ[٢٠] فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلاَ المُرْتَشِي[٢١] فِي الحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ المَقَاطِعِ[٢٢]، وَلاَ المُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ.

اللغة

١ ـ المتشتتة : المتفرقة وتشتت الشمل إذا تفرق.
٢ ـ الشاهدة : الحاضرة.
٣ ـ الأبدان : جمع بدن وهو جسد الإنسان.
٤ ـ أظأركم : أعطفكم.
٥ ـ تنفرون : تتباعدون، والنفور من الشيء هو الشرود عنه والبعد.
٦ ـ المعزى : من الغنم خلاف الضأن.
٧ ـ الوعوعة : الصوت.
٨ ـ السرار : آخر ليلة من الشهر وتكون مظلمة.
٩ ـ أقيم : المعوج أو المائل أعدّل.
١٠ ـ الإعوجاج : ضد الإستقامة.
١١ ـ المنافسة : المغالبة في الشيء النفيس كالكرم وغيره.
١٢ ـ إلتمس : الشيء طلبه.
١٣ ـ الفضول : جمع الفضل البقية.
١٤ ـ الحطام : ما تكسر من الشيء اليبس.
١٥ ـ أناب : رجع.
١٦ ـ المغانم : جمع مغنم وهو الغنيمة ما يؤخذ من المحاربين عنوة وعلى كل ما يكسبه الإنسان.
١٧ ـ النهمة : بفتح النون وسكون الهاء إفراط الشهوة والمبالغة في الحرص.
١٨ ـ الجافي : من الجفاء أي الغلظة.
١٩ ـ الحائف : من الحيف وهو الجور والظلم.
٢٠ ـ الدول : جمع دُولة بضم الدال اسم للمال المتداول أي المنتقل من يد إلى أخرى.
٢١ ـ المرتشي : آخذ الرشوة وهي ما يدفع لإبطال حق أو إحقاق باطل.
٢٢ ـ المقاطع : جمع مقطع ما ينتهي الحق إليه.

الشرح

(أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة الشاهدة أبدانهم والغائبة عنهم عقولهم)
أشار في هذه الخطبة إلى أمور ثلاثة: إلى ذم أصحابه وإلى بعض مناقبه وإلى ذكر

المغتصبين للخلافة ممن تقدمه بذكر بعض صفاتهم. . .

وصف أصحابه بما رآه فيهم وما هم عليه. . . صورة مفزعة ناطقة بقبحها وقبح من يحملها. . . إنهم يحملون أنفساً مختلفة الأهواء فلا يجمعها هدف ولا تلتقي عند رضا الله. . . وكذلك هي موزعة الآراء فكل فرد له رأي يغاير آراء الآخرين. . . إنهم أصحاب أبدان حاضرة تراها أمامك مجتمعة مكتملة ولكن عقولهم غائبة ليست بحاضرة فلا تفكر فيما يجب ولا تنظر فيما ينبغي. . .

(أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد) أجعل لكم كل ما يحملكم على أن تعطفوا على الحق وأسلك بكم كل السبل التي تحملكم للسير نحوه والدفاع عنه ولكنكم تذهبون عنه وتنفرون منه نفور المعزى من صوت الأسد، فكما أن المعزى إذا سمعت صوت الأسد تولي هاربة ولا تلتفت إلى أحد كذلك أنتم تبتعدون عن الحق وتهربون منه رغم دعائي لكم بالعودة إليه والرجوع إلى رحابه. . .

(هيهات أن أطلع بكم سرار العدل أو أقيم اعوجاج الحق) استبعد أن يخرج بهم خفي العدل أو يمنع الاعوجاج للحق بوجودهم. . . فهم أقل من أن يقيم بهم الحق أو يجهر بالحق.

وبعبارة أخرى أن العدل قد اختفى في زمن من تقدمه والحق قد اعوج وهؤلاء أهون من أن يظهر الإمام بهم العدل أو يعدّل الإنحراف فيرفعه ويضع موضعه الحق. . .

(اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالصلاة).

الموقف العلوي ونظرته إلى الحكم.

برأ ساحته عن كل ما يشين وما يتدافع غيره عليه فأشهد الله على أنه وحده يعلم أنه لم يكن ما كان منه في زمن مَنْ تقدمه من الخلفاء من مخالفته لهم وما هو عليه الآن من الحروب لم يكن ذلك مغالبة منه لهم على الحكم واعتلاء كرسي الخلافة حباً بها ورغبة في التسلط كما هو دأب طلابها والراغبين فيها حيث يضحون بكل عزيز من أجل بلوغ كرسي الحكم والوصول إليه فيبيعون كرامتهم وعزتهم من أجل الحكم.

كما أنه عليه السلام لم يكن ما كان منه طلباً للحصول على أموال الدنيا وعروضها

وما فيها من متاع فليس للكرسي قيمة في نظره كما أن ما يجني منه وبه لا قيمة له فالحكم في نظر علي وسيلة لتحقيق كرامة الإنسان وعزته وليس للتسلط على الناس أو سلبهم حقوقهم وأموالهم. . .

وبعد أن بيّن أنه لم يكن همه كرسي الحكم ولا ما وراءه من أموال ومتاع بيّن غاية طلبه له أن يرد المعالم التي اختفت من الدين حيث عملت أيدي المبطلين ممن تقدمه على محو تلك الآثار التي يهتدي بها المهتدون فإنه أراد أن يردها حتى يهتدي بها الناس.

وكذلك من أجل أن يظهر الإصلاح في بلاد الله حيث إن الفساد قد انتشر وشاع فهو يريد من خلال الحكم أن يقضي على المفاسد ويعيد للحق ظهوره وإذا ظهر الإصلاح إرتفع الفساد وأمن المظلومون فلا يظلم مع العدل أحد ولا يؤكل مال أحد ولا يعتدى على أحد وكذلك إذا ظهر الإصلاح أقيمت الحدود التي فرضها الله وسار الناس على الشرع المبين واستقاموا على وفق إرادة الله وحكمه.

ثم أكد ذلك بذكر حقيقة يعرفها كل الناس ووقف عليها كل فرد إنها حقيقة واضحة تكشف عن صدق ما قاله وتظهر حقيقة ما ادعاه وهي أنه أول من عاد إلى الله وسمع من رسول الله وأجابه في دعوته ولم يسبقه إلى الإيمان بالله إلا رسول الله الذي صلى قبله بمقتضى نبوته ومن كان أول من آمن والدنيا كلها ضده وهو في معرض خطر لم يكن همه الدنيا ولم يرد من وراء إيمانه حطامها وما تحويه وإنما كان من أجل الحق ومن أجل الإيمان فهو لا ينحرف الآن ولا يميل من أجل الحكم ولا من أجل الدنيا وما فيها. . .

صفات يجب أن تنتفي من الحاكم.

(وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة) ذكر عليه السلام شروط الوالي الذي يحكم وتكون بيده مقاليد الأمور فاشترط:

١ ـ أن لا يكون بخيلاً لأن هذه الصفة كما يعللها الإمام تجعله يحرص على سلب أموالهم وضمها إليه وجمعها من الناس وتكديسها عنده، فهو لبخله شره إلى جمعها ويمنعها عن أهلها وهذا يستلزم نفورهم منه وبعدهم عنه مع ما في ذلك مما لا يحبه الله من قبيح الصفات.

٢ ـ أن لا يكون جاهلاً فإن من كان جاهلاً بأحكام الدين فهو ضال ومن كان ضالاً ضلل غيره وحملهم على الضلال وهذا خلاف مقصود الشارع ومن المعلوم أن الوالي قدوة فإذا كان جاهلاً فكيف يرضى الشارع بقدوة جاهل ويمكن أن يشير بهذا إلى أبي بكر فقد كان أجهل من صبي حتى سئل عن قوله: وفاكهة وأبّا فلم يعرف ذلك.

٣ ـ أن لا يكون جافياً والجافي هو الفظ الغليظ سيىء الخلق فإذا كان الوالي كذلك امتنع الناس عن لقائه وكفوا عن الدخول عليه وبذلك لا يصله منهم صوت ولا شكوى ولا أمر يُنتفع به وبذلك ضرر وفساد فإنه صاحب الأمر الذي يجب أن يفتح صدره لكل الناس ويستقبلهم ويسمع منهم فإنه الأب للجميع والرحمة العامة لكل الرعية ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى ما كان عليه عمر من الفظاظة والغلظة...

٤ ـ أن لا يكون حائفاً للدول أي لا يكون الوالي جائراً فيما يتداول من أموال المسلمين فيجب أن يقسم المال بالسوية فلا يؤثر طائفة على أخرى فتكون الأولى بطانة له والأخرى عدوة له كما وقع ذلك لعثمان حيث آثر بني أمية عشيرته على كل الناس وليس ذلك بالمال والأعطيات فحسب بل تعدى ذلك إلى الولايات والتاريخ يشهد بمدى ظلمه وظلمهم فإنه قد اتخذهم بطانة دون الناس فأوردوه مورده من الهلاك...

٥ ـ أن لا يكون الوالي مرتشياً في الحكم أي في فصل الخصومات وموارد النزاع فإنه إذا قبض مالاً مقابل الجور في الحكم والعدول فيه عن الحق فإن ذلك يخرج الحق من أيدي أصحابه ويسلبه منهم بل يُميت الحق ويبطله فلا تصل الحقوق إلى أصحابها بهذه الرشوة.

٦ ـ أن لا يكون معطلاً للسنة فيهلك الأمة لأن الوالي إذا عطل سنة رسول الله وما جاء عنه فقد ضاعت قواعد الشريعة وقوانينها لأن السنة هي الشارحة للكتاب والمتولية لبيانه وتفصيل مجمله بها تبينت خصوصيات الفرائض وتفصيلاتها وخذ لذلك مثلاً الصلاة فإن عدد ركعاتها وكيفيتها وما فيها من قراءة وذكر وركوع وسجود وتشهد وتسليم وغير ذلك كل هذا قد تكفلت به السنة فإذا تعطلت فكيف يهتدي الناس إلى الدين وكيف نعرف متى يرجم الزاني وخصوصيات ذلك...

إن من عطّل السنة أعاد الجاهلية وفي ذلك هلاك الأمة في الدنيا والآخرة...

١٣٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يعظ فيها ويزهد في الدنيا

حمد الله

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى[١] وَٱبْتَلَى[٢]. ٱلْبَاطِنُ[٣] لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَٱلْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ[٤]، العَالِمُ بِمَا تُكِنُّ[٥] الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ العُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ[٦] وَبعِيثُهُ[٧]، شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيها السِّرُّ الإِعْلاَنَ، وَٱلْقَلْبُ اللِّسَانَ.

عظة الناس

ومنها: فإِنَّهُ وَٱللهِ ٱلْجِدُّ[٨] لاَ اللَّعِبُ، وٱلْحَقُّ لاَ ٱلْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلاَّ ٱلْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ[٩]، وَأَعْجَلَ حَادِيَهِ[١٠]. فَلاَ يَغُرَّنَّكَ[١١] سَوَادُ النَّاسِ[١٢] مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الإِقْلاَلَ[١٣]. وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ[١٤] عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ ٱلْمَنَايَا[١٥] يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَى ٱلْمَنَاكِبِ[١٦] وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ[١٧]. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِين يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً[١٨]، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً[١٩]، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخرِينَ، لاَ فِي حَسَنَةٍ يَزِيْدُونَ، وَلاَ مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ[٢٠] فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ[٢١] مَهَلُهُ[٢٢]، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا[٢٣] هبَلَهَا، وَٱعْمَلُوا

لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ ٱلْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ(٢٤)، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ(٢٥) لِلزِّيَالِ(٢٦).

اللغة

١ ـ أبلى	:	من الابلاء وهو الإحسان والإنعام.
٢ ـ الابتلاء	:	الأمتحان والاختبار.
٣ ـ الباطن	:	العالم.
٤ ـ السريرة	:	جمعها سرائر السر الذي يكتم، مايسره الانسان من أمره.
٥ ـ تُكّن	:	تستر وتخفي.
٦ ـ النجيب	:	المنتجب من النجابة.
٧ ـ البعيث	:	المبعوث، المرسل.
٨ ـ الجد	:	بكسر الجيم خلاف الهزل، الاجتهاد.
٩ ـ الداعي	:	جمعه دعاة من يدعو الناس إلى شيء يرغبه.
١٠ ـ الحادي	:	الذي يسوق الإبل ويغني لها.
١١ ـ غرّه	:	خدعه.
١٢ ـ سواد الناس	:	عامتهم وجماهيرهم.
١٣ ـ الاقلال	:	الفقر.
١٤ ـ ازعجه	:	اقلقه، قلعه من مكانه، طرده.
١٥ ـ المنايا	:	جمع منية وهو الموت.
١٦ ـ المناكب	:	جمع منكب مجتمع رأس الكتف والعضد.
١٧ ـ الانامل	:	رؤوس الاصابع.
١٨ ـ المشيد	:	المبنى بالشيد وهو الجصّ.
١٩ ـ البور	:	جمع بائر الفاسد الهالك.
٢٠ ـ يستعتبون	:	من استعتب فلان أي طلب أن يعتب أي يرضى.
٢١ ـ برّز	:	فاق وتقدم.
٢٢ ـ المهل	:	شوط الفرس.
٢٣ ـ اهتبلوا	:	اغتنموا.
٢٤ ـ الافواز	:	جمع الوفز العجلة.

٢٥ ـ الظهور : المطايا.
٢٦ ـ الزيال : الفراق.

الشرح

(نحمده على ما أخذ وأعطى وعلى ما ابلى وابتلى الباطن لكل خفية والحاضر لكل سريرة العالم بما تكن الصدور وما تخون العيون ونشهد أن لا إله غيره وإن محمداً نجيبه وبعيثه شهادة يوافق فيها السر الاعلان والقلب اللسان) علّمنا أن نحمد الله على ما أخذ منا مما وصل إلينا من جناب قدسه وفيض عطائه ما أخذه من مال أو ولد أو غير ذلك كما أن له الحمد على ما أعطى وما أكثر عطاياه ابتداء من أصل الوجود وصولاً إلى كل موجود كما أن له الحمد على ما ابلى أي أعطى من جميل العطايا وعلى ما ابتلانا واختبرنا به من أنواع البلايا والامتحانات . . .

ثم وصف الله بهذه الأوصاف التي هي من مختصاته:

ـ إنه يعلم بكل ما خفي في الوجود لا يعزب عن علمه مثقال ذرة . . .

ـ إنه الشاهد الرائي لكل سر مهما كان في طيات النفس وفي عمق الضمير **﴿إنه يعلم السر وأخفى﴾** . . .

ـ إنه العالم والخبير والمطلع على ما تخفي الصدور مما يدور فيها وتتحدث فيه النفس كما إنه يعلم ما تسترقه العيون مما لا يجوز كما قال تعالى: **﴿والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾** .

ثم أقرّ لله بالوحدانية ونفي الشريك تأكيداً للإثبات ثم بعد الإقرار برسول الله تعليماً لنا ذكر كيف يكون ذكره في مطلع كل كلام ووصفه بالنجابة وهي الاختيار وكونه أفضل مخلوقات الله وأكرمهم وذكر أنه مبعوث من الله إلى عباده يحمل رسالته ويؤدي ما أؤتمن عليه من كلامه وذكر أن الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالنجابة والبعثة إنها شهادة يتطابق فيها الجهر بالسر والقلب اللسان لتكون صادقة من جهة وعليها الأجر من جهة أخرى . . .

(فإنه والله الجد لا اللعب والحق لا الكذب وما هو إلا الموت أسمع داعيه وأعجل حاديه) ما أقوله لكم والله إنه الجد واليقين لا اللعب والتخمين وإنه الحق الصراح ليس فيه للكذب مجال أبداً ما هو إلا الموت فإن داعيه اسمع كل الأحياء ورسله وصلت إلى كل

فرد وقد اعجل حاديه فإنه لم يترك الناس أو يمهلهم ليدبروا شوؤنهم بل أخذهم بسرعة وساقهم إلى نهايتهم بقوة. . .

(فلا يغرنك سواد الناس من نفسك وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال وحذر الاقلال وأمن العواقب ـ طول أمل واستبعاد أجل ـ كيف نزل به الموت فازعجه عن وطنه وأخذه من مأمنه محمولاً على أعواد المنايا يتعاطى به الرجال الرجال حملاً على المناكب وامساكاً بالانامل) بعد أن ذكر عليه السلام الموت وإنه الحقيقة الواقعة التي لا بد منها حذّر من الغفلة عنه بما يراه من الناس حوله وهذه حالة نفسية يدخل الإمام إلى عمقها ليحاكيها ويدرسها ويقول لمن توسوس له نفسه بأنه لا يزال على قيد الحياة وإن الناس من حوله كثيرون أن لا يهتم بالموت وما بعده يقول له الإمام لا يغرنك كثرة الناس حولك فأنهم مثلك وسيلاقون ما تلاقيه ويمر عليهم ما يمر عليك وسينالهم ما ينالك ولن يدفعوا عنك شيئاً ولن يؤخروا عنك ما ينزل بك. . .

وقد لفت النظر إلى أننا قد رأينا من كان قبلنا ممن جمع المال كقارون وخاف الفقر أن يدخل بيته فبخل بمال الله على عباد الله وأخذه من غير حله ووضعه في غير محله وأمن العواقب لم يحسب لما بعد الموت حساب ولم يعطه أي اهتمام عاش الأمل في حياة طويلة ناعمة ولم يفكر في الموت بل غيّبه وأبعد شبحه عن ناظريه.

هذا الإنسان انظر إليه كيف نزل به الموت وسقط عليه القضاء الإلهي فلم يقدر على دفعه أو الهروب منه فأخرجه عن وطنه وبلده الذي كان يعيش فيه آمناً مطمئناً لا يعكر صفوه شيء وكيف أخرج؟! إنه لم يخرج معززاً مكرماً كما كان يخرج أيام حياته واثق الخطا مطمئن الجنان. . إنه لم يخرج إلا محمولاً على نعش جثةً هامدةً تتناقلها أيدي الناس ويتدافعونها من يد إلى أخرى ومن كتف إلى اختها. . إنها عبرة لهذا الإنسان أن ينظر إلى نهايته ويعتبر بمصيره. . . مهما عاش وجمع واقتنى واستفاد فإنه مصيره على أحسن تقدير أن تحمله أيدي احبته واكتافهم إلى المقر النهائي حيث القبر المفتوح الذي يُنزلونه فيه وحيداً غريباً. . .

(أما رأيتم الذين يأملون بعيداً ويبنون مشيداً ويجمعون كثيراً كيف اصبحت بيوتهم قبوراً وما جمعوا بوراً وصارت أموالهم للوارثين وازواجهم لقوم آخرين لا في حسنة يزيدون ولا من سيئة يستعتبون) وهذه عبرة لمن اعتبر انظروا إلى من كان يدفعهم الأمل بعيداً. كانوا ينظرون إلى الحياة فيرونها شوطهم الوحيد وحقل عملهم الفريد فاخذوا يبنون بناء من يخلد في الدنيا حيث يشيدون القصور والدور كما هو المشاهد من تلك

الآثار اليوم وكذلك يجمعون المال بكثرة وما بعض الكنوز من النقود والجواهر التي تظهر في بعض الأحيان إلا دليل ذلك. . .

هؤلاء الذين كانوا يحبون الدنيا فيبنون فيها مشيداً ويجمعون كثيراً انظروا إليهم كيف اصبحت بيوتهم قبوراً وما جمعوا فاسداً يحكي عبث السنين به وبأهله وانظروا إلى اموالهم كيف تحولت عنهم إلى ورثتهم. . وانظروا إلى ازواجهم كيف تزوجت بغيرهم. . .

إنهم توقفوا عن كل حركة فلا يقدرون على زيادة حسنة فوق حسناتهم ولا يدفعون سيئة من سيئاتهم إذا طلبوا العفو منها أو رفعها عنهم. . .

(فمن أشعر التقوى قلبه برز مهله وفاز عمله) هذه النتيجة التي يريد أن يقولها وبيت القصيد الذي يطلبه. . هذه زبدة المخض فمن عاش الطاعة لله وعاش قلبه مع ربه التزاماً وسلوكاً ورهبة ورغبه سبق اقرانه وتقدم عليهم في شوطه ونجح في عمله ونال منتهى امله. . .

(فاهتبلوا هبلها واعملوا للجنة عملها فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام بل خلقت لكم مجازاً لتزودوا منها الاعمال إلى دار القرار فكونوا منها على أوفاز وقربوا الظهور للزيال) أمرهم باغتنام الفرصة اللازمة التي يستحقها من يطلب الآخرة وأن يعملوا للجنة عملها اللائق بها من الأعمال الصالحة والخيرات وما هو مطلوب لها مما هو مرسوم في قوانين الشريعة والدين وبيّن أن الدنيا لم تخلق للناس دار استقرار ودوام بل هي خلقت طريقاً يعبرون منها إلى الآخرة ويتزودون فيها من الأعمال الصالحة إلى الدار الباقية وهي الدار الآخرة. . .

وفي نهاية كلامه أمرهم أن يعجلوا في قطع عقباتها وتذليل مشاكلها وسرعة الارتحال منها لأن التأني فيها يوجوب الالتفات إليها والانشغال فيها وبهذا تضيع الغاية القصوى وهي بلوغ الجنة.

ثم أمرهم أن يقربوا المطايا للركوب والخروج منها وهي عبارة عن الأعمال الصالحة التي تحمل الإنسان إلى الجنة. . .

١٣٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يعظم الله سبحانه ويذكر القرآن والنبي ويعظ الناس

عظمة الله تعالى

وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا[١]، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا[٢]، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالغُدُوِّ[٣] وَالآصَالِ[٤] الأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ[٥] لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ المُضِيئَةَ، وَآتَتْ أُكُلَهَا[٦] بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ اليَانِعَةُ.

القرآن

منها: وَكِتَابُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاَ يَعْيَا[٧] لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ.

رسول الله

منها: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ[٨] مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الوَحْيَ، فَجَاهَدَ فِي اللهِ المُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالعَادِلِينَ[٩] بِهِ.

الدنيا

منها: وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى، لاَ يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ[١٠]، وَالأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَالبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ.

عظة الناس

منها: وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلاَّ الحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ فِي المَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذلِكَ بِمَنْزِلَةِ الحِكْمَةِ(١١) الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ المَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ العَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلأُذُنِ الصَّمَّاءِ(١٢)، وَرِيٌّ(١٣) لِلظَّمْآنِ(١٤)، وَفِيهَا الغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلاَمَةُ. كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ. قَدِ اصْطَلَحْتُمْ عَلَى الغِلِّ(١٥) فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ المَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ(١٦). وَتَصَافَيْتُمْ(١٧) عَلَى حُبِّ الآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ(١٨) فِي كَسْبِ الأَمْوَالِ. لَقَدِ اسْتَهَامَ(١٩) بِكُمُ الخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ الغُرُورُ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ.

اللغة

١ ـ الأزّمة : جمع زمام المقود.
٢ ـ المقاليد : جمع المقلاد وهو المفتاح وقيل الخزائن.
٣ ـ الغدو : البكور أو ما بين طلوع الفجر والشمس.
٤ ـ الآصال : مفرده الأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب.
٥ ـ قدحت : الزند حاولت إخراج النار منه.
٦ ـ أكلها : بالضم وبضمتين المأكول.
٧ ـ العي : الحصر في الكلام والعجز عنه.
٨ ـ الفترة : ما بين الرسولين من انقطاع الوحي كما هي الفترة بين عيسى ومحمد.
٩ ـ عدل به : أشرك.
١٠ ـ شاخص : راحل.
١١ ـ الحكمة : الكلام الموافق للحق، صواب الأمر وسداده، وضع الشيء موضعه.
١٢ ـ الصماء : مؤنث والمذكر أصم والصمم فقدان حاسة السمع.
١٣ ـ الري : الشرب حتى الشبع.

١٤ ـ الظمآن	:	العطشان.
١٥ ـ الغل	:	الحقد.
١٦ ـ الدمن	:	البعر المجتمع كالمزبلة.
١٧ ـ تصافيتم	:	من تصافى القوم إذا أخلص الود بعضهم لبعض.
١٨ ـ تعاديتم	:	عادى بعضكم بعضاً أي خاصمه.
١٩ ـ استهام	:	أصله من هام على وجهه إذا خرج لا يدري أين يذهب.

الشرح

(وانقادت له الدنيا والآخرة بأزمتها وقذفت إليه السماوات والأرضون مقاليدها) تتضمن هذه الخطبة فقرات متعددة في مجالات وحقول مختلفة ملتقطة من عدة خطب وأول فقرة يذكر فيها الله سبحانه وعظمته وعموم قدرته وأن الدنيا بما فيها وكذلك الآخرة تحت سلطان الله وأمره لا تخرج واحدة منهما عن إرادته بل أتت إليه طوعاً واستجابت لأمره حكماً وكذلك السماوات والأرضون هو مالك أمرها وحافظها وبيده مفاتيح خزائنها قال تعالى: **﴿له مقاليد السموات والأرض. . .﴾**.

(وسجدت له بالغدو والآصال الأشجار الناضرة وقدحت له من قضبانها النيران المضيئة وآتت أكلها بكلماته الثمار اليانعة) وسجود الأشجار الناضرة لله في الصباح والمساء إنما هو عبارة عن حاجتها إليه وفقرها وإمكانها وكونها تسير وفق مشيئته وإرادته لا تتخلف عما رسم لها وأريد منها.

ومن عظمة الله سبحانه وقدرته أنه أخرج من أغصان الأشجار الخضراء نيراناً مضيئة كما قال تعالى: **﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾**.

ومن عظمة الله أيضاً أن الثمار الناضجة صح أكلها ونضجت وساغت بمشيئة الله وقدرته، فهو الذي أراد لها أن تستساغ وتستطاب فكانت كما أراد.

(وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه وبيت لا تهدم أركانه وعز لا تهزم أعوانه) هذا توبيخ لأصحابه من حيث تركهم للعمل بكتاب الله وترغيب لهم بذكر بعض خصائص هذا الكتاب فهو بينهم ناطق لا يعجز ولا يكل تحفظه القلوب وتردده الأفواه.

ووصفه بأنه بيت لا تهدم أركانه من حيث إن جميع الشبهات حوله لا تؤثر فيه لأنه من الله فهو قوي ثابت لا يتزعزع أو يتحرك أو يتعرض للشك، إنه يحفظ العاملين به

والحافظين له وقواعده الأساسية لا تهدم ولا تلغى. . .

وكذلك هو عز لا تهزم أعوانه فهو سبب للعز الذي من عمل به لا يذل لأن أعوانه ومناصريه هم الله والملائكة والأولياء وهؤلاء لا يهزمون أو يخسرون.

(أرسله على حين فترة من الرسل وتنازع من الألسن فقفى به الرسل وختم به الوحي فجاهد في الله المدبرين عنه والعادلين به) هذا ثناء على النبي ومدح له فقد أرسله الله بعد مضي مدة من الزمن تجاوزت الستمائة سنة فترة ما بين عيسى وبين بعثة رسول الله وهذه المدة تحتاج بعدها إلى رسول يحمل من الله الأمانة ويبلغها للناس.

وقد ذكر بعض سيئات ذلك الزمان من حيث اختلاف الآراء وتعدد المذاهب فالعرب في عبادته أصناف شتى والفرس لهم مذهب يخالفهم والروم كذلك وهكذا الكون كله مختلف الآراء والمعتقدات.

ثم قفى به الرسل أي أتبعه بهم وختم به الوحي فلا يوحي الله بعده لأحد من البشر.

وهذا النبي العظيم حارب البعيدين عن الله ومن أجله كما حارب من جعل له عدل أو شبيه أو ند أو نظير فهو حارب الملحدين كما حارب الضالين. . .

(وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزود والأعمى لها متزود) في هذا الفصل ذم للدنيا ولمن تعلق بها وقصر نظره عليها. . . يذكر عليه السلام هذه المقابلة بين الأعمى والبصير. . . ويقصد بالأعمى هو أعمى القلب والفكر وأما البصير فهو عكس ذلك وقد ذكر المفارقة بين الشخصين، وإنها لمفارقة كبيرة كل منهما ينظر بمنظاره الخاص الذي يحكمه ويحكم تصرفه.

فالدنيا بالنسبة لأعمى القلب هي كل شيء عنده. . . إليها ينتهي نظره وعندها يتوقف مسيره وهي غاية ما يطمح إليه. . . نظر إلى الدنيا على أنها شوطه الوحيد فراح يسعى لها بكل ما أوتي من قوة وما أعطى من عزم لم يبصر ما وراءها من آخرة حتى يسعى لها ويحسب لها حسابها بل شغلته الدنيا عن كل أمر آخر.

وأما البصير الذي انكشف الغشاء عن عينيه فرأى الدنيا على حقيقتها ووقف من خلالها على أن هناك داراً آخرة هي دار القرار وإليها يجب السعي فهذا هو البصير حقيقة وهو الذي يعمل ما يعمل من أجلها إنه بجسده فيها مؤقتاً ولكنه راحل عنها بقلبه وفكره وتوجهه، لم يعمل للدنيا إلا بمقدار ما يوصله إلى الآخرة.

وهذا عكس الأعمى الذي لا يرى الآخرة أبداً بل يرى الدنيا فحسب فهذا يسعى للدنيا ويقتصر عليها ولا يتعدى نظره عنها بل على الدوام ناظر إليها مشتغل بها.

وكذلك البصير يتزود منها للآخرة بينما الأعمى يتزود لها وفرق كبير بين من يتزود للآخرة بالأعمال الصالحة والخيرات وما ينفع الناس وبين ذاك الذي يتزود للدنيا فإنه يقطع أرحامه ويفسد المجتمع ويسعى في إضلال الناس وهكذا لأن زاد الدنيا للدنيا يخالف زاد الآخرة. . .

(واعلموا أنه ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله إلا الحياة فإنه لا يجد في الموت راحة وإنما ذلك بمنزلة الحكمة التي هي حياة للقلب الميت وبصر للعين العمياء وسمع للأذن الصماء وري للظمآن وفيها الغنى كله والسلامة) كل شيء يتكرر في حياة الإنسان يُمل حتى الطعام اللذيذ على لذته إذا استمر على تناوله الإنسان ملّه وكرهته نفسه إلا الحياة فإن الإنسان مهما طال عمره يتمنى أن يبقى حياً وتستمر به الحياة، فالشيخ العجوز الذي أحنت السنون ظهره وأتلفت قواه وأتت على شهوته. . . هذا الهّم الفاني لا يمل الحياة ولا يسأم منها بل يطلب الاستزادة منها والبقاء فيها. وذلك لأنه لا يجد في الموت راحة ولا يجد فيما بعده حياة أحسن من حياته التي هو فيها وهذا مسوق للغالب من الناس الذين لم يقفوا على ما أعده الله للصالحين وإلا فإن أرباب المعرفة كالنبي والأئمة كانوا يرون الراحة كل الراحة فيما بعد الموت. . .

ثم قال: «وإنما ذلك بمنزلة الحكمة» وقد اختلف فيما أشار إليه بكلمة ذلك فقال بعضهم: أشار إلى كلام كان قد تقدم عن رسول الله وأنه بمنزلة الحكمة وقال بعض: إنه أشار به إلى أن ما لا يجب أن يمل منه مثل الحكمة. . .

وذهب ثالث إلى أن المراد «بذلك» الدنيا المفهوم من سياق الكلام وذكر في سياق تعليله أن في حب الحياة مصلحة وحكمة وهي البعث على الجد والاجتهاد.

ثم وصف الحكمة التي هي عبارة عن العلم بحكمة الصانع وعلمه وما في الدار الآخرة بخصوصيات وآثار.

إن الحكمة حياة للقلب الميت فالقلب الجاهل إذا نزلت عليه الحكمة فاهتدى من خلالها فإن ذلك حياة له. . .

كذلك هي بصر للعين العمياء لأن الحكمة للجاهل تحصل له بها البصيرة فيدرك بها الأمور ويقف على حقائق الأشياء وذلك بمثابة البصر للأعمى. . .

وكذلك الحكمة سمع للأذن الصماء فإن من أوتي الحكمة أدرك ببصيرته ما هو خير له في مستقبل الأيام وهذا بمنزلة من ارتفع عنه مانع السمع فسمع ووعى ما سمع.

وكذلك الحكمة «ري للظمآن» لأن الجاهل يعيش فقد العلم والمعرفة وبذلك أذية له فإذا جاءت الحكمة ارتفع الجهل وارتوى منها بالمعرفة.

وكذلك «فيها الغنى كله والسلامة» وكما قال تعالى: **﴿ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾** والخير الكثير كل شيء لا يعكر صفو الدنيا والآخرة...

(كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعونَ به وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله) ذكر القرآن وبعض أوصافه حثاً لهم وترغيباً للعمل به وصفه بعدة أوصاف:

الأول: كتاب الله تبصرون به أي تهتدون به إلى الحق في الدنيا والآخرة قال تعالى: **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**.

الثاني: تنطقون به أي تحتجون به حججاً دامغة مفحمة لا يستطيع أن يقوم لها خصم معاند أو مبطل جاحد...

الثالث: وتسمعون به أي به تسمعون كلام الله وخطاباته لكم ولجميع الناس.

الرابع: «وينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» يفسر بعضه بعضاً ويشرح بعضه بعضاً لأن فيه المجمل والمبيّن والعام والخاص والناسخ والمنسوخ وهذا أمر كلي لا يجوز التبعيض فيه **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً...﴾** ولكن لا اختلاف ولا خلاف.

الخامس: «لا يختلف في الله» أي ما دل على الله وأرشد إليه فكله نسيج واحد متكامل ما دل على صفة لا ينفيها غيرها من الدلالات وهكذا.

السادس: «لا يخالف بصاحبه عن الله» أي لا يأخذ بيد من اعتمد عليه إلا إلى الله فله وجهة واحدة هي الله يأخذ بيد من توجه نحوه إليه.

(قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم ونبت المرعى على دمنكم وتصافيتم على حب الآمال وتعاديتم في كسب الأموال، لقد استهام بكم الخبيث وتاه بكم الغرور والله المستعان على نفسي وأنفسكم) هذا ذم لأصحابه ولما تنطوي عليه قلوبهم من أنهم لم ينكروا على بعضهم ما فيهم من الرذائل كالحقد والحسد والغش وأما قوله: «ونبت

المرعى على دمنكم» قال الشارح البحراني: يضرب مثلاً للمتصالحين في الظاهر مع غل القلوب فيما بينهم ووجه مطابقة المثل أن ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل له كما يسرع جفاف النبات في الدمن.

ثم وصفهم بقوله: «وتصافيتم على حب الآمال وتعاديتم في كسب الأموال» الصفاء بينهم قائم على ما يأملون لأن كل ما يأمل الإنسان قد لا يظهره على الآخرين ثم إن الأمل مجرد حالة نفسية لا تؤثر على الآخرين ولا تأخذ من طريقهم شيئاً أو تسلبهم أمراً.

بينما تعادوا على كسب الأموال فهذا يعادي ذاك لمعاملة خسر معه فيها أو لأنه لم يربح بها أو لأنه يظن أنه لولاه لنجح في تجارته ولم تبر سلعته وهكذا دواليك.

(لقد استهام بكم الخبيث وتاه بكم الغرور والله المستعان على نفسي وأنفسكم) أي جعلكم الشيطان هائمين متحيرين فأخرجكم من نور الإيمان إلى ظلمات الضلال.

وكذلك قوله: وتاه بكم الغرور أن جعلكم الشيطان الذي هو الغرور جعلكم ضالين تائهين عن الحق والصواب.

ثم طلب من الله أن يعينه على نفسه وعلى أنفسهم...

١٣٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

وَقَدْ تَوَكَّلَ اللهُ لأَهْلِ هذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الحَوْزَةِ(١)، وَسَتْرِ العَوْرَةِ(٢). وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ.

إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هذَا العَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ(٣)، لاَ تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ(٤) دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً(٥)، وَاحْفِزْ(٦) مَعَهُ أَهْلَ البَلاَءِ(٧) وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللهُ(٨) فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، كُنْتَ رِدْأً(٩) لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً(١٠) لِلْمُسْلِمِينَ.

اللغة

١ ـ **الحوزة** : الناحية وحوزة الإسلام حدوده ونواحيه.
٢ ـ **العورة** : ما يستحى من إبدائها وكشفها، الخلل في ثغر البلاد وغيره يخاف فيه.
٣ ـ **تنكب** : من النكبة وهي المصيبة.
٤ ـ **كانفة** : عاصمة ومانعة من كنفه إذا حفظه وآواه.
٥ ـ **المحرب** : بكسر الأول وسكون الثاني وفتح الثالث صاحب الحرب.
٦ ـ **أحفز** : أمر من الحفز وهو الدفع والسوق الشديد.
٧ ـ **البلاء** : الإجادة في العمل وإحسانه وأهل البلاء أهل المهارة في الحرب مع الصدق في القصد.
٨ ـ **أظهر الله** : فلاناً على فلان نصره عليه.
٩ ـ **الردء** : العون والملجأ.
١٠ ـ **المثابة** : المرجع والمآب.

الشرح

(وقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون حي لا يموت) أراد عمر بن الخطاب أن يمشي بنفسه لغزو الروم فاستشار الإمام علي عليه السلام فأشار عليه بهذه الكمات التي تنضح بالنصح لأن فيها قوة الإسلام وعزته وقد كان عليه السلام ينظر إلى من يتولى الأمر من خلال الإسلام وكان كل شغله أن يبقى الإسلام عزيزاً كريماً محفوظ الجانب ولذا كان ينصح من تقدمه ويهديه إلى مواقع إعزاز الدين ولم يبخل بنصيحة ترفع من شأن الإسلام أو تدفع عنه السوء. . .

وهذه الكلمات منه في هذا المقام إحدى عينات النصح وأظهر أفراد الحيطة للإسلام والدفاع عنه وقد قدم لذلك مقدمة رد المخاطب إلى الله وذكره بالأيام الأولى على عهد النبي صلى الله عليه وآله وأن الله هو الذي تولى لأهل هذا الدين إعزاز دينه بحفظ مواقع المسلمين وديارهم وستر عليهم بعض الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها العدو والتي يمكن أن تؤدي إلى خلل أو اضطراب في صفوفهم وأن الله الذي نصرهم وهم قلة لا يقدرون على النصر بحسب موازين أهل الأرض ومنع عنهم أذى المشركين وهم غير قادرين على أن يمتنعوا منهم إنه حي قادر على أن يكتب النصر لنا ويمنع الأعداء عنا الآن. . .

(إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً محرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة فإن أظهر الله فذاك ما تحب وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين) إنك يا عمر إن سرت إلى العدو بنفسك ودارت المعركة بيننا وبينهم فأصبت وقتلت لم يبق للمسلمين بعدك عاصم أو ضابط يضبطهم ويهدأ أعصابهم بل إنهم سينهزمون إلى أقصى حدود بلاد الإسلام إذ ليس بعدك خليفة قائم فعلاً ولا منصوب الآن فإن شئت النصيحة فابعث رجلاً صاحب حرب قد تمرس عليها وخاض غمارها صادقاً في نيته مشهود له في وقائعه وادفع معه أقرانه من أهل الحرب والأبطال المنظور إليهم شجاعة وقوة وسداد رأي فإن نصر الله المسلمين وظهروا على عدوهم فكانت إرادة الله وما يحبه المسلمون وإن كانت الهزيمة والإنكسار كنت لهم عوناً ومرجعاً يعودون إليه في تدبير أمورهم ونظم صفوفهم ويبقى هناك من يجتمعون حوله لإعادة الكرة على عدوهم ولا تسقط هيبة المسلمين من أعين الكفار. . .

١٣٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال علي عليه السلام للمغيرة:

يَا بْنَ اللَّعِينِ(١) الأَبْتَرِ(٢)، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لاَ أَصْلَ لَهَا وَلاَ فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟ فَوَاللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلاَ قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ(٣)، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ(٤)، فَلاَ أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ(٥)!.

اللغة

١ ـ اللعين : الملعون وهو المطرود.

٢ ـ الأبتر : من لا عقب له، المقطوع عن الخير.

٣ ـ النوى : لغة في النأي وهو البعد، والنوى هنا المقصد الذي يقصده المسافر.

٤ ـ الجهد : بالضم الطاقة وبالفتح المشقة.

٥ ـ أبقيت : على فلان إذا راعيته ورحمته.

الشرح

(يا ابن اللعين الأبتر والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع أنت تكفيني؟ فوالله ما أعز الله من أنت ناصره ولا قام من أنت منهضه أخرج عنا أبعد الله نواك ثم أبلغ جهدك فلا أبقى الله عليك إن أبقيت) وقع هذا الكلام من الإمام عليه السلام للمغيرة بن الأخنس الثقفي وقد كان رجلاً سفيهاً بذيئاً لئيم النسب وكان أبوه من المنافقين الذين ألّفهم النبي في حياته وقد قتل الإمام في أُحُد شقيق المغيرة هذا ومن هنا كان حاقداً على الإمام وكان المغيرة من شيعة عثمان وأنصاره ولما وقع بين الإمام وبين عثمان بعض الخلاف قال المغيرة

لعثمان: أنا أكفيك علياً فذهب إلى الإمام وأخذ يهدده بسلطان عثمان فأجابه الإمام بهذه الكلمات التي بينت حقيقته وصغّرت شأنه فذكر أصله الخبيث وأن أباه ملعون على لسان رسول الله لأنه من المنافقين وكذلك أبتر أي المقطوع عن كل خير أو لأن أولاده لا خير فيهم ومن لم يكن في أولاده من الخير شيء فهو أبتر مقطوع لأنه بحكم من لا أولاد له. . .

ثم وصفه بأنه من شجرة خبيثة ليس لها أصل تثبت عليه ولا فرع تحمل عليه طيب الثمار فأبوه فاسد منافق وهو ومن وراءه خبيث نكد. . .

ثم استفهم مستحقراً له أأنت تقف في وجهي وتردّ عليَ كلامي بئس الرجل أنت ثم أقسم عليه السلام أن الله لا يعز من نصره هذا الرجل ولا ينهض من كبوة أو تقال عثرة من أراد إنهاضه والأخذ بيده لأن هذا الرجل ليس لله في عمله نصيب ولا ينصر أولياء الله حتى ينصر الله من ينصره هذه.

ثم انتهره وطرده وأمره بالخروج ودعا عليه بأن يبعد الله غربته وداره. . .

وفي الختام قال له: اعمل قدرتك وطاقتك وما في وسعك ولا رحمك الله ولا رعاك إن أبقيت عليّ حياتي ورحمتني.

١٣٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

في أمر البيعة

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ[١] إِيَّايَ فَلْتَةً[٢]، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَايْمُ اللهِ[٣] لأُنْصِفَنَّ[٤] المَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ[٥]، حَتَّى أُورِدَهُ[٦] مَنْهَلَ[٧] الحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً.

اللغة

١ ـ البيعة : التولية وعقدها.
٢ ـ الفلتة : الأمر يقع من غير تدبر ولا روية.
٣ ـ أيم الله : أقسم بالله وأحلف به.
٤ ـ لأنصفن : من الإنصاف وهو العدل.
٥ ـ الخزامة : بالكسر حلقة من شعر تجعل في أنف البعير ليشد فيها الزمام ويسهل قياده.
٦ ـ أورده : أحضره الماء للشرب، والإيراد الإحضار.
٧ ـ المنهل : المشرب.

الشرح

(لم تكن بيعتكم إياي فلتة وليس أمري وأمركم واحداً إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم) هذا الكلام منه عليه السلام رد على بعض أصحابه الذين يريدون أن

يستفيدوا من خلافته وينتفعوا من وجوده فقال لهم: لم تكن بيعتكم لي فلتة أي في ساعة صعبة وبدون تفكير منكم وإدراك لما أتولاه وما أقوم به وما هو دوري فيها وعملي... بل كنتم بكامل قواكم العقلية وإدراكاتكم فلذا يجب أن تتحملوا ما أريد ولا أريد إلا الصالح العام...

وهذا الكلام منه تعريض ببيعة أبي بكر التي تمت في ظروف غير اعتيادية اغتنمها أبو بكر لصالحه في غياب وعي المسلمين وعدم تماسكهم وعدم معرفتهم بما يخطط من بعض الناس للخلافة.

ثم أشار إلى المفارقة الصارخة بين ما يريد وما يريدون... لا جامع مشترك بينه وبينهم بل فرّقت الأهداف بينهم فهو يريدهم لله في نياتهم وفي عملهم وفي كل حركات حياتهم وأما هم فيريدونه لأنفسهم، يريدونه لمصالحهم ومآربهم الشخصية... يريدونه من أجل منافعهم وما يعود عليهم بالفائدة وشتان ما بين الإرادتين.

(أيها الناس أعينوني على أنفسكم وايم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً) خاطبهم وطلب معونتهم على أنفسهم بأن يلتزموا الحدود فيقيموا العدل والحق ويطبقوا الشريعة بحمل أنفسهم عليها...

ثم أقسم بالله يميناً صادقة أنه سيأخذ الحق من الظالم للمظلوم قهراً عنه ومهما كان الظالم متعالياً وصاحب قوة فإنه سيذلّله بالحق الذي فرضه الله عليه ويقوده إليه حتى يورده إلى الحق والعدل وإن كان كارهاً للحق ورافضاً له...

وهل تجد قائداً في التاريخ متعصباً للحق كعلي؟ وهل مرّت أمامك كلمات بعمق هذه الكلمات؟ وهل وقع نظرك على أحرف تحمل ثورة على الظالمين مثل هذه الكلمات..؟.

إنه علي نسيج وحده أحب العدل وضحى من أجله فعاش عند شهادته في قلوب أصحاب الحق والعدل...

١٣٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في شأن طلحة والزبير وفي البيعة له

طلحة والزبير

وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً[١]. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ[٢] إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي مَا لَبَسْتُ[٣] وَلاَ لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ[٤] البَاغِيَةُ[٥] فِيهَا الحَمَأُ[٦] وَالحُمَّةُ[٧]، وَالشُّبْهَةُ المُغْدِفَةُ[٨]؛ وَإِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ[٩] البَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ[١٠]، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ[١١]. وَايْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ[١٢] لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ[١٣]، لاَ يَصْدُرُونَ[١٤] عَنْهُ بِرِيٍّ[١٥]، وَلاَ يَعُبُّونَ[١٦] بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ[١٧]!.

أمر البيعة

ومنه: فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ العُوذِ[١٨] المَطَافِيلِ[١٩] عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: البَيْعَةَ البَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا[٢٠] بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا[٢١] النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ[٢٢] لَهُمَا مَا أَبْرَمَا[٢٣]، وَأَرِهِمَا المَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلاَ وَعَمِلاَ. وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا[٢٤] قَبْلَ القِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ[٢٥] بِهِمَا أَمَامَ الوِقَاعِ[٢٦]، فَغَمَطَا[٢٧] النِّعْمَةَ، وَرَدَّا العَافِيَةَ.

اللغة

١ ـ النصف : محركة الإنصاف والعدل.
٢ ـ الطلبة : بكسر اللام المطلوب.
٣ ـ التلبيس : التخليط والتدليس.
٤ ـ الفئة : الجماعة.
٥ ـ الباغية : المعتدية.
٦ ـ الحمأ : الطين الأسود المنتن والحما بألف مقصور مطلق القريب والنسيب.
٧ ـ الحمة : العقرب وكل شيء يلسع أو يلدغ.
٨ ـ أغدفت : المرأة قناعها إذا أرسلته على وجهها.
٩ ـ زاح : بعُد وذهب.
١٠ ـ النصاب : المرجع والأصل.
١١ ـ الشغب : تهيج الشر.
١٢ ـ لأفرطن : لأملأن والفرط بالتحريك السبق.
١٣ ـ الماتح : المستقي من فوق.
١٤ ـ لا يصدرون : عنه لا يرجعون.
١٥ ـ الري : الإرتواء من الماء.
١٦ ـ العب : شرب الماء من غير مص.
١٧ ـ الحسي : بفتح الحاء وتكسر سهل من الأرض يستنقع فيه الماء.
١٨ ـ العوذ : بضم العين جمع عائذة الحديثات النتاج من النوق أو من كل أنثى.
١٩ ـ المطافيل : جمع المطفل وهي ذات الطفل من الأنس والوحش.
٢٠ ـ نكث : العهد أو البيع إذا نقضه ونبذه.
٢١ ـ التأليب : الإفساد والتحريض.
٢٢ ـ أحكم : الشيء أتقنه.
٢٣ ـ أبرم : الأمر أحكمه والحبل جعله طاقين ثم فتله.
٢٤ ـ أستثبتهما : طلبت منهما أن يثوبا أي يرجعا.
٢٥ ـ استأنيت : من الأناة وهي الانتظار.
٢٦ ـ الوقاع : النزال إلى الحرب.
٢٧ ـ غمط : النعمة جحدها وحقّرها.

الشرح

(والله ما أنكروا عليّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً وأنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه فإن كنت شريكهم فيه فإن لهم نصيبهم منه وإن كانوا ولوه دوني فما الطلبة إلا قبلهم وأن أول عدلهم للحكم على أنفسهم) هذا الكلام منه رد على طلحة والزبير اللذين بايعاه ثم نكثا بيعته وحرضا الناس على الخروج عليه وقتاله وفيه توبيخ لهما ولأصحاب الجمل. . .

أقسم أنهم لم يكن خروجهم عليه وحربهم له لأنه فعل منكراً فأرادوا أن يردعوه عنه أو يردوه عن فعله لأن أفعاله لم يكن بها خلل فهو يقسم بالسوية ويعدل في الرعية ويؤدي حق الله والأمة نعم لم يكن خروجهم إلا حباً للدنيا ورغبة فيها وطلباً لحطامها كما أنهم حيث ادعوا أمراً ـ وهو قتل عثمان ـ لم يجعلوا بيني وبينهم عدلاً ينصف بيننا ويحكم لمن الحق وعلى من الحق. . .

ثم بين فساد ما يزعمون بقوله: إنهم يطلبون وهم في البصرة اليوم حقاً هم تركوه في المدينة فإن بإمكانهم أن يرفعوا أمرهم إلى ولي الأمر ويتقاضون عنده فيحكم لصاحب الحق بحقه. . .

وكذلك يطلبون دماً هم سفكوه وهذه تهمة بل إنه يحملهم دم عثمان صراحة ويلقي في أعناقهم مسؤولية قتله وهذا الأمر يصدقه التاريخ وما نقل عن طلحة والزبير في شأن عثمان. . .

نقل ابن أبي الحديد «في شرحه»[1] وكان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه ـ على عثمان ـ وكان الزبير دونه في ذلك. . .

وقال: روى الناس الذين صنفوا في واقعة الدار أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس يرمي الدار بالسهام.

ورووا أيضاً أن الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدل دينكم فقالوا: إن ابنك يحامي عنه بالباب فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدىء بابني إن عثمان لجيفة على الصراط غداً.

ثم قال عليه السلام: إن كنت شريكهم في دم عثمان ـ وهو أبرأ خلق الله من دمه ـ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٩ ص ٣٦.

فإن لهم نصيبهم منه فلا يجوز والحالة هذه أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه. . .

وأما إذا ولووه دوني فهم المطلوبون دون غيرهم فإذا أرادوا أن يكونوا حكاماً عدولاً فعليهم أن يبدأوا بأنفسهم فيحاسبوها ويقتصوا منها ثم يعدلوا بعدها إلى من اتهموه ورموه بدم عثمان. . .

(إن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس علي، وإنها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة والشبهة المغدقة وأن الأمر لواضح وقد زاح الباطل عن نصابه وانقطع لسانه عن شغبه) إني على رؤية كاملة من الأمر معي عقلي الذي يهديني إلى الحق ما دلستُ على أحد من الناس ولا موهتُ عليهم الأمور كما أنه لا أحد يستطيع أن يموه الأمور عليّ أو يشوشها ثم أشار إلى أنها الفئة الباغية المعهودة التي يترقبها منذ زمن طويل. . . إنها هي الفئة التي أخبر بها النبي. . . إنها الفئة الناكثة للبيعة التي ستقاتل علياً وفيها الحمأ والحمة والشبهة المغدفة قال الشيخ محمد عبده: المراد بالحما هنا مطلق القريب والنسيب وهو كناية عن الزبير فإنه من قرابة النبي صلى الله عليه وآله وابن عمته قالوا: وكان النبي أخبر علياً أنه ستبغي عليه فئة فيها بعض أحمائه وإحدى زوجاته والحمة بضم ففتح كناية عنها وأصلها الحية أو الإبرة اللاسعة من الهوام والله أعلم. . . انتهى. . .

وأراد بالشبهة المغدفة يعني أن شبهة الطلب بدم عثمان شبهة ساترة للحق حيث لم يعلم الناس الحقيقة فساروا مع الناكثين في غفلة عن الحقيقة. . .

ثم أشار إلى وضوح الأمر بأن هذه الجماعة التي خرجت هي الفئة الناكثة التي سبق الخبر عنها وقد انقلع الباطل من مغرسه فلا أساس لما ادعوا من الباطل كما أن حجتهم خرست وتعطلت عن إثارة الشر وتحريكه لوضوح فساد ما هم عليه وباطل ما يمشون فيه. . .

(وايم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرون عنه بري ولا يعبون بعده في حسي) أقسم بالله تهديداً لهم وتخويفاً أنه سيملأ لهم حوضاً هو نازح مائه لا يرجعون عنه بارتواء كما يرجع من يرد الماء كما أنهم لا يشربون بعده ماء بارداً أبداً وهذا كناية عن أنه سيوقدها حرباً ضروساً يعقبها قتلهم وهلاكهم ليس هي كسائر الحياض المعهودة التي إذا وردها الظمآن صدر عنها بري بل هم سيصدرون عنها مجزرين لا يشربون الماء البارد بعدها أبداً لأنهم يموتون ولا يبقون. . .

(فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة، قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها) هذه صورة تحكي تعلق الناس بالإمام ورجوعهم

إليه وإجبارهم له على البيعة، لقد أقبلوا في شوق وحب وعطف يريدون مبايعته فكان الإمام يمتنع عن الإجابة ولا يبادر إلى مطالبهم لأنه يعرف الظرف التي تمر به الأمة كما أنه يعرف الساحة التي تحوي الإتجاهات المختلفة والآراء المتنازعة فلذا كان يمتنع عن قبولها وهم يصرون وأخيراً أمام إلحاح الجماهير وشدة طلبهم وإصرارهم على بيعته استجاب من أجل صالح الإسلام والمسلمين وقبل البيعة ولكن الطبقة المنتفعة أيام حكم عثمان والأخرى التي تطمع أن يكون لها نصيب في الحكم فوجئت أن علياً لم يجعل لها أي امتيازات زائدة عن أفراد الأمة الآخرين بل أراد أن يرد ما أخذته من أموال وإقطاعيات كان عثمان قد حباها بها بدون حق فمن هنا نقمت عليه وخرجت تحت ستار الطلب بالثأر لعثمان وهي تخفي نواياها وبواعث خروجها . . .

(اللهم إنهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبا الناس عليّ فاحلل ما عقدا ولا تحكم لهما ما أبرما وأرهما المساءة فيما أملاّ وعملا ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت بهما أمام الوقاع فغمطا النعمة وردا العافية). شكاهما إلى الله بأمور:

أ ـ إنهما قطعا رحمه حيث إنهما من قريش وخصوصاً أن الزبير ابن عمته صفية.

ب ـ إنهما ظلماه حيث اتهماه بقتل عثمان.

ج ـ إنهما نكثا بيعته أي نقضاها وأبطلاها.

د ـ إنهما جمعا الناس على قتاله وأفسدا ودهم نحوه.

ثم دعا عليهما بأن تتفكك عرى الإتفاق الذي تم بينهما واجتمعا من أجله لقتاله.

وكذلك ما اتفقا عليه ونويا العزم عليه أن لا ينفذ ولا يجري وأن يريا ما يسوؤهما في آمالهما فقد كانت آمالهما أن يربحا الحرب ويتسلما زمام الأمور وقد استجاب الله له دعاءه فلم يتحقق من آمالهما أقلها.

ودعاء الإمام عليهما مستجاب فيهما في الدنيا والآخرة لظلمهما وخروجهما بدون حق وتفكيكهما عرى الوحدة التي لا تزال الأمة تعيش آثارها إلى اليوم . . .

ثم لشدة حرصه على رجوعهما فقد طلب منهما العودة عن خطئهما قبل القتال وانتظر عليهما طويلاً قبل وقوع المعركة لكنهما جحدا هذه النعمة ورفضا العودة بالسلامة ووقف الحرب بل أرادوها حرباً تقضي على الحرث والنسل وتزرع اسفيناً في جسد الأمة تجرأ من بعدهما معاوية أن ينازع الحق أهله . . .

١٣٨ - ومن كلام له عليه السلام

يومىء فيها إلى ذكر الملاحم

يَعْطِفُ[١] الهَوَى[٢] عَلَى الهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الهُدَى عَلَى الهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى القُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا القُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ.

ومنها: حَتَّى تَقُومَ الحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ[٣]، بَادِياً[٤] نَوَاجِذُهَا[٥]، مَمْلُوءَةً أَخْلاَفُهَا[٦]، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً[٧] عَاقِبَتُهَا. أَلاَ وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ أَفَالِيذَ[٨] كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا[٩]، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

منها: كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ[١٠] بِالشَّامِ، وَفَحَصَ[١١] بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ[١٢]، فَعَطَفَ[١٣] عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ[١٤]، وَفَرَشَ الأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ[١٥]، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ[١٦]، بَعِيدَ الجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ[١٧]. وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ[١٨] فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ، كَالكُحْلِ[١٩] فِي العَيْنِ، فَلاَ تَزَالُونَ كَذلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ[٢٠] إِلَى العَرَبِ عَوَازِبُ[٢١] أَحْلاَمِهَا! فَالْزَمُوا السُّنَنَ[٢٢] القَائِمَةَ، وَالآثَارَ البَيِّنَةَ، وَالعَهْدَ القَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي[٢٣] لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ[٢٤].

اللغة

١ ـ يعطف : يميل.

٢ ـ الهوى : ما ترغب فيه النفس من الباطل.

٣ ـ الساق : ما بين الركبة والقدم والساق أيضاً الشدة.

٤ ـ بادياً : من بدى إذا ظهر.

٥ ـ النواجذ : أقصى الأضراس.

٦ ـ الأخلاف : للناقة حلمات الضرع.

٧ ـ العلقم : الحنظل.

٨ ـ أفاليذ : جمع أفلاذ وهو جمع فلذ وهي القطعة من الكبد أو القطعة من الفضة والذهب.

٩ ـ المقاليد : المفاتيح.

١٠ ـ نعق : صاح.

١١ ـ فحص : بحث.

١٢ ـ كوفان : الكوفة البلدة المعروفة في العراق اتخذها الإمام علي عاصمة لحكمه.

١٣ ـ العطف : الميل والاعوجاج.

١٤ ـ الضروس : الناقة السيئة الخلق تعض حالبها.

١٥ ـ فغرت فاغرته : انفتح فمه.

١٦ ـ الوطأة : الشدة.

١٧ ـ الصولة : الوثبة والسطو على الشيء وقهره.

١٨ ـ ليشردنكم : ليفرقنكم وشرد البعير ندّ ونفر.

١٩ ـ الكحل : الأثمد حجر يسحق حتى يُدق ثم يذر في العين للشفاء أو للزينة.

٢٠ ـ تؤوب : ترجع وتعود.

٢١ ـ عوازب : أحلامها غائبات عقولها.

٢٢ ـ السُنن : من الطريق نهجه وجهته ومعظمه.

٢٣ ـ يُسنى : يسهل.

٢٤ ـ العقب : مؤخر القدم.

الشرح

(يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي) هذه الخطبة فيها ذكر الملاحم وهي الأمور التي ستجري

على الأمة وما يمر عليها من غرائب الحوادث وابتدأ بذكر الإمام المهدي المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وآله وجاءت عنه الأخبار بظهوره في آخر الزمان وقد ثبت أنه الإمام محمد بن الحسن العسكري الذي هو الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت ومن خصوصياته أنه يجعل الهوى وما ترغب فيه النفس تابعاً للهدى والحق الذي يريده الله وإن كان غيره من أئمة الضلال على عكس ذلك حيث يعطفون الهدى على الهوى أي يجعلون الهدى تابعاً لأهوائهم وشهواتهم وبعبارة أخرى أئمة الضلال يطوعون الحق وينحرفون به حتى يوافق هواهم بينما هو يطوع هواه نحو الحق ويجعل الحق متبوعاً وهو تابع . . .

وكذلك يحمل رأيه ليوافق القرآن في وقت يحمل غيره القرآن على رأيه . . .

(حتى تقوم الحرب بكم على ساق بادياً نواجذها مملوءة أخلافها حلواً رضاعها علقماً عاقبتها) وهذا إخبار عن حرب تقع بعد زمانه إنها حرب شديدة قاسية ولقساوتها كشرت عن أنيابها كما يكشّر الأسد إذا غضب وأكد شدتها بأنها جاهزة بعتادها ورجالها . . . وإنها في أولها تكون مرغوبة لأنها تشفي القلوب ولما فيها من المغانم ولكن في آخرها تكون قتلاً وهلاكاً وإتلافاً للمال وخراباً للدار . . .

(ألا وفي غد ـ وسيأتي غد بما لا تعرفون ـ يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوىء أعمالها وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها وتلقي إليه سلماً مقاليدها فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميت الكتاب والسنة) هذا إخبار عما يحمل الغد وأكده بذكر الغد أيضاً لبركته وعظمة ما يجري فيه . . . إنها إخبار بذكر بعض صفات الإمام المهدي وأعماله وما يقوم به . . . إنه سيخالف ما عليه ملوك الدنيا وما يقومون به . . . إنه من غير أولئك الملوك الذين تعهدهم البشرية ومن صفاته أنه يحاسب الأمراء والولاة وأصحاب المسؤولية عن كل عمل سيء يقومون به فليس في دولته جور ومن جار وظلم حوسب وعوقب . . .

وفي زمانه لعدله تخرج له الأرض ما فيها من خيرات فتشقق وتخرج كنوزها وما فيها . . . وكذلك يُعطى مفاتيح الأرض فكل الحكام والملوك يذعنون له ويستقبلونه لما يرون من عدله وقوته وسيفه.

وفي أيام حكمه يريكم كيف تكون الطريق العادلة في الحكم في الرعية وفي كل مجالات الحياة وأشواطها وعندها يحي تعاليم القرآن والسنة التي أجهز عليها الظالمون فعطلوها ومنعوها من أن تحكم الحياة . . . إن الإمام المهدي يحكم بالقرآن والسنة وهذا هو إحياء لهما وأما الظالمون فإنهم عطلوا الحكم بهما فأماتوهما . . .

(كأني به قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان فعطف عليها عطف الضروس وفرش الأرض بالرؤوس قد فغرت فاغرته وثقلت في الأرض وطأته بعيد الجولة عظيم الصولة) قال شراح النهج وعلى رأسهم ابن أبي الحديد: إنه عليه السلام يقصد بكلامه هذا عبد الملك بن مروان فقد ظهر بالشام ووجه جنده لقتال مصعب بن الزبير وابن الأشعث في العراق وكانت وقائع وأحداث عظيمة سجلها التاريخ وعلى كل حال هذا إخبار منه بظهور هذا الرجل الذي يخرج من الشام ويتحرك حتى يدخل نواحي الكوفة وأطرافها ويتعامل مع تلك الضواحي بالقسوة والشدة ولكثرة قتله وإجرامه يفرش الأرض ويبسطها بالرؤوس كناية عن كثرة ما يقتل من الخلق. . . إنه لحنقه وشدته وقساوته وشدة غضبه كالذئب المفترس الذي انتفخت أشداقه من شدة الغضب وأما شدته وقهره فقد ازداد واشتد. . .

ثم وصفه بأنه بعيد الجولة أي تطواف خيوله وجيوشه في البلاد لامتدادها وسعتها وأما صولته أي جرأته وإقدامه على أعدائه فهي عظيمة كبيرة. . .

(والله ليشردنكم في أطراف الأرض حتى لا يبقى منكم إلا قليل كالكحل في العين فلا تزالون كذلك حتى تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها) لما ذكر صفات ذلك الشخص الذي يخرج في الشام أقسم على وقوع ما سيلحقهم منه وينالهم من حكمه أنه سيفرقهم في أطراف الأرض ويشتت شملهم ويقضي على وجودهم حتى لا يبقى منهم إلا أثر يدل عليهم فحسب ولذا شبههم ببقايا الكحل في العين والكحل لا يبقى إلا أثره يدلّ عليه وكذلك هم لا يبقى منهم إلا قلة قليلة وسيبقون كذلك في تشريد وتغريب وتهجير حتى تعود العرب وترجع إلى عقولها فعندها تفكر في التخلص منه والإطاحة به والراحة من وجوده وهذا يدل على أن من ملك الفكر المستقيم واستعمله استطاع أن يتخلص من مشاكله مهما كانت كبيرة شرط العمل بعد العلم. . .

(فالزموا السنن القائمة والآثار البينة والعهد القريب الذي عليه باقي النبوة. واعلموا أن الشيطان إنما يسني لكم طرقه لتتبعوا عقبه) أمرهم بأن يقتفوا الطرق الواضحة والآثار الظاهرة وما هو عليه فإنه أقرب ما يكون إلى النبوة. . وآثارها فيه بادية ظاهرة بل هو امتداد لها وأعظم معالمها وأرفع آثارها.

وأخيراً حذرهم الشيطان الذي يسهل لهم المعاصي ويرغبهم فيها ليتبعوا أثره ويسيروا خلفه في التمرد والعصيان. . .

١٣٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

في وقت الشورى

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ[١]، وَعَائِدَةِ[٢] كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا[٣] مَنْطِقِي؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى[٤] فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلاَلَةِ، وَشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ.

اللغة

١ ـ الرحم : في الأصل مكان نشأة الجنين في بطن الأم والمقصود هنا القرابة.

٢ ـ العائدة : الصلة والمعروف والمنفعة.

٣ ـ وعوا : أمر مفرده عِ من وعى الحديث إذا حفظه وتدبره.

٤ ـ تُنتضى : تُسل.

الشرح

(لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم وعائدة كرم فاسمعوا قولي وعوا منطقي عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف وتخان فيه العهود حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة) هذا الكلام منه عليه السلام كان لأهل الشورى بعد أن طُعن عمر ومات ذكرّهم ببعض فضائله لعلهم إلى الحق يلتفتون وإليه ينظرون.

ذكرّهم أنه أول من يستجيب لدعوة الحق وأول سابق لها وهذا يثبت أنه على الحق من جهة وأن غيره إذا فارقه كان على الباطل.

وكذلك هو الوصول للرحم مهما كانت قاطعة له كما أنه صاحب المعروف والكرم ويدل على هذا أن آية الإطعام نزلت فيه وفي زوجته وأولاده حيث تصدق على المسكين واليتيم والأسير.

ثم بعد هذا دخل في صلب الموضوع فأمرهم بالاستماع له وفهم ما يقول لأنه باب الخير والمدخل إلى حقن الدماء وحفظ النفوس ولو أن شورى عمر اختارت علياً لما وقع المسلمون فيما وقعوا فيه ولما سقط عثمان بأيدي المسلمين ولم يكن معاوية ينازع علياً حقه وفي النهاية لم يكن ليذهب الإمام شهيد هذه الشورى المشؤومة.

دعاهم أن يفهموا ما يقول وأنهم إن لم ينتخبوه فإن السيوف ستسل في وجه عثمان وتخان العهود التي أعطيت لهذا الحاكم حتى يكون بعض أعضاء هذه الشورى أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة وقد تولى الزبير وطلحة قيادة الثورة ضد عثمان وكان كل واحد منهما يطمع فيها لنفسه وكان كلما هدأت الثورة وخفّت النقمة أثارا الناس ضد عثمان وذكّرا المسلمين بقبائح أعماله وتصرفاته وقد سجل التاريخ دورهما في الإجهاز عليه وقتله...

١٤٠ - ومن كلام له عليه السلام

في النهي عن غيبة الناس

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ العِصْمَةِ[١] وَالمَصْنُوعِ[٢] إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ[٣] بِبَلْوَاهُ[٤]! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَايْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!.

يَا عَبْدَ اللهِ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ[٥] مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ[٦] مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ.

اللغة

١ - العصمة	:	المنع، ملكة اجتناب المعاصي أو الخطأ.
٢ - المصنوع إليهم	:	من الصنيعة وهي الإحسان.
٣ - عيّره	:	بكذا ذكر عيوبه استهانة به.
٤ - البلوى	:	المصيبة.

٥ ـ فليكفف : من كف إذا امتنع.
٦ ـ عافاه الله : وهب له العافية من العلل والأسقام.

الشرح

(وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم) هذا الكلام منه عليه السلام في النهي عن غيبة الناس كما قال الشريف وابتدأ بهذه الإلتفاتة الكريمة والدقيقة إلى أهل التقى والإحسان الذين توفقوا للطاعة وساروا في طريق الإستقامة إلى أنه ينبغي عليهم وهم في هذا التوفيق الإلهي أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ورحمتهم تتجلى في وعظهم وإرشادهم بالحسنى والأخذ بأيديهم لما فيه صلاحهم ويكون شكرهم لله على هذا التوفيق الذي هم فيه دائماً ومستمراً وفي غالب أوقاتهم فلا تشغلهم الدنيا وزينتها وما فيها عن هذا الشكر كما أن هذا الشكر لله يكون هو الحاجز لهم عن أولئك العصاة الذين ارتكبوا المعصية وتعدوا حدود الله بأن ينظروا إلى أنفسهم وإلى أولئك العصاة فيدفعهم ذلك إلى شكر الله فلا يخوضون في أكل لحم العصاة وغيبتهم . . .

(فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه مما هو أعظم منه وايم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأته على عيب الناس أكبر) بعد أن ذكر حال أهل السلامة والتقى وكيف يجب أن يتعاملوا مع أهل الذنوب والمعصية ولا يغتابوا أحداً منهم قال: إذا كان هذا هو حال أهل التقى فكيف ـ وهذا استفهام تعجب وإنكار ـ حال أهل المعصية وماذا يجب أن يعملوا نحو أهل المعصية أمثالهم أما يذكر هذا موضع ستر الله عليه فإن الله لم يفضحه ولم يكشف عيوبه للناس وهذه كريمة تستحق الشكر ومن حق هذا المبتلى أن لا يعيب أخاه ويعيّره بذنب ارتكبه.

ثم قسّم المذنبين إلى ثلاث أصناف:

١ ـ صنف ارتكب نفس هذا الذنب الذي ارتكبه هذا المذنب وهذا لا يجوز له في منطق العقل أن يذم من ارتكب هذا الذنب لأنه وإياه شركاء في نفس الجريمة فليذم نفسه أولاً قبل أن يذم غيره . . .

٢ ـ الصنف الثاني أنه لم يرتكب نفس الذنب الذي ارتكبه المذنب ولكنه ارتكب

غيره مما هو أعظم منه وهذا أولى بذم نفسه والكف عن غيره لأن جرمه أكبر وأعظم.

٣ ـ الصنف الثالث أنه ارتكب ذنباً أصغر مما ارتكبه غيره ولكن تجرأ عليه بالغيبة وهذا وإن كان ذنبه أصغر ولكن غيبته هذه فيها جرأة عظيمة على المعصية وهذه الجرأة على عيب الناس أكبر من كل كبيرة من حيث إقدامه على أمر يعلم ضرره الإجتماعي ويعلم أنه معصية يجب الاجتناب عنها . . .

(يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعله مغفور له ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلك معذب عليه، فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره) نبّه ونهى أن يسرع الرجل في عيب أحد لذنب ارتكبه وبيّن هذا الاحتمال الذي يجري ويمكن أن يجري إذ لعل هذا الذنب من هذا الرجل مغفور له لأمر من الأمور التي لا نعلمها كأن يكون قد تاب وأناب أو تداركه بأمر يغفره ولكن فلينظر هذا الرجل إلى ما ارتكب من معصية ولو كانت صغيرة فلعلها لا تغفر ولا تأمن نفسك من عقابها وهذا أمر محتمل يجري في كل واحد منا فلعل ذنوبنا نعاقب عليها وإن كانت صغيرة وذنوب غيرنا مغفورة وإن كانت كبيرة وهذه طريقة تربوية رائعة ترد هذه النفس الجامحة إلى موقعها وتبلغ بها موطنها وتحسسها بعظيم معصيتها فتكف عن ذنوب الغير وتشتغل بذنوبها . . .

ثم أمرهم أن يكف كل واحد عن عيوب الناس لما يعلم من عيوب نفسه فيشتغل بعيوبه ويتوب منها ويصلحها ويترك غيره وشأنه دون أن يعيره بها أو يذمه عليها.

وليجعل الشكر شغلاً شاغلاً له على هذه النعمة التي عصمته عن المعصية التي ارتكبها غيره، فعافيته عن المعصية التي ارتكبها غيره تحتاج إلى شكر فليشغل نفسه بهذا الشكر . . .

١٤١ ـ ومن كلام له عليه السلام

في النهي عن سماع الغيبة وفي الفرق بين الحق والباطل

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ[١] دِينٍ وَسَدَادَ[٢] طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ[٣] الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِىءُ السِّهَامُ، وَيُحِيلُ[٤] الكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ[٥]، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فسئل، عليه السلام، عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال:

البَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ!.

اللغة

١ ـ **الوثيقة** : جمعها وثائق ما يعتمد به، الأحكام في الأمر.

٢ ـ **السداد** : بالفتح الصواب من القول والفعل.

٣ ـ **الأقاويل** : جمع أقوال وهو جمع قول الكلام.

٤ ـ **يحيل** : يستحيل.

٥ ـ **يبور** : يهلك ويفسد.

الشرح

(أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال أما أنه قد يرمي الرامي وتخطىء السهام ويحيل الكلام و باطل ذلك يبور والله سميع شهيد أما أنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع) فسئل عليه السلام عن معنى

قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه وقال:

الباطل أن تقول سمعت والحق أن تقول رأيت) هذا الكلام منه عليه السلام نهي عن التسرع والعجلة في قبول ما يحكى عن الأخ صاحب العقيدة الصحيحة في الدين والاستقامة في السلوك فلا ينقض هذا اليقين بما نقلته إليه ألسنة بعض الناس إذ ربما أشاع الإعلام المغرض أمراً على هذا الأخ بقصد تشويه سمعته والحط من مكانته وهذا في زماننا ما أكثره فأنت تعرف شخصاً تعيش معه... تعرفه عن قرب بالتدين والإلتزام كما تعرفه بالاستقامة والسلوك الجيد فيأتي المغرضون وأصحاب الأهواء ومن في قلوبهم مرض يريدون تشويه سمعته فينقلون عنه أخباراً لا أصل لها ولا أساس فيروح السامع لها يفكر فيها وفي مقدار صحتها وقد تؤثر في نفسه وإذا تكررت قد توجب التصديق الذي أساسه الكذب والنفاق من هذا الناقل ولذا ينهى الإمام أن يستمع الرجل إلى أقاويل الرجال إذا عرف من أخيه عقيدة صحيحة والتزاماً شرعياً مستقيماً...

ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: قد يرمي الرامي فلا يصيب الغرض وتخطىء السهام ويحيل الكلام فإن المتكلم قد يرمي هذا الأخ بعيب وهو ليس فيه فيكون كلامه غير مطابق للواقع ولا مصيب كالسهم الذي يرمى فلا يصيب الغرض ويكون الكلام باطلاً ولا حقيقة له.

ثم أردف هذا بالتهديد لما ينال من يشوّه سمعة الناس وأن هذا الباطل من الكلام يفسد ويبطل أمام الله والله يسمع ويرى ويحاسب على الأمور فيثيب على الحسنة ويعاقب على السيئة...

ثم بين الميزان الذي يفرق بين الحق والباطل فقال: أما إنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع ولما لم يعرف السامع ما المراد بالأربع أصابع استفهم منه فما كان منه عليه السلام إلا أن جمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال: الباطل أن تقول: سمعت والحق أن تقول رأيت وذلك لأن الرؤية مشاهدة فعلية يقل فيها الخطأ بينما السماع قد يكون عن الكاذب والمغرض ومن في قلبه مرض ومن يحب تشويش الحقيقة أو كما يقال وما آفة الأخبار إلا رواتها وهكذا دواليك...

١٤٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

المعروف في غير أهله

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ[١] فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ ٱلْحَظِّ[٢] فِيمَا أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ[٣] اللِّئَامِ[٤]، وَثَنَاءُ الأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ ٱلْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ!.

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ وَالْعَانِيَ[٥]، وَلْيُعْطِ مِنْهُ ٱلْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ[٦]، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ[٧] عَلَى ٱلْحُقُوقِ والنَّوَائِبِ[٨]، ٱبْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ ٱلْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ[٩] فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

اللغة

١ ـ المعروف : الرزق، الخير، الإحسان.

٢ ـ الحظ : النصيب.

٣ ـ المحمدة : نقيض المذمة.

٤ ـ اللئام : جمع لئيم خلاف الكريم الدنيء الأصل، المهان ـ الشحيح النفس.

٥ ـ العاني : هو الأسير.

٦ ـ الغارم : من عليه الديون.

٧ ـ صبر نفسه : حبسها.

٨ ـ النوائب : جمع النائبة النازلة التي تنوب على الإنسان وتنزل عليه.

٩ ـ الدرك : الإصابة.

الشرح

(وليس لواضع المعروف في غير حقه وعند غير أهله من الحظ فيما أتى إلا محمدة اللئام وثناء الاشرار ومقالة الجهال ما دام منعماً عليهم: ما أجود يده وهو عن ذات الله بخيل) هذا الكلام منه وارد في معرض ذم الواضع للمعروف في غير أهله كما أن فيه تعليم لبعض المواضع التي يجب أن يكون فيها. . .

ذكر أولاً أنه ليس لواضع المعروف ـ وهو المال ـ وإن كان بحسب المفهوم أعم ـ في غير أهله ولغير مستحقه ليس له من النصيب والحظ إلا ما يحمده عليه شرار الناس وسفلتهم واراذلهم ليس له عندهم ما دام منعماً عليهم إلا قولهم له ما أجود يده وإن كان في طاعة الله والتقرب إليه بخيل حيث لا يصرف شيئاً على عباد الله وخلقه. . .

ومن الجهل أن يتصرف بعض الناس بدافع المدح له والثناء فيبذل ماله ويعطيه لغير المستحق رجاء أن ينشروا عنه إنه كريم جواد وإنهم لخساستهم ودناءة احسابهم لا يحفظون الجميل ولا يرعون الحقوق فهم معه السنة مدح ونشر وثناء طالما يده تعطيهم وتغدق عليهم فإذا توقفت توقفوا عن ذكره والثناء عليه بل ربما حملوا عليه وذكروه بالقبيح لتوقف احسانه إليهم وهذا من سوء حظه وتعاسة وقته وقلة عقله وتدبيره. . . إنه أراد أن يتاجر مع الاشرار فلم ولن تربح تجارته ولن يدرك امنيته ولو كان يتقرب إلى الله بعمله ويقصد أهل الحاجة في عطائه لكانت تجارته رابحة في الدنيا ولآخرة. . .

وبعد هذا ذكر الإمام مواضع المعروف وإنه يجب على من أنعم الله عليه وأعطاه أن يضع المعروف فيها.

١ ـ يصل قرابته قال تعالى: **﴿واولو الارحام بعضهم أولى ببعض﴾**.

٢ ـ أن يحسن فيه الضيافة فإذا نزل به أحد أكرمه وأحسن إليه بتقديم الضيافة.

٣ ـ يفك به الأسير والعاني وهما شيء واحد مع اختلاف اللفظ.

٤ ـ وليعط منه الفقير المحتاج والغارم وهو المديون الذي يعجز عن وفاء دينه.

٥ ـ أن يحبس نفسه ويجبرها على دفع الحقوق المتوجبة عليه من خمس وزكاة ومن إنسان يقصده في دفع فدية أو دفع دية أو غير ذلك، فإنه إذا قام بذلك بدافع

القرب من الله وطلب رضاه فإنه في ذلك يحصل على شرف المكارم في الدنيا ويحصل على أعلى منازل الآخرة.

وبعبارة مختصرة: إن من يضع أمواله في هذه الجهات مع نية القربة لله فأنه يدرك الغايتين ففي الدنيا ينال العز والكرامة والشهرة ويسوق الله له من يحمل اسمه في الآفاق وينشر فضله في الأمصار وأما في الآخرة فينال الكرامة ويدخل دار السلام...

١٤٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الاستسقاء

وفيه تنبيه العباد إلى وجوب استغاثة رحمة الله إذا حبس عنهم رحمة المطر

أَلاَ وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تُقِلُّكُمْ(١)، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ(٢)، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تجُودَانِ(٣) لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً(٤) لَكُمْ، وَلاَ زُلْفَةً(٥) إِلَيْكُمْ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا.

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي(٦) عِبَادَهُ عِنْدَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ ٱلْبَرَكَاتِ، وَإِغْلاَقِ خَزَائِنِ ٱلْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ(٧) مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ ٱلإِسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً(٨). وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾. فَرَحِمَ اللهُ أَمْرأً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَٱسْتَقَالَ(٩) خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ(١٠) مَنِيَّتَهُ(١١)!.

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ والأَكْنَانِ(١٢)، وَبَعْدَ عَجِيجِ(١٣) ٱلْبَهَائِمِ وَٱلْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِين مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ(١٤). اللَّهُمَّ فَٱسْقِنَا غَيْثَكَ(١٥) وَلاَ تَجْعَلْنَا مِنَ ٱلْقَانِطِينَ(١٦) وَلاَ

تُهْلِكْنَا بالسِّنِينَ(١٧)، «وَلاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا»، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا المَضَايِقُ(١٨) الْوَعْرَةُ(١٩)، وَأَجَاءَتْنَا(٢٠) الْمَقَاحِطُ(٢١) الْمُجْدِبَةُ(٢٢)، وأَعْيَتْنَا(٢٣) الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلاَحَمَتْ(٢٤) عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعِبَةُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلاّ تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلاَ تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ(٢٥). وَلاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلاَ تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ أَنْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ، واسْقِنَا سُقْيَا(٢٦) نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ، نَافِعَةَ الْحَيَا(٢٧)، كَثِيرَةَ المُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ(٢٨)، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ(٢٩)، وَتَسْتَوْرِقُ الأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ(٣٠) الأَسْعَارَ، «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ».

اللغة

١ ـ تقلكم : تحملكم.
٢ ـ تظلكم : تعلوكم.
٣ ـ تجود : تعطي وتبذل.
٤ ـ توجع : تألم.
٥ ـ الزلفة : القربة.
٦ ـ يبتلي : يختبر.
٧ ـ أقلع : عن الأمر تركه.
٨ ـ مدراراً : غزيراً متدافعاً.
٩ ـ استقال : خطيئته طلب اقالته منه أي اعفاؤه منها.
١٠ ـ بادر : اسرع.
١١ ـ المنية : الموت.
١٢ ـ الاكنان : جمع كن ما يستر من الحر والبرد.
١٣ ـ العجيج : الصياح ورفع الصوت.
١٤ ـ النقمة : الإنتقام المكافأة بالعقوبة.

١٥ ـ الغيث	:	المطر.
١٦ ـ القانطين	:	من قنط أي يئس.
١٧ ـ السنين	:	جمع سنة القحط والجدب.
١٨ ـ المضايق	:	جمع المضيق وهو ما ضاق من الأمور.
١٩ ـ الوعرة	:	ضد السهلة والمضايق الوعرة الصعبة.
٢٠ ـ الجأتنا	:	اجاءتنا.
٢١ ـ المقاحط	:	جمع مقحطة وهي السنة الممحلة.
٢٢ ـ المجدبة	:	من الجدب وهو القحط.
٢٣ ـ أعيتنا	:	اعجزتنا.
٢٤ ـ تلاحمت	:	اتصلت.
٢٥ ـ الواجم	:	الذي اشتد حزنه حتى امتنع عن الكلام.
٢٦ ـ السقيا	:	الغيث.
٢٧ ـ الحيا	:	المطر.
٢٨ ـ القيعان	:	جمع قاع وهو الفلاة أو الأرض السهلة المطمئنه.
٢٩ ـ البطنان	:	جمع بطن المنخفض من الأرض أو الغامض منها.
٣٠ ـ الرخص	:	ضد الغلاء.

الشرح

(ألا وإن الأرض التي تقلكم والسماء التي تظلكم مطيعتان لربكم وما اصبحتا تجودان لكم ببركتهما توجعاً لكم ولا زلفة إليكم ولا لخير ترجوانه منكم ولكن أمرتا بمنافعكم فأطاعتا واقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا) هذه الخطبة من خطب الاستسقاء وقدّم لها مقدمة تناولت موعظة الناس بالتوبة والإنابة والانقطاع لله وكذلك يذكر الأرض والسماء وإنهما تسيران وفق إرادة الله وحكمته فهو الذي رسم لهما طريقهما لا تتخلفان عنه ولا تخالفان منه فهما تحت إرادة الله ولم يكن ما تعطيان لكم من خيرات وبركات توجعاً وتألماً عليكم ولم يكن ذلك أيضاً لتتقربا منكم ولا لأجل خير مرجو منكم وإنما الأمر التكويني لهما بأن تكونا في صالحكم ومن أجل منافعكم فكانتا كذلك.

وبعبارة أخرى مختصرة أن الأرض والسماء ترتب أمرهما بحسب الإرادة الإلهية من أجل منافعكم ومصالحكم وإنهما لم يخرجا عما رسم لهما فهما حسب التصميم الإلهي والإرادة الربانية. وإذا كانتا كذلك فيجب التوجه إلى الله من كل فرد في المجتمع

أن يتوجه لما أراد الله منه ولا يخرج عن أمره وإرادته.

(إن الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات واغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويقلع مقلع ويتذكر متذكر ويزدجر مزدجر وقد جعل الله سبحانه الإستغفار سبباً لدرور الرزق ورحمة الخلق فقال سبحانه: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ فرحم الله امرأ استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته) ذكر عليه السلام أن الله يبتلي عباده عند ارتكابهم للمعاصي بتضييق الارزاق عليهم وحبس مطر السماء عنهم واقفال أبواب العطايا والخيرات فلا تصل إليهم وهذا منه تأديب لهم ليعودوا إليه ويرجعوا إلى الطريقة المستقيمة فيتركوا المعاصي ويهجروا الخطايا ويلتفتوا إليه سبحانه، فهذه الابتلاءات إنما كانت لصالحهم لعلهم يرجعون إلى رحابه...

ثم علمهم أن الله يقبل عودتهم ويبدل سيئات أحوالهم الدنيوية إلى أحسن حال إذا طرقوا أبواب الاستغفار واستعملوا هذه الوصفة الإلهية التي تفتح عليهم خيرات السماء وبركات الأرض... إنه الاستغفار الذي يتضمن التوبة والعودة إلى رحاب الله والتوجه إليه بقلب مملوء بالإيمان به والثقه بجوده...

الاستغفار الذي تغفر به الذنوب...

الاستغفار الذي يدر المطر...

الاستغفار الذي يفتح أبواب الرزق.

الاستغفار الذي يزيد في البنين.

إنها زينة الدنيا وثمراتها يجنيها المستغفر لله التائب من ذنبه الراجع إلى رحاب قدسه...

ثم دعا لهذا الإنسان بل دعاه إلى امتثال هذا الأمر فرحم الله من واجه توبته بصدق واخلاص فكان صادقاً فيها مجدداً ومستأنفاً لها في كل حين وكذلك رحم الله من طلب إقالة خطيئته أي العفو عنها لما يلحقه من عقابها.

وكذلك رحم الله من بادر إلى التوبة والعودة إلى الله قبل أن يسبقه الموت فيعجز ويؤاخذ بما كسب...

(اللهم إنا خرجنا إليك من تحت الاستار والأكنان وبعد عجيج البهائم والولدان

راغبين في رحمتك وراجين فضل نعمتك وخائفين من عذابك ونقمتك) ذكر عليه السلام سوء الأحوال وتعاسة ما هم فيه. . إنها شكوى فقر حال بما هم عليه والله يعلمها ولكن زيادة استرحام واستعطاف.

اللهم إنا خرجنا إليك نطلبك ونطلب رحمتك خرجنا إليك من بيوتنا التي تسترنا والتي لا يخرج منها إلا لضرورة وكذلك أنت يا رب ترى أصوات البهائم والأطفال كيف تستصرخ وتطلب من جودك راغبة في عطائك وكرمك وراجية فضل نعمتك. . . إننا في خوف من عذابك وعقابك فإن لم ترحمنا هلكنا. . .

(اللهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين ولا تهلكنا بالسنين ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا يا أحم الراحمين) اللهم يا رب أنزل علينا مطرك لنشرب نحن ومواشينا ولا تجعلنا في يأس من رحمتك ولا تهلكنا بالقحط والجدب ولا تعاقبنا بما فعل السفهاء منا الذين تجاوزوا حدودك وتعدوها ولم يرجعوا إلى رحابك أو يتوبوا من معصيتك فإنك أرحم الراحمين.

(اللهم إنا خرجنا إليك نشكو إليك ما لا يخفى عليك حين الجأتنا المضايق الوعرة واجاءتنا المقاحط المجدبة واعيتنا المطالب المتعسرة وتلاحمت علينا الفتن المستصعبة) اللهم إنا خرجنا إليك من ذنوبنا وتوجهنا إليك قاصدين كرمك. . خرجنا إليك لا إلى سواك. . خرجنا إليك نشكو إليك ما لا يخفى عليك من سوء حالنا وقصر ذات يدنا وقلة حيلتنا.

خرجنا إليك حين انسدت الطرق وضاقت المسالك ولم تنفع الوسائل لصعوبتها وعسرها. . .

خرجنا إليك حين دفعتنا الأزمنة القاحلة المجدبة التي أكلت الزرع وايبست الضرع وأتت على كل ذات حياة.

جئنا إليك حين اعجزتنا المطالب الصعبة وتلاحقت علينا الفتن من الجوع والعري والحاجة. . .

نحن يا الهي خرجنا إليك بعد أن انسدت الأبواب في وجوهنا وعجزنا عن تحصيل قوتنا ولم يعد في اليد وسيلة أو حيلة. . .

(اللهم إنا نسألك ألا تردنا خائبين ولا تقلبنا واجمين ولا تخاطبنا بذنوبنا ولا تقايسنا بأعمالنا) اللهم إنا نسألك ونتوجه إليك أن لا تردنا خاسرين، ولا ترجعنا في غم وحزن جراء عدم قبولك لدعائنا. . .

اللهم لا تخاطبنا بذنوبنا أي لا تجعل اجابتك لنا أن تذكر لنا ذنوبنا فإننا لا نستحق معها أجراً ولا نستحق منك كرماً وفضلاً . . .

ولا تقايسنا بأعمالنا أي لا تجعل إجابتك لنا تعادل أعمالنا لأن أعمالنا قبيحة لا نستحق فيها أجراً ولا جزاءً.

(اللهم انشر علينا غيثك وبركتك ورزقك ورحمتك واسقنا سقيا نافعة مروية معشبة تنبت بها ما قد فات وتحي بها ما قد مات) بعد أن قدم الحاجة لله والفقر لعظمته وبعد التوبة والإنابة والاستعطاف والاسترحام توجه إليه في المقصود طالباً منه أن ينزل المطر والبركة والرزق والرحمة وسأله أن يسقي عباده ماءً نافعاً يروي العطاشى وتعشوشب به الأرض، تنبت به ما قد فات في السنين الماضية وتعيد الحياة لما قد مات فيكون التعويض للفاءت والحياة للميت. . .

(نافعة الحيا كثيرة المجتنى تروي بها القيعان وتسيل البطنان وتستورق الأشجار وترخص الأسعار إنك على ما تشاء قدير) هذه مواصفات السقيا التي يطلبها أن تكون بمطرها نافعة مفيدة للناس ومواشيهم وزروعهم وكل ما يهمهم كثيرة المجتنى أي الثمرات والخيرات تمتلأ بها الفلوات والأماكن التي كانت تستقر فيها وتسيل بها الأودية وتجمعات الماء وكذلك تورق بها الأشجار ويدب الرخص في الأسعار بل يرتفع الغلاء ويحل محله الرخص إنك على ماتشاء قدير وهذه تحت قدرتك تتصرف كيف تشاء ولا يمنعك شيء. . .

١٤٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

مبعث الرسل

بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً[١] لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ الحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإِعْذَارِ[٢] إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الحَقِّ. أَلاَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الخَلْقَ كَشْفَةً؛ لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ[٣] أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ[٤] ضَمَائِرِهِمْ؛ «وَلكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ[٥]: أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالعِقَابُ بَوَاءً[٦].

فضل أهل البيت

أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً[٧] عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ[٨]، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَى[٩] الهُدَى، وَيُسْتَجْلَى[١٠] العَمَى. إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هذَا البَطْنِ[١١] مِنْ هَاشِمٍ؛ لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُحُ الوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

أهل الضلال

منها: آثَرُوا[١٢] عَاجِلاً وَأَخَّرُوا[١٣] آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً، وَشَرِبُوا آجِناً[١٤] كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ المُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِىءَ بِهِ[١٥] وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ[١٦] عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ[١٧]، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلاَئِقُهُ[١٨]، ثُمَّ أَقْبَلَ

مُزْبِداً[١٩] كَالتَّيَّارِ[٢٠] لاَ يُبَالِي[٢١] مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الهَشِيمِ[٢٢] لاَ يَحْفِلُ[٢٣] مَا حَرَّقَ!.

أَيْنَ العُقُولُ المُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الهُدَى، وَالأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ[٢٤] إِلَى مَنَارِ[٢٥] التَّقْوَى! أَيْنَ القُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ لله، وَعُوقِدَتْ[٢٦] عَلَى طَاعَةِ الله! ازْدَحَمُوا[٢٧] عَلَى الحُطَامِ[٢٨]، وَتَشَاحُّوا[٢٩] عَلَى الحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ الجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّار بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا[٣٠] وَوَلَّوْا[٣١]، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!.

اللغة

١ ـ **الحجة** : ما يحتج به، البرهان.
٢ ـ **الأعذار** : تقديم العذر.
٣ ـ **المصون** : المحفوظ.
٤ ـ **المكنون** : المستور.
٥ ـ **ليبلوهم** : ليختبرهم.
٦ ـ **البواء** : الكفو، يقال باء فلان بفلان أي قتل به.
٧ ـ **البغي** : الظلم والعدوان.
٨ ـ **وضعه** : الله أذله وأنزله عن مكانته.
٩ ـ **يستعطى** : يطلب أن يعطى.
١٠ ـ **يستجلى** : يطلب جلاؤه أي إظهاره.
١١ ـ **البطن** : دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة.
١٢ ـ **آثروا** : اختاروا وقدموا.
١٣ ـ **أخروا** : تركوا.
١٤ ـ **الآجن** : من الماء هو ما تغير لونه وطعمه.
١٥ ـ **بسيء به** : ألفه واستأنس به.
١٦ ـ **شابت** : إبيض شعرها.
١٧ ـ **المفارق** : من الطريق ما يتشعب منه طريق آخر ومن الشعر موضع افتراقه.
١٨ ـ **الخلائق** : جمع الخليقة الطبيعة.

١٩ ـ مزبداً	:	أي ذو زبد والزبد هو ما يخرج من الفم كالرغوة.
٢٠ ـ التيار	:	موج البحر الهائج.
٢١ ـ لا يبالي	:	لا يهتم ولا يحفل.
٢٢ ـ الهشيم	:	ما تكسر من اليبس.
٢٣ ـ لا يحفل	:	لا يبالي.
٢٤ ـ الأبصار اللامحة	:	الناظرة.
٢٥ ـ المنار	:	العلم الذي يجعل للاهتداء في الطريق.
٢٦ ـ عوقدت	:	من عقد الحبل نقيض حله والبيع أحكمه وعقد على الشيء عاهده.
٢٧ ـ ازدحموا	:	تضايقوا، تدافعوا.
٢٨ ـ الحطام	:	ما تكسر من الشيء اليبس.
٢٩ ـ تشاحوا	:	شح بعضهم على بعض في المطلوب، أراد كل منهم أن يستأثر به.
٣٠ ـ نفروا	:	إلى منى اندفعوا إليها وإلى الشيء أسرعوا إليه.
٣١ ـ ولوا	:	أدبروا، أعرضوا وابتعدوا.

الشرح

(بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه وجعلهم حجة له على خلقه لئلا تجب الحجة لهم بترك الإعذار إليهم فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق) هذه الخطبة الشريفة تتضمن فصلين.

الأول: يتعرض فيه لذكر أهل البيت عليهم السلام وأنهم لا يساوى بهم أحد من الأمة.

الثاني: فيه ذم لبعض الصحابة الذين أرادوا منازعته الفضل وقدّم ذلك كله ببيان بعثة الرسل والحكمة منها. . .

بعث الله رسله بالوحي الإلهي الذي اختصهم به كرامة لهم وشرفاً وجعلهم حجة له على خلقه فقد وصلت عن طريقهم الحجج والبينات الملزمة التي لا يمكن التخلص منها إلا بالعمل بها والالتزام بمضمونها والسير على نهجها وهذا كله ليقطع على المتعللين بعدم العمل بأنه لم تصلهم التكاليف ولم يتعرفوا عليها فتكون لهم الحجة على الإهمال فقطع الله عذرهم بوصول الحجة إليهم عن طريق الأنبياء.

ثم إن الأنبياء هم ألسنة الصدق الذين يؤدون عن الله مراداته ويبلغونها إلى الناس كاملة غير منقوصة ويدعون إلى سبيل الله الذي هو سبيل الحق.

(ألا إن الله تعالى قد كشف الخلق كشفة لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً) هذا بيان للغرض من تكليف هذا الإنسان وأن الله أراد من وراء هذا أن يظهر حقيقة هذا الإنسان وجوهره وما هو دفين في صدره وهو يعلم ذلك ولكن أراد بالتكليف أن يظهر الإنسان بل يُظهر نفسه بنفسه وأنه من أهل الطاعة أو أهل المعصية وأنه سبحانه يعلمهم ويعلم ما يفعلون قبل فعلهم ولكنه أراد ابتلاءهم واختبارهم ليعلم أيهم أحسن عملاً فيعاقب أهل المعصية ويثيب أهل الطاعة. . .

وإحدى فوائد التكليف أن العبد به تعرف حقيقته وينكشف واقعه وتسقط حجته ليس عند الله لأنه يعلم كل خفية ولكن عند نفسه وعند الآخرين وتسقط مقولته لماذا تعاقبني على ما لم أفعل ولم أعمل؟. . .

(أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى) هذا الاستفهام أراد به التوبيخ والتحقير لأولئك الذين ادعوا أنهم ينازعونه الفضل والعلم ورداً لما ادعوه وزعموه كذباً وزوراً. . . ولقد اختلقوا لبعض الصحابة اختصاصات ومؤهلات في بعض العلوم زعموا أنهم أعلم الأمة فيها حيث زعموا أن زيداً أفرض الناس وأبي أقرؤهم وفلان أعلمهم بالحلال والحرام وهكذا فرّد عليهم أنهم يكذبون في هذه المقولات ويظلموننا في هذه الدعاوى وهذا لم يكن منهم إلا لأن الله رفعنا عنهم ووضعهم. . . رفع أقدارنا في الدنيا والآخرة ووضعهم الله. . . وأعطانا الله من فضله النبوة والإمامة والعلم والحكمة وحرمهم منها وكذلك أدخلنا الله برحمته وكلأنا بعنايته وأخرجهم منها. . .

ثم أشار إلى حقيقة تطفيء بأنوارها ظلمات جهلهم فقال: بنا يطلب الهدى ويعطى ويرتفع العمى ويخفى، فهم الأنوار الكاشفة للمعارف كلها دينية ودنيوية وفي كل مجالات الحياة كما أن بهم يرتفع الجهل ويحل محله نور العلم.

فهم منارات تهدي الخلق إلى الحق وأنوار تكشف ظلمات الجهل والضلال. . .

(إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم) حصر عليه السلام الإمامة في قريش وخصّها في هذا البطن من هاشم يقصد بها نفسه الشريفة فهي لهم لا تصلح إلا بهم ولا يصلح لها إلا هم فإذا تولاها

غيرهم فسدت وانحرفت وضلّت ولم يكن ذلك الغير من أهلها أو القائمين عليها بحقيقتها.

وهذا الكلام منه مستقى من حديث النبي صلى الله عليه وآله الذي أجمعت الأمة على صحته ونقلته كتب الصحاح بالأسانيد الصحيحة عن النبي.

نقل البخاري في صحيحه عن عبد الملك قال: سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: يكون بعدي اثنا عشر أميراً فقال صلى الله عليه وآله وسلم كلمة لم أسمعها فسألت أبي ماذا قال؟ قال: إنه قال: كلهم من قريش وكذلك رواه البخاري عن ابن عيينة ورواه مسلم في صحيحه وصاحب الجمع بين الصحيحين وغيرهم من أئمة الحديث عند السنة ولم يناقش فيه أحد مناقشة معتبرة نعم اختلف أهل السنة في تطبيقه فشرّقوا وغرّبوا وتاهوا وضلوا ولم يهتدوا إلى تفسيره أو معرفة الأئمة المقصودين فيه...

أما على طريقة الحق والعدل فهو من أصدق ما يدل على إمامة الأئمة من أهل البيت وهو من أوضح النصوص على إمامتهم وأنهم قادة الخلق، ولا أظن أن فرداً يتجرد عن رواسبه المذهبية وعصبياته إلا ويذهب إلى ما ذهب إليه الشيعة من كون المقصود بالاثني عشر هم أئمة أهل البيت عليهم السلام...

(آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً وتركوا صافياً وشربوا آجناً كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه وبسىء به ووافقه حتى شابت عليه مفارقه وصبغت به خلائقه ثم أقبل مزبداً كالتيار لا يبالي ما غرّق أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرّق) هذا الكلام أراد به بعض الصحابة الذين انحرفوا وضلوا ولا موجب لصرفه عنهم بعدما ثبت فسق بعضهم وضلال بعض آخر بل الأوصاف تنطبق على من حارب الإمام كمعاوية وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم وكثيرين ممن هم على شاكلتهم ممن سموا بالصحابة.

وعلى كل حال ذكر الإمام بعض قبائح أعمالهم وسيئات صفاتهم:

١ ـ آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً قدموا الدنيا واختاروها وسعوا إليها وهي فانية بينما أخروا الآخرة التي لا تفنى ولا تزول.

٢ ـ تركوا صافياً وشربوا آجناً تركوا الآخرة التي لا يشوبها ألم أو مرض إلى الدنيا المملوءة بالهموم والأحزان والآلام أو يراد تركوا الإسلام وما ورد عن النبي من علم صحيح إلى آرائهم وما ذهبوا إليه من أمور باطلة مملوءة بالانحراف وعدم الصحة...

ثم أرسل القضية وكأنه ينظر إلى مستقبل بعضهم وما يؤول إليه أمره كمعاوية وعمرو والمغيرة ومروان وغيرهم كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه وكيف يجيز معاوية لنفسه قتال الخليفة الشرعي؟ وكيف يصر على مطاردة أنصار الإمام وشيعته؟ وكيف يسن سبّه وشتمه ويجعلها سنة يتداولها الولاة والأمراء؟ أليس هذا كله منكر قد ألفه واعتاد عليه وربى رجاله ورعيته عليه. . . أليس قد «بسيء به ووافقه» أي ألفه واعتاده وأصبح من طبعه يستأنس به وقد استمر على ذلك حتى شابت عليه مفارقه أي من أول عمره إلى آخره أي عاش هذا المنكر طيلة حياته وصبغت به خلائقه أي صار طبيعة له ومن سجاياه لكثرة ما اعتاد عليه وكرره. . .

ثم شبه هذا الفاسق ـ وتقرأ سيرة معاوية وعمرو فلا تكاد إلا أن تطبق قوله عليهما ـ بالتيار الذي يتحرك في وسط البحر ويأخذ معه كل ما يقع في طريقه أو كالنار التي توقد في الهشيم اليابس من الحشيش وغيره فإنها تأتي على كل ما تمر به وتحرق كل ما تقع فيه بدون تمييز وهذا الفاسق مثل النار والتيار يقتل ويسلب ويشرد ويحبس ويصادر الأموال ويهدم الدور ويأتي على الحرث والنسل ونظرة واحدة لسيرة معاوية وما فعله بشيعة الإمام تدلل على انطباق كلمة الإمام عليه وأنه من أوضح مصاديق الفاسقين الذين عناهم الإمام في حديثه هذا. . .

(أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى والأبصار اللامحة إلى منار التقوى! أين القلوب التي وهبت لله وعوقدت على طاعة الله، ازدحموا على الحطام وتشاحوا على الحرام ورفع لهم علم الجنة والنار فصرفوا عن الجنة وجوههم وأقبلوا على النار بأعمالهم ودعاهم ربهم فنفروا وولوا ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا) استفهم متأسفاً عن العقول التي لا تأخذ الحق من أئمة الهدى أين هي؟ كما تأسف عن الأبصار كيف لا تتطلع إلى الأعلام الشامخة في التقوى فتقتدي بها وتسير على نهجها وأين القلوب الطاهرة الصافية التي وهبت لله على أن تكون في طاعته وخدمته وعقدت الأمور على الالتزام بأمره؟.

ثم عاد ليذكر أولئك الصحابة الذين تقدمت بعض أوصافهم ليذكر هنا ما هم عليه من الانحراف فذكر من أوصافهم أيضاً:

١ ـ إنهم ازدحموا على الحطام: إنهم تسابقوا وتدافعوا على ما في الدنيا من أموال ومتاع وسلطان وجاه وهي أمور صغيرة حقيرة يجب أن يترفع عنها المؤمن المتصل بالله.

٢ ـ إنهم تشاحوا على الحرام: فكل واحد منهم يقاتل الآخر طلباً للحرام ويصّر

على أن يكون له دون غيره فلم يكتفوا بطلب الدنيا بل طلبوا الحرام وأصر كل واحد أن يكون له. . .

٣ ـ رفع لهم علم الجنة والنار فصرفوا عن الجنة وجوههم وأقبلوا إلى النار بأعمالهم: أشار بهذا إلى أن للجنة راية وللنار راية فراية الجنة الدعاة إلى الله والأئمة الهداة وراية النار إبليس وجنده وأئمة الضلال وهؤلاء الصحابة عدلوا بنظرهم عن راية الجنة وتخلوا عن الدعاة إليها من الأئمة وأخذوا بأعمالهم الساقطة وسلوكهم العاصي نحو النار. . .

٤ ـ دعاهم ربهم فنفروا وولوا ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا: دعاهم ربهم إلى الطاعة المؤدية إلى الجنة فرفضوا وأعرضوا وهربوا من أمره قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿**والله يدعوا إلى دار السلام**﴾[(٢)] وفي المقابل دعاهم الشيطان إلى المعصية والتمرد فاستجابوا له ولبوا دعوته وأقبلوا يسعون إليه قال تعالى: ﴿**وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم. . .**﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأنفال، آية/ ٥٤.
(٢) سورة يونس، آية/ ٢٥.
(٣) سورة إبراهيم، آية/ ٢٤.

١٤٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

فناء الدنيا

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ(١) تَنْتَضِلُ(٢) فِيهِ المَنَايَا(٣)، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ(٤) شَرَقٌ(٥)، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ(٦)! لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلاَ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلاَ تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلاَّ بِنَفَادِ(٧) مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ؛ وَلاَ يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ، إِلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ؛ وَلاَ يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ(٩) لَهُ جَدِيدٌ؛ وَلاَ تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ(١٠) إِلاَّ وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ(١١). وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!.

منها: وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ(١٢) إِلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا البِدَعَ، وَالْزَمُوا المَهْيَعَ(١٣). إِنَّ عَوَازِمَ الأُمُورِ(١٤) أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدِثَاتِهَا شِرَارُهَا.

اللغة

١ ـ الغرض : الهدف.

٢ ـ تنتضل : تترامى.

٣ ـ المنايا : جمع المنية الموت.

٤ ـ الجرعة : من الماء البلعة.

٥ ـ الشرق : محركة مصدر من شرق إذا غصّ.

٦ ـ الغصص : محركة مصدر غصصت من الغَصّ وهو الشجى.

٧ ـ نفد : الشيء فرغ وانقطع وفني.

٨ ـ الأثر	:	ما بقي من رسم الشيء.
٩ ـ يخلق	:	يبلي.
١٠ ـ النابتة	:	مؤنث النابت ما ينشأ من الأولاد.
١١ ـ محصودة	:	من حصد الزرع إذا قطعه وكأنه هنا أراد الآباء والأجداد.
١٢ ـ البدعة	:	ما أحدث على غير مثال سابق / إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.
١٣ ـ المهيع	:	من الطريق الواضح البيّن.
١٤ ـ عوازم الأمور	:	ما تقادم منها والعوازم جمع عوزم العجوز المسنة.

الشرح

(أيها الناس إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا مع كل جرعة شرق وفي كل أكلة غصص لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، ولا يتجدد جديد إلا بعد أن يخلق له جديد ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة. وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله)

المقصود من هذه الخطبة التنفير من الدنيا بذكر معايبها لينصرف الإنسان عنها إلى الآخرة وقد نفّر عنها بذكر بعض قبائحها ومثالبها وهي:

١ ـ جعل الناس هدفاً ترميه الدنيا بسهامها فقد شبهها بالمتناضلين بالسهام وسهامها متعددة فمنكم من يصيبه سهم المرض،والآخر سهم الغرق والثالث سهم الحرق وهكذا. . .

٢ ـ مع كل جرعة شرق: وهذا عيب من عيوب الدنيا وأن نعيمها لا يدوم وأن مع كل لذة من لذاتها منغصاتها. . .

٣ ـ وفي كل أكلة غصص: فهذا الأكل الطيب لا يصفى دائماً بل فيه ما يؤذي وينغّص.

٤ ـ لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى: فليس بمقدور هذا الإنسان أن يجمع بين ملذاته كلها بل إذا تلذذ في أمر حُرم آخر وهكذا. . . أو يكون المقصود لا يلتذ بأمر إلا وقد مرت لذة ما سبق في وقته ولا يقدر على الجمع بين ما مضى وما هو فيه. . .

٥ ـ ولا يعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله: فإذا أردت أن تصل إلى التسعين لا بد وأن تهدم الثمانين وإذا أردت أن تعمر إلى يوم الأحد فلا بد وأن يهدم من عمرك يوم السبت وبهذا الهدم يقترب من الموت ومثل هذا لا لذة فيه ولا نفع.

٦ ـ ولا تجدّد له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه فإنه لا يأكل لقمة إلا بعد أن ينتهي من التي قبلها وتكون السابقة قد فنيت وما يفنى كيف تكون فيه اللذة...

٧ ـ ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر: لا يذكر بأمر جميل أو قبيح إلا وقد نسي القديم الذي كان يذكر به فإذا كان يعرف بالشر فعندما يشتهر بالتقوى يموت الأثر الأول وينسى.

٨ ـ ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد فلا يأتي المشيب إلا وقد بلى الشباب.

٩ ـ ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله لا يصبح الأبناء شباباً إلا وقد ولى الآباء وماتوا أو لا يصبح عند الأبناء أولاداً إلا وقد مات الأجداد.

ثم قال نحن فروع من أصول قد ماتت وإذا ماتت الأصول فلا تبقى الفروع كما أن الشجرة الممتدة الأغصان إذا ماتت أصولها ماتت تبعاً لها فروعها وهكذا الأمر بالنسبة لنا فإننا من الآباء والأجداد فإذا جاءهم الموت لا بد وأن يأتي إلينا وإذا كان الأمر كذلك فما قيمة هذه الحياة التي لا تبقى ولا تدوم والتي يتبع فروعها أصولها في الموت...

(وما أحدثت بدعة الأتراك بها سنة فاتقوا البدع والزموا المهيع إن عوازم الأمور أفضلها وإن محدثاتها شرارها) من السنة ترك البدعة ومن ابتدع فقد ترك السنة فاتقوا البدعة واتركوها لما فيها من الحرمة والزموا الطريق الواضح البيّن من سنة رسول الله ففيه السلام وفيه الأمان.

وإن الأمور القديمة التي كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الأمور وأشرفها لأنه مقطوع بصحتها ولا شبهة فيها بينما محدثاتها وما استجد من الأمور التي لم تكن ولكن ارتآها بعض المتنفذين واستحسنوها وابتدعوها للناس كما حدث لعمر حيث ابتدع صلاة التراويح ولم تكن على عهد رسول الله ولا أصل لها في الدين فهذه من شر البدع وشر ما أحدث من أمور في الدين..

١٤٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

إِنَّ هذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خِذْلاَنُهُ(١) بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ(٢)، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ(٣) وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ القَيِّمِ(٤) بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ(٥) مِنَ الخَرَزِ(٦) يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ(٧) أَبَداً. وَالعَرَبُ اليَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلاَمِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً(٨)، وَاسْتَدِرِ(٩) الرَّحَا(١٠) بِالعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ(١١) دُونَكَ نَارَ الحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ(١٢) مِنْ هذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ(١٣) عَلَيْكَ العَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ العَوْرَاتِ(١٤) أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هذَا أَصْلُ العَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونَ ذلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ(١٥) عَلَيْك، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ القَوْمِ إِلَى قِتَالِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالمَعُونَةِ!.

اللغة

١ ـ الخذلان : ترك النصرة.
٢ ـ طلع : الكوكب إذا ظهر وطلع الجبل إذا علاه.
٣ ـ أنجز : الوعد وفى به وأتمه.
٤ ـ القيم : بالأمر القائم به.
٥ ـ النظام : الخيط ونظام العقد الخيط الجامع له.
٦ ـ الخرز : محركة الحب المثقوب من الزجاج ونحوه تنظم منه العقود والمسابح.
٧ ـ بحذافيره : بأصله واحده حذفار وأخذه بحذافيره بأجمعه.
٨ ـ القطب : حديد في الطبق الأسفل من الرحى يدور عليها الطبق الأعلى، ملاك الشيء ومداره.
٩ ـ استدر : أجعلها تدور.
١٠ ـ الرحا : مؤنثة وهي الطاحونة.
١١ ـ اصلهم : فعل أمر من صليت اللحم إذا شويته.
١٢ ـ شخصت : خرجت.
١٣ ـ انتفضت : فسدت، وانتفض عليه البلد إذا تغير عليه أهله وخلعوا الطاعة.
١٤ ـ العورات : جمع عورة ما يستحى من إبدائه / الثغرات في أطراف البلاد.
١٥ ـ الكلب : محركة الشر والأذى.

الشرح

(إن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا بقلة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ونحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده) هذا الكلام منه عليه السلام وجهه إلى عمر عند وقعة القادسية أو نهاوند على الاختلاف في ذلك وكان عمر قد استشار الصحابة فأشار عليه السلام برأيه السديد وقدم مقدمة توطئة لما يذهب إليه فقال: إن الإسلام الذي تراه اليوم يتحدى أقوى قوة في العالم وقد امتد إلى رقعة كبيرة من الأرض لم يكن نصره بكثرة العدد وكون المسلمين أكثر من غيرهم كما أن هزيمته لم يكن لقلتهم فالقلة والكثرة لا يجب أن تحكم عقليتنا الإسلامية ولا يجب أن نبقى أسرى تحت حكم هذه النظرية بل يجب أن نعي حقيقة إلهية قد لا تدخل في قاموس أبناء الدنيا ولكنها من صلب هذا الدين وأسس هذه

العقيدة وهي حقيقة أن الإسلام دين الله الذي أظهره على الأديان والعقائد كلها وهو الذي تكفل بحمايته ونصره وجنده هم جنوده الذين أعدهم لحمل راية الفتح والجهاد في سبيل الله وقد أمدهم بالملائكة وثبت قلوبهم في مواطن الاضطراب والخوف وهكذا الأمر حتى بلغ الإسلام ما بلغ من العظمة والكرامة ووصل إلى ما وصل إليه من امتداد وظهور وانتشار.

وأشار عليه إلى أن المسلمين على موعد من الله بالنصر والاستخلاف إشارة إلى قوله تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي إرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً...﴾** وعقب هذا بأن الله منجز ما وعد وناصر جنده، إن الله لا يخلف الميعاد... وإنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا...

(ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه فإن انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحا بالعرب واصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك) شبّه عليه السلام القائم بالأمر والمتولى لأمور المسلمين بالخيط الذي يجمع حبات الخرز في العقد أو السبحة فإذا انقطع الخيط تبعثرت الحبات وتوزعت ولم تعد واحدة تجتمع أو تلتقي مع الأخرى فهذه تذهب إلى اليمين والأخرى إلى اليسار وهذه إلى الأمام وتلك إلى الخلف وهكذا لا يلتقي حبتان مع بعضهما ولا تجتمع الحبات قط وكذلك القيم بالأمر إذا ذهب ومات أو غاب تبعثر المسلمون وتشتتوا...

ثم هدأ روع عمر بأن العرب اليوم وإن كانوا قلة في العدد ولكن الإسلام كثرهم بعقيدته وفكره وأصحاب قوة بوحدتهم واجتماعهم وتوحدهم على رأي واحد...

ذكر أولاً أهمية القائم بالأمر ودوره ثم ذكر الجند الذين هم الجبهة العسكرية التي تواجه العدو وبعد هذا رأى رأيه وقال: اثبت في مكانك الذي أنت فيه ولا تباشر الحرب بنفسك وتدخل فيها بشخصك وذلك لأمرين أحلاهما مرّ ولا يجوزان في شرع الله...

إن خرجت بنفسك لحرب الفرس وتركت الحرمين وما حولهما ثارت ثائرة العشائر والقبائل وطمعوا فيك لأن الإسلام لم يثبت في قلوبهم بشكل قوي كعقيدة دينية وإذا انتفضوا وتحركوا وارتدوا وأنت في الخارج كان هذا الأمر أهم إليك من قتال الفرس

ويشغلك عن وجهتك التي أنت فيها وإن خرجت بنفسك طمع فيك الفرس أيضاً وقالوا هذا هو الإسلام كله وقيادته فيشتد ساعدهم للقضاء عليك وإسدال الستار على الإسلام وحركته إلى الأبد ومن هنا أثبت في محلك وادفع العرب ليخوضوا المعركة وأنت أدر المعركة من مقرك الذي أنت فيه.

(إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك) هذا هو الخطر الثاني الذي يُترقب من جراء خروج عمر بنفسه لقتال الفرس فإنهم عندما ينظرون إليه يشعرون بأن الإسلام كله في المواجهة وإذا انتصروا في هذه المعركة قضوا على أصل الدين ورجاله وبهذا تشتد قوتهم وتقوى عزيمتهم ويكون لهم في الحرب شدة وطمع وبهذا يكمن الخطر...

(فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتالْ المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة) كان عمر قد قال: إن هؤلاء الأعاجم يقصدوننا بالحرب والهجوم وأنا أكره أن يغزوننا في عقر دارنا وكذلك قال: إن عددهم كبير كيف يقوى المسلمون على مواجهتم فردّ الإمام عليه السلام بأنك إذا كنت تكره غزوهم لنا فإن الله أشد كراهة لهذا الأمر منك وهو أقدر على ردّهم فأعمل أنت بما هو تكليفك وما فيه المصلحة من بقائك هنا واترك الأمر الآخر لله هو المتكفل بإيجاد الحل له...

وأما كثرة العدد لديهم وقلته عندنا بالنسبة إليهم فإنا لم نقاتل فيما مضى في بدر وأحد وغيرهما بكثرة العدد فقد كان العدو يومها أكثر منا ومع ذلك كنا نقاتل وننتصر لأنه تكليفنا الشرعي والله هو الذي ينصرنا ويعيننا ويهزم عدونا.

١٤٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

الغاية من البعثة

فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ[١] إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ[٢]، لِيَعْلَمَ العِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا[٣] بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ[٤]، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى[٥] لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ[٦]، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ[٧] بِالمَثُلاَتِ[٨]. وَاحْتَصَدَ[٩] مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ[١٠]!.

الزمان المقبل

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الحَقِّ، وَلاَ أَظْهَرَ مِنَ البَاطِلِ، وَلاَ أَكْثَرَ مِنَ الكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ[١١] أَبْوَرَ[١٢] مِنَ الكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ، وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ[١٣] إِذَا حُرِّفَ[١٤] عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ فِي البِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ المَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ المُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ[١٥] الكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ: فَالكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ[١٦] مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا[١٧] مُؤْوٍ. فَالكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لأَنَّ الضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ الهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ القَوْمُ عَلَى الفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الكِتَابِ وَلَيْسَ الكِتَابُ

إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ اسْمُهُ، وَلاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ(١٨). وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا(١٩) بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً(٢٠)، وَجَعَلُوا فِي الحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ.

وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ(٢١)، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ المَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ المَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ القَارِعَةُ(٢٢) وَالنِّقْمَةُ.

عظة الناس

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ «لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»؛ فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلاَمَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلاَ تَنْفِرُوا(٢٣) مِنَ الحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ(٢٤)، وَالبَارِي(٢٥) مِنْ ذِي السَّقَمِ(٢٦). وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ(٢٧) حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ(٢٨)، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ العِلْمِ، وَمَوْتُ الجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ.

اللغة

١ ـ الأوثان : جمع وثن وهو الصنم.
٢ ـ أحكمه : أتقنه.

٣ ـ يقروا	:	يعترفوا ويذعنوا .
٤ ـ جحد	:	أنكر .
٥ ـ تجلى	:	انكشف وظهر .
٦ ـ السطوة	:	عليه الوثوب عليه وقهره .
٧ ـ محق	:	الشيء محاه وأهلكه .
٨ ـ المثلات	:	العقوبات .
٩ ـ حصد	:	الزرع واحتصده قطعه بالمنجل .
١٠ ـ النقمات	:	جمع النقمة المكافأة بالعقوبة .
١١ ـ السلعة	:	المتاع .
١٢ ـ أبور	:	من بار الشيء إذا فسد .
١٣ ـ أنفق منه	:	أروج منه .
١٤ ـ حرّف	:	القول غيّره عن مواضعه .
١٥ ـ نبذ	:	رمى وألقى .
١٦ ـ الطريد	:	المطرود الهارب .
١٧ ـ لا يؤويهما	:	لا يضمهما إليه وينزلهما عنده .
١٨ ـ الزبر	:	الكتابة وزبرت الكتاب كتبته .
١٩ ـ مثلوا	:	نكلوا والاسم منه المثلة .
٢٠ ـ الفرية	:	بكسر الفاء الكذب .
٢١ ـ الآجال	:	أوقات الموت .
٢٢ ـ القارعة	:	الداهية المهلكة ، المصيبة الشديدة .
٢٣ ـ نفر	:	من الحق باعد عنه وهرب .
٢٤ ـ الأجرب	:	من الجرب داء يحدث في الجلد بثوراً صغاراً لها حكة شديدة .
٢٥ ـ الباري	:	المعافى من المرض .
٢٦ ـ السقم	:	المرض والعلة .
٢٧ ـ الرشد	:	الهدى ، ضد الغي .
٢٨ ـ نقضه	:	أبطله وأفسده .

الشرح

(فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن قد بينه وأحكمه ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه

وليقروا به بعد إذ جحدوه وليثبتوه بعد إذ أنكروه فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوفهم من سطوته وكيف محق من محق بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات) في هذه الخطبة الشريفة ثلاثة أمور:

١ ـ فيها الغاية من بعثة الرسل.

٢ ـ فيها إخبار عن مستقبل الزمان وما يجري فيه.

٣ ـ الموعظة للناس والنصيحة لهم أن يصححوا سلوكهم وفق طريق الإسلام وشريعته.

بعث الله نبيه محمداً بالحق إلى خلقه ليخرجهم من عبادة الأصنام والأهواء إلى عبادة الله تعالى ومن طاعة الشيطان الذي أمرهم بعبادة غير الله إلى طاعة الله فالمهمة الأساسية للنبي أن يعبّد الناس لله وحده دون غيره وذلك بأن يفتح بصيرتهم على الحق تعالى وينير الدرب أمامهم ويردهم إلى عقولهم ليفكروا فيها بدقة ويعيدوا لها تحررها وتعقّلها.

وقد كان هذا القرآن الذي هو معجزة النبي ودليل نبوته بيناً ظاهراً محكماً متقناً ليس فيه خلل أو اختلاف كان من أجل أن يعلم العباد ربهم إذ جهلوه فهو الذي يثير فيهم الإحساس بالتفكير بالله ويدفعهم إلى أن يعيشوا في عالم يوصلهم إلى الإيمان به والتوجه إليه والإقرار به بعد إذ جحدوه وأنكروه وقد ظهر الله لعباده ورأوه ولكن ليس بالبصر بل بما أعطاهم من بصيرة نافذة حيث أوقفهم من قدرته وخوفهم من بطشه وكيف قضى بالعقوبات على من خالف أمره وكيف إذا أتى أمره «دمّره بعذابه من تمرد على إرادته». فإن هذا القرآن بما قصّ وما نقل من أخذ الله للأمم الماضية وانتقامه منهم قد ظهر للناس ولم يبق خافياً على أحد...

(وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا أنفق منه إذا حرّف عن مواضعه ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر) هذا إخبار منه بما يحمل الزمان في المستقبل بعد شهادته إنه زمان صعب تنقلب فيه الحقائق وتتغير المعادلات وكثير من الأمور تتبدل فيتحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق وذكر بعض تلك الأمور فقال:

١ ـ إنه زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل وهذا ما نعيشه اليوم بأجلى وأظهر صوره فالحكام كلهم ـ إلا ما استثني ـ فجرة فسقة لهم الصدارة

والأمر والنهي والحكم والسياسة وقد احتلوا المناصب مع أزلامهم والمنتفعين معهم أما أصحاب الدين وأهل الإيمان، أما الدين والإسلام فقد اختفى وضاعت أعلامه من القائمة. . .

٢ ـ إنه زمان لا يوجد فيه أكثر من الكذب على الله ورسوله وهذا أيضاً في متناول الجميع فعلى مستوى الدس والافتراء فقد امتلأت الكتب بذلك ويكفي أن يكون أبو هريرة الدوسي هو الراوية لحديث الرسول حيث راح يختلق ما يشاء وما يريده معاوية. . . وأما في زماننا فخذها فتاوى تستند إلى الله ورسوله والله ورسوله بريئان منها. . .

٣ ـ إنه زمان يتنكر فيه لكتاب الله إذا أقيم على حقيقته وأريد تنفيذ أحكامه كما هي أما إذا حرفت آياته وصرفت عن وجهها وطوعت لإرادة الحكام ومشتهياتهم فإنهم يرحبون بها ويقبلون ذلك. . .

٤ ـ إنه زمان ليس في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر إنه زمان يمر علينا اليوم فالقرض أصبح منكراً والربا صار معروفاً والسفور أصبح تقدماً ومعروفاً والحجاب تأخراً ومنكراً والتدين أصبح رجعية واللادين أصبح تقدماً وهكذا أضحى المنكر من أعرف الأمور والمعروف من أشدها نكراناً. . .

(فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم وليسا معهم لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا) وهذه من صفات ذلك الزمان أيضاً.

٥ ـ إنه زمان نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته فأهل الدين الذين يعرفون أحكام الكتاب قد هجروه وتركوه وأما الحافظون له فقد جعلوا أنفسهم ناسين له لئلا يحتجوا على الناس به.

٦ ـ فالكتاب وأهله طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو.

فالكتاب وأهله الذين يحملونه بحق ويحفظونه بجدارة منفيان من جهة إهمالهما وعدم الالتفات إليهما بل محاربان، إنهما صاحبان مترافقان في طريق واحد وهو طريق الحق والصدق ورفض الباطل لا يستقبلهما أحد أو يضمهما إليه أحد لعدم وجود المخلصين الطالبين للحق والعدل.

٧ ـ الكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم وليسا معهم لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا.

الكتاب الكريم وأهله في ذلك الزمان في الناس بوجودهما القائم ولكن ليسا فيهم بالمتابعة والالتزام وإذا لم يعملوا بالكتاب وأهله وألغوا فائدتهما فهما كأنهما ليسا بموجودين إذ فائدة الموجود أن ينتفع به.

وكذلك معها بالمصاحبة شكلاً ترى الكتاب وأهله في مصاحبة الناس فيقرؤون القرآن في المآتم ويحضر المشايخ وأهل الدين فيها ولكن ليس من جامع يجمع بينهما لأن الكتاب وأهله يريدان العمل بهما وبأمرهما والناس ترفض هذا ولا تعمل به فهي مصاحبة شكلاً مع التباين واقعاً لأن الهدى لا يلتقي مع الضلال ولا يجتمعان واقعاً وإن اجتمعا بحسب الصورة.

(فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا على الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ولا يعرفون إلا خطه وزبره ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله وسموا صدقهم على الله فرية وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة) إنه الزمان الآتي بما يحمل معه من هفوات وسقطات وبما يحمل من ضلال وانحراف ومن تلك السقطات والمعيبات أن يجتمع القوم فيه على الفرقة فكل حزب بما لديهم فرحون بل كل فرد يكتفي بنفسه ويعد نفسه رأساً مستقلاً له رأيه وعمله بينما يفترقون عن الجماعة ولا تجمعهم وحدة أو عقيدة أو نظام فهم اتفقوا على الفرقة.

ومن سيئات ذلك الزمن أن يجعلوا أنفسهم بعملهم كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم فهم يطوّعون نصوصه لصالحهم ولما يذهبون إليه من آراء بينما حقهم أن يذهبوا وراء الكتاب ويهتدوا بهداه ويتخذوه إماماً يقتدون به.

إنهم جردوا الكتاب من المضمون ولم يعملوا بما فيه وعطلوا أحكامه فلم يبق عندهم منه إلا اسمه وخطه يقرؤونه لا يتجاوز حناجرهم ويتبركون به في المآتم لجريان العادة بذلك ودفعاً للتهمة عن أنفسهم بالتقصير بحق الموتى.

ثم ذكر مدى الجور والظلم الذي يحيق بالصالحين بحيث ينكلون بهم ويمثلون ويحولون صدقهم إلى كذب ويجعلون حسناتهم سيئات يعاقبونهم عليها وكم في التاريخ من صور تنقل إلينا وكأن هذه الحقيقة يراها الإمام رؤية العين وإذا نقّلت نظرك في العهد الأموي والعباسي لوجدت الحقيقة بأظهر ما تكون ولبان لك صدق هذا الحديث بأجلى ما ترى.

(وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغيّب آجالهم حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحل معه القارعة والنقمة) هذه الموعظة للمخاطبين يذكر الماضين وكيف كان هلاكهم وما سببه إنهم هلكوا بطول الآمال وتغيب الموت عن أنظارهم والإنسان إذا طال أمله يطغى ويظلم ويريد أن يحققه ولو على حساب وجود الناس فإذا ذكر الموت والحساب والعقاب ارتدع وكف وأما إذا غيّب الموت عن نظره ونظر بعين الأمل الواسع فإنه يهلك لا محالة لأنه إذا بقي على ذلك ينزل به الموت الذي لا يقبل عذراً وترفع التوبة في لحظات الحياة الأخيرة وتحل المأساة الكبرى والعذاب الدائم المقيم. . .

(أيها الناس إنه من استنصح الله وفق ومن اتخذ قوله دليلاً هدي «للتي هي أقوم» فإن جار الله آمن وعدوه خائف وأنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له) هذه موعظة للناس وتوجيه لهم نحو سعادتهم وعزتهم فمن طلب النصح من الله وفقه الله للخير لأن الله بيده مفاتيح الهداية ومن اعتمد على قول الله واتخذه هادياً له ودليلاً فإنه يهدي لأصلح الطرق وأفضلها ومن كان طريقه وفق إرادة الله فهو جار لله قريب منه وجار الله آمن في الدنيا كما هو آمن في الآخرة ففي الدنيا يملك رؤية واضحة حقيقية وهي أن الله بيده الأمور وهو مالك للدنيا وما فيها ولا يجري أمر إلا بقضائه وقدره فهو بعين الله فتطمئن نفسه ويرتاح قلبه وأما في الآخرة فإنها السعادة الأبدية التي تنتظره.

ونبه الحاضرين إلى أمور ولفت نظرهم إليها:

١ ـ إن من عرف عظمة الله وعلوه يجب أن لا يجعل نفسه عظيماً ويرتفع عن أوامره وتكاليفه بل إن الإنسان إذا عرف عظمة الله فتواضع له ارتفع وعلا فكان سبب علوه تواضعه لله وهذا أمر طبيعي لأن التواضع لله هو امتثال أمره والاتصال به ومن اتصل بالله اتصل بأقوى الأسباب وأمتنها فيستمد منه العظمة في قلوب الناس.

٢ ـ سلامة من يعلمون قدرته حيث يعلمون أنه القوي الشديد الذي لا يقف في وجهه شيء أن يستسلموا له أي يسلموا له فيطيعوا أمره ويتركوا نهيه.

(فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب والباري من ذي السقم واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه) بعد أن ردهم إلى الله وأمرهم أن يكونوا معه رغبهم في الحق وقال لهم: لا تبتعدوا عن الحق وتهربوا منه كهروب الصحيح

السليم من المريض بالجرب أو المعافى من صاحب العلة فإن الناس الأصحاء يهربون من الأمراض خوف العدوة فأنتم لا تسلكوا نفس الطريق عندما تقابلون الحق وترونه بل بادروا إليه واعملوا به. . .

ثم نبههم إلى أن معرفة الحق والرشد والهدى لا تكون إلا بعد معرفة من تركه وهم أئمة الضلال الذين عاندوا الله ورسوله وحاربوا عباده.

وكذلك لن تأخذوا بأحكام الكتاب وتعملوا بها إلا إذا عرفتم الذي نقضه فتحاربوه وتردعوه وكذلك لن يصدق أنكم تمسكتم به وعملتم بمضمونه إلا إذا عرفتم الذي طرحه وحاربه فتحاربوه وتتخلوا عنه وذلك لأن البراءة من أهل الضلال تعادل الولاء لأهل الحق.

(فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق) أمرهم أن يطلبوا الرشد والحق من عند أهله وهم نفسه الشريفة وأبناؤه ووصفهم بحقيقتهم وما هي عليه. . . وصفهم بما فيهم وهي:

١ ـ إنهم عيش العلم وموت الجهل ففيهم حياة العلم وموت الجهل بهم يكون وجود العلم والانتفاع به وبهم يمحى الجهل ويبطل العمل به.

٢ ـ يخبركم حكمهم عن علمهم: فأحكام أهل البيت وما نقل عنهم يدل على علمهم وسعته وغزارته وعمقه ودقته.

٣ ـ وصمتهم عن منطقهم: لأن الصمت من البليغ الفصيح يحكي عن المنطق بل ربما كان الصمت أبلغ من المنطق في بعض حالاته، أو لأن سكوتهم حجة لأنه تقرير يؤخذ به فلو سكت المعصوم عن فعل قام به أحد الناس يؤخذ من سكوته شرعية ذلك الفعل. . .

٤ ـ وظاهرهم عن باطنهم: أي سلوكهم ومنطقهم وسيرتهم يحكي ذلك عن نواياهم ونفوسهم الطيبة فإن حسن الظاهر يحكي عن حسن الباطن غالباً خصوصاً إذا امتد طويلاً. . .

٥ ـ لا يخالفون الدين: هم رعاته ودعاته وأهله يحكون أحكامه وتشريعاته وأخلاقه وآدابه. . يتبعونه ولا يخالفونه فإنهم معصومون منزهون عن الخطأ والنسيان.

٦ ـ ولا يختلفون فيه: وكيف يختلفون فيه وهم يأخذون من عين واحدة وقد زودهم الله بالعصمة التي تمنعهم من الوقوع في الخطأ والاختلاف. . .

٧ ـ فهو بينهم ـ الدين ـ شاهد صادق وصامت ناطق. . . فالدين شاهد صادق على عدم الاختلاف فيما بينهم إذ كلام اللاحق منهم يصدق السابق وكلام السابق متسق متفق فيما بينه وكذلك هذا الدين صامت في شهادته ولكنه ناطق ببيانه ولسانه من حيث إنهم معه متفقان لا يفترقان ومتوحدان لا ينفصلان. . .

وقال بعضهم: إن قوله: شاهد صادق يعني أن الدين شاهد صادق يأخذون بحكمه كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق وهو صامت لأنه لا ينطق بنفسه فلا بد له من مترجم فهو صامت في الصورة بينما في المعنى أنطق الناطقين لأن الأوامر والنواهي والآداب كلها مبنية عليه ومتفرعة عنه. . .

١٤٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

في ذكر أهل البصرة

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ(١) عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ(٢) إِلَى اللهِ بِحَبْلٍ، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ(٣). كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ(٤) لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيل يُكْشَفُ قِنَاعُهُ(٥) بِهِ! وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ(٦) هذَا نَفْسَ هذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هذَا عَلَى هذَا. قَدْ قَامَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ ٱلْمُحْتَسِبُونَ(٧)! فَقَدْ سُنَّتْ(٨) لَهُمُ السُّنَنُ(٩)، وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ(١٠) عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ. وَاللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ(١١)، يَسْمَعُ ٱلنَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ ٱلْبَاكِيَ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ!.

اللغة

١ ـ عطف : الشي عليه اماله إليه وجذبه إلى نفسه.
٢ ـ لايمتان : لا يتصلان ولا يتقربان، لا يتوسلان.
٣ ـ السبب : الحبل ويستعمل لكل ما يتوصل به إلى الشيء.
٤ ـ الضب : الحقد.
٥ ـ القناع : جمع أقنعة ما تغطى به المرأة رأسها.
٦ ـ انتزع : الشيء قلعه من مكانه.
٧ ـ المحتسبون : طالبوا الحسبة وهي الأجر.
٨ ـ سنت : بيّنت وشرعت.
٩ ـ السنن : الطريقة، الشريعة والسنن من الطريق اوضحه.
١٠ ـ الضلة : الضلالة ضد الهدى.
١١ ـ اللدم : الضرب باليد على الصدر وهو من فعل الحزين.

الشرح

(كل واحد منهما يرجو الأمر له، ويعطفه عليه دون صاحبه لا يمتان إلى الله بحبل ولا يمدان إليه بسبب كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعما قليل يكشف قناعه به والله لئن اصابوا الذي يريدون لينتزعن هذا نفس هذا وليأتين هذا على هذا) في هذا الكلام الشريف بيان حال طلحة والزبير وما يحمل كل منهما في نفسه نحوالآخر ولماذا خرجا عليه. . .

فكل واحد منهما ـ طلحة والزبير ـ يرجو أن يكون أمر الخلافة له ويعمل لذلك ويجذبة إليه دون غيره وقد صرح بهذا كل منهما ونقل الرواة ما كان منهما في هذا السبيل قال ابن أبي الحديد: ذكر ارباب السيرة أن الرجلين اختلفا من قبل وقوع الحرب فإنهما اختلفا في الصلاة ـ من يصلي بالناس ـ فأقامت عائشة محمد بن طلحة[1] وعبد الله بن الزبير يصلي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن تنقضي الحرب.

ثم اختلفا في الإمارة فأمرت عائشة الناس أن يسلموا عليهما معاً بالإمارة.

ثم نفى أن يكون ذلك الخروج عليه منهما أن يكون لله أو يكون له مايبرره بل كله عدوان صارخ على حقه وعلى حق الدين إذ بعد أن انعقدت له الخلافة وبايعاه معاً من جملة من بايعوا كيف يكون نقضهما للبيعة ونكثهما للعهد ولما اعطيا من ميثاق.

وأشار بقوله «كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه» إن كل واحد منهما يحمل حقداً على الآخر ويتربص به الفرص للخلاص منه.

وعما قليل تتكشف الأمور فإنه جمر تحت الرماد وحقدهما سوف يظهر وينكشف للناس. . .

ثم حلّف بالله وهو صادق بار إنهما لو انتصرا في حربهما وصارت الخلافة لهما ليأتي أحدهما على الآخر ويقضي عليه ولا يتركه على قيد الحياة وذلك لأن حربهما للإمام لم تكن لله وإنما كانت من أجل الخلافة وحباً بها فإذا صارت لهما ودارت بينهما وقع النزاع والخلاف وتحولت إلى أقوى الطرفين وأشد الخصمين وهذا أمر طبيعي فيمن أحب الدنيا والرئاسة والزعامة وقطع النظر عن الله والآخرة وقد قيل «الملك عقيم» أي لا يترك أحداً ينازع صاحبه.

---

(١) ابن أبي الحديد ج ٩ ص ١١٠.

(قد قامت الفئة الباغية فأين المحتسبون فقد سُنت لهم السنن وقدم لهم الخبر ولكل ضلة علة ولكل ناكث شبهة والله لا أكون كمستمع اللدم يسمع الناعي ويحضر الباكي ثم لا يعتبر) أشار عليه السلام إلى هؤلاء القوم ـ أهل الجمل ـ وإنهم الفئة التي بغت عليه وخرجت على حكمه ثم استفهم متحسراً ومتأسفاً أين هم الذين يطلبون الأجر ويبغون الثواب؟ أين هم عن جهاد هؤلاء فإن جهادهم فيه الأجر فقد بُيّن لهم طريق الشرع في قتالهم وجاء الخبر عن النبي إنه عليه السلام يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وقد روى هذا الخبر العامة والخاصة ثم بين أن لكل ضلالة علة وسبب وعلة هذه الفئة الحسد والبغي والتعدي على حدود الله وكذلك لكل ناكث عهد ولم يف ببيعة شبهة وهؤلاء أخذوا دم عثمان شبهة يرفعونها أمام الناس ويحتجون بالمطالبة بالثأر له ولكنها شبهة باطلة مزّيفة لا يريدون من ورائها إلا الخلافة وزرع الفتنة بين المسلمين وفي الحقيقة إنهم لم يرفعوا قميص عثمان ويطالبوا بدمه حباً به ورغبة في إحقاق الحق وإقامة العدل وإنما كانوا يرفعون القميص لغاية في نفس يعقوب عرفها أهل الدين والبصيرة بل كل مسلم له أبسط اطلالة على الأحداث يعرف أن طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة كانوا من أشد الناس عداوة لعثمان وكانوا يبغون له الغوائل ويحثون المسلمين على جهاده والتخلص منه. . .

ثم حلف أخيراً إنه لا يكون كمستمع اللدم كناية عن الضبع فإنها عندما تسمع صوت الحجر من الصائد تنخذل وتكف حتى يدخل عليها فيربطها ويأخذها: فيقول: لا أغفل عن كيد الأعداء وأفعالهم وما يعملون وانتظر اترقب صوت الناعي بفقد الأحبة والبكاء عليهم ثم لا أحرك ساكناً ولا أرد معتدياً. . .

١٤٩ - ومن كلام له عليه السلام

قبل موته

أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ ٱمْرِىءٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ(١). وَٱلْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ(٢). كَمْ أَطْرَدْتُ(٣) الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ(٤) هذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ(٥) إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ! أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللهَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ. وأَوْقِدُوا(٦) هذَيْنِ ٱلْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ(٧) مَا لَمْ تَشْرُدُوا(٨). حُمِّلَ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ ٱلْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ(٩)، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا ٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ(١٠) لَكُمْ، وَغداً مُفَارِقُكُمْ! غفرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ!.

إِنْ تَثْبُتِ ٱلْوَطأَةُ(١١) فِي هذِهِ ٱلْمَزَلَّةِ(١٢) فَذَاكَ، وَإِنْ تَدْحَضِ(١٣) ٱلْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ(١٤) أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَاحٍ(١٥)، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، ٱضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُها(١٦)، وَعفَا(١٧) فِي الأَرْضِ مَخَطُّها(١٨). وإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً(١٩). سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُم هُدُوِّي(٢٠)، وَخُفُوتُ(٢١) إِطْرَاقِي(٢٢)، وَسُكُونُ أَطْرَافِي(٢٣) فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْبَلِيغِ وَالقَوْلِ ٱلْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ ٱمْرِىءٍ مُرْصِدٍ(٢٤) لِلتَّلَاقِي! غداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي.

اللغة

١ ـ مساق النفس : ما تسوقها إليه اطوار الحياة حتى توافيه.
٢ ـ الموافاة : الإتيان.
٣ ـ الطرد : الإبعاد وأطردت الرجل إذا أمرت بإخراجه وطردته إذا أخرجته.
٤ ـ المكنون : المستور.
٥ ـ أبى الله : كرهه ولم يرضه، امتنع.
٦ ـ أوقدوا : النار اشعلوها.
٧ ـ خلاكم ذم : برئتم من الذم.
٨ ـ تشردوا : تنفروا وتبتعدوا من شرد البعير إذا ند ونفر.
٩ ـ قويم : معتدل.
١٠ ـ العبرة : العظة.
١١ ـ الوطأة : موضع القدم من الوطي وهو الدوس بالرجل.
١٢ ـ المزلة : الزلق والسقوط.
١٣ ـ تدحض : تزّل وتنزلق.
١٤ ـ الأفياء : جمع فيء الظل.
١٥ ـ مهب الريح : محل هبوبها.
١٦ ـ متلفقها : من تلفق الشيء إذا انضم واجتمع.
١٧ ـ عفا : اندرس وذهب.
١٨ ـ المخط : الأثر.
١٩ ـ جثة خلاء : جثة خالية من الروح.
٢٠ ـ هدوي : سكوني.
٢١ ـ الخفوت : السكون.
٢٢ ـ اطراقي : من أطرق إذا أرخى عينيه إلى الأرض لضعف جفنيه.
٢٣ ـ اطرافي : جمع الطرف بالتحريك وهي الأعضاء كاليدين والرجلين.
٢٤ ـ مرصد : منتظر من أرصد أنتظر.

الشرح

(أيها الناس كل أمرىء لاقٍ ما يفر منه في فراره، الأجل مساق النفس والهرب منه موافاته كم اطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلا إخفاءه هيهات علم

مخزون) هذه وصية الإمام بعد أن ضربه اللعين ابن ملجم وهي تتضمن موعظه غالية للناس ليستعدوا ويتأهبوا للموت ويتعظوا به ويأخذوا العبرة من مقامه الذي هو فيه الآن. . .

كل إنسان يفر من الموت وفي أثناء فراره يجده لأن مدة فراره تذهب بأيامه وفيها ذهاب عمره وأتيان أجله قال تعالى: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم. .﴾.

والأجل وهو الموت يسوق النفس إلى نهايتها وتنتهي عنده فإذا هرب منه فكأنه يهرب إليه باعتبار احاطته به وسيطرته عليه.

ثم بين إنه كان يطرد الأيام بقوة وشدة فإذا مضى يوم لم يستشهد فيه طرده ليأتي غيره عسى أن يكشف له عن شهادته ويحمل له سعادته فيأبى الله أن يظهر له أو يكشفه بل يبقى وقت الشهادة مجهولاً إنه من العلم المخزون عند الله الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه والإمام كان يعرف إنه يذهب شهيداً وفي بعض الأخبار يعرف قاتله بل يعرف بعض الخصوصيات لقتله ولكن يبقى هناك علم مكنون عند الله لم يظهره لأحد من خلقه به نقدر أن نفسر الشهادة ونرفع عن الإمام تهمة إلقاء النفس في التهلكة وليس في هذا الأمر الإلهي غضاضة على الإمام أو حط من شأنه لأنه ليس فيه تكليف قد أخل به أو اخطأ. . .

(أما وصيتي: فالله لا تشركوا به شيئاً ومحمداً صلى الله عليه وآله فلا تضيعوا سنته أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذم ما لم تشردوا) أما وصيتي التي أريدها منكم وأريد لكم أن تعملوا بها وتتنبهوا لها:

فالله لا تشركوا به شيئاً وهذا هو مفتاح النجاح فإن من وحد الله ورفض كل ما سواه استدعى منه أن يعمل بكل ما أمر ويترك كل ما نهى وبهذا يصدق التوحيد.

وأما النبي محمد فلا تضيعوا سنته أي اقيموها وأعملوا بها ولا تهملوها أو تسوفوا في تطبيقها ومن وحّد الله وعمل بسنة رسول الله فقد فاز ونجح وقد شبههما الإمام بعمودي الخيمة التي تقوم عليهما وهما عمودي الإسلام الذي ينهض بهما وترتفع أعلامه بهما، عليهما يقوم نظام المسلمين في معاشهم ومعادهم كما إنه عليه السلام شبههما بالمصباحين لأنهما يهديان إلى جنات النعيم ويضيئان الدرب إلى الحق المبين. . فإذا تم هذا لكم فلا ذم عليكم بعده وقد برئتم من كل ما يعيبكم أو يحط من شأنكم إذا استمررتم على ذلك ولم ترتدوا عنه أو تتفرقوا عنه إلى غيره. . .

(حمل كل امرىء منكم مجهوده وخفف عن الجهلة رب رحيم ودين قويم وإمام عليم) لما أمرهم بتوحيد الله والعمل بسنة رسول الله وكان هذا تكليف كبير أراد أن يخفف

عنهم همهم فقال كل إنسان يحمل قدر طاقته ويحاسب قدر معرفته فلا يحاسب القاصر كما يحاسب المقصر ولا يحاسب من وصله البيان كما يحاسب من لم يصله البيان وقد خفف عن الجهلة فلا يحاسبوا حساب العلماء فربات الحجال وأهل الغباوه لا يحاسبهم الله حساب من يعرف الحقيقة وفحص ومحّص حتى توضحت امامه الأمور.

ثم وصف الله بالرحمة فهو الرحمن الرحيم يغفر لمن أخطأ وأساء إذا تاب وأناب كما أن هذا الدين مستقيم لا عوج فيه فهو دين ينسجم مع الفطرة ويتوافق مع العقل ليس فيه شيء ينكر أو أمر يستبعد.

وأراد بالإمام العليم رسول الله فإنه العليم بكل اسرار الحياة والكون وما يوصل إلى الله ويبلغ به الإنسان الجنة ودار السلام.

ويمكن أن يريد به نفسه وكل إمام في زمانه لأن الأئمة امتداد لرسول الله وخلفاؤه وهم علماء الأمة وقادتها اعطاهم الله من علمه ما يغطون به حاجة الإنسان في الدنيا وما يوصله إلى الآخرة بسلام وأمان...

(أنا بالأمس صاحبكم وأنا اليوم عبرة لكم وغداً مفارقكم غفر الله لي ولكم) فبالأمس كنت صاحبكم الذي تعهدونه بالقوة والرأي والأمر والنهي والشجاعة والإقدام وأما اليوم فأناعبرة لكم لأنني بين أيديكم صريع هذه الضربة الظالمة الكافرة ملقى صريعاً ضعيف الحركة اعالج سكرات الموت فاستعدوا لمثل هذه الساعة وتأهبوا لمثل هذا الوقت الصعب وأما غداً فأنا مفارقكم سأترككم وأرحل إلى الرفيق الأعلى سأترك الدنيا وطلابها وما فيها غفر الله لي ولكم...

(إن تثبت الوطأة في هذه المزلة فذاك وأن تدحض القدم فإنا كنا في أفياء أغصان ومهاب رياح وتحت ظل غمام اضمحل في الجو متلفقها وعفا في الأرض مخطها) إن بقيتُ بعد هذه الضربة ولم أمت فذاك تقدير الله وما تحبون وإن أمت بها فإنا كنا في دنيا سريعة الزوال كما هو الحال في أفياء الأغصان التي تنقضي بسرعة ومحل هبوب الرياح التي تمر بعجلة وتحت ظل غمام لا تلبث الغمام أن تتفرق في الجو وتذهب وحدتها ولا يبقى لها أثر في الأرض أو عليها...

شبه وجوده فيها بهذه الأمور التي تذهب وتزول بسرعة...

(وإنما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً وستعقبون مني جثة خلاء ساكنة بعد حراك وصامتة بعد نطق ليعظكم هدوي وخفوت اطراقي وسكون اطرافي فإنه أوعظ للمعتبرين

من المنطق البليغ والقول المسموع) لقد جاورتكم ببدني أياماً قليلة اشارة إلى أن نفسه الشريفة كانت متعلقة بالملأ الأعلى متصلة بالله وستجدون في عاقبة أمركم مني جسداً خالياً من الروح وجثة هامدة بعد حراك وصامتة بعد نطق فتلك الحركة وذلك المنطق توقفا فلا حركة ولا كلام فهذا الشجاع البطل الذي كان يتحرك في ميادين القتال قد توقفت حركته وتعطلت وهذا الخطيب البليغ الفصيح قد أخرسه الموت فتوقف عن الكلام إنها عبرة يوجههم إليها ويقول لهم ليعظكم سكوني الذي أنا فيه وهذه الوقفة المتداعية مني التي لا أملك فيها رفع عيني عن الأرض ولا أقدر على أن أحرك أطرافي من رأسي ورجلي إلى غيرها. . فإن هذا الذي ترون مني أوعظ لمن أراد أن يعتبر من الواعظ البليغ الفصيح ومن أعظم قول يستحق السمع والانتباه إليه وهذا أمر طبيعي فإن المتكلم البليغ والكلام المسموع ما هو إلا حكاية عن واقع وصورة عن حقيقة فمهما كان تأثير ذلك لن يكون كإحضار الحقيقة نفسها ووجود المحكي بعينه ومهما يعظ الخطباء في الموت لن يصل ذلك إلى مستوى (أن) يرى الإنسان جثة ميت ويبيت معها ليلة واحدة منفرداً. . .

(وداعي لكم وداع امرىءٍ مرصد للتلاقي، غداً ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري وتعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي) إنها كلمة الوداع التي يطلقها المفارق للأحبة. . . وداعي لكم وداع امرىء مهيأ للقاء الله منتظر لرحمته. . إنه أمل المحبين والعاشقين وغداً عندما يحكم بنو أمية ترون أيامي الماضية وما كانت تحمله لكم من العز والكرامة وتعرفون أنني لم أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين إلا لأحقاق الحق وإزهاق الباطل والقضاء على المنكرات. . وإنه سيكشف لكم عن سرائري وما كنت أنويه وإنني لم أكن أبغي الملك والسلطان وإنما كان همي أن أقيم الحق والعدل. . وستعرفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي فعندما انتقل إلى الله وتخلو الساحة لمعاوية ولبني أمية ستعرفون حاجتكم لي وستبكون على تلك الأيام التي مرت عليكم في حياتي. . ستعرفون جيداً ما تحمله الأيام المقبلة من ظلم وعدوان ومن مفاسد وقبائح وعندها تعرفون حقي وما كنت أريده لصالحكم وصالح الإسلام. . .

١٥٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يومي فيها إلى الملاحم ويصف فئة من أهل الضلال

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً[١] فِي مَسَالِكِ[٢] الغَيِّ[٣]، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ[٤]. فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ[٥]، وَلاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ[٦] أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ اليَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ[٧] غَدٍ! يَا قَوْمِ، هذَا إِبَّانُ[٨] وُرُودِ[٩] كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ[١٠] مِنْ طَلْعَةِ[١١] مَا لاَ تَعْرِفُونَ. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ[١٢] مُنِيرٍ، وَيَحْذُو[١٣] فِيهَا عَلَى مِثَالِ[١٤] الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً[١٥]، وَيُعْتِقَ[١٦] فِيهَا رِقّاً[١٧]، وَيَصْدَعَ[١٨] شَعْباً، وَيَشْعَبَ[١٩] صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ[٢٠] عَنِ النَّاسِ لاَ يُبْصِرُ القَائِفُ[٢١] أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ[٢٢] فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ القَيْنِ[٢٣] النَّصْلَ[٢٤]. تُجْلَى[٢٥] بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ[٢٦] كَأْسَ الحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ[٢٧].

في الضلال

منها: وَطَالَ الأَمَدُ[٢٨] بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الخِزْيَ[٢٩]، وَيَسْتَوْجِبُوا الغِيَرَ[٣٠]؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ[٣١] الأَجَلُ[٣٢]، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الفِتَنِ، وَأَشَالُوا[٣٣] عَنْ لَقَاحِ[٣٤] حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا[٣٥] عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ[٣٦] القَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ البَلاَءِ حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا[٣٧] لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ حَتَّى إِذَا

قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ[٣٨] السُّبُلُ[٣٩]، وَاتَّكَلُوا[٤٠] عَلَى الوَلَائِجِ[٤١]، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا البِنَاءَ عَنْ رَصِّ[٤٢] أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ[٤٣]. قَدْ مَارُوا[٤٤] فِي الحَيْرَةِ[٤٥]، وَذَهَلُوا[٤٦] فِي السَّكْرَةِ، عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ[٤٧]، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ[٤٨].

اللغة

١ ـ ظعن : ظعناً سار.
٢ ـ المسالك : جمع مسلك الطريق.
٣ ـ الغي : الضلال.
٤ ـ الرشد : الاستقامة على طريق الحق، ضد الغي.
٥ ـ مرصد : منتظر.
٦ ـ ودّ : أحب وتمنى.
٧ ـ التباشير : للصبح أوائله.
٨ ـ إبّان : الشيء وقته.
٩ ـ الورود : ضد الصدور، القدوم.
١٠ ـ الدنو : القرب.
١١ ـ الطلعة : الظهور.
١٢ ـ السراج : إناء ونحوه يوضع فيه زيت ونحوه يستضاء به.
١٣ ـ يحذو : يقتفي.
١٤ ـ المثال : الشبه، النظير.
١٥ ـ الربق : بالكسر فالسكون حبل فيه عدة عرى يشدّ بها البُهم وكل عروة ربقة.
١٦ ـ يعتق : يحرر.
١٧ ـ الرق : العبودية.
١٨ ـ يصدع : يفرّق.
١٩ ـ يشعب : يجمع.

٢٠ ـ السترة : الخفاء.
٢١ ـ القائف : الذي يعرف الآثار فيتبعها.
٢٢ ـ يشحذن : من شحذ السكين إذا حددها.
٢٣ ـ القين : الحداد.
٢٤ ـ النصل : حديدة السيف والسكين ونحوها.
٢٥ ـ تجلى : تكشف وتظهر.
٢٦ ـ يغبقون : يُسقون والغبوق الشرب بالعشي.
٢٧ ـ الصبوح : ما يشرب بالغداة.
٢٨ ـ الأمد : الوقت.
٢٩ ـ الخزي : الهوان، الذل.
٣٠ ـ الغير : بكسر ففتح أحداث الدهر ونوائبه.
٣١ ـ أخلولق : إذا استوى وصار خليقاً.
٣٢ ـ الأجل : الوقت المضروب.
٣٣ ـ أشالوا : من شالت الناقة ذنبها إذا رفعته.
٣٤ ـ اللقاح : اسم ماء الفحل، لقحت الناقة إذا قبلت اللقاح.
٣٥ ـ يمّنوا : من منّ عليه بما صنع إذا عدّد له ما فعله من الأمور الطيبة.
٣٦ ـ الوارد : ضد الصادر، فهو وارد الماء أي صار إليه.
٣٧ ـ دانوا : أطاعوا.
٣٨ ـ غالتهم : أهلكتهم.
٣٩ ـ السبل : الطرق.
٤٠ ـ اتكلوا : اعتمدوا، ووثقوا.
٤١ ـ الولائج : جمع وليجة البطانة خاصة الرجل من أهله وعشيرته.
٤٢ ـ الرّص : مصدر رصصت الشيء أرصه أي ألصقت بعضه ببعض.
٤٣ ـ الغمرة : الضلال والجهل، الشدة.
٤٤ ـ ماروا : تحركوا واضطربوا.
٤٥ ـ الحيرة : الضلال وعدم الاهتداء، جهل وجه الصواب.
٤٦ ـ ذهلوا : عن الشيء نسوه.
٤٧ ـ راكن : مخلد.
٤٨ ـ مباين : مزايل.

الشرح

(وأخذوا يميناً وشمالاً ظعناً في مسالك الغي وتركاً لمذاهب الرشد فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد فكم من مستعجل بما أن أدركه ودّ أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غدٍ) يذكر بعض فرق الضلال الذين زاغوا عن طريق الحق وذهبوا في متاهات الانحراف بين الإفراط والتفريط ولم يسلكوا طريق الهدى وما شرّعه الإسلام وسنّه.

ثم نهاهم عن استعجال ما هو كائن وما لا بدّ أن يوجد مما كانوا يتوقعونه من الفتن التي أخبرهم النبي بأنها ستقع.

كما نهاهم عن الاستبطاء لما يجيء في الغد القريب لوقوعه وتحققه وعلل ذلك النهي بأن الإنسان ربما استعجل أمراً وأحب الحصول عليه وبذل جهده في تحصيله فلما أدركه تمنى أن لم يكن حصل عليه ولا بذل جهده في سبيله كما لو ضحى الإنسان من أجل امرأة وسعى للوصول إليها فلما صارت عنده ظهر منها قبيح الصفات والأفعال فيتمنى عندها أنه لم يسع في سبيل ذلك كما يتمنى عندها لو أنه لم يدركها.

ثم لما نهاهم عن استبطاء ما يجيء به الغد أشار إلى قرب الغد من اليوم وأن طلائعه قد ظهرت وأوائله قد بانت وما أقربه من اليوم، إنه متصل به لا يفصله عنه فاصل...

(يا قوم هذا إبّان ورود كل موعود ودنوٍّ من طلعة ما لا تعرفون ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير ويحذو فيها على مثال الصالحين) ينبههم إلى أن هذا الوقت هو وقت الأمور الموعودة التي تأتي قبل يوم القيامة وتكون من علامات حدوثها وهذا وقت قرب ظهور ما لا تعرفون من الأمور لأنها أمور على خلاف ما اعتاده الناس...

ثم ذكر سيرة أهل البيت وكيف يكون مسيرهم وقتها وسلوكهم خلالها، إنهم يسيرون برؤية واضحة من تعاليم الإسلام حيث توجد عندهم المعالم الواضحة التي تهدي إلى الحق وتميز بينه وبين غيره من الباطل وكذلك إنَّ لهم من سيرة الصالحين من أهلهم وما تركوه لهم ما يكفي للنجاة من العثار والوصول إلى شاطىء السلامة والأمن والطمأنينة...

(ليحل فيها ربقاً ويعتق فيها رقاً ويصدع شعباً ويشعب صدعاً في سترة عن الناس لا

يبصر القائف أثره ولو تابع نظره ثم ليُشحذن فيها قوم شحذ القَيْن النصل تجلى بالتنزيل أبصارهم ويرمى بالتفسير في مسامعهم ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح) وهذا الإمام الذي يكون أثناء تلك الفتن يكون له أعظم دور وأهمه إذ مضافاً إلى سيرته الشخصية الصالحة يتولى أمور الناس، فهو يحل الأسرى ويحررهم ويطلق سراحهم أو أنه يزيل الشك من نفوسهم ويحررها من العبودية لغير الله. . .

كما أنه يفرق جمعاً التقوا على الضلال والانحراف ويجمع قوماً تفرقوا عن حقهم. . .

ومن خصوصياته أنه مستور عن الناس لا يعرفونه بهذه الصفة وهذه الخصوصية ولا يكاد يبصره الخبير بالآثار ولو دقق النظر واتبع الأثر ومن هنا كان الأئمة في وصيتهم أن لا يذيعوا سراً.

وكون الإمام مستوراً ينطبق على الإمام المهدي محمد بن الحسن عليه السلام وهذا تصريح من الإمام علي به وقد تعب أصحاب الحق وكبار العلماء وتمنوا رؤيته فلم يحظى بذلك إلا بعض السعداء الذين كحلوا أنظارهم بطلعته وسعدوا برؤيته وقد صرح ابن أبي الحديد أن كلام الإمام هنا إنما هو في ذكر «مهدي آل محمد صلى الله عليه وآله» ثم أراد أن يشكك فيما عليه الشيعة من أنه محمد بن الحسن بدعوى أنه سيخلقه الله فيما بعد وهذه حجة ساقطة منه يدحضها ما ورد عن النبي من أخبار يذكره باسمه واسم أبيه وكذلك ما ورد عن الأئمة من آبائه. . .

ثم ذكر أنصار هذا الإمام المهدي وما فيهم من صفات إنهم قوم يتخرجون عن يديه رجالاً عظماء عباقرة الفكر والنظر دقيقين في كل علومهم ومعارفهم أقوياء في حججهم وبيناتهم تجلى بالقرآن ظلمات بصائرهم ويكشف الرين به عن قلوبهم وبواسطة هذا الإمام وتفسيره وتثقيفه يلهمون دقائق علوم القرآن ومعارفه.

ثم أشار إلى أن هؤلاء الذين يتخرجون عن أيدي الأئمة يعيشون في عالم أخذ الحكمة والمداومة على تناولها واللذة الدائمة في الحياة معها وهذا يصدق على فقهاء أهل البيت عليهم السلام فإنهم بهذه الأوصاف فإن هممهم تطال الجبال ولا يكلّون أو يملّون تجد المرجع منهم ابن التسعين ومع ذلك يعيش هموم الناس وقضاياهم ويرد على من استفتاه ويجلس في الدرس يباحث ويقبل المناقشة ويتمتع بفكر حر وعقل كبير يعجز القلم عن وصفه. . .

(وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغير حتى إذا اخلولق الأجل

واستراح قوم إلى الفتن وأشالوا عن لقاح حربهم لم يمنوا على الله بالصبر ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء حملوا بصائرهم على أسيافهم ودانوا لربهم بأمر واعظهم) قالوا: إن هذا الكلام يتصل بكلام قبله لم يذكره الرضي يذكر فيه وصف فئة ضالة امتدت أيامها طويلاً وعمرت في الملك كثيراً من أجل أن تبلغ الدرجة العليا في المهانة والذل ويستوجبوا تغيير نعم الله عليهم بأضدادها بسوء فعلهم وأعمالهم وبقوا كذلك حتى إذا قرب موعد انتهاء حكمهم وزوال ملكهم وقد استراح بعض الناس واستسلموا للفتن التي تعم البلاد وكفوا أيديهم عن قتال هؤلاء القوم الضالين ورفعوا سيوفهم عنهم إما لعجزهم أو لأمر آخر وأنهم وإن كانوا كذلك ولكنهم يملكون نفوساً طيبة إذ لم يمنوا على الله بجهادهم لأعدائهم ولم يروا لأنفسهم عظيم أمر إذا قدموا أنفسهم وبذلوها في سبيل الحق والعدل وإنما عدوا ذلك واجباً مقدساً يقومون به وبقوا هكذا وعلى هذه الطريقة... القلوب مملوءة بالحب لله... والاستقامة على الطريق، والبذل في سبيله... إنهم وطنوا أنفسهم على ذلك حتى إذا قدر الله لهذا الحكم الظالم أن يزول وللبلاء أن يرتفع بأن تزول دولة الأشرار وممارساتهم الظالمة في العباد قام هؤلاء المؤمنون عندها وقد حملوا بصائرهم على أسيافهم قال ابن أبي الحديد في تفسير هذه العبارة: يعني أنهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس وكشفوها وجردوها من أجفانها مع تجريد السيوف من أجفانها فكأنها شيء محمول على السيوف يبصره من يبصر السيوف ولا ريب أن السيوف المجردة من أجلى الأجسام للأبصار فكذلك ما يكون محمولاً عليها...

وعندي تفسير آخر محتمل وهو أنهم جعلوا السيوف تتحرك وفق بصائرهم من الإيمان والعقيدة فكانوا يقاتلون ويعرفون لماذا يقاتلون ويشهرون السيوف... وإنهم لالتزامهم أذعنوا لله وأطاعوه بما أمرهم به وأرشدهم إليه واعظهم وهو الرسول الأكرم أو الإمام...

(حتى إذا قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله رجع قوم على الأعقاب وغالتهم السبل واتكلوا على الولائج ووصلوا غير الرحم وهجروا السبب الذي أمروا بمودته ونقلوا البناء عن رص أساسه فبنوه في غير موضعه، معادن كل خطيئة وأبواب كل ضارب في غمرة قد ماروا في الحيرة وذهلوا في السكرة على سنة من آل فرعون من منقطع إلى الدنيا راكن أو مفارق للدين مباين).

ذكر الصحابة.

ذكر حال الصحابة بعد وفاة رسول الله وأن قوماً منهم غيروا وبدلوا وارتدوا وقد

ذكر بعض ما فعلوا في ضمن أمور:

١ ـ رجع قوم على الأعقاب: عادوا إلى جاهليتهم فارتدوا عن الإسلام كما قال تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا. . .**﴾(١)].

٢ ـ وغالتهم السبل: أهلكتهم الآراء التي اعتمدوها وذهبوا إليها لأنها لم تستند إلى كتاب الله أو سنة رسول الله.

٣ ـ اتكلوا على الولائج: اعتمدوا في أخذ قراراتهم على بطانتهم التي هي أقاربهم وخواصّهم ومن ينتفع بوجودهم وهذه البطانة أفسدت وما أصلحت وضلت وأضلت وأصدق شاهد على ذلك ما ذهب إليه عثمان أيام خلافته حيث اعتمد على الأمويين وكان مروان بن الحكم مستشاره الخاص وصاحب سره والناطق باسمه حتى تحول إلى أن يكون هو الخليفة ولكن في ثوب عثمان. . .

٤ ـ ووصلوا غير الرحم: إنهم أمروا بأن يوصلوا رحم رسول الله وهم أهل بيته فقطعوها ووصلوا غيرها ممن لا تستحق الصلة. . .

٥ ـ هجروا السبب الذي أمروا بمودته: والسبب الذي أمروا بمودته هم آل رسول الله حيث أجمعت الأمة على صحة ما ورد عنه صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: «خلفت فيكم الثقلين: كتاب الله(٢) وعترتي أهل بيتي حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض».

وقد أمر الله الأمة بمودة أهل البيت حيث قال تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. .**﴾(٣).

٥ ـ نقلوا البناء عن رص أساسه فبنوه في غير موضعه: الإسلام كلٌّ لا يتجزأ وكل حكم في موقعه تناول أعظم أمور الأمة من الإمامة والولاية إلى أصغرها وأحقرها كدخول الحمام وبيت الخلاء لا تجد فيه زيادة ولا نقيصة أكمله الله وأتمه وهؤلاء الصحابة قد نقضوا هذا البناء المحكم المرصوص المتصل المتكامل وغيّروا مواقع الأمور وأبدلوها. . . نقلوا أعظم قطب في الإسلام عن موقعه وأعطوا الحكم لغير أهله بعد أن

---

(١) سورة آل عمران، آية/ ١٤٤.

(٢) ابن أبي الحديد ج ٩ ص ١٣٣.

(٣) سورة الشورى، آية/ ٢٣.

سلبوه من أهله . . . إنه بناء في غير موضعه فمن نقله مجرم ومن أخذه أشد إجراماً . . .

٦ ـ معادن كل خطيئة: لأن كل خطيئة إنما كانت تستند إليهم وكل ضال كان يعتمد عليهم، فلو لم يُبعدوا أهل البيت عن حقهم ويغتصبوا الخلافة منهم لم يستطع أحد أن يجرأ على منابذة أهل البيت أو مخالفتهم، إنهم أسسوا أساس الظلم وشيدوا بناءه ولا يزال أبناؤهم حتى اليوم يحتجون بأفعالهم وكل انحراف يسندونه إليهم لحديث مختلق أو رواية من كذاب لا أصل لها . . .

٧ ـ وأبواب كل ضارب في غمرة: كل ضال ومنحرف يتخرج عن أيديهم ويخرج من أبوابهم لأنهم أساس الضلال وأساتذته.

٨ ـ قد ماروا في الحيرة: فهم حائرون في ترددهم لا يهتدون إلى الحق سبيلاً لأنهم بعد أن تركوا أعلام الهدى وأئمة التقى ضلوا وتحيروا ولم يهتدوا.

٩ ـ ذهلوا في السكرة: أي غابت أفكارهم في سكرة الجهل، وللجهل سكرة منكرة.

١٠ ـ على سنة من آل فرعون: من منقطع إلى الدنيا راكن أو مفارق للدين مباين . . .

من الصحابة من هو على سنة من آل فرعون سنة الضلال والانحراف والخروج عن طاعة الله المؤدي إلى دخول النار إنهم بين رجلين بين رجل انقطع إلى الدنيا فهي عنده كل شيء ولا شيء بعدها قد أخلد إليها وسعى من أجلها وعمل كل شائنة للحصول عليها لا يمنعه دين أو يردعه ضمير أو خلق قويم وبين رجل مفارق للدين مجانب له يحاربه ويحارب من يحمله أو يتدين به . . .

١٥١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يحذر من الفتن

الله ورسوله.

وَأَحْمَـدُ اللهَ وَأَسْتَعِينُـهُ عَلَـى مَـدَاحِـرِ[١] الشَّيْطَـانِ وَمَـزَاجِـرِهِ[٢]، وَالاعْتِصَامِ[٣] مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ[٤]. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ[٥] وَصَفْوَتُهُ. لاَ يُؤَازَى[٦] فَضْلُهُ، وَلاَ يُجْبَرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ البِلاَدُ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ المُظْلِمَةِ، وَالجَهَالَةِ الغَالِبَةِ، وَالجَفْوَةِ[٧] الجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الحَرِيمَ[٨]، وَيَسْتَذِلُّونَ الحَكِيمَ، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ[٩]، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ[١٠]!.

التحذير من الفتن

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ أَغْرَاضُ[١١] بَلاَيَا[١٢] قَدِ اقْتَرَبَتْ. فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ[١٣] النِّقْمَةِ[١٤]، وَتَثَبَّتُوا[١٥] فِي قَتَامِ[١٦] العِشْوَةِ[١٧]، وَاعْـوِجَـاجِ الفِتْنَـةِ عِنْـدَ طُلُـوعِ جَنِينِهَـا، وَظُهُـورِ كَمِينِهَـا[١٨]، وَانْتِصَـابِ قُطْبِهَا[١٩]، وَمَدَارِ[٢٠] رَحَاهَا[٢١]. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ[٢٢] خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ[٢٣] إِلَى فَظَاعَةٍ[٢٤] جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا[٢٥] كَشِبَابِ الغُلاَمِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلاَمِ[٢٦]، يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالعُهُودِ! أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ[٢٧] عَلَى جِيفَةٍ[٢٨] مُرِيحَةٍ[٢٩] وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ المَتْبُوعِ، وَالقَائِدُ مِنَ المَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ[٣٠] بِالبَغْضَاءِ[٣١]،

وَيَتَلاَعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذلِكَ طَالِعُ الفِتْنَةِ الرَّجُوفِ(٣٢)، وَالقَاصِمَةِ(٣٣) الزَّحُوفِ(٣٤)، فَتَزِيغُ(٣٥) قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلاَمَةٍ، وَتَخْتَلِفُ الأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ(٣٦) الآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا(٣٧). مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ(٣٨)، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ(٣٩) فِيهَا تَكَادُمَ الحُمُرِ(٤٠) فِي العَانَةِ(٤١)! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الأَمْرِ. تَغِيضُ(٤٢) فِيهَا الحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ(٤٣) أَهْلَ البَدْوِ(٤٤) بِمِسْحَلِهَا(٤٥)، وَتَرُضُّهُمْ(٤٦) بِكَلْكَلِهَا(٤٧)! يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الوُحْدَانُ(٤٨)، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ(٤٩)، تَرِدُ بِمُرِّ القَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ(٥٠) الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ(٥١) مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ اليَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ(٥٢)، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ(٥٣). مِرْعَادٌ(٥٤) مِبْرَاقٌ(٥٥)، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ(٥٦)! تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الإِسْلاَمُ! بَرِيُّهَا(٥٧) سَقِيمٌ(٥٨)، وَظَاعِنُهَا(٥٩) مُقِيمٌ!.

منها: بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ(٦٠)، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ(٦١) بِعَقْدِ الأَيْمَانِ وَبِغُرُورِ الإِيمَانِ، فَلاَ تَكُونُوا أَنْصَابَ(٦٢) الفِتَنِ(٦٣)، وَأَعْلاَمَ البِدَعِ(٦٤)، وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ، وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ، وَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَمَهَابِطَ(٦٥) العُدْوَانِ، وَلاَ تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ(٦٦) الحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ(٦٧) مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

اللغة

١ ـ **المداحر** : جمع مدحر الأمور التي يدحر بها أي يطرد ويبعد.

٢ ـ **المزاجر** : الأمور يزجر بها أي يكف ويمنع.

٣ ـ الاعتصام : بالله الامتناع بلطفه من المعصية، الالتجاء والامتناع.
٤ ـ المخاتل : الأمور التي يختل بها أي يخدع.
٥ ـ النجيب : الفاضل النفيس في نوعه.
٦ ـ لا يؤازى فضله : لا يساوى يقال: آزيت فلاناً أي حاذيته.
٧ ـ الجفوة : الجافية غلظ الطبع وبلادة الفهم.
٨ ـ الحريم : جمع حُرُم ما حرم فلم يمس.
٩ ـ الفترة : ما بين الرسولين من انقطاع الوحي.
١٠ ـ الكفرة : واحد الكفرات أي الكفر.
١١ ـ الأغراض : الأهداف.
١٢ ـ البلايا : المصايب.
١٣ ـ البوائق : ~~جمع بائقة~~وهي الداهية:
١٤ ـ النقمة : المكافأة بالعقوبة.
١٥ ـ تثبتوا : من التثبت وهو التوقف.
١٦ ـ القتام : الغبار.
١٧ ـ العشوة : ركوب الأمر على غير بيان ووضوح.
١٨ ـ الكمين : الجماعة المختفية في الحرب ترصد العدو.
١٩ ـ القطب : حديد في الطبق الأسفل من الرحى يدور عليها الطبق الأعلى / ملاك الشيء ومداره.
٢٠ ـ المدار : للشيء ما يدور عليه ومدار الأمر ما يجري عليه غالباً.
٢١ ـ الرحا : مؤنثة وهي الطاحونة.
٢٢ ـ المدارج : المسالك.
٢٣ ـ تؤول : ترجع وتعود.
٢٤ ـ الفظاعة : مصدر فظُع بالضم فهو فظيع أي شديد شنيع تجاوز الحد.
٢٥ ـ شبابها : الشباب لكل شيء أوله أي بداياته في عنفوان وشدة كشباب الغلام.
٢٦ ـ السلام : بالكسر الحجارة.
٢٧ ـ يتكالبون : يتنافسون فيها ويقبلون عليها.
٢٨ ـ الجيفة : جمعها جيف واجياف جثة الميت المنتنة.
٢٩ ـ المريحة : المنتنة.
٣٠ ـ يتزايلون : يتفرقون.
٣١ ـ البغضاء : البغض الشديد ضد الحب، الكراهة.
٣٢ ـ الرجوف : من رجف الشيء إذا تحرك واضطرب.
٣٣ ـ القاصمة : الكاسرة.

٣٤ ـ الزحوف : من الزحف وهو السير على تؤده كسير الجيوش.
٣٥ ـ تزيغ : تميل.
٣٦ ـ تلتبس : تختلط، عدم الاتضاح.
٣٧ ـ نجومها : ظهورها.
٣٨ ـ قصمته : كسرته وقصمه الله أذله وقيل قرّب موته.
٣٩ ـ يتكادمون : يعضّ بعضهم بعضاً من الكدم وهو العض بأدنى الفم.
٤٠ ـ الحمر : جمع حمار وله فردان حمار وحشي وحمار أليف.
٤١ ـ العانة : القطيع من حمر الوحش.
٤٢ ـ تغيض : تنقص وتغور.
٤٣ ـ تدق : تفتت.
٤٤ ـ أهل البدو : أهل البادية.
٤٥ ـ المسحل : المبرد، أو آلة النحت والنشر وأيضاً هي حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها.
٤٦ ـ الرض : التهشيم.
٤٧ ـ الكلكل : الصدر.
٤٨ ـ الوحدان : جمع واحد أي المتفرد.
٤٩ ـ الركبان : جمع راكب ولا يكون إلا ذا بعير.
٥٠ ـ العبيط : من الدم الطري الخالص منها.
٥١ ـ تثلم : من ثلمت الإناء إذا كسرت حرفه.
٥٢ ـ الأكياس : العقلاء.
٥٣ ـ الأرجاس : جمع رجس وهو القذر النجس.
٥٤ ـ مرعاد : شديدة الرعد وهو الصوت الحادث من اصطدام الغيوم.
٥٥ ـ مبراق : شديدة البرق ما يحدث من الشرر إثر اصطدام الغيوم.
٥٦ ـ الساق : الشدة والمشقة.
٥٧ ـ البري : الصحيح السليم.
٥٨ ـ السقيم : المريض.
٥٩ ـ الظاعن : الراحل.
٦٠ ـ مطلول : مهدور الدم لا يطلب به.
٦١ ـ يختلون : يخدعون.
٦٢ ـ الأنصاب : جمع نصب وهو العلم المنصوب ليهتدى به.
٦٣ ـ الفتن : جمع الفتنة، الابتلاء، الاختبار، المحنة.

٦٤ ـ **البدع** : جمع بدعة ما أحدث على غير مثال سابق، إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.

٦٥ ـ **المهابط** : أماكن النزول.

٦٦ ـ **اللعق** : جمع لعقة بضم اللام وهي ما تأخذه في الملعقة.

٦٧ ـ **أنت بعين فلان** : أي بمرأى منه.

الشرح

(وأحمد الله وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره والاعتصام من حبائله ومخاتله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ونجيبه وصفوته لا يؤازى فضله ولا يجبر فقده أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة والجفوة الجافية والناس يستحلون الحريم ويستذلون الحكيم يحيون على فترة ويموتون على كفرة) هذه الخطبة الشريفة إخبار عما يحدث بعده صلوات الله عليه وآله وهي من الملاحم التي يكشف الإمام فيها ما يخفيه الزمن وتحمل به الأيام وصدّرها بالاستعانة بالله وذكر رسول الله وبعض ممادحه فقال: أحمد الله على ما كان وعلى ما أعطى وقدّر وأستعينه على ما يطرد الشيطان ويكّفه عني وذلك يكون بممارسة الطاعات والاجتناب عن المحرمات...

كما أنه عليه السلام طلب من الله أن يمنعه عن حبائل الشيطان التي هي شهوات النفس والميل مع الهوى وأن يجنبه خدعه التي هي تزيين الحرام وتهوين المعصية وتسهيلها...

ثم بعد الإقرار لله بالوحدانية ولمحمد بالعبودية والرسولية أخذ في ذكر ممادح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فوصفه بأنه نجيب الله وصفوته أي الحسيب الكريم المصطفى المختار...

لا يوازى فضله ولا يجبر فقده وكيف يكون هناك من الناس من يساوي رسول الله في الفضل وقد اختاره الله لحمل رسالته وهداية خلقه وقد استطاع بجهاده أن يرد الأمم إلى الله ويهديهم لما فيه صلاح دينهم ودنياهم ولا يجبر فقده إلا نظير له وحاشا أن يكون نظير لرسول الله من الناس... ثم وصفه بقوله: أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة: فبعد الجاهلية وظلماتها وكفرها وانحرافها جاء النبي فمحى تلك الظلمات بنور الإسلام والهداية والإيمان والعلم...

إنهم قوم يعيشون الجاهلية في أغلب عاداتها وتقاليدها والغلظة الشديدة والقساوة

المريرة فقد نشؤوا على سفك الدماء وهتك الأعراض والغزو والسلب. ليس هناك أمر محرم يرتدعون عنه أو يكفون عن ممارسته والقيام به ومن جاهليتهم أنهم يستضعفون الحكيم الذي يحرم عليهم بعض عاداتهم القبيحة ولا يخوض معهم فيها... إنهم يعيشون فترة مظلمة بين رسول قد مضى وهو عيسى وبين النبي محمد الذي هو الآن قد ظهر يعيشون هذه الفترة المظلمة ويموتون على الكفر لعدم الموجِّه ولما طبعوا عليه من العادات والتقاليد القبيحة...

(ثم إنكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت فاتقوا سكرات النعمة واحذروا بوائق النقمة وتثبتوا في قتام العشوة واعوجاج الفتنة عند طلوع جنينها وظهور كمينها وانتصاب قطبها ومدار رحاها) أخذ في تحذير العرب من الفتنة وكيف تتكون ومدى الآثار التي تتركها...

إنكم يا معشر العرب أهداف للمصائب تصوّب سهامها نحوكم وقد اقتربت منكم وستحل فيكم ولما كان العرب قد انفتحت أمامهم خزائن الدنيا وأصبحت بأيديهم أموال كسرى وقيصر حذرهم من سكرة هذه النعمة وإغفال شكرها وقليلون أولئك الذين يلتفتون إلى ما أعطوا من النعم فيؤدون شكرها بل الإنسان إذا أنعم الله عليه ينسى ماضيه وتاريخه السابق وما كان عليه من البؤس والحاجة فيأخذه الغرور والبطر وعندها يأخذ الله ما في يديه ويسلبه النعمة ويكون هو الذي عرضها للزوال والفناء...

كما حذرهم من غوائل الدهر وشروره وأن لا يركنوا إلى ماهم فيه من صحة ومال وجاه فإنها كلها في معرض الزوال والذي أعطاها هو القادر على سلبها منك وإزالتها عنك...

ثم أمرهم أن يفكروا في الأمور ويدرسوا القضايا ولا يستعجلوا في أخذ القرار فيها فإن ذلك يوقع في المهالك فإن الفتنة التي لم تظهر بشكل واضح ولم تتكشف أمام الناس بصورتها الحقيقية فإنها تخرج صغيرة ضعيفة كشبهة الخوارج أو تكون مختفية ثم تظهر فجأة فإن هذه تحتاج إلى تنبه وتفكر لأنها تقوى ويشتد صلبها ثم تتحرك نحو اتجاهها ولا يمكن السيطرة عليها بعدئذ...

(تبدأ في مدارج خفية وتؤول إلى فظاعة جلية شبابها كشباب الغلام وآثارها كآثار السلام) إن الفتنة تحاك وراء الكواليس وتدبر شؤونها في السر... إنها لا تصل إلى أيدي الناس إلا وقد تجهزت لها كل العناصر التي توفر لها النجاح... تبدأ في الخفاء صغيرة حقيرة ولكنها ترجع بعد فترة إلى أمر مهول فظيع واضح... إنها تنمو كما ينمو الطفل

يبدأ ضعيفاً صغيراً لا يقوى على الحركة ثم ينمو حتى يتخرج مجرماً يهدم الحضارة ويقضي على الإنسان وما بنى وكذلك الفتنة تبدأ خفية صغيرة ولكن فعلها كفعل الحجارة من حيث إنها لو وقعت على رأس إنسان هشمته وقضت عليه ولعل ذلك إشارة إلى الشبهة التي ادعاها الناكثون ـ طلحة والزبير وأم المؤمنين ومن وراءهم ـ فإنها كانت شبهة بسيطة حاكها هؤلاء في السر ثم سربوها إلى الناس فعاشت وتحركت حتى تركت في الإسلام أثراً واضحاً لا يزال حتى اليوم بين المسلمين. . .

(يتوارثها الظلمة بالعهود أولهم قائد لآخرهم وآخرهم مقتد بأولهم يتنافسون في دنيا دنية ويتكالبون على جيفة مريحة وعن قليل يتبرأ التابع من المتبوع والقائد من المقود فيتزايلون بالبغضاء ويتلاعنون عند اللقاء) الظلمة يتوارثون هذه الفتنة بالعهود فإنهم غصبوا الأمة حقها وابتزوها قيادتها وجلسوا على كرسي الخلافة بالقهر والغلبة كمعاوية ثم عهد بها من بعده إلى ابنه يزيد وهكذا تنقلت في العصبة الأموية الخبيثة الأول يرسم الخط ويشق الطريق في العداء لأهل الحق والعدل والآخر يقتدي به ولا يحيد عن طريقه وعما رُسم له. . .

إنهم يتنافسون في دنيا حقيرة لا تستحق هذا التنافس والتزاحم ويتجاذبون فيما بينهم تجاذب الكلاب على جيفة منتنة ظاهر ريحها المؤذي تحقيراً لها وتنفيراً منها. . .

ثم أشار إلى أن هذا التضامن لن يعمر طويلاً إذ سيسقط عندما تنهار سلطتهم وتنتقل إلى غيرهم أو عندما يأتي يوم القيامة وتنكشف الأوراق ويستحق كل فرد ما يعمل وعندها يتبرأ التابع من المتبوع ويتنكر له وينكره وفي المقابل يقوم التابع والقائد بالبراءة ممن اتبعه وسار خلفه كما قال تعالى حكاية ذلك: ﴿**إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرء منهم كما تبرؤوا منا. . .**﴾.

إنهم يفترقون بالبغضاء لأن اجتماعهم لم يكن لله فافتراقهم لم يكن إلا للعداوة بينهم لأن مصلحة كل واحد تتنافى مع مصالح الآخرين وعندما يلتقون ويتواجهون تبدأ بينهم معركة اللعن والسب فكل واحد يدعو على الآخر ويلعنه. . .

(ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف والقاصمة الزحوف فتزيغ قلوب بعد استقامة وتضل رجال بعد سلامة وتختلف الأهواء عند هجومها وتلتبس الآراء عند نجومها).

الفتنة وأحوال الناس.

يخبر الإمام بهذه الفتنة التي تحدث وتظهر فيصف مقدماتها المهولة إنها فتنة رجوف يضطرب فيها الناس أو يضطرب فيها أمر الإسلام وصفها بالقاصمة الزحوف التي تكسر الخلق وتهلكهم وتزحف نحوهم وتبيرهم...

ثم وصف حال الناس في تلك الفتنة المشؤومة.

١ ـ تزيغ قلوب بعد استقامة: فقد كانت هناك قلوب مطيعة لله ملتزمة بتكاليفه لم تستطع أن تصمد أمام قوة هذه الفتنة فخرجت عن استقامتها واعتدالها لتضل وتنحرف...

٢ ـ تضل رجال بعد سلامة: وكان هناك من الرجال من هو سليم في دينه وفي تفكيره وفي نهجه فعندما جاءت الفتنة خرج من الهدى والرشاد إلى الردى والهلاك.

٣ ـ تختلف الأهواء عند هجومها: فعندما تحل الفتنة يذهب كل فرد وراء هواه لا يجمعهم دين ولا يوحد صفهم حق أو عدل بل ولا مصلحة ترجع إلى الجميع...

٤ ـ وتلتبس الآراء عند نجومها: عند ظهور الفتنة تختلط الآراء الصحيحة بالفاسدة والسليمة بالمغرضة ولم يعد الناس يعرفون وجه الحق والصواب منها...

(من أشرف لها قصمته ومن سعى فيها حطمته يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة قد اضطرب معقود الحبل وعمي وجه الأمر تغيض فيها الحكمة وتنطق فيها الظلمة وتدق أهل البدو بمسحلها وترضهم بكلكلها يضيع في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان) لا يزال يذكر ما يجري في تلك الفتنة وبعض أحداثها العظيمة.

٥ ـ من أشرف لها قصمته: من وقف في وجهها أهلكته وقضت عليه ومنعت كونه عقبة في طريق زحفها.

٦ ـ من سعى فيها حطمته: من سعى في إطفائها والقضاء عليها قضت عليه وأنهت وجوده.

٧ ـ يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة: الناس أيام هذه الفتنة يعيشون مع هذه الفتنة حالة عداء يؤذي بعضهم البعض كالحمير الوحشية التي في قطيعها تعض بعضها البعض...

٨ ـ قد اضطرب معقود الحبل: ارتبكت الأمور التي كانت محكمة وجارية على

قواعدها والأسس التي بنيت عليها وفسرها بعضهم بقواعد الدين والأحكام الشرعية.

٩ ـ وعمي وجه الأمر: ما فيه صلاحهم ونجاحهم قد اختفى ولم يعووا طرق الهداية والصلاح.

١٠ ـ تغيض فيها الحكمة: تقل وتنقص فيها الحكمة إما لعدم جرأة الحكيم في تلك الظروف وإما لعدم الاستماع له. . .

١١ ـ تنطق فيها الظلمة: لأنهم الحاكمون ومن بيدهم الأمور وهذا ما نجده في زماننا تجد الكلمة لأهل النفاق والظلم من الحكام وأتباعهم ونظرة واحدة إلى وسائل الإعلام بمختلف أصنافها تجد صدق هذا الكلام وانطباقه بحذافيره على أيامنا هذه. . .

١٢ ـ تدق أهل البدو بمسحلها وترضهم بكلكلها: بيان لما يصيب أهل البادية من هذه الفتنة إنها تصيبهم بإصابة عظيمة تفرقهم وتمزق جمعهم وتهلك منهم الخلق الكثير فقد شبهها بالمبرد الذي يأتي على ما تحته من حديد أو بالمنشار الذي يقضي على وحدة الخشب ويمزق أوصاله كما أنه شبه الفتنة بالناقة التي أناخت بصدرها بكل ثقله على أحد من الناس فإنها تقضي عليه أو تسحقه. . .

١٣ ـ يضيع في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان: إنها فتنة لا تبقي على أحد فمن كان وحده يضيع من غبارها من إعلامها وما تبثه وترعب به القلوب وإذا كانوا جماعة وأرادوا الدخول فيها بثورة أو انتفاضة فإنهم إلى الهلاك والفناء. . .

وقيل يهلك فيها العظماء والحكماء من الأمة لأنهم النوابع ويكون الوحدان جمع أوحد وهو وحيد عصره لغموض الشبهة واستيلاء الباطل ويكون الركبان كناية عن أهل القوة فأولئك يهلكون بالشبهة وهؤلاء يهلكون بالقتل. . .

(ترد بمر القضاء وتحلب عبيط الدماء وتثلم منار الدين وتنقض عقد اليقين يهرب منها الأكياس ويدبرها الأرجاس. مرعاد مبراق كاشفة عن ساق تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام بريها سقيم وظاعنها مقيم).

١٤ ـ ترد بمر القضاء: تأتي بالهلاك والدمار فلا تترك حرثاً ولا نسلاً. . .

١٥ ـ تحلب عبيط الدماء: تسفك فيها الدماء للحرب التي تقع فيها.

١٦ ـ تثلم منار الدين: أي تعطل أهم الواجبات الدينية المعمول بها والمتسالم عليها.

١٧ ـ وتنقض عقد اليقين: أي تشكك الناس المسلمين فيما اعتقدوه وآمنوا به.

١٨ ـ يهرب منها الأكياس ويديرها الأرجاس: أصحاب العقول والدين يهربون من هذه الفتنة بينما يديرها ويحركها الفساق العصاة الذين لا يقدرون على العيش إلا في ظل تلك الظروف المضطربة. . .

١٩ ـ مرعاد مبراق كاشفة عن ساق: إنها ترعد وتبرق ذات وعيد وتهديد أو يعني بالرعد صوت السلاح وقعقعته وبالبرق لونه وضوءه. ومراده بالساق أنها شديدة وشاقة.

٢٠ ـ تقطع فيها الأرحام: يتنكر الأرحام لبعضهم لشدتها وقساوتها ولم يعد أحد منهم يسأل عن أحد.

٢١ ـ ويفارق عليها الإسلام: فإن من ساندها ومشى في ركاب أربابها فارق الإسلام ودخل في الكفر.

٢٢ ـ بريها سقيم وظاعنها مقيم: لا ينجو من شرها أحد فمن يظن من نفسه أنه سليم منها ومن شرها ليس بسالم بل يناله من مشاكلها وأحداثها ومن يهرب منها كان كالمقيم فيها من حيث إن بعض أحداثها تلحقه ولا أقل أن يلحقه الأمر العام كالمجاعة والحاجة والخوف التي تحكم الساحة أثناء الفتنة. . .

(بين قتيل مطلول وخائف مستجير يختلون بعقد الأيمان وبغرور الإيمان فلا تكونوا أنصاب الفتن وأعلام البدع والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة وبنيت عليه أركان الطاعة وأقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا عليه ظالمين) قالوا: إن هذا الكلام لا علاقة له بما تقدم ولذا حملوا الكلام على أن المنكوبين من الناس هذا هو حالهم.

وقالوا: إن هذا يشبه أن يكون وصفاً لحال المتمسكين بالدين وعلى كل حال: فهؤلاء بين قتيل يذهب دمه هدراً بدون ثأر أو خائف فزع يطلب من يجيره ويحميه فلا يجد، إنهم يخدعون بما يقسم لهم ويحلف وبما يغرونهم به من إيمان يدعونه ويدعون الدفاع عنه.

ثم نهاهم أن يكونوا رؤساء الفتن وقادتها أو من يقتدى به فيها وهذا يتناسب مع قوله عليه السلام في إحدى كلماته القصار: «كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب».

ثم أمرهم أن يلزموا ما عليه الإتفاق وما ترضاه الجماعة لأنه الذي يوحّد الصفوف

ويجمع الكلمة ويلزموا ما تبنى عليه أركان الطاعة من كونها ضمن الخط الإسلامي النابع من الكتاب والسنة. . .

ثم نهاهم عن الظلم وإذا دار الأمر بين أن تكون ظالماً أو مظلوماً فلا تقبل أن تكون الظالم بل اقبل أن تكون مظلوماً في الدنيا لأن حقك لن يموت فإنك تدركه في الآخرة. . .

(واتقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام فإنكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهل لكم سبل الطاعة) نهاهم عن السير في طرق الشيطان والنزول في أماكن الظلم والعدوان وكل ما يؤدي إلى المعصية أو يوصل إليها فهو من مسالك الشيطان وطرقه وما أكثرها وأوفرها كيف نظرت وأنّى اتجهت وجدت الشيطان وجنوده يسهّلون لك المعصية ويرغبونك بها بل يوفرونها. . .

ثم نهاهم عن أكل الحرام وهو كل أمر لم يأذن به الشرع وعبّر عنه باللعق لقلته وحقارته ونبه عما نهى عنه بأبلغ عبارة وأقربها وهي أن الله الذي حرم عليكم الحرام مطلع عليكم ناظر إليكم يرى كل فرد منكم فيرى من يرتكب الحرام ولا يمكن أن يغيب عنه فإذا كان الأمر كذلك فالاجتناب لازم ثم إنه سهل لكم الطاعة لم يجعل فيها عسراً ولا حرجاً ولا أي صعوبة. . .

١٥٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في صفات الله جل جلاله، وصفات أئمة الدين

الحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ[١] لَهُ. لاَ تَسْتَلِمُهُ[٢] المَشَاعِرُ[٣]، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ[٤]، لافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالمَصْنُوعِ، وَالحَادِّ وَالمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالمَرْبُوبِ، الأَحَدِ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالخَالِقِ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ[٥]، وَالسَّمِيعِ لاَ بِأَدَاةٍ[٦]، وَالبَصِيرِ لاَ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لاَ بِمُمَاسَّةٍ، وَالبَائِنِ[٧] لاَ بِتَرَاخِي[٨] مَسَافَةٍ، وَالظَّاهِرِ لاَ بِرُؤْيَةٍ، وَالبَاطِنِ لاَ بِلَطَافَةٍ. بَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالقَهْرِ لَهَا، وَالقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ.

أئمة الدين

منها: قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لاَمِعٌ، وَلاَحَ[٩] لاَئِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ[١٠]، وَاسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً، وَانْتَظَرْنَا الغِيَرَ[١١] انْتِظَارَ المُجْدِبِ[١٢] المَطَرَ. وَإِنَّمَا الأَئِمَّةُ قُوَّامُ[١٣] اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ[١٤] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالإِسْلاَمِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذلِكَ لأَنَّهُ اسْمُ سَلاَمَةٍ،

وَجِمَاعُ[١٥] كَرَامَةٍ. اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ[١٦]، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ[١٧]، مِنْ ظَاهِرِ عِلْم، وَبَاطِنِ حِكَم. لاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ[١٨] النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لاَ تُفْتَحُ الخَيْرَاتُ إِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى[١٩] حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ المُسْتَشْفِي، وَكِفَايَةُ المُكْتَفِي.

اللغة

١ ـ الشبه : المِثل.
٢ ـ لا تستلمه : لا تلمسه.
٣ ـ المشاعر : الحواس لأنها محل الشعور.
٤ ـ السواتر : الأغطية.
٥ ـ النصب : محركة التعب.
٦ ـ الأداة : الآلة.
٧ ـ البائن : المنفصل.
٨ ـ الحيّز : المكان وهو مأخوذ من الحوزاي الجمع.
٩ ـ لاح : بان وظهر.
١٠ ـ المائل : الملتوي، غير المعتدل.
١١ ـ الغير : بكسر ففتح أحداث الدهر وتقلباته.
١٢ ـ المجدب : الممحل، من أصابه الجدب وهو القحط.
١٣ ـ القوام : الذين يقومون بتدبير غيرهم.
١٤ ـ العرفاء : جمع عريف وهو النقيب وهو دون الرئيس.
١٥ ـ جماع الشيء : مجتمعه.
١٦ ـ المنهج : الطريق الواضح.
١٧ ـ الحجج : البراهين والأدلة.
١٨ ـ المرابيع : الأمطار التي تجيء أول الربيع.
١٩ ـ حمى : المكان من الناس إذا منعهم عنه.

الشرح

(الحمد لله الدال على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم على أن لا شبه له لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر لافتراق الصانع والمصنوع والحاد والمحدود والرب والمربوب) في هذه الخطبة إثبات وجود الله وصفاته وذكر أئمة الدين كما أن فيها ذكر الإسلام وبعض خصائصه.

الفصل الأول: يتضمن هذا الفصل إثبات وجود الله وبعض صفاته وقد ذكر ذلك ضمن أمور:

١ ـ الحمد لله الدال على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته وباشتباههم أن لا شبه له: وهذا الأمر يتضمن ثلاثة أشياء: .

أ ـ إثبات وجود الله عن طريق خلقه، فمن المخلوق تستدل على وجود الخالق وتقريره أنه لا شك في وجود مخلوقات من شمس وقمر وبشر وهذه قطعاً لم تخلق نفسها فلا بد لها من خالق وهو الله.

ويمكن أن نستدل بها على الله من جهة أنها أمور ممكنة والإمكان محتاج في وجوده إلى موجد ولا يمكن أن يكون مثلها ممكناً فلا بد وأن يكون واجب الوجود بالذات وهو الله. . .

ب ـ إثبات أزلية الله ويعني بذلك أنه لا أول له ولا ابتداء وذلك لأن ما كان له أول يدخل في ضمن الممكنات المحتاجة إلى مؤثر وموجد والله منزه عن الحاجة وعن الحدوث فيكون أزلياً بلا أول له ولا ابتداء. . .

ج ـ إثبات أنه لا شبيه له ولا مثيل: لأن كل الأشياء واقعة تحت الإمكان وبحاجة إلى مؤثر في إيجادها فهي تتشابه من هذه الجهة وهو منزه عن ذلك إذ هو الغني بذاته.

٢ ـ لا تستلمه المشاعر: لا تلمسه الحواس ولا يقع تحت الإحساس المعهود لعدم جسمانيته وكل ما لم يكن جسماً لا يقع تحت الحواس فهو سبحانه ينزه عن الجسمية وعوارضها.

٣ ـ لا تحجبه السواتر لأن ما يحجب هو الجسم لوجوده في جهة أما الله المنزه عن الجسمية فلا يمكن حجبه.

ثم علل كل ما تقدم بمغايرة الصانع عن المصنوع والحاد عن المحدود والرب عن

المربوب إذ في الثاني قصور وحاجة وإمكان وفي الأول كمال وغنى ووجوب. . .

(الأحد بلا تأويل عدد والخالق لا بمعنى حركة ونصب) الله واحد أحد ليس بمعنى أنه أول العدد بل إنه واحد لا ثاني له في الوجود ولا يقبل تجزئة فهو واحد بالذات وبالصفات. . .

وهو أيضاً الخالق لكل موجود ولكن بدون حركة كما هو متعارف لدى الناس والآلات ولكن لا يمسه تعب لأن الممكن هو الذي يعرض عليه التعب والذي يحتاج في عمله وصنعه إلى حركة أما الله فبالإرادة التكوينية التي عبر عنها بما يفهم البشر بكلمة «كن فيكون».

(والسميع لا بأداة) فهو السميع بدون أذن لأن سمعه للأمور عبارة عن علمه بها وبما تعمل ونحن بحاجة إلى أذن لنسمع وهذا من خواص الممكن المفتقر أما الله الواجب الوجود فهو الغني عن كل موجود بل الموجد لكل موجود. . .

(والبصير لا بتفريق آلة) فلا يحتاج في رؤيته للأشياء إلى فتح جفن كي يرى كما هو المتعارف عند البشر. . .

(والشاهد لا بمماسة) فهو الشاهد أي الحاضر مع كل أحد ولكن بدون مماسة لأحد لأن المماسة من خواص الأجسام وهو منزه عن ذلك. . .

(والبائن لا بتراخي مسافة) فهو بعيد عن مخلوقاته بذاته وصفاته لا بالبعد المكاني والزماني فهو أقرب إلينا من حبل الوريد يسمع ويرى ولكن ليس بالمسافة والتقدير.

(والظاهر لا برؤية والباطن لا بلطافة) فهو ظاهر للقلوب والبصائر وليس للبصر وهو الباطن الذي لا يدرك ليس للطافته ودقته وصغره بل لمغايرته للأجسام ولما يعهده البشر.

(بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه) فهو القاهر للمخلوقات والقادر عليها خلقها وسواها ثم إنها لاستمرارها ودوامها تحتاج إليه كما أنها بلسان حلها التكويني خاضعة له ذليلة بين يديه راجعة إليه فهي ممكنة تحتاج في أصل وجودها إلى كرمه كما تحتاج في بقائها إلى ذلك أيضاً. . .

(ومن وصفه فقد حده ومن حده فقد عدّه ومن عدّه فقد أبطل أزله) من وصف الله بما لا يليق به من الصورة كاليد والوجه فقد جعله جسماً ذا حدود ومن حده فقد جعله ذا أجزاء وكل ذي أجزاء حادث محتاج إلى إيجاد فتبطل أزليته والله منزه عن ذلك. . .

(**ومن قال: «كيف» فقد استوصفه**) كيف استفهام عن الكيفيات من الألوان والطعوم والأشكال والمعاني ونحو ذلك وهذه لا يسأل عنها إلا الأجسام التي تتشكل بهذه الأمور والله منزه عن ذلك إذ هو الغني بذاته وليس له صفة زائدة ليسأل عنها. . .

(**ومن قال: «أين» فقد حيزه**) «وأين» استفهام عن المكان والجهة ومن استفهم عن شيء بها فقد حجّمه وحيّزه وحصره وكل ذلك من صفات الأجسام وهو سبحانه منزه عن ذلك. . .

(**عالم إذ لا معلوم ورب إذ لا مربوب وقادر إذ لا مقدور**) هذه الأوصاف من خصائص الله وصفاته لأنه العالم بالأشياء قبل وجودها عالم متى توجد وأين توجد بل عالم بذاته حيث لا شيء في الوجود وهو رب الأشياء ومالكها والقادر على إيجادها فقد كان كذلك ولم تكن هذه ويبقى كذلك وإن فنيت هذه. . .

(**قد طلع طالع ولمع لامع ولاح لائح واعتدل مائل واستبدل الله بقوم قوماً وبيوم يوماً وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر**) قالوا: إن هذه الخطبة خطبها إثر مقتل عثمان حينما صارت الخلافة إليه.

والجمل: طلع طالع ولمع لامع ولاح لائح كلها يراد بها معنى واحد وهو عود الخلافة إليه وقيل: إن قوله طلع طالع عود الخلافة إليه ولمع لامع ظهور من حيث هي حق ولاح لائح يراد به ظهور الحروب والفتن الواقعة بعد انتقال الأمر إليه. . .

ثم قال: «**واعتدل مائل**» أي استقام ما كان عليه أمر الخلافة والناس من الاعوجاج والظلم والتعدي. . . استقام الأمر واعتدل برجوع الخلافة إليه وقد كانت المظالم سارية في جميع أوصال المجتمع في عهد عثمان وولاته.

وأشار بقوله: «**واستبدل الله بقوم قوماً وبيوم يوماً**» إلى ما كان عليه عثمان وولاته من الظلم فقد ذهب عثمان وجماعته وجهازه الفاسد بكل ما حمل من ظلم وإثم واستبدل الله به قوماً آخرين أتقى لله وأعمل بأمر الله أشار بهذا إلى نفسه الشريفة ومن معه من الولاة والأمراء وذهب يوم الظلم والجور وجاء يوم آخر فيه العدل والحق. . . ذهب يوم عثمان وحاشيته وجاء يوم علي وأصحابه وهو يتغاير مع أمس بكل خصوصياته وشؤونه. . .

وأشار بقوله: «**وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر**» أشار بهذا إلى ما كان يتوقعه المسلمون وينتظرون حصوله. . . إنهم كانوا ينتظرون أن تتغير الأحوال ويسقط الحكم الظالم الذي لم يكن عثمان إلا ستاراً تختبيء وراءه العصابة الأموية وتحكم باسمه بالجور والظلم وتمارس خنق الحريات وتضطهد الأحرار والثوار وتأخذ كل من يريد لها النصيحة

عدواً لها تطارده وتنفيه. . . انتظر المسلمون تلك الساعة التي تتغيّر فيها الأحوال وتنتقل عقارب الساعة معلنة بدء حياة جديدة. . . إنهم كانوا ينتظرون زوال الحكم الأموي انتظار من أصابه الجدب والقحط فإنه ينتظر الفرج ويترقب حدوث المطر. . . هكذا كان المسلمون ينتظرون زوال خلافة عثمان ومجيء خلافة الإمام. . .

(وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه) أشار عليه السلام إلى نفسه وإلى الأئمة من ذريته وأنهم أصحاب الأمر والنهي الذين لهم حق الولاية وتدبير شؤون الناس، أعطاهم الله سلطة واسعة ينظمون مسيرة الناس ويأخذون بأيديهم إلى ما فيه عزهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة. . . ثم بيّن عليه السلام أمراً فيه ترغيب وتحذير فقال: «ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه» فيجب أن يكون التعارف من الطرفين لدخول الجنة ولا جنة بدون ذلك.

لا بد لكل واحد أن يعرف الأئمة. . . يعرفهم بأسمائهم وأسماء آبائهم. . . ويعرفهم بمنهاجهم ومدرستهم وبما يذهبون إليه وما يعتقدون به فيأخذ دينه عنهم ويعمل بأمرهم وبهذا تكون معرفته بهم. . . وأما معرفتهم به فإنهم يعرفون كلا بسيماهم. . . يعرفون المؤمن من الكافر ومن تولاهم ممن أنكرهم. . . أعطاهم الله علم ذلك وفي ذلك أخبار كثيرة ومن هنا كانوا الطريق إلى الله والهداة إلى الجنة من أرادها وطلبها فعليه أن يدخل من أبوابهم إليها ويطلبها من جهتهم. . . وهذه بشارة يزفها الإمام إلى كل من تولى الأئمة وآمن بهم وبمنهجهم. . .

وفي المقابل لا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه فمن أنكرهم ولم يعترف بهم أنهم قادة الأمة ولم يأخذ الدين عن طريقهم ولم يتعبد لله من جهتهم فهذا في النار.

وقد يدعي ذلك كثيرون وقد يظنون اتصالهم بأهل البيت وأنهم على خطهم ولكن الحقيقة خلاف ذلك وهم لا يعترفون بذلك. . .

(إن الله تعالى خصكم بالإسلام واستخلصكم له وذلك لأنه اسم سلامة وجماع كرامة) ثم بيّن كرامتهم عند الله وأنه سبحانه خصّهم بالإسلام واستخلصهم من بين الأمم له وهذا شرف عريض أن يخص الله أمة بكرامة من كراماته ويعدهم لهذا الشرف العظيم وقد علل ذلك بأن الإسلام سلامة ومجتمع كرامة. . . سلامة من كل أذية فلا اعتداء في جواره ولا ظلم في حماه ولا قهر في ربوعه. . . به الكرامة. . . فلا ذل ولا إهانة والإسلام عزيز كريم لا يرضى لأحد من أتباعه بالذل قال تعالى: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**.

(اصطفى الله تعالى منهجه وبيّن حججه من ظاهر علم وباطن حكم لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه) اختار الله طريق الإسلام من بين الطرق وأظهر أدلته وبراهينه التي تثبت صحته وتدل على أحقيته من علم ظاهر ومن حكمة باطنة يستكشفها اللبيب بعقله ويقوده إليها منطقه السليم، لا تفنى أموره الغريبة ولا تنتهي عجائبه فقد عاد الإنسان بعد تطواف طويل وبحث وتنقيب إلى الإقرار بعظمة الإسلام وحضارته وما جاء به من تشريع وتقنين ولم يستطع هذا العقل إلا أن يعترف بأن الإسلام دين العقل الذي يحارب الجهل والأمية وكل شعوذة وانحلال. . .

(فيه مرابيع النعم ومصابيح الظلم) الضمير يعود إلى القرآن وقيل: إلى الإسلام. . . وقد شبهه بالأمطار الربيعية التي تنعش الزرع وتبعث الخير ولا شك أن القرآن ينعش القلوب ويحركها ويبعث فيها الحياة ويدفع الناس إلى العمل الصالح والدفاع عن المستضعفين وكذلك هو ينير الدرب ويكشف بتعاليمه الجهل ويرفع الغشاوة عن العيون فهو مصباح القلوب وكاشف ظلماتها وسوادها ورافع جهلها. . .

(لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه) أي خير لا يكون إلا عن طريق القرآن، وما فيه من أدلة وبراهين موصلة إلى الله ودالة عليه هي التي تفتح أمام الإنسان طرق النجاة.

وكذلك لا تكشف ظلمات الجهل ولا ترفع الغشاوة عن البصائر والأبصار إلا بما ورد فيه من تعاليم وأحكام لأنه الخطاب الإلهي لهذا الإنسان ودليل السعادة ومفتاح النصر، ومن طلب الخير لن يدركه في غير كتاب الله وتشريعه وما جاء فيه ومن طلب كشف الجهل فلن يُكشف جهله إلا في هذا الكتاب الكريم الشاهد على ذلك ما حققته أمة الإسلام من عز ونصر وكرامة وفتح يوم تعلمته وعملت به وكيف انهزمت في كل مجالات حياتها يوم تركته وتخلت عنه وهجرت العمل به. . .

(قد أحمى حماه وأرعى مرعاه فيه شفاء المستشفي وكفاية المكتفي) أراد بحماه محارمه فمنع بنواهيه وزواجره أن تستباح محارمه وكذلك هيأه لأن يرعى أن يسر أحكامه وآدابه وشرائعه حيث إنه أنزله بلسان عربي مبين نفهمه ونفقهه. . . وفيه شفاء لمن أراد الاستشفاء قال تعالى: **﴿وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** وفيه أيضاً الكفاية لكل من أراد الاكتفاء من كل شيء. . . فيه الكفاية لمن طلب العز والكرامة وفيه الكفاية لمن أراد أمجاد الدنيا وفيه الكفاية لمن أراد الآخرة. . .

١٥٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

صفة الضال

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي[١] مَعَ الغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ المُذْنِبِينَ، بلا سَبِيلٍ قَاصِدٍ[٢]، وَلاَ إمَامٍ قَائِدٍ.

صفات الغافلين

منها: حَتَّى إذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ[٣] غَفْلَتِهِمُ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا[٤] مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِمَا قَضَوْا[٥] مِنْ وَطَرِهِمْ[٦].

إنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هذِهِ المَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا البَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالعِبَرِ[٧]، ثُمَّ سَلَكَ[٨] جَدَداً[٩] وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ[١٠] فِي المَهَاوِي[١١]، وَالضَّلاَلَ فِي المَغَاوِي[١٢]، وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ[١٣] فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ.

عظة الناس

فَأَفِقْ[١٤] أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ[١٥] الفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ـ مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ وَلاَ مَحِيصَ[١٦] عَنْهُ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ،

فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ اليَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً، فَامْهَدْ[١٧] لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالحَذَرَ الحَذَرَ أَيُّهَا المُسْتَمِعُ! وَالجِدَّ الجِدَّ أَيُّهَا الغَافِلُ! «وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ[١٨] اللهِ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ[١٩] نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَه ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ[٢٠] مِنْ هذِهِ الخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ[٢١] عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ[٢٢] بِهلاَكِ نَفْس، أَوْ يَعُرَّ[٢٣] بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ[٢٤] حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ[٢٥] فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذلِكَ فَإِنَّ المِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ.

إِنَّ البَهَائِمَ[٢٦] هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا العُدْوَانُ[٢٧] عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ المُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ[٢٨]. إِنَّ المُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ المُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ.

اللغة

١ ـ يهوي : يسقط.
٢ ـ القصد : المستقيم والسبيل القصد هو الطريق المستقيم.
٣ ـ الجلابيب : جمع جلباب الثوب الواسع.
٤ ـ أدركوا : الشيء لحقوه.
٥ ـ قضوا : وطرهم بلغوا مرادهم وقضى حاجته أتمها وفرغ منها.
٦ ـ الوطر : الحاجة.
٧ ـ العبر : العظات.
٨ ـ سلك : المكان دخل فيه والطريق سار عليه.

٩ ـ الجدد	:	محركة الطريق الواضح .
١٠ ـ الصرعة	:	بالفتح الطرح على الأرض .
١١ ـ المهاوي	:	ما بين جبلين وقيل : الوهدة العميقة وقيل الحفرة .
١٢ ـ المغاوي	:	جمع مغواة وهي الشبهة التي يضل بها الناس .
١٣ ـ التعسف	:	يكون الأمر بدون رويّة .
١٤ ـ أفق	:	من أفاق إذا صحا من نومه واستيقظ .
١٥ ـ أنعم	:	الفكر في المسألة حقق فيها ودقق .
١٦ ـ لا محيص	:	لا مفر ولا مهرب وحاص أي تخلص من أمر كان نشب فيه .
١٧ ـ أمهد	:	سوّ ووطّىء .
١٨ ـ عزائم الله	:	ضرورياته المتسالم عليها .
١٩ ـ أجهد	:	نفسه أتعبها .
٢٠ ـ الخصلة	:	بفتح الخاء الصفة .
٢١ ـ أفترض	:	الله الأحكام سنها وأوجبها .
٢٢ ـ الغيظ	:	الغضب أو أشده وقيل : سورته وأوله .
٢٣ ـ يعّر	:	يعيب .
٢٤ ـ يستنجح	:	يطلب النجاح .
٢٥ ـ البدعة	:	في الدين إدخال ما ليس منه على أنه منه .
٢٦ ـ البهائم	:	مفردها البهيمة وهي كل ذات أربع قوائم من دواب البر أو الماء ما عدا السباع والطيور .
٢٧ ـ العدوان	:	الظلم الصراح .
٢٨ ـ مستكينون	:	خاضعون .

الشرح

(وهو في مهلة من الله يهوي مع الغافلين ويغدو مع المذنبين بلا سبيل قاصد ولا إمام قائد) يصف عليه السلام إنساناً ضالاً قد أمهله الله ومدّ له في الأجل فراح مع الغافلين عن ذكر الله قد نسي العهد والميثاق وترك ما أراد الله وأحب ثم تعدى ذلك فراح يجري في حلبة المذنبين إنه في لهو دائم ومعصية مستمرة بدون أن يشق لنفسه طريقاً مستقيماً يوصله إلى الله ولا إمام صالح يقتدي به ويهديه إلى سبيل النجاة، لقد نسي نفسه وما يصلحها فوقع في الضلال . . .

(حتى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم واستخرجهم من جلابيب غفلتهم استقبلوا

مدبراً واستدبروا مقبلاً فلم ينتفعوا بما أدركوا من طلبتهم ولا بما قضوا من وطرهم) هذه موعظة لأصحابه وتنبيه لهم بما يلاقيه الضالون. إنها ساعات صعبة تلك الساعات التي يكشف الله فيها للضالين جزاء معصيتهم من عذاب أليم ونار وحميم ويرفع عنهم الغشاوة التي كانت تمنع الرؤية الصحيحة في الدنيا، إنه الموت إذا نزل بساحة إنسان انكشف عنه الغطاء فرأى الأمور على حقيقتها ونال جزاء معصيته وعندها استقبلوا ما كان مدبراً من الموت وما بعده من حساب وجزاء كما أنهم استدبروا ما كان مقبلاً من الدنيا المتجسدة بالأموال والبنين وكل حطام الدنيا، لقد تخلوا عن كل ذلك وأصبح وراء ظهورهم لم ينتفعوا بما أدركوه من أموال وأولاد وتراث لأن كل ذلك تخلف عنهم ولم ينتفعوا أيضاً بما قضوا من لذات خاصة وملذات. إنهم تركوا كل ما خولهم الله في دار الدنيا وراء ظهورهم وتوجهوا نحو الحساب ليأخذوا العذاب نتيجة انحرافهم واسفافهم وبعدهم عن الله...

(إني أحذركم ونفسي هذه المنزلة فلينتفع امرؤ بنفسه فإنما البصير من سمع فتفكر ونظر فأبصر وانتفع بالعبر ثم سلك جدداً واضحاً يتجنب فيه الصرعة في المهاوي والضلال في المغاوي ولا يعين على نفسه الغواة بتعسف في حق أو تحريف في نطق أو تخوف من صدق) حذّر المخاطبين من الغفلة وأدخل نفسه معهم تطيباً لقلوبهم ليكون شريكهم في هذا التحذير فيكونوا إلى الانقياد له أقرب وعن النفرة والآباء أبعد وبعد أن حذرهم الدنيا وما فيها رغبهم بما ينفع ويفيد في الآخرة وأمرهم أن ينتفع كل إنسان بنفسه بأن يوجهها إلى طاعة الله والعمل بما أمر والاجتناب عما نهى ويسارع في الخيرات.

ثم بين طرق الانتفاع وهو ما عليه أهل البصر وهؤلاء قوم سمعوا الآيات ففكروا فيها وانتفعوا بما فكروا فهداهم عقلهم إلى السير على نهج الحق والعدل وما جاء به الأنبياء وحملته الرسل إلى العباد.

وأهل البصر أيضاً قوم نظروا في الدنيا وزوالها وما ينفع منها فأبصروها على حقيقتها وأدركوا ما يمر عليهم وما يشاهدون وكذلك أخذوا العبرة والعظة والدروس المفيدة لهم في دنياهم وآخرتهم.

وبعد هذا الفكر الذي تولد عن البصر والسمع وأخذ العبر ساروا في الطريق المستقيم الواضح ولم يميلوا إلى المنعطفات أو المواقع التي تضل أو تنحرف بهم عن سبيل الله... إنهم قوم أخذوا قوانين الشريعة بحذافيرها والتزموا بها بحدودها ولم يفرطوا بشيء منها وتركوا كل ما يؤدي إلى الانحراف أو الضلال...

ثم إنه عليه السلام لما نبّه على ما ينفع المرء ويصلحه أراد أن ينبه إلى موارد يمكن أن يقع منها الفساد.

أولاً: «أن لا يعين على نفسه الغواة بتعسف في حق» وقد فسره بعض شراح النهج بأن يتعسف في حق يقوله أو بأمر به فإن الرفق أنجح وقال بعضهم أيضاً: أي لا يحملهم على مر الحق وصعبه فإن ذلك يوجب لهم النفرة عمن يقوله ويأمر به. . .

ولكن الأقرب في التفسير هو أن لا يهوّن على الغواة ما هم فيه بمجاراتهم وخلق الأعذار لهم والتفتيش عن الحيل الشرعية البعيدة التي تصحح ما هم فيه فيكون بذلك قد آضر نفسه وجنى عليها لأنه سعى لإرضاء مخلوق بمعصية الخالق. . .

وثانياً: أن لا يعين على نفسه بتحريف في نطق أي لا يكذب في منطقه ولا يحرّف الكلم عن موضعه طلباً لرضا الغواة فإن ذلك يضره.

وثالثاً: أن لا يتخوّف من صدق يمكن أن يقوله فإن الصدق مهما كان مرّاً فيه لذة وفيه ثمرة. . .

(فأفق أيها السامع من سكرتك واستيقظ من غفلتك واختصر من عجلتك وأنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مما لا بد منه ولا محيص عنه) أمرهم عليه السلام بأوامر ونصحهم بنصائح كلها تعود إليهم وهي:

١ ـ أفق أيها السامع من سكرتك واستيقظ من غفلتك نبهه إلى أن يفيق ويستيقظ من الغفلة وعبّر عن تلك الفترة بالسكرة لأن الغافل قد عطّل عقله فأشبه السكران في ذلك.

٢ ـ اختصر من عجلتك: أي خفف من سرعتك في طلب الدنيا فإن كل متاعها إلى زوال وقال بعضهم: لا تعجل في أمر حتى تتبين عواقبه.

٣ ـ أمره بأن يفكر ملياً ويدقق فيما جاء به النبي من كتاب وسنة وتشريع وتقنين فإن هناك من الأمور ما لا بد منه لكل مسلم كمعرفة أصول الدين والعبادات المكلف بها وما يمكن أن يقع فيه من أمور. . . وقيل: إنه أمر بأن يفكر في الموت وما بعده مما جاءت به الروايات عن النبي ويروض نفسه على الخير وعلى ما بعد الموت. . .

(وخالف من خالف ذلك إلى غيره ودعه وما رضي لنفسه وضع فخرك واحطط كبرك واذكر قبرك فإن عليه ممرك وكما تدين تدان وكما تزرع تحصد وما قدمت اليوم تقدم عليه غداً فامهد لقدمك وقدم ليومك فالحذر الحذر أيها المستمع والجد الجد أيها الغافل ولا ينبئك مثل خبير) لا يزال عليه السلام يلقي نصائحه.

٤ ـ أمره أن يخالف من نظر إلى الدنيا وزينتها وترك الآخرة ونعيمها، أن يتركه وشأنه وما اختار لنفسه من الشقاء والتعاسة والأمور التي لا تدوم ولا تبقى.

٥ ـ أمره أن يضع فخره أي يترك افتخاره بالأمور الزائلة من مال وجاه وسلطان فإنها كلها فانية.

٦ ـ واحطط كبرك: لا تتكبر فما تكبر أحد إلا لنقص فيه ويحشر المتكبرون يوم القيامة بصورة الذر يطأهم الناس بأقدامهم كما في الروايات.

٧ ـ واذكر قبرك فإن عليه ممرك: اذكر القبر وضيقه ووحشته وظلمته وانفرادك فيه فإنك ستصل إليه وستدخل إلى عمقه فاستعد لمثل ذلك المقر وخذ له ما ينفعك ويفيدك فإنه ممر موحش مظلم إلى أن تخرج منه للوقوف بين يدي الله للحساب...

٨ ـ وكما تدين تدان: كما تجزي تُجزى من باب المشاكلة والمقصود كما تتعامل مع الله يتعامل معك إن تعاملت معه بالطاعة والالتزام أثابك وجزاك الجنة وإن تعاملت معه بالتمرد والعصيان تعامل معك بالعقاب والنيران.

٩ ـ وكما تزرع تحصد: إن زرعت خيراً حصدت خيراً وإن زرعت شراً حصدت شراً ولا يمكن للعبد أن يطيع الله إلا أن يكسب الثواب والأجر، ومن عصى الله أدخل النار جزاء وفاقا...

١٠ ـ وما قدمت اليوم تقدم عليه غداً فامهد لقدمك وقدم ليومك: ما تقوم به اليوم من أعمال طيبة أو خبيثة سيحفظ لك وستقدم عليه في يوم الحساب والجزاء قال تعالى: **﴿ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**[1].

فاعمل لذلك اليوم الذي تقف فيه بين يدي الله اعمل ما ينجيك ويخلصك من عذابه وغضبه ولا يكون ذلك إلا بالعمل الصالح المتمثل بالالتزام بكل ما أمر الله والانتهاء عن كل ما نهى الله...

(**فالحذر الحذر أيها المستمع والجد الجد أيها الغافل ولا ينبئك مثل خبير**) أكد الحذر بقوله: الحذر الحذر من كل معصية أو تقصير كما أمر بالاجتهاد وأكده بإعادة لفظه لمن غفل وسهى ثم استعار من القرآن قوله: **﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾** أي لا يخبرك أحد

---

(١) سورة الكهف، آية/ ٤٩.

بالأمور على حقائقها وأصولها إلا العالم بها العارف بكنهها يشير إلى نفسه الشريفة ومدى معرفته بها وبدقائقها. . .

(إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب ولها يرضى ويسخط أنه لا ينفع عبداً وإن أجهد نفسه وأخلص فعله أن يخرج من الدنيا لا قياً ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها: أن يشرك بالله فيما افترض الله عليه من عبادته أو يشفي غيظه بهلاك نفس أو يَعُرَّ بأمر فعله غيره أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين أعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه) إن من الأمور المحكمة الثابتة التي لا ريب فيها المنصوص عليها في القرآن الكريم التي لا تحتمل التأويل والتي لا نسخ فيها ولا تخصيص والتي عليها يكون الثواب وبتركها العقاب وبها يتحقق رضى الله وبدونها يغضب الله ولا ينتفع عبد بعمل يعمله مهما كان ذلك العمل جيداً ومهما أخلص فيه لا ينفعه ذلك ويدخل النار إذا خرج من الدنيا بهذه الأمور ولم يقلع عنها ويتب منها وهذه الأمور هي:

١ ـ أن يشرك بالله فيما افترض الله عليه من عبادته: أشار إلى الرياء في العبادة التي هي شرك حرمه الله فإن الله لا يقبل عملاً يكون له ولغيره قال تعالى: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾**.

٢ ـ أو يشفي غيظه بهلاك نفس: فهذا يغضب وإذا غضب لا يهدأ إلا بقتل النفس التي أغضبته أو غيرها وهذه كبيرة تؤدي إلى النار قال تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾**.

٣ ـ أو يعرّ بأمر فعله غيره: أي يفعل أمراً مشيناً ثم يقذف به غيره.

٤ ـ أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه: أي يروم حاجة من أحد الناس فيظهر بدعة في الدين من أجل ذلك ويقول ابن أبي الحديد: «كما يفعل أكثر الناس في زماننا» وأقول: ليته يرى ما نحن عليه الآن ليعمم حكمه ولا يستثني إلا ما قلّ ممن يعد على الأصابع وإلا كيف نفسر سكوت القيادات الدينية عن الانحرافات التي تجري في المجتمع وكيف تشارك هذه القيادات في الأنظمة الظالمة التي تقهر الإنسان وتمارس عليه أبشع أنواع الظلم وتمسخ أحكام الإسلام بل تلغي أحكامه وتشريعاته وتمنع من العمل بها. . .

٥ ـ أو يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين: وهذا أقبح ما في الإنسان أن يطريك حاضراً ويذمك غائباً يثني عليك في وجهك ويقدح بك في قفاك، يضحك لك

عندما يراك ويضحك عليك عندما يغيب عنك إنه يحمل وجهين ولسانين فهو منافق يعيش مع المؤمنين بصورته الظاهرية ومع الكفار في عمقه ودخيلته. . .

ثم أمر عليه السلام بأن يعقل ما قاله ويعلم باطن خطابه ويحمل عليه ما يشبهه فإن المثل دليل على شبهه.

قال ابن أبي الحديد: وإنما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين عرّوه ـ سبوه ـ عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه وهو التأليب على عثمان وحصره واستنجحوا حاجتهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ولقوا الناس بوجهين ولسانين لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشرك بالله سبحانه في أنها لا تغفر إلا بالتوبة. . .» وبعد هذا البيان من ابن أبي الحديد جاء ليعتذر عنهم بأمر غير مقبول تارة بأن هذه الخطبة خطبها وهو في طريقه إلى البصرة وأخرى بأنهم تابوا وكلا الأمرين لم يثبت منهما شيء. . .

(إن البهائم همها بطونها وإن السباع همها العدوان على غيرها وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها، إن المؤمنين مستكينون. إن المؤمنين مشفقون، إن المؤمنين خائفون) أراد عليه السلام أن يومي ـ كما في شرح ابن أبي الحديد ـ إلى ذكر النساء للحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بالامرأة فذكر قبل ذلك أنواعاً من الحيوانات تمهيداً لقاعدة ذكر النساء فذكر البهائم وأن همها بطونها وما تأكله وتلتذ به وأن السباع همها العدوان وافتراس الناس والاعتداء عليها أما النساء فهمهن زينة الحياة الدنيا بأن تظهر بأحسن صورة وأفضلها وهمهن الفساد في الحياة بما يتبذلن ويتبرجن ويثرن غرائز الرجال وشهواتهم.

ثم ذكر صفات المؤمنين وبعض خصائصهم وقد ذكر ثلاث صفات:

١ ـ إن المؤمنين مستكينون لله أي خاضعون له ذليلون بين يديه.

٢ ـ إن المؤمنين مشفقون أي خائفون من الله وعذابه.

٣ ـ إن المؤمنين خائفون من عذاب الله ومن كل ما يُغضبه ويُبعد عن ساحته.

١٥٤ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها فضائل أهل البيت

وَنَاظِرُ[١] قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ[٢]، وَيعْرِفُ غَوْرَهُ[٣] وَنَجْدَهُ[٤]. دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَٱسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي،، وَٱتَّبِعُوا الرَّاعِيَ..

قَدْ خَاضُوا[٥] بِحَارَ ٱلْفِتَنِ[٦]، وَأَخَذُوا بِٱلْبِدَعِ[٧] دُونَ السُّنَنِ[٨]. وَأَرَزَ[٩] ٱلْمُؤمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشِّعَارُ[١٠] وَالأَصْحَابُ، وٱلْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ، وَلاَ تُؤْتَى ٱلْبُيُوتُ إلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً.

منها: فِيهِمْ كَرَائِمُ[١١] ٱلْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ[١٢] الرَّحْمَنِ. إنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ[١٣] أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ[١٤]. فَالنَّاظِرُ بِٱلْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَر، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ إلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِٱلْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ!.

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً. وَكُلُّ نَبَات لاَ غِنَى بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ، وَالمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ(١٥)، طَابَ غَرْسُهُ(١٦) وَحَلَتْ(١٧) ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ(١٨) ثَمَرَتُهُ.

اللغة

١ ـ الناظر : السواد الأصغر الذي فيه انسان العين الذي يرى فيه.
٢ ـ الأمد : الغاية.
٣ ـ الغور : المنخفض من الأرض.
٤ ـ النجد : المرتفع.
٥ ـ خاض : الماء دخله وفي الحديث أفاض فيه والغمرات اقتحمها.
٦ ـ الفتن : جمع فتنة الضلال والكفر، وما يقع بين الناس من الاختلاف.
٧ ـ البدع : جمع بدعة ما أحدث على غير مثال سابق/ في الأراء وما يقع بينهم من قتال.
٨ ـ السنن : الطرق الواضحة، ما شرّعه النبي.
٩ ـ أرز : انقبض، انضم وأجتمع.
١٠ ـ الشعار : ما يلي الجسد من الثياب.
١١ ـ الكرائم : جمع كريمة نفائس الشيء وخيارها.
١٢ ـ الكنوز : كل مجموع مدّخر يتنافس فيه.
١٣ ـ الرائد : من يتقدم القوم يبحث لهم عن المكان المناسب.
١٤ ـ ينقلب : يرجع ويعود.
١٥ ـ السقي : الحظ من الشرب.
١٦ ـ الغرس : ما يغرس في الأرض من شجر ونحوه.
١٧ ـ حلت : من الحلاوة صارت حلوة.
١٨ ـ أمرّت : صارت مُرّة.

الشرح

(وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده ويعرف غوره ونجده. داع دعا وراع رعى فاستجيبوا للداعي واتبعوا الراعي) البصيرة التي يتمتع بها الإنسان العاقل هي التي تريه

كيف يكون مستقبله وما يصل إليه من سعادة أو شقاء وما ينفعه ويضره.

ثم نبههم إلى وجود الداعي إلى الله الذي كانت على يديه هدايتهم وهو الرسول الأكرم وكذلك إلى وجود نفسه الشريفة بينهم وإنه الراعي بعد رسول الله الذي يحفظهم في أنفسهم وفي دينهم ويسعى في سبيل سعادتهم وما ينفعهم ودعاهم إلى الإستجابة للداعي الذي هو الرسول وإلى الراعي وهو نفسه.

(قد خاضوا بحار الفتن واخذوا بالبدع دون السنن وأرز المؤمنون ونطق الضالون المكذبون) يذكر قوماً باعيانهم كمعاوية واتباعه ومن سنّ له الطريق والخوارج وأصحاب الجمل وقيل إن كلامه عليه السلام منقطع عما سبق ويذكر هنا قوماً من أهل الضلال ويصف أعمالهم بأنهم دخلوا في بحار الفتن والانحراف وأخذوا بما خالف الدين وما شرعه سيد المرسلين وتركوا الحق والعدل وما شرعه الرسول وفي أجواء الفتن هذه احجم المؤمنون عن الكلام وسكنوا طلباً للسلامة ودفعاً للضرر عن أنفسهم وفي المقابل كانت الكلمة لأصحاب الباطل والكذب فتكلموا بالباطل ونطقوا بالإثم والكذب.

(نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً) نحن الشعار أي أقرب الناس لرسول الله وأشدهم اختصاصاً به فكما أن الشعار هو الثوب الملاصق للبدن وأقرب الثياب إلى الجسد كذلك نحن أقرب الناس وألصقهم برسول الله ونحن أصحابه الذين صدقناه وآمن به وعشنا معه وسرنا على دربه.

ونحن الخزنة والأبواب أي خزان علم النبي وأبواب علمه فعندنا علوم النبي وما جاء به وعن طريقنا يؤخذ الدين والتشريع وما جاء به الرسول وهذا موافق لما جاء عن النبي من قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وقوله عن علي «خازن علمي» وقوله عنه«عيبة علمي».

قال ابن أبي الحديد: ويمكن أن يريد خزنة الجنة وأبواب الجنة أي لا يدخل الجنة إلا من وافى بولايتنا فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض: إنه قسيم النار والجنة.

ثم ذكر عليه السلام أن البيوت لا تؤتى إلا من أبوابها وهذا ما جرت عليه العادة ثم لقوله تعالى: **﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾** وثالثاً إن من أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً أما ظاهراً فلأنه لا يتسور البيوت إلا السرّاق وأما باطناً فلان العلم لا يؤخذ إلا من أهله وهم أهل البيت ومن أخذه من غيرهم فهو منتحل له.

(فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقوا وإن صمتوا لم يسبقوا) يذكر فضائل أهل البيت وقد ذكر منها:

١ ـ فيهم كرائم القرآن أي نزلت فيهم آيات القرآن الكريمة تبين فضلهم وتشرح عظمتهم وتثني عليهم وقيل فيهم أحسن ما في القرآن من فضائل ومناقب ومنافع وأخلاق وآداب.

٢ ـ وهم كنوز الرحمن: إنهم خزنة علم الله وبهم تتوضح مشكلات العلوم وما يستعصي حله على الناس.. إنهم أفضل خلق الله وأعزهم عليه وأقربهم إليه.. إنهم أثمن ما في الدنيا لأنهم الصفوة التي اختارها الله لقيادة البشرية.

٣ ـ إن نطقوا صدقوا: فكلامهم ملازم للصدق لعصمتهم وإنهم لا ينطقون عن الهوى.

٤ ـ وإن صمتوا لم يسبقوا: إن صمتوا ولم يتكلموا فإنما ذلك لحكمة ومصلحة فلا يكون المتكلم سابقاً لهم ومتقدماً عليهم أو كما قال الشيخ محمد عبده: يهاب الناس سكوتهم فلا يجرأ أحد على الكلام عما سكتوا عنه وإن كان الأول أرجح وأقرب...

(فليصدق رائد أهله وليحضر عقله وليكن من ابناء الآخرة فإنه منها قدم وإليها ينقلب) بعد ذكر مناقبه وأهله توجه إلى من هو موجود عنده وقد جاء ليأخذ منه الخبر اليقين أن يكون صادقاً مع أهله الذين ينقل إليهم أخبار أهل البيت وليفكر بجد ويمعن النظر فيما عندنا ويعود إلى أهله بالخبر اليقين.

ثم شرع في ربط الناس بالله عن طريق ردهم إلى الآخرة وإنهم يجب أن يكونوا من ابنائها الساعين إليها العاملين لها فإنه منها قدم وإليها ينقلب أي من الحضرة الإلهية عندما كان في عالم الذر قد قدم الآن وإلى الله يعود عندما يموت ويخرج من الدنيا وتأول بعضهم هذه العبارة بقوله: أي خلق من أجل الآخرة ولا يستقيم المعنى إلا إذا فسرنا قدم بخلق ولكن الأولى حمله على المعنى الأول لوجود بعض الأخبار بذلك ولبعد التأويل ثانياً...

(فالناظر بالقلب العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له فإن كان له مضى فيه وإن كان عليه وقف عنه) نبه العاقل الناظر بعين بصيرته إلى ما يجب أن يكون عليه وهذه طريقة عقلائية يجري عليها ارباب الفكر والنظر إنهم ينظرون إلى ما يقدمون عليه ويريدون القيام به فيدرسونه بدقة ويتعرفون على نتائجه فإن كانت لصالحهم تابعوا طريقهم وساروا في عملهم بجد ونشاط وإن كانت النتيجة غير مفيدة ولا مثمرة

وليس فيها مردود جيد عليهم اعرضوا وتركوا وأهملوا. . وهكذا المسلم يدرس عمله فإن كان لله أقدم عليه وإن كان لغير ذلك كف عنه وتوقف. . .

(فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلا بُعداً من حاجته والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر سائر هو أم راجع) شبه الجاهل العامل بغير علم كالسائر على غير طريق فإنه كلما مشى ابتعد وهكذا يزداد بعداً كلما سار أما الذي يعرف الطريق ويمشي عليها فإنه يقطعها بأسرع ما يكون ويصل إلى مراده عن أقرب طريق وهكذا العالم العارف فإنه يصل إلى مرضاة الله ويبتعد عما يسخطه ويغضبه فلا بد من العلم الذي استودعه الله خاصة أوليائه وهم النبي ومن بعده الأئمة.

ثم لفت انظارهم إلى أن كل عاقل فليفكر فيما هو فيه وما يعمل هل هو سائر نحو رضا الله ومارسمه لعباده أم أنه راجع عن ذلك ومتخلف عنه. . .

(وأعلم أن لكل ظاهر باطناً على مثاله فما طاب ظاهره طاب باطنه وما خبث ظاهره خبث باطنه وقد قال الرسول الصادق ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن الله يحب العبد ويبغض عمله ويحب العمل ويبغض بدنه) الظاهر ترجمة لما في الباطن فمن غش في البيع كشف ذلك عن غشه الباطني ومن تبرّم برؤية الصالحين ظاهراً كشف عن لؤمه وعداوته للدين باطناً، ومن صلى وصام وأعان الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر دللّ ذلك على طيب باطنه وعمق تدينه.

ثم استشهد بقول رسول الله ومفاده أن الله يحب العبد لإيمانه وعقيدته ويبغض عمله الذي ينحرف به كما لو فعل بعض الصغائر وإن الله يحب العمل الصالح من أي إنسان صدر حتى ولو كان من الكافر وإن كان يبغضه لكفره وبعده عن الله من جهات أخرى.

(وأعلم أن لكل عمل نباتاً وكل نبات لا غنى به عن الماء والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرت ثمرته) العمل كالنبات ينمو ويتحرك ولكن هذا النبات يحتاج إلى الماء ليستمر ويكمل نموه وحياته فإن كان الماء صافياً طيباً طابت النباتات وطاب الغرس وامتلأ نضارة وخضره وطابت ثمرته التي يعطيها وإن كان الماءآسناً مالحاً خبيثاً تقزم الغرس واصفر لونه وضعفت اغصانه وأعطى ثماراً مرة. . وهذا الكلام يريد من ورائه أن يقول:

إن كل عمل وراءه نية أما حسنة طيبة خالصة لله أو سيئة قبيحة خبيثة فيها شرك ورياء فإن كانت النية على الوجه الأول ترى الفعل حسناً صالحاً وترى نتائجه في طاعة الله وخدمته وخدمة عباده وإن كانت النية على الوجه الآخر انعكس ذلك على العمل فكان عملاً سيئاً قبيحاً وكانت ثمرته معصية الله ومحاربة عباده والاضرار بهم. . .

١٥٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها بديع خلقه الخفاش[١]

حمد الله وتنزيهه

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ[٢] الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ[٣] مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ[٤] عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً[٥] إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!.

هُوَ اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ[٦] الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ[٧] مُشِيرٍ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وأَذْعَنَ[٨] لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

خلقة الخفاش

وَمِنْ لَطَائِفِ[٩] صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ[١٠] الْحِكْمَةِ فِي هذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ[١١] أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وتَتَّصِلُ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَعَهَا بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ[١٢] إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا[١٣] فِي مَكَامِنِهَا[١٤] عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ[١٥] ائْتِلاَقِهَا[١٦]، فَهِيَ مُسْدَلَةُ[١٧] الْجُفُونِ[١٨] بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا[١٩]، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ[٢٠] أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَها إِسْدَافُ[٢١] ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ

مِنَ ٱلْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ(٢٢) دُجُنَّتِهِ(٢٣) فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا(٢٤)، وبَدَتْ أَوْضَاحُ(٢٥) نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ(٢٦) فِي وِجَارِهَا(٢٧)، أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا(٢٨)، وَتَبَلَّغَتْ(٢٩) بِمَا ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ(٣٠) فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً(٣١) وَقَرَاراً! وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ(٣٢) بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا(٣٣) الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ(٣٤)، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً(٣٥). لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا لاَجِيءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ٱرْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ!.

اللغة

١ ـ الخفاش	:	بضم الخاء وتشديد الفاء حيوان لبون معروف يطير ليلاً.
٢ ـ انحسرت	:	كلت.
٣ ـ كنة الشيء	:	جوهره وحقيقته وغايته.
٤ ـ ردعته	:	منعته وكفته.
٥ ـ المساغ	:	المسلك والطريق.
٦ ـ بلغه	:	ادركه ووصل إليه.
٧ ـ المشورة	:	النصيحة.
٨ ـ أذعن	:	أقرّ واعترف.
٩ ـ اللطائف	:	جمع لطيفة ما صغر ودق.
١٠ ـ الغامض	:	ما خفي مأخذه خلاف الواضح.
١١ ـ عشيت	:	العين ضعفت عن الرؤية والعشا سوء البصر وضعفه.
١٢ ـ سبحات النور	:	درجاته وأطواره.

١٣ ـ اكنّها	:	سترها.
١٤ ـ المكامن	:	جمع مكمن وهو المكان الذي يتوارى فيه ويختفي.
١٥ ـ البلج	:	الظهور والوضوح.
١٦ ـ الأئتلاف	:	اللمعان.
١٧ ـ سدل	:	الثوب أرخاه وأرسله.
١٨ ـ الجفون	:	اغطية العين من اعلاها وأسفلها.
١٩ ـ الحداق	:	جمع حدقة سواد العين.
٢٠ ـ التمس	:	الرزق طلبه.
٢١ ـ اسدف	:	الليل أي أظلم.
٢٢ ـ الغسق	:	محركة ظلمة أول الليل.
٢٣ ـ الدُّجنة	:	الظلمة.
٢٤ ـ القناع	:	للمرأة ما تستر وجهها به.
٢٥ ـ أوضاح	:	جمع وضح وأوضاح النهار ضوء.
٢٦ ـ الضباب	:	جمع ضب وهو دابة معروفة.
٢٧ ـ الوجار	:	الحُجر.
٢٨ ـ مآقيها	:	جمع مأق وهو طرف العين مما يلي الأنف.
٢٩ ـ تبلّغت	:	أقتاتت، أو اكتفت.
٣٠ ـ المعاش	:	ما يعاش به وما يعاش فيه وبمعنى العيش وهو الحياة.
٣١ ـ سكناً	:	قراراً ومستقراً.
٣٢ ـ عرج	:	رقى وارتقى.
٣٣ ـ الشظايا	:	جمع الشظية وهي القطعة من الشيء.
٣٤ ـ القصب	:	عمود الريش أو اسفلها المتصل بالجناح.
٣٥ ـ اعلاماً	:	رسوماً ظاهرة.

الشرح

(الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنة معرفته وردعت عظمته العقول فلم تجد مساغاً إلى بلوغ غاية ملكوته) هذه الخطبة تتضمن وصفاً للخفاش كي يعتبر الإنسان بمخلوقات الله وقدرة الله ودقة صنعه وحكمته ومنها يستدل على عظمته وقد افتتح الخطبة بحمد الله الذي كلت الأوصاف وعجزت الكلمات عن ادراك حقيقة معرفته لأنه فوق العقول ولا يدرك العقل إلا محسوساً أو معقولاً منتزعاً من محسوس والله منزه عن

ذلك.. وكذلك حمده باعتبار أن عظمة الله منعت العقول أن تجد طريقاً لها إلى بلوغ نهاية ملكوته لأن سلطانه وملكه لا تنهى إليه العقول...

(هو الله الحق المبين أحق وابّين مما ترى العيون) بعد أن ذكر الحمد لله للأمرين المتقدمين أعاد بذكر الله ليقول أنه الحق الثابت الموجود الذي تقر بوجوده العقول بشكل أظهر وأوضح مما ترى العيون لأن العيون قد تخطىء أما العقول فإن اقرارها بالله من شؤونها الفطرية المركوزة في عمق النفس البشرية وهذه من أولى البديهيات التي يؤمن بها هذا الإنسان ولا يخطىء بما يتوصل من خلالها...

(لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهاً ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلاً) نفى أن تصل العقول إلى تحديد الله وتعريفه لأن ذلك يستدعي الوقوف عند الحدود كما هو حال الموجودات فيكون مشبهاً بها ومشابهاً وهذا ليس من صفات الباري جلّ وعلا.

وكذلك لا يمكن للأوهام أن تختلف له صورة تخترعها مما تلتقطه من الأمور فيكون مركباً منها ومما يسرقه الوهم من كل منها والله منزه عن ذلك...

(خلق الخلق على غير تمثيل ولا مشورة مشير ولا معونة معين فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع) بكلمة كن كان الوجود ابتداءً واختراعاً ولم يكن ثمة خلق قبل الله حتى خلق هذا الخلق على شكله ومثاله كما أن الله لكماله المطلق ليس بحاجة إلى مشير أو معين لأن ذلك من صفات المحتاج والله هو الغني المتعال وبهذا تم خلق الله بقوله كن ومشيئته التكوينية كان ما أراد واضحت كل مخلوقاته مقرة بعظمته مستجيبة له مطيعة لأمره إطاعة تكوينية بلسان الحاجة والفقر إلى جوده وعطائه وأجابت كلها لندائه وأمره بدون مدافعة ولا منازعة كما قال تعالى: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين..﴾**.

(ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما ارانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي) بعد أن انتهى من المقدمة دخل في المقصود من الخطبة وهو النظر إلى عجائب خلق الله في الخفاش ودقائق ما فيه وسر ذلك وقد تعجب ـ وهو موضع العجب ـ من هذا الخفاش الذي ينزوي ويختبىء من ضوء الشمس ونورها الذي يسرح به كل مخلوقات الله وتخرج معلنة عن حركتها وحرية تنقلها وسعيها بينما يخرجها الظلام ويطلق سراحها الليل عكس سائر المخلوقات التي تأوي إلى أماكنها وتستريح من عملها وتنزوي فلا تخرج... إنه حيوان على خلاف المعهود من مخلوقات الله وكائناته الحية...

(وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها وردعها بتلالؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها واكنّها في مكامنها عن الذهاب في بلج إئتلاقها) استفهم عليه السلام متعجباً من هذا المخلوق الذي جرت أموره على خلاف مقتضى القاعدة العامة التي عليها المخلوقات إنه مخلوق تجعل الشمس عيونه كليلة عاجزة تمنعه عن التحرك في طرف فوائده وما ينفعه... ففي ضوء الشمس تتعطل قواه ويمتنع عن الحركة ويلزم أماكنه المستقر فيها.

(فهي مسدلة الجفون بالنهار على حداقها وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس ارزاقها فلا يرد ابصارها اسداف ظلمته ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته) من عظمة خلق الله أن هذا الخفاش في النهار نائم قد أطبق جفنيه واستسلم للراحة عاجزاً عن الحركة أما الليل فهو ابنه وفارس ميدانه لا يجاريه فيه أحد ولا يفارق فيه مخلوق، إن الظلمة هي سراجه يسرح فيها ملتمساً رزقه لا تقف ظلمة الليل حاجزاً عن الرؤية ولا تمنعه عن الحركة والتنقل، وأين هذا من سائر مخلوقات الله فإن العتمة تحجزها وتمنع بصرها عن الرؤية وتقعدها عن طلب معاشها؟...

(فإذا القت الشمس قناعها وبدت أوضاح نهارها ودخل من اشراق نورها على الضباب في وجارها اطبقت الأجفان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبته من المعاش في ظلم لياليها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً والنهار سكناً وقرارا) يذكر خصائص هذا المخلوق في النهار ـ بعد أن ذكر خصائصه بالليل ـ بمجرد أن تخرج الشمس إلى الوجود وتنير معالم الحياة وتدخل أوكار الضباب كناية عن وصولها إلى كل مكان ترى الخفاش قد اطبق اجفانه وأغمض عينه وامتنع عن الرؤية لقد حجبت الشمس بنورها نور عينه ومنعته من الرؤية واكتفى بما اكتسبه في الظلمة معاشاً يتقوت به ويعيش عليه ثم ذكر الله مسبحاً له على هذه العظمة وهذه القدرة الإلهية الحكيمة التي جعلت الليل للخفاش نهاراً مبصراً ومورد معاش يعمل فيه لاكتساب قوته وجعل النهار سكناً ينام فيه وقراراً يستقر فيه بدون حركة.

(وجعل لها اجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب إلا إنك ترى مواضع العروق بينة اعلاماً لها جناحان لم يرّقا فينشقا ولم يغلظا فيثقلا) وهذا أيضاً من موارد التعجب وهو افتراقها عن سائر المخلوقات بأنه سبحانه خلق لها اجنحة لحمية تصعد بها عندما تريد الطيران كأنها قطع من الآذان لا تحوى على ريش ولا قصب كما هو الحال في سائر الطيور ومن غرابتها إنك

ترى موضع عروقها ظاهرة بينة وهي جناحان لم يرّقا كثيراً حتى لا يتحملان صدمة الهواء فينشقان ولم يغلظا بحيث يزداد ثقلهما فيعجز عن الطيران بهما فسبحان من جعل لهما توزاناً خاصاً في الرقة والثقل وفي هذه الدقة. . .

(تطير وولدها لاصق بها لاجىء إليها يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها حتى تشتد اركانه ويحمله للنهوض جناحه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه فسبحان الباريء لكل شيء على غير مثال خلامن غيره) وهذا ثالث موارد التعجب وهو حالتها مع ولدها فإنها تحمله على بطنها وترضعـه والحال كذلك إنه تبع لها في هبوطه وصعوده في طيرانه وسقوطه لا يفارقها حتى تشتد اجنحته وتقوى ويستطيع أن تنهضه جناحاه على الطيران ويعرف وجوه كسبه ورزقه ومصالح نفسه من قدرته على الدفاع والهروب عند الضرورة وغيرها من موارد الدفاع وبعبارة أخرى يبقى ملتصقاً بأمه حتى يستقل بشؤونه وكل أموره التي يكمل بها حياته. . .

ثم إنه بعد أن كان قد افتتح كلامه بالحمد لله ختمه بالتسبيح له الخالق لكل ما في الوجود ابتداء وابتداعاً من غير تقليد لأحد كان قد خلق شيئاً فيها فقلده الله فيها حاشا لله وجل إنه يقول للشيء كن فيكون ابتداء لا تقليداً لغيره ومن عجائب صنعه ما نراه من خلق الخفاش ودقة تكوينه. . .

الفهـرس